موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء الثامن

المُقدِّم المُؤخِّر الأوّل الآخِر الظّاهِر
الباطِن الوالي المُتعالي البَرّ التّوّاب

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

مَوسُوعَة
أسماءِ اللهِ الحُسنَى
وَأَثَرِهَا فِي اسْتِخلَافِ الإِنسَانِ فِي الأَرضِ

الجُزءُ الثَّامِن

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع
و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5
الموضوع : عقيدة
العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1
التأليف : أ.د. عقيل حسين العقيل
الورق : كريم
ألوان الطباعة : لونان
عدد الصفحات : 5292
القياس : 17×24
التجليد : فني - كعب لوحة
الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots - بيروت
التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد - بيروت
تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب : 311 - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهرسُ المَوْضُوعَات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدم	٧
المؤخر	٥٩
الأول	١١٥
الآخر	١٧٩
الظاهر	٢٣٥
الباطن	٢٨٧
الوالي	٣٦١
المتعالي	٣٩٥
البَـرُّ	٤٣٣
التواب	٤٨٥

المُقَدِّمُ جلّ جلاله

المقدّم : اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ الدالة علىٰ قدرته المطلقة ، فهو الذي يقدّم الأشياء وهو مقدم الوجود كله .

المقدم : « هو الذي يقدم ما يجب تقديمه من شيء حكماً وفعلاً علىٰ ما أحب وكيف أحب وما قدمه فهو مقدم وما أخره فهو مؤخر تعالىٰ ٱلله علواً كبيراً »[1] .

وابن القيم عن هـٰذا الاسم العظيم يقول في قصيدته :

وهـــو المقـــدم فـــي محبتنـــا علـىٰ الأهليـن والأزواج والـولـدان
وعلـــىٰ العبـــاد جميعهـــم حتـــىٰ علىٰ النفس التي قد ضمها الجنبان[2]

المقدم : هو فاعل الأشياء وخالق المخلوقات دون سابق عليه ، فهو المقدم وهو الفعال لما يريد ، بيده الأمر وهو علىٰ كل شيء قدير .

والمقدّم اسم فاعل يدل علىٰ من بيده أسباب تقديم الأشياء بعضها عن بعض ، واسم ٱلله المقدم هو مصدرٌ لكل تقديم ، فهو مقدّم لأنه لا يتقدّم عليه شيء فهو الأول الذي لم يسبقه شيء ، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء ، إذاً هو المتقدم في الوجود وفي الخلود ، قال تعالىٰ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 59 .
(2) شرح قصيدة ابن القيم ، ج 2 ، ص 348 .

ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

المقدّم هو الغني الذي ليس له حاجة ولا تتعلق الحاجة بذاته العلية ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ (2) ، بل هو الذي يخلق الحاجات في نفوس خلقه ثم يتقدّم لهم بتسخير مشبعات هٰذه الحاجات لهم مناً منه وتكرماً عليهم .

ويمكن أن يكون اسم المقدّم في حق ٱلله تعالىٰ بمعنىٰ المقَدَّم علىٰ صيغة اسم المفعول ، فهو الذي يقدّمه عباده المؤمنون بالمحبة ، ويُقَدِّمونه عز وجل بالتنزيه والتقديس فلا يعبدون معه أحداً ولا يشركون به شيئاً ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾ (3) .

وهٰذا التقديم من العباد المؤمنين ما هو إلا نتاج إيمانهم الخالص بالمقدّم المطلق الذي تقدّم إليهم بكل النعم التي منحها لهم من عقلٍ وصحة ورزقٍ ورحمة وغيرها من النعم التي لا تحصىٰ ولا تعد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (4) .

وحكمة المقدّم شاءت أن لا يتساوىٰ جميع الخلق في كل الأمور ، بل أوجد ٱلله تعالىٰ فروقاً عدة بين البشر من حيث القوة والذكاء والمال والجمال ، فتفاوت نصيب كل إنسان عن الآخر في امتلاكه لها ، ومن هنا جاء هٰذا التقديم والتأخير في هٰذه الأشياء .

والتقديم بين البشر كما هو في الدنيا أيضاً موجود في الآخرة ، قال

(1) الحديد ، 1 ـ 3 .
(2) الحج ، 64 .
(3) المؤمنون ، 57 ـ 59 .
(4) النحل ، 18 .

تعـالـىٰ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (1) ، فالخالق عز وجل يلفت نظر الإنسان إلىٰ قضية التفضيل بالتقديم والتأخير في الدنيا وكذلك في الآخرة ، فبالرغم من اختلاف البشر عن بعضهم البعض في كثير من الأمور إلا أن هناك مقياساً واحداً للتفاضل بين الناس يوم يقوم الحساب وهو تقوىٰ الإنسان الذي يصل بصاحبه إلىٰ أعلىٰ درجات التفضيل عند ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (2) ، فحكمة الخالق المطلقة جعلته يخلق الذكر مختلفاً عن الأنثىٰ ، وخلق البشر بعد ذلك مختلفين في أشكالهم وألوانهم ، وبعلمه المطلق وضع لهٰذا الاختلاف مقياساً يفصل بينهم ويميز الأفضل فيهم ، فكان المال والجمال والقوة خارج هٰذا المقياس ، ألا وهو التقوىٰ وخشية ٱلله تعالىٰ .

والمقدّم أكبر وأعظم من المبادر ، لأن المقدّم هو من يخلق الأفعال أولاً من غير سابق لها في الوجود ، مثل خلقه للكرم والعلم وللرحمة ، فتقدّم الخالق إلىٰ عباده بخلقها لهم ، أما المبادر فهو الذي يقوم بالأفعال بعد أن توجد ، فلا يخلقها فيبادر إلىٰ فعلٍ هو في الأصل متواجد من قبل قيامه به ، فالمبادر هو الذي يبادر بفعل الأفعال ابتداءً مع أن هٰذه الأفعال موجودة ومخلوقة من قبل ، أي أنه لا يقوم بخلقها ، ولهٰذا فالمبادر لا يبادر إلا والشيء متوفرٌ للإقدام عليه ، والمقدم هو الذي أوجد الأشياء من لا شيء .

والمقدم هو المحصي لتوقيت تقديم الأشياء حسب الحاجات ومتطلباتها ، فلا يقدم الحياة إلا بموعد ، ولا يقدّم الخير والرزق وغيرهما إلا بنسقٍ معين يتناسب وحاجة الإنسان ، ومن أمثلة ذلك الآتي :

---

(1) الإسراء ، 21 .

(2) الحجرات ، 13 .

1 ـ المقدم يقدّم العدل علىٰ الظلم :

العدل نقيض الظلم ، لا يمكن أن يلتقيا معاً ، والعدل المطلق الذي لا ظلم فيه هو الذي عند ٱلله تعالىٰ العادل الذي لا يميز في إحقاق الحق بين إنسان وآخر ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (1) ، فلا يعاقب إلا بما يستحق الإنسان ولا يتجاوز الحد في العقاب ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (2) ، فمن عدل الخالق عز وجل أنه لا يقدّم العقاب إلا بعد نصح وإرشاد ، وبعد تقديم الشرح والتفصيل للحق والباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (3) .

فلا يظلم ٱلله أحداً ، بل إنه يقدّم رحمته وعدله للناس لعلهم عن المعاصي والآثام يرجعون ويحيدون ، فالعدل الحقيقي أن لا تعاقب إلا بعد العلم بالشيء والتفصيل فيه ، فلا تأخذ الجاهل بجريرة عمل لا يدري عاقبته ، ويترك أبواباً مفتوحة لمن كان عالماً بالذنب كي يعود عنه ، فمن عاد فقد غفر له العادل ، ومن بقي علىٰ ما هو عليه استحق العذاب الذي كتبه ٱلله عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (4) ، فلا يأخذ ٱلله إنساناً بجريرة إنسانٍ آخر وإن كان والده أو زوجه أو ابنه ، فكل إنسان سيحاسَب علىٰ

---

(1) ق ، 29 .

(2) فصلت ، 46 .

(3) الحج ، 6 ـ 10 .

(4) طه ، 81 ـ 82 .

أعماله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (2) ، وهٰذا هو العدل الحق فلا ظلم فيه ولا جور .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يقدّم عدله عن ظلمه ، فلا يتسرع في الحكم علىٰ أمرٍ قد يخفىٰ عليه بعضه ، وإن كان هٰذا الحكم علىٰ نفسه ، يجب أن يكون عادلاً معها فلا يوقعها في الهلاك ، ولا يهمل جوانب الصلاح فيه والخير ، فيعطيها حقها دون أن يبالغ في ذلك ، وأن يقدّم عدله عن ظلمه مع من حوله ، فلا يستغل ما أعطاه ٱلله من سلطة أو قوة أو مال فيظلم به ويتجبّر ، فتراه يأخذ حقاً ليس له ويستغل بما يملك ما لا حق له في امتلاكه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (3) ، وبما أن ٱلله هو العادل المطلق في عدله فقد كان لزاماً علىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض أن يلزم العدل في أموره وعلاقته بكل ما يحيط به ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (4) .

وقد قدّم ٱلله عبده العادل عن غيره فأحبه وقرّبه منه ، لأنه عادلٌ ويحب أن يعم العدل في الأرض ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ فِي خَلاَءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي ٱللهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهَا قَالَ

(1) الإسراء ، 13 .
(2) المدثر ، 37 ـ 38 .
(3) النساء ، 58 .
(4) النحل ، 90 .

إِنِّي أَخَافُ الله ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ » (1) .

1 ـ المقدّم يقدّم الجنة عن النار :

خلق ٱلله الجنة والنار ، وأول ما نفخ الروح في آدم عليه الصلاة والسلام قدّم له الجنة مسكناً له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) ، فكانت بذلك عطاءاً من المولىٰ له دون مقابل رحمةً منه وحباً بالإنسان ، وقد خرج منها آدم بخطأ سماعه وسوسات الشيطان الرجيم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (3) ، وبتوبته علىٰ آدم وزوجه قدّم لهما الجنة برحمته ومغفرته لهما ، وهـٰذا يوضح تقديم المغفرة عن العذاب ، وهـٰذا داع لجعل الجنة قريبة من البشر أكثر منها إلىٰ النار ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (4) ، فالخالق مقدّم بتلك الرحمة التي وسعت كل شيء جنته عن النار ، بتوضيحه طرق الخير والهداية ولعلم الإنسان بها وتمييزه لها وكذلك طرق الضلالة

---

(1) صحيح البخاري ، ج 21 ، ص74 .

(2) البقرة ، 35 .

(3) الأعراف ، 19 ـ 25 .

(4) النساء ، 147 .

والفساد والهلاك ، فالعقل البشري يدرك بما وهبه ٱلله من قدرة علىٰ التمييز بين طرق الجنة والنار ، فكم خاطبه وألقىٰ إليه الحجج والبراهين ليسعىٰ إلىٰ النور والحق ، ولم يتركه يتخبط في ظلمات الجهل والباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ (1) ، وقال سبحانه وتعالىٰ أيضاً : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (2) ، وقوله أيضاً : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (3) .

والجنة أبوابها تُفتح بكلمة التوحيد بدايةً ، وبالعمل الصالح الذي يكون أحياناً بكلمة طيبة تخفف عن مسكين ، ومسحة يد علىٰ رأس يتيم ، أما الخلود في النار فمن مقدمة أسبابه الكفر والشرك بالله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (4) ، إذاً رحمة الخالق وحبه لعباده يَسَّرا سبل الوصول إلىٰ الجنة ، وأوضحا كيفية المحافظة عليها ، فلا أروع حين يقدّم الخليفة نيته في الوصول إليها عن كل النوايا الأخرىٰ ، فيسعىٰ لها لتسعىٰ إليه فينجو بالتوبة الصادقة من النار .

---

(1) الأنعام ، 57 .

(2) التوبة ، 33 .

(3) يونس ، 31 ـ 32 .

(4) النساء ، 116 ـ 121 .

2 ـ المقدّم يقدم المغفرة عن العذاب :

عند خلق الجنة والنار لزم وجود المغفرة والعذاب ، لكنّ المغفرة متقدّمة عن العذاب لكثرة مسبباتها وفي أولها التوبة الصادقة والعودة عن الذنب والاستغفار ، فميزان الإنسان يثقل بشهادة التوحيد التي تفتح له باب شفاعة رسولنا الكريم ـ ﷺ ـ هـٰذه الشفاعة التي تُبعد عذاب جهنم والحريق ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُو بِهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ » (1) ، فما من باب مغفرة ورحمة إلا وقدّمه المولىٰ عز وجل للإنسان وقربه منه ، فبتحذيره من الولاء للشيطان واتباع خطواته مهّد ووضَّح حبه ورحمته بالعباد ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

3 ـ المقدّم يقدّم الفضائل علىٰ الرذائل :

الفضائل في الدنيا كثيرة وكذلك الرذائل ، والبشر متفاوتون فيها ، فالفضيلة من شأنها أن ترقىٰ بالإنسان إلىٰ أسمىٰ درجات الإنسانية ، فتجعله يُطهَّر من كل الآفات الاجتماعية الخطيرة التي قد تصيب أي فرد وإصابة فرد واحد تنتقل عدوىٰ هـٰذه الأمراض إلىٰ المجتمع بجميع جوانبه ، والرذائل حين تنتشر في المجتمع تتناثر هنا وهناك فيصعب تطهيره منها وتخليصه من نتائجها .

وخليفة ٱلله بالإضافة هو من يقدّم الحسنة عن السيئة ، أو من يبدل الرذيلة بالفضيلة بفضل ٱلله تعالىٰ عليه ورحمته ، فيبدل ٱلله سيئاته بالحسنات التي يُثاب عليها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

(1) موطأ مالك ، ج 2 ، ص144 .
(2) النور ، 21 .

سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [1] .

والمقدّم المطلق قد قدّم الحياة عن الموت ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3] ، فمن الآيتين السابقتين نلحظ أن :

الله تعالىٰ قد قدّم خلق الحياة عن خلق الأحياء ، هـٰذه الحياة التي تتطلب الخلق والرزق والنوم والرحمة وغيرها ، فهو الذي قدّم الحياة للأحياء وسخّر لهم أسبابها وسُبُلَها من تقديم وتهيئة المناخ الملائم لاستمرارها ، بتوفير القدر الملائم من درجة الحرارة التي لو زادت باقتراب الشمس عن موضعها ولو بمقدار ضئيل لاحترق كل من عليها من الأحياء ، ولو أنها نقصت بابتعاد الشمس لتجمد من عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [4] ، وكذلك بتوفير كميات مناسبة من الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وغيرها من المكونات والاحتياجات بمعايير مناسبة لاستمرار الحياة فينا ، كل ذلك خلقه ٱلله تعالىٰ بنسب دقيقة لو اختلت نقصاً أو زيادة لما كان الحال علىٰ ما هو عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [5] ، فالله بذلك قدَّم إلىٰ البشر مقومات البقاء والاستمرار .

---

(1) الفرقان ، 70 ـ 71 .

(2) الزمر ، 42 .

(3) الروم ، 40 .

(4) الأنبياء ، 33 .

(5) يس ، 40 .

وقد تقدم المقدم المطلق إلىٰ خلقه أيضاً بخلق جاذبية الأرض التي تساعد علىٰ إمكانية البقاء فوقها وهـٰذا من باب تقديم تسخير الأرض للإنسان الذي لو لم يكن هـٰذا النظام البديع حوله لما استطاع أن يستقر علىٰ الأرض ، كما أن ٱلله عز وجل تقدم للإنسان بخلق المحيطات والأنهار والجبال والوديان والبحار وغيرها من مكونات الطبيعة الهائلة ، قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ (1) ، وقال أيضاً : ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (2) .

والمقدّم المطلق هو الذي يقدم الحياة علىٰ الموت ، فهو سبحانه من وهب الحياة للخلق ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً مذكوراً ، ثم رزقهم وسخّر كل ما يحتاجون إليه من مقومات الحياة ، ثم بعد ذلك خلق الموت والفناء لأن الخلود من صفات ٱلله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ (3) ، فكل مخلوق له بداية وله نهاية ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (4) .

وفي قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ (5) ، هـٰذا التقديم في

---

(1) لقمان ، 10 .

(2) النحل ، 15 ـ 18 .

(3) الرحمـٰن ، 26 ـ 27 .

(4) الروم ، 40 .

(5) الملك ، 1 ـ 2 .

الآية الكريمة لا يعني تقديم ترتيب ولـٰكنه يفيدنا بضرورة الفناء لكل حي علىٰ هـٰذه الأرض ، أي أنه عز وجل خلق الموت للحياة التي تتقدّمه والتي خلقها ٱلله تعالىٰ بإرادته المطلقة ومشيئته علىٰ الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، أي : أنه جعل الخليفة الذي أراده حياً وحياته هـٰذه شاء عز وجل أن تكون علىٰ الأرض التي سخّرها ٱلله تعالىٰ له من أجل تكليفه بحمل الأمانة ، وهـٰذه الحياة الأولىٰ ليست حياة خلود ولا استمرارية بل هي حياة مؤقتة مصيرها للزوال والفناء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (2) ، والتي سينال كل عامل في الحياة الدنيا جزاءه فيها بالثواب ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (3) ، أو بالعقاب ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (4) ، فكل من أحياهم ٱلله في تلك الحياة الخالدة هم أيضاً خالدون ولـٰكن هـٰذا الخلود هو خلود موصوف بصفة صبغها الإنسان بها من خلال الحياة الأولىٰ المؤقتة ، فإما خلود نعيم نتيجة إيمانه الصادق بالله وبعمله في مرضاته بالتزام أوامره والبعد عن نواهيه ، وإما خلود شقاء نتيجة كفره وعصيانه بالمقدّم جل جلاله الذي قدّم إليه كل السبل والوسائل ليستعملها ويحسن استعمالها ، فيخرج بذلك من دائرة الشقاء إلىٰ دائرة النعيم ، ولـٰكنه بجهله وعناده وجحوده عَمِيَ أن يصل ويرىٰ الحق والهدىٰ ، وأصّر علىٰ الكفر

---

(1) البقرة ، 30 .

(2) الأعلىٰ ، 17 .

(3) آل عمران ، 15 .

(4) النساء ، 167 ـ 169 .

والضلال فاستحق بذلك أن يكون ممن يخَلّدون في شقاء دائم في الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (1) .

اللهُمَّ اجعلنا ممن يخلّدون في رحمتك ولا يألو لساننا عن ذكرك !

بذلك فإن المقدّم خاطب العقل البشري لاستيعاب هٰذا التقديم والتأخير ، ليصل بتفكيره إلىٰ حكمة ٱلله وقدرته علىٰ تقديم وتأخير ما يشاء ، فلا يصيبه اليأس إذا تأخر عليه أمرٌ ما ، ولا يأخذه الغرور إذا تقدّم لديه أمر ما عن باقي البشر ، كما حدث مع قارون إذ أن ٱلله تعالىٰ رزقه أموالاً كثيرة فتباهىٰ بها وتكبر ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (2) ، فبدل أن يقدّم الشكر لله علىٰ هٰذه النعمة قدّم الجحود والتكبر والتفاخر والعناد ، فعاجله ٱلله بالعقاب الذي استحقه بهٰذا الجحود .

وعليه ، علىٰ خليفة ٱلله أن يكون مقدماً للتالي :

1 ـ العقل علىٰ اللسان :

خلق ٱلله الإنسان وأنعم عليه بكثير من النعم التي لا يمكن أن نعدها أو نحصرها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) . ومن النعم ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ، ومن ضمن النعم

---

(1) البقرة ، 161 ـ 162 .

(2) القصص ، 76 ـ 78 .

(3) النحل ، 18 .

التي أنعم ٱلله بها علينا هي نعمة العقل الذي هو مركز التميز والتحليل ، فإذا غاب العقل عن الإنسان لمرضٍ أو غيره سقطت عن هـٰذا الإنسان المسؤولية تجاه ما يمكن أن يقوم به من أفعال وأقوال ، حتىٰ أن التكاليف الشرعية تسقط عنه لعدم قدرته علىٰ فهمها وإدراك عقوبة التهرب منها .

وبما أن العقل كان منبع الأفكار والتصورات والتحليلات فإنه محور التخاطب ومقصد التفاهم ، وقد خاطب ٱلله العقل البشري في أكثر من آية بل أنه خلق الكون كله عبارة عن رسالة لهـٰذا العقل الذي ميّز به الإنسان ليصل إلىٰ الحقيقة فيكون بذلك مستحقاً لخلافة الأرض وحمْل الأمانة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (1) ، فالسمع والبصر والإحساس مسؤول العقل عنهم فهو الذي يحلل عن طريقه الإنسان ما يسمعه ويدرك مدىٰ أهميته وصدقه ، وكذلك يستوعب كل ما نبصره من حقائق وأدلة ويعمد العقل إلىٰ تصنيف ما يراه ، فالعقل البشري هو أساس الفهم والإدراك اللذين هما سبيلنا للهداية ومعرفة اليقين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (2) .

ومن ضمن النعم التي أنعم ٱلله علينا نعمة النطق باللسان للتعبير وإخراج

(1) المؤمنون ، 78 ـ 87 .

(2) البقرة ، 170 ـ 171 .

ما في النفس من هموم ومن سعادة ومن علم ومن تساؤلات وغيرها ، وقد أمر ٱلله تعالىٰ أن نحفظ هـٰذا اللسان من شرور كثيرة قد تصيبه إذا تُرك دون ضابط يتحكم فيه ليقيه الزلات والمهالك ، ومن عيوب ترك اللسان سائباً حراً لا رادع له وقوعنا في اللغو الذي لا طائل منه سوىٰ مضيعة الوقت والخسارة ، قال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ (1) ، فقد كان من صفات المؤمنين المتقين إعراضهم عن اللغو كما جاء في الآية الكريمة السابقة ، فاللسان من شأنه أن يكون سبيل هداية وفلاح في الدنيا والآخرة إذا أحسن الإنسان استعماله وحافظ عليه نعمة من الخالق له ، يوجهه للدعوة للحق والخير ، قال تعالىٰ أيضاً : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (2) .

ومن هنا كان لابد من عمل مقارنة بين العقل واللسان لنصل إلىٰ ضرورة تقديم العقل عن اللسان في حياتنا :

أولاً : العقل مركز التحليل والفهم ، تصل إليه الحقائق فيحللها كي يصل إلىٰ النتيجة النهائية ، فهو إذاً دليل هداية من ٱلله عز وجل لنا ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (3) ، فالعقل إذاً أصل الفهم ووسيلة الإدراك ، أما اللسان فهو وسيلة

---

(1) المؤمنون ، 1 ـ 4 .
(2) القصص ، 55 ـ 56 .
(3) البقرة ، 164 .

لتخريج ما في داخلنا وما نفكر فيه ونشعره حتىٰ ولو كان ذلك شعوراً عابراً .

ثانياً : لا يصل الإحساس أو المعلومة إلىٰ اللسان من غير أن يمر علىٰ العقل أولاً ، فالعقل إذاً متقدم علىٰ اللسان بقدرته علىٰ التحليل والإدراك .

ثالثاً : يتقدم العقل عن اللسان أنه بغياب العقل تسقط التكاليف الشرعية عن الإنسان ، أما اللسان فإنه لا تسقط بغيابه التكاليف الشرعية ، إذاً بمسؤوليته عن التكاليف الشرعية يتقدم عن اللسان الذي تبقىٰ بغياب قدرته علىٰ النطق مسئولية العقل عن قيامنا بكافة التكاليف الشرعية .

إذاً فالعقل يتقدم اللسان بقدراته وأهميته وتميّزه ، لذلك فقد لزم علىٰ الخليفة بالإضافة أن يكون مقدماً لعقله عن لسانه ، وذلك بأن لا ينطق بما لا يدرك ولا يفهم ، لأنه إذا أُعْطيَ اللسان هـٰذا الحق كان كثير الزلات والخطايا وذلك من شأنه أن يؤدي صاحبه إلىٰ الهلاك والخسارة ، فلابد أن يكون هـٰذا الخليفة راعياً للسانه بعقله فلا ينطق كل ما يهوىٰ ويريد ، ولا يُلغي العقل في سبيل الثرثرة والنميمة فمن شأن العقل إذا اتجه في الاتجاه السليم في التفكير أن يردع اللسان وقت الحاجة وأن يكون متقدماً عليه في السيطرة ، فلا ينطق إلا بما يسمح العقل السليم والراجح من حكمة وصواب .

فالنميمة تكثر واللغو يزيد إذا غُيّبَ العقل ، والجهل يسود في غيابه ، ويقدم الباطل عن الحق إذا كان العقل البشري لاهياً مغيباً عن ٱلله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [1] ، وليعلم الإنسان أنه مسؤول عن لسانه طالما يملك نعمة العقل السليم ، فسيُسْأَل الإنسان عما نطق به يوم القيامة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا

(1) الأنفال ، 22 .

يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (1) .

ولٰكن كيف نصل إلىٰ تحقيق الغاية من نعمتي العقل واللسان ؟

لابد أن نوجه تفكيرنا أولاً فيما حولنا من أمور وأحداث ، فلا نشغله بتوافه الأمور ولا نضيّعه فيما لا يفيد ، بل نتدبر في خلق ٱلله وأن نحرص علىٰ تقديم كل ما فيه معرفة وفائدة له ، فبالعلم الصحيح والثقافة السليمة يتجدد نشاط العقل ويقوىٰ أمام أي نوع من أنواع التخلف في التفكير أو الجهل في أمور ديننا ودنيانا ، ونحن نلحظ أن كثيراً من المفاسد والمشاكل التي يقع فيها الناس سببها نقص العلم المفيد وعدم توجيه العقل باتجاه ٱلله تعالىٰ ، فيمتلئ بالأفكار الخاطئة والآراء الفاسدة التي من شأنها أن تصل بالمجتمع ككل إلىٰ أشد أنواع الركود والسلبية ، فإذا وصلنا بالعقل إلىٰ درجة رفيعة من العلم المفيد المدعوم بالإيمان الصادق القوي كان اللسان أداة فعّالة للإصلاح والخير ، فلا ينطق إلا بعد تفكير ولا يتهور بل يتأنىٰ فيما يخرج منه .

2 ـ اللجوء لله والتوكل عليه عن اللجوء لغيره :

الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان للإنسان ، فبالرغم من قصر الرحلة ما بين الحياة والموت إلا أن الإنسان يلاقي فيها الكثير من الابتلاءات والهموم التي تجعله يلتجئ إلىٰ القوي العزيز فيحتمي به ، فالشعور بالأمان مقصد وغاية كل إنسان في طبيعة خلقه وحاجة ضرورية فطرنا الخالق عليها ، لذلك إذا واجهتنا المشاكل والصعاب قل هٰذا الأمان وحل محله الخوف الذي يقود الإنسان إلىٰ ٱلله عز وجل كي يجد الأمان الذي كان ، والله تعالىٰ هو الملجأ الوحيد الذي يجب أن يتجه إليه الإنسان في كل وقت فكيف بأوقات المصائب والشدائد !

(1) ق ، 16 ـ 18 .

ويختلف الناس في طاقة تحملهم وفي صبرهم علىٰ البلاء كلٌّ حسب درجة إيمانه بالله ويقينه بقوته وإحساسه بإحاطة الخالق به برحمته وحبه ، فكلما زادت درجة الإيمان صعدت الروح المعنوية للإنسان عند نزول الشدائد ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [1] ، فتلك الطمأنينة التي تسكن روح المؤمن الصادق هي نتاج رضا المولىٰ عليه وحبه له ، ولا يصل المؤمن إليها إلا بلجوء الإنسان واعتماده في أموره علىٰ الواحد الأحد ، فينأىٰ بذلك عن اللجوء لغير ٱلله من أولياء أو طرق أبواب المنجمين والعرّافين ويترك أمره بين أيديهم متوكلاً علىٰ قدرتهم ومعتمداً علىٰ حلولهم الواهية .

فخليفة ٱلله بالإضافة هو من يلجأ إلىٰ ٱلله أولاً وأخيراً في السراء والضراء ، فتجده لا يدعو ولا يناجي سوىٰ ربه ، لأنه لا يرجو الأمل إلا فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [2] ، فالخليفة بالإضافة يقدّم اللجوء إلىٰ ٱلله في كل أمره فيتوكل عليه ، ومن شأن هـٰذا التوكل غرس شجرة الصبر في نفس الخليفة فيرويها بثقته بالله سبحانه وتعالىٰ ، فتُنبت أملاً متجدداً لا يعرف اليأس فيه ولا الخوف ، فمن كان ٱلله في قلبه كانت الطمأنينة مسكنه ، ولا يأتي حب اللجوء إلىٰ ٱلله والتوكل عليه إلا عندما نقترب من ٱلله بالذكر والخشوع والطاعة : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [3] .

---

(1) البقرة ، 156 ـ 157 .
(2) السجدة ، 15 ـ 16 .
(3) الرعد ، 28 .

فمن فضل تقديم اللجوء إلىٰ ٱلله تعالىٰ عدم العبودية لغيره عز وجل ، لأن من شأن اللجوء لغيره أن يجعل الإنسان عبداً لرغبات ذلك المسيطر بحجة القدرة والسلطة الفائقتين في نظر ذلك الإنسان البسيط ، فتجعل حاجته وخوفه من شدة أصابته أو مصيبة حلت به أسيراً لذلك الشخص لثقته أن بيده حل أزمته والخروج منها ، ومن ذلك تقديم بعض الناس اللجوء للوسطاء وكأن أبواب الالتجاء إليه مقفلة ، وهـٰذا ضعف إيمان حفظنا وإياكم ٱلله منه ، لذا فالخليفة هو الذي يوحد واحداً أحداً لا شريك له ، له الملك وبيده الأمر وهو علىٰ كل شيء قدير ، لذلك نجد البعض من يتولاهم الوهم ووسوسة الشيطان يلتجئون إلىٰ ما دون ٱلله ، بممارسة السحر والشعوذة عند محترفي هـٰذه الأعمال ، فتأخر بعض الأزواج بالإنجاب أو تأخر بعض الشباب بالزواج ، أو إصابة العديد من الأشخاص ببعض الأمراض النفسية ، فبدلاً من التوكل واللجوء إلىٰ ٱلله تعالىٰ من قِبَل هـٰؤلاء الأشخاص ، يقدمون اللجوء إلىٰ تلك الفئة من الناس بدون أن يكون لهم قدرة علىٰ منفعتهم أو ضرهم ، لذلك كان لزاماً أن يكون العلم متقدماً في حياتنا علىٰ الجهل ، لأنه بوجود جهلنا بالمعتقدات ستسود الظلمات جوانب حياتنا وتؤدي بنا إلىٰ الخسارة الكبيرة ، بعكس ازدهار العلم في حياتنا الذي من شأنه أن يقوّي ثقتنا بالله ويقدّم حبنا وطاعتنا له عز وجل عن كل ما سواه .

إذاً بالتوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ واللجوء إليه تنطلق الروح بكامل حريتها ترجو الرحمـٰن الرحيم لقضاء حاجتها وهي تعرف أنه القادر ، فتسعىٰ لرضاه وطاعته ومحبته ، بذلك ينتفي كل أنواع الخوف والاستعباد البشري لبعضهم البعض ، فإذا خسر الإنسان مثلاً مكان عمله وهو علىٰ حق فلن يستجدي ولن يذِل نفسه لأي إنسان لأنه علىٰ يقين أن ٱلله هو الرزاق الكريم ، وإذا فقد الإنسان أحد أبنائه لم يأخذه اليأس والحزن بل احتسبه عند خالقه ومالكه ، بذلك تنمو في نفس المؤمن التقي قوة تنبع من الثقة بالله وقدرته ورحمته سبحانه وتعالىٰ فتشد أزره

في ساعات الشقاء والهم ، وتمنحه التواضع والرحمة في ساعات الرخاء والعطاء .

وخليفة ٱلله تعالىٰ هو من يدعم صبره بالتوكل علىٰ ٱلله وحده وعدم اللجوء إلىٰ سواه ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، فالصبر علىٰ ما يصيبنا ويحل بنا منبعه الإيمان القوي الذي يسكن القلب الخاشع ، الذي لا يعرف طريقاً للفوز والنجاح بعيداً عن حب ٱلله ، فيقدّم حبه عز وجل عن حب ما عداه فلا يدعو غيره ولا يلتجئ لسواه لثقة هـٰذا الخليفة بأن ٱلله يستمع شكواه ، فالله تعالىٰ متقدّم بالسمع عن الدعاء ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ (1) ، إذ أنه يسمع النجوىٰ وما في القلوب من غير أن تنطق الألسن بها ، وكيف لا يسمع وهو السميع العليم وهو أيضاً عليمٌ بما تخفيه الصدور التي خلقها .

ويشْتَرَط في قبول هـٰذه الدعوة الصدق في اللجوء لله ، فلا يدعو الإنسان ربه بلسانه دون قلبه ، بل يجب أن يكون قلبه متضرعاً لله قبل لسانه ، فالخالق لهما يعلم ما تنطوي عليه جوارحنا ومشاعرنا ، فهو المهيمن علىٰ كل ذاتنا وحواسنا ، فلا نستطيع إخفاء ما بداخلنا عليه سبحانه وتعالىٰ .

3 ـ إقبال القلب علىٰ الخيرات عن إدباره :

القلب جزء من الإنسان يشعر به بمن حوله ، وأحياناً يكون في إقباله علىٰ أمرٍ ما خير له ، وفي بعض الأحيان يكون إقباله شراً له ، ومن الصفات التي تحيي القلب وتدفئ ثناياه الرحمة والحب والعطاء والطمأنينة ، ولـٰكن كيف نعوّد القلب علىٰ تشرب هـٰذه الصفات ؟

---

(1) البقرة ، 186 .

لا سبيل لذلك إلا بطلب حب ٱلله الذي إذا سكن قلب الإنسان هجرته القسوة والعناد ، وحلت محلها الرحمة والمودة ، بذلك يتحول هـٰذا القلب إلىٰ صوت ينادي بالحق ويدعو إلىٰ الخير وينبض بالمحبة ، لأن ٱلله تعالىٰ هو الرحيم وهو الودود وهو المقدّم والمؤخّر ، وبالتالي لابد أن يتصف من طلب حب ٱلله تعالىٰ وتقرّب تلك الرحمة والود فيقدّم الخير عن الشر والحب عن الكراهية والرحمة عن القسوة ، لأن ٱلله تعالىٰ مقدّم لرحمته عن عقابه ، فقد قدّم إرسال الرسل والأنبياء رحمة وهداية للبشر قبل أن يأخذهم عقابه وعذابه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ (1) .

فإذا تشبّع القلب البشري بهـٰذه الصفات النبيلة كان له أن يعي ويبصر دروب الهداية والخير ، التي قدّمها الخالق لنا دون انتظار مقابل ، فلا يلهو عن طاعة بمعصية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمًّا وَعُمۡيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٍ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (2) ، ولا تأخذه دنياه عن آخرته ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ (3) ، ولا يفتح أبوابه للنفاق والرياء بل يشرّعها للصدق والحق ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (4) .

إذاً فلننعش قلوبنا بنور الرحمة والحب والتسامح ، فنكون من المتقدّمين

(1) الأنبياء ، 107 .
(2) الفرقان ، 72 ـ 74 .
(3) البقرة ، 86 .
(4) الأحزاب ، 24 .

في طاعة ٱلله والسعي لنيل رضاه عز وجل ، فلا نتشاجر علىٰ أمورٍ مادية زائلة ولا نتناحر علىٰ دنيا فانية مصيرها للزوال ، فيقبل القلب علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلىٰ الإصلاح والدعوة لحب الإنسان فهو مخلوق كرّمه وقدّمه ٱلله تعالىٰ علىٰ كل المخلوقات ، فلا نبخل علىٰ بعضنا البعض بالإنفاق وبالكلمة الطيبة لأن ذلك جزاؤه عند ٱلله عظيم ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) ، ولا نبخل كذلك بعلمٍ نؤخر بنشره أفكاراً فاسدة وغير صحيحة ، فالعلم إذا تقدّم وانتشر بين البشر بكافة الأعمار والرتب والجنسيات والديانات كان مقدّماً للتفاهم والحوار فيما بينهم ، مما يدعوهم لحب بعضهم البعض وبذلك الحب يتقدمون لإصلاح الأرض وإعمارها .

فالله المقدّم جل جلاله هو الذي لم يسبق بسابق ، ولا بسابقة ، وبهٰذا فهو لا يدخل مجال المقارنة حيث انعدام الشبيه والمثيل . ولأنه المقدم فهو الذي يعطي دون أن يأخذ وهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء دون سابق طلب ، فهو علام الغيوب جل جلاله .

ولأنه علام الغيوب فعلمه مقدّم علىٰ بلوغ العباد بما سيأتيهم به قبل إتيانه إليهم ، وهو الذي يعلم ما سيكون في الأرحام قبل أن يكون فيها ، ولأنه

(1) البقرة ، 261 ـ 264 .

المقدم فهو علىٰ كل شيء وكيل ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (1) .

4 ـ حب الآخرة عن حب الدنيا :

خلق ٱلله تعالىٰ الإنسان وخلق معه شهوات عدة قد يستطيع الإنسان أن يكبح جماحها فيغلبها ويسيطر عليها ، وقد لا يستطيع فتسيطر هي عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (2) ، وهنا يأتي اختلاف البشر في اختيار أي أنواع الحب الذي يأخذها من الآخر إذ أنه لا يمكن أن يجتمع كل منهما في قلبٍ واحد ، ويكون البشر فريقين متباينين :

الفريق الأول من قدّم حب الآخرة عن حب الدنيا :

من علامات فوز الإنسان ونجاحه في الدنيا عدم اللهث وراء ملذاتها ، وهٰذا الفريق من الناس هم من صدقوا في حب ٱلله ، فرغبوا بالقرب منه ولقائه ، فكانت الدنيا بالنسبة إليهم آخر مطلبهم وهمهم ، وليس المقصود هنا أن لا يحب الإنسان الحياة وأن لا يشعر بها بل المقصود هو تقديم طلب الآخرة عن طلب الدنيا ، بل أن تكون الدنيا سبيل الوصول إلىٰ رضا المولىٰ عز وجل ،

---

(1) الأنعام ، 102 ـ 105 .

(2) آل عمران ، 14 ـ 15 .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) .

ومن ضمن هـٰذا الفريق أولئك الذين نراهم يبيعون الدنيا من أجل لقاء ٱللّٰه تعالىٰ وحبه ، فيقدّمون حياتهم وأرواحهم في سبيله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، في الآية الكريمة السابقة نجد نوعين من التقديم للآخر وهما :

الأول : هو الخالق عز وجل قدّم لمن طلب حبه ورضاه وبذل روحه في سبيله الجنة ، التي سوف يحيا فيها هـٰؤلاء الشهداء خالدين فيها ، مقدّما لهم الرزق والبشرىٰ والسعادة الأبدية ، فقدّمهم علىٰ كثير من المؤمنين بهـٰذه الدرجة من الرضا والحب .

والله سابقٌ بتقديمه الجنة للشهداء فتقدم عنهم بالعطاء الأكبر والأبقىٰ ، لأن الدنيا التي ضحىٰ بها الشهداء فهي فانية ، أما جنة الخلد فهي الباقية الأزلية ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (3) .

الثاني : هم أولئك الذين قدّموا حب المولىٰ عز وجل عن حب الدنيا وما فيها ، فقدّموا بذلك أرواحهم في سبيل إعلاء كلمته ، فاستحبوا الشهادة عن حب الحياة .

---

(1) يونس ، 62 ـ 64 .
(2) آل عمران ، 169 ـ 171 .
(3) الشورىٰ ، 36 .

الفريق الثاني من قدّم حب الدنيا عن حب الآخرة :

حب الدنيا قد يسيطر علىٰ الإنسان فيأخذه بعيداً عن الحق ، وعندها تعمىٰ بصيرته وتُصَم أذناه عن جميع الحقائق والثوابت والأدلة علىٰ زوال هـٰذا الحب ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [1] ، وقال أيضاً جل جلاله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [2] .

ومن صفات هـٰذا الفريق انشغاله الدائم بالدنيا وما فيها ، فتراه شارداً عن ذكر ٱلله لاهياً عن طاعته ، لا يجد لنفسه وقتاً يجلس معها فيحاورها حتىٰ تتقي ، أما الخليفة فهو المتقي الذي يقدم أفعال الخير والمحبة علىٰ كل الأفعال ، بل يلغي من ذاكرته كل ما ليس في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، فيصل إلىٰ عقد صلحٍ مع نفسه التي لن ترضىٰ بديلاً عن حب الخالق لها ، وبهـٰذا لا يكون من المنغمسين في المفاسد ، حتىٰ لا يخرج بذلك من دائرة المستخلفين في الأرض المتقدّمين في الدنيا والآخرة .

ولذا فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون من المتقدمين في طلب الآخرة عن طلب الدنيا ، فلا يسعىٰ لطلب الدنيا علىٰ حساب آخرته ، ولا يُخْسِر رصيده عند ربه ليربح رصيده بين البشر ، وعليه أن يكون علىٰ علمٍ بأن الدنيا مقدّمة له أصلاً من الخالق جل جلاله ، ونصيبه منها مقدّر ومقدّم عن وجوده فيها ، فلا يحزنه ما فاته منها ، بل عليه أن يكون محباً لها كهدية من المولىٰ عز وجل إليه فيرعىٰ مصالحها في نفسه ويصلح حسب قدراته ما يفسد فيها ويطلب آخرته بها .

---

(1) الشورىٰ ، 36 .

(2) النحل ، 107 ـ 109 .

5 ـ حب ٱلله عمن سواه :

هناك الكثير ممن نخصهم في هـٰذه الدنيا بمحبة مميزة ، ولكل منهم درجة معينة يصل إليها ، وهنا يتقدم البشر عن بعضهم البعض في مشاعر الحب ودرجاته وفي اختيار أحبائهم ، فالإنسان قد يقدّم حب نفسه فوق كل حب فلا يؤثر أحد عليها ، ينظر طلباتها أولاً ، ويستجيب لأوامرها ورغباتها ، ومنهم من يحب ماله حباً يفوق حبه لأقرب الناس إليه ، فيجعل منه كائناً ينبض بالحياة ، يخشىٰ عليه النقصان ويفرحه الزيادة فيه فتبتهج نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (1) ، فيتقدّم حب المال في نفسه عن كل شيء ، حتىٰ أنه يتقدّم عن رغبته في رضا ٱلله تعالىٰ واتباع أوامره ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (2) ، فيقدّم حبه للمال الذي قدّمه الخالق له عن تقوىٰ قلبه التي بها يفوز وينال الجنة ، فلا ينفق ولا يتصدق مقدّماً خوفه علىٰ ماله عن خوفه من سخط وعقاب ٱلله تعالىٰ عليه ، فالشح مرضٌ فتاك يقضي علىٰ صاحبه في الدنيا والآخرة ، ومنهم من يحب شهواته وغرائزه التي خلقها ٱلله فينا طالباً الاعتدال فيها ، فيقدّم إرضاءها عن ما سواها ، بأن يصبح عبداً لها لا يحركها هو بل هي التي تتحكم فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (3) ، فلا تجتمع طاعة ٱلله تعالىٰ مع حب الشهوات فلا بد أن يتقدم حب أحدهما عن الآخر ، فمن يكن عبداً لشهواته ونزواته لن يستطيع أن يكون ملتزماً بأوامر ٱلله وفي مقدمتها التوازن والاعتدال في هـٰذا

---

(1) الفجر ، 20 .

(2) التغابن ، 16 ـ 17 .

(3) مريم ، 59 .

النوع من الحب ، ومن الناس من يقدّم حب ٱلله تعالىٰ عن كل ما عداه من أنواع الحب ، فيقدّمه عن حب الوالدين والزوجة والأبناء والمال والشهوات وكل ما في الدنيا ، فيكون مقدّماً للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، لأن حب الخالق عز وجل هو الحب الباقي بفناء الدنيا ، فقد استحقوا ما عند ٱلله من خير بصدقهم له ، قال تعالىٰ : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) .

6 ـ مصاعب الأمور عن توافهها :

من شأن مصاعب الأمور أن تعوّد النفس البشرية علىٰ تحمل المشاق والمعاناة ، فلا تضعف عند حلول أزمة أو مشكلة ، فتتعود علىٰ الصبر والثبات ، بذلك تغرس مصاعب الأمور في النفس الشهامة والنبل ، ولنا في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة ، إذ أنه يعرّض لمحن شداد ومصاعب جمة لـٰكنه كان نبيلاً بطبعه ودوداً ، ينأىٰ بنفسه عن رذائل الأمور ، لا يتوانىٰ عن تقديم العون والمساعدة لمن يطلبهما ، وكذلك كان صحابة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، نفوسهم لا تستسيغ السهل ، وأرواحهم تُلين الصعب بحبها لله تعالىٰ ، فلا تشدهم توافه الأمور ولا تستهويهم إلا مصاعب الأمور التي من شأنها أن تقوي نفوسهم وتجعلها تعتاد التحمل والثبات ، فلا يهتزوا إذا حلت مصيبة ما بهم ، أو إذا ألّم بهم حزن وهم ، بذلك كانوا عنواناً للشهامة والمروءة ، ذلك أنهم قدّموا ثقتهم بالله تعالىٰ علىٰ كل شيء ، ومن تعود علىٰ مصاعب الأمور هانت عليه أمور الدنيا كلها كبيرها قبل صغيرها .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون قوي النفس نبيل الطباع ، لا يستسلم لأهون الأسباب ، فيكون حبه لله درعاً يقي نفسه به الهوان والاستسلام والضعف ،

(1) الأحزاب ، 23 ـ 24 .

وأن يعوّد نفسه علىٰ ركوب الصعاب فلا يرضىٰ بالبسيط .

7 ـ علو الهمة عن إحباطها :

لا يصل الإنسان إلىٰ أي مرتبة علمية أو عملية إلا بعلو الهمة ، فلا يمكن أن يواصل أي إنسان طريقه بوجود الصعاب والمشاق إذا كان محبطاً يائساً ، لأن من شأن الهمة المحبطة أن تُفْشِل أي عمل أو تقتل أي أمل من شأنه رفع قيمة نظرته للحياة وهدفه منها .

ولم يكن للإسلام أن ينتشر أو يعم الأرض إلا بأصحاب الهمم العالية ، فكم من معركة خاضها المسلمون قديماً وهم الأقل عدةً وعتاداً فضلاً عن ذلك كان الرجل منهم بمائة رجل من الكافرين ، بفضل الهمم العالية التي يملكونها بإيمانهم القوي ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [1] ، فلا يجب أن يستكين الإنسان لأي هم أو مشكلة كي لا يصاب بالهزيمة ، والهزيمة نوعان :

هزيمة مادية : وهي الخسارة التي تصيب كل ما هو مادي من أموال وأملاك عديدة .

---

(1) البقرة ، 249 ـ 252 .

هزيمة معنوية : وهي أشد من الهزيمة المادية ، لأنه من الممكن تعويض ما هو مادي ، أما الهزيمة المعنوية فهي التي تصيب النفس فتدميها وتكسر فيها العنفوان وحب الوصول والأمل في الرقي والفوز ، ولا يطلب الإنسان مطلباً ولا يسعىٰ لأمرٍ إلا ويكون الاعتماد فيه علىٰ ٱلله تعالىٰ ، لأن في اعتماد الإنسان علىٰ الخالق تثبيتاً للقلب وتسكيناً للروح وشدّاً للهمة ، فلا تتزعزع ولا تنهزم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

وعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يكون من أوائل المتسابقين لرضا ٱلله تعالىٰ ، فلا يرضىٰ أن يكون متأخراً عن صفوف المتقدمين ، فبهمته العالية يهوّن كل المصاعب ، فلا يرضىٰ إلا بمعالي الأمور ولا يسعىٰ إلا للقمة حيث التألق والتميّز .

فمثلاً لا يوجد عالمٌ في الدنيا أتىٰ إليه العلم ساعياً باحثاً عنه ، بل إنه لم يصل إلىٰ ما وصل إليه من درجة عالية من العلم إلا بفضل الهمة العالية التي تحثه علىٰ المضي والتحمل وتذليل الصعاب ، فكم من طالب علمٍ لا يكمل طريقه بسبب همته المحبطة بسبب فشله ذات مرة أو بسبب فقدان الدافع للمواصلة في طريق العلم والمعرفة .

وللتقديم عدة أنواع منها :

أولاً : تقديم العطاء :

وفي هـٰذا النوع من التقديم نجد أن المقدّم المطلق يقدّم للناس كافة أنواع العطاء والرزق ، سواء للمؤمن منهم وللكافر العاصي ، وهـٰذا العطاء من باب رحمة المقدّم المطلق بالعباد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ

---

(1) الأنفال ، 45 .

عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (1) ، وهـٰذا التأخير في العقاب هو أيضاً عطاء مقدّم من ٱلله عز وجل للعباد ، فعن طريقه تكون الفرص سانحة للتوبة والندم علىٰ التقصير في حق ٱلله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ أيضاً : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) .

وهـٰذا العطاء لا يكون الناس فيه سواء فمنهم من يقدّمهم ٱلله في العطاء فيكون نصيبهم أكبر من نصيب الآخرين ، فيكون هـٰذا التفاوت بين الناس من ناحية الفقر والغنىٰ والصحة والمرض وغيرها ، من أجل أن يتراحم الناس فيما بينهم ويتعاونوا ، فيتصدق الغني علىٰ الفقير ويساعد القوي الضعيف فلا يعتدي عليه ولا يظلمه ، وتكون القوة البشرية مسخّرة لإحقاق الحق علىٰ الأرض كما أراد الخالق لنا .

بذلك يكون المقدّم قدّم لعباده باباً آخراً لكسب الحسنات ووضعها في ميزانهم يوم الحساب ، وهـٰذا كله عطاءٌ في عطاء وتقديم في تقديم ، فما من حرمان أو منع من الخالق علىٰ المؤمن إلا وله بُعدٌ آخر يكون فيه الخير له ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ » (4) .

ومن باب التقديم في العطاء أن يرزق ٱلله الإنسان من حيث لا يحتسب ،

---

(1) النحل ، 61 .

(2) المائدة ، 39 .

(3) التوبة ، 27 .

(4) صحيح مسلم ، ج 14 ، ص 280 .

ودون بذل الكثير من الجهد والعناء ، وفي قصة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ أكبر دليل علىٰ ذلك ، فقد كان زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما يدخل المحراب يجد عندها رزقاً دون أن تكلّف نفسها عناء البحث عنه ، قال تعالىٰ : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [1] ، وكذلك عندما جاءها المخاض رزقها المغني المقدّم من التمر عوناً لها ورزقاً ، قال تعالىٰ : ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [2] ، فلو أن أقوىٰ الرجال قام بهز نخلة لما سقطت منها ثمرة واحدة إلا إذا شاء العليم القدير القوي .

ثانياً : تقديم ترتيب :

قدم ٱلله تعالىٰ عن الإنس الجن والملائكة في الخلق ، فهم سابقون عليه وهٰذا يتضح من حوار الخالق مع الملائكة والجن عندما أمرهم بالسجود لآدم .

ثالثاً : تقديم تفضيل :

وهو ما كان من تفضيل ٱلله تعالىٰ لآدم علىٰ غيره من الخلائق بأن خلقه بيديه وبما زوّده من القدرة علىٰ التفكر والتأمل والتعلم عن طريق العقل الذي ميّزه ٱلله به ، وما كان أيضاً من تفضيله عز وجل للأنبياء والرسل والصالحين والصدّيقين والشهداء بأن جعلهم في أعلىٰ المراتب متقدمين بذلك علىٰ بقية المؤمنين ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

---

(1) آل عمران ، 37 .

(2) مريم ، 22 ـ 25 .

ﭐلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾ (2) ، ومنها تفضيل ٱلله جل جلاله لأمة محمد ﷺ بأن جعلهم شهداء بالحق علىٰ الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (3) .

رابعاً : ترتيب حاجة :

وذلك ما كان من ٱلله تعالىٰ من خلقه للحاجات في نفوس العباد ، وقدّم عليها مشبعاتها في الخلق حتىٰ يجد الإنسان كل ما يحتاجه للحياة موجوداً أمامه ، فيسهل عليه الحصول علىٰ حاجاته الضرورية لحياته ، مثل تقديمه لخلق الأبوين عن الأبناء لأن الأبناء في حاجة لمن يرعاهم ويكفلهم ويمدهم بالحب والحنان والطعام والملبس وغيرها من الحاجات الضرورية للطفل التي لا يمكنه الحصول عليها إلا عن طريق أبوين يقدمانها له .

وسبحان ٱلله جل جلاله ما أكرمه وما أرحمه بعباده فهو الذي يقدّم وجود الحليب في ثدي الأم قبل خروج جنينها إلىٰ هـٰذه الدنيا ، فبذلك يكون قد قدّم ٱلله تعالىٰ له الغذاء ، ومن الذي سيقدّمه له ، ومن يزوّده بالرعاية والحنان قبل أن يخرجه حياً للحياة ، ونجد في قصة خلق سيدنا عيسىٰ عليه السلام ، والذي مثله عند ٱلله كمثل آدم آية ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (4) ، بأن خلقه دون أب ، أي : قدم حمله دون حاجة للأب ، وفي هـٰذا الأمر المعجزة التي لم يكن لها

---

(1) النساء ، 69 .

(2) الحديد ، 19 .

(3) البقرة ، 143 .

(4) آل عمران ، 59 .

سابقة إلا خلق آدم عليه الصلاة والسلام من تراب بدون أب وأم ، وفي هـٰذه القصة تقديم من المقدّم المطلق لكافة الناس المعجزات التي تجعلهم يؤمنون بالله عز وجل وقدرته ، فبإيمانهم بهـٰذه المعجزات يخرجون من دائرة الكفر والعصيان ، وهـٰذا من باب رحمة ٱلله تعالىٰ بعباده .

الخوف من مجيء الموت بغتة وأنت علىٰ معصية :

علىٰ الإنسان أن يكون علىٰ استعداد دائم للقاء الخالق عز وجل في أية لحظة ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (2) ، وبما أن ميعاد الساعة لا يعلمه إلا رب العالمين ، لذلك سيأتي مباغتة للناس جميعاً ، ولن يعطي أي فرصة لأي إنسان بعد قيام الساعة أن يصلح أو يرجع عما فيه ، فمن الناس من تأتيه الساعة وهو علىٰ هدىً من ربه ، ومنه من تباغته وهو علىٰ معصية ، هنا يتقدم الناس عن بعضهم البعض في حسن الخاتمة وسوء الخاتمة .

فكل إنسان سيُبْعَث علىٰ ما مات عليه ، وهنا يتقدم الناس عن بعضهم البعض حتىٰ في خاتمتهم ، فمنهم من كانت خاتمته طيبة كأن يأتيه الأجل وهو ساجدٌ قانت لله تعالىٰ ، أو وهو في حالة إحرام ، أو وهو يتلو آيات ٱلله ، أو وهو يعلّم الناس علماً نافعاً ، أو مستشهداً في سبيل ٱلله تعالىٰ ، وهناك من تكون خاتمته سيئة كأن يوافيه الأجل وهو منغمس في المعاصي والذنوب ، وما أكثرها ! حفظنا الله وجميع الخلائق منها !

---

(1) الأعراف ، 187 .

(2) الزخرف ، 66 .

و الله عز وجل قدّم لنا العلم بأن الساعة آتية لا محالة وأنها قد تكون قريبة أو بعيدة منا ، فهـٰذا من شأنه أن لا يكون للإنسان حجة علىٰ ٱلله بعدم علمه بموعد قيام الساعة ، لأن من شأن التأكيد علىٰ قيامها والتقديم لها أن يجعل من الإنسان حريصاً علىٰ أن يكون مستعداً لها في كل وقت وحين ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (1) ، قال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (2) .

فقد قدّم ٱلله تحذيره للبشر بمجيء يوم القيامة بغتة لذلك فعلىٰ البشر أن يقدّموا خوفهم من مفاجأتها عن حبهم للدنيا ، فلا يشعروا بالأمان مهما أسعدتهم الدنيا وفتحت أبوابها لهم ، فالساعة آتية لتأخذهم من كل ما هم فيه ، فالغني والفقير والشقي والسعيد سيلحق بهم يوم القيامة ، ولن يبقىٰ مع الإنسان أحدٌ ممن قدّم حبهم في الدنيا عن حب ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ (3) .

وخليفة ٱلله تعالىٰ من كانت له حسن الخاتمة فلا يلقىٰ ٱلله تعالىٰ إلا في أحسن حال ، إذ أنه لا يموت علىٰ معصية أو مفسدة ، بل يموت علىٰ طاعة وحب ٱلله ، فما من إنسان تقرّب إلىٰ ٱلله وإلا وكان ٱلله تعالىٰ متقدماً له في القرب ، وبذلك فلن يرضَىٰ لعباده المتقين إلا حسن الخاتمة ، حتىٰ يلاقوه في أحسن صورة .

---

(1) يوسف ، 107 .

(2) النحل ، 77 .

(3) عبس ، 33 ـ 42 .

الخوف من عدم قبول العمل عن الأمن :

الإنسان بصفة عامة يكون الخوف جزءاً من نفسه ، ولذا الناس مختلفون في نسبة هـٰذا الخوف في نفوسهم وفي مسبباته ، فهناك من يقدّم الخوف من رب عمله عن الخوف مما سواه ، فتراه حريصاً علىٰ رضاه وتنفيذ ما يأمره به حتىٰ لو كان ذلك مخالفاً لضميره ، كي يحافظ علىٰ البقاء في عمله وكأن رزقه محكوم ومربوطٌ برب عمله فقط ، إذا رضي عنه فهو في أمان أما إذا غضب عليه شعر بالخوف يهدد مصيره العملي ، وهناك أشكال عديدة لمثل هـٰذا النوع من الخوف ، ولـٰكن هناك من يقدّم الخوف من ٱلله تعالىٰ عن كل ما عداه من أنواع الخوف الأخرىٰ ، فتراه يسرع لرضا الخالق أولاً ، فلا يلتفت لغضب هـٰذا أو ذاك إذا كان هو علىٰ حق ، ومن أكبر أسباب هـٰذا الخوف أن يكون عمله لا يستحق الجزاء الكبير ، أو أن يقال : إنه محسن ، وهو ليس كذلك .

فعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض أن يكون ممن يقدّمون رضا ٱلله عز وجل قبل أي شيء ، وأن يكون في شعور دائم أنه مقصّر في حق الخالق عليه ، فلا يرضىٰ بعمله ويكتفي به راجياً أن يكون قد وصل إلىٰ مرتبة الأمان لدىٰ المولىٰ عز وجل ، فكم من أناس كانوا يعملون في الدنيا ما يعتقدون أنه حسن ولم يكن كذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ (1) ، فيكون عمل الإنسان لا طائل منه .

و الله عزَّ وجلَّ يقدّم ويؤخر أمور العباد كما يشاء بحكمته وعلمه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (2) ، فقد يقدّم ٱلله تعالىٰ أمراً عن أمرٍ آخر للإنسان ، فتراه متذمراً غير راضٍ بما جاءه من الأمر ويكون علىٰ يقين أن في هـٰذا التقديم

(1) الكهف ، 104 .
(2) البقرة ، 216 .

والتأخير شرّاً له ، وفي الحقيقة يكون في ذلك الخير كله ولٰكن لقصر قدرة الإنسان علىٰ الفهم والوعي والإدراك لتوابع الأمور فإنه لن يصل إلىٰ حقيقة الخير الذي يريده ٱلله به ، فبدل أن يقدّم هـٰذا الإنسان الشكر عن التذمر نجده دائم التأفف والضيق مما فيه ، ومن أمثلة ذلك عندما يكون للأب عدد من الفتيات يتفاوتن في أعمارهن ويقدّم ٱلله نصيب أصغرهن في الزواج عن أكبرهن ، فنلاحظ إصابة الوالدين بالإحباط لهـٰذا التقديم بين بناتهم ولو أنهما أدركا أن لله حكمة وخيراً في هـٰذا التقديم لكانا علىٰ شكر وحمد لله علىٰ ما قدم وآخر .

والله تعالىٰ قدّم البشر بعضهم علىٰ بعض في درجات التفضيل ومنهم الأنبياء والرسل ، قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (1) ، فبعض الرسل من كلمه ٱلله وبعضهم من رفعه في المكانة والمنزلة ، وقد قدّم ٱلله تعالىٰ بحكمته المطلقة رسولنا الكريم محمداً ﷺ عن البشر أجمعين من أنبياء ورسل وصالحين ، فقدّمه باصطفائه من بين الخلق جميعاً ليكون المصطفىٰ آخر الأنبياء والمرسلين ، ويكون الدين الذي جاء به رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام هو الدين الباقي ليوم القيامة ، وكذلك قدمه رسولاً للجن والإنس جميعاً ، وبهـٰذا جاءت رسالته جامعة وخاتمة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

---

(1) البقرة ، 253 .

ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (1) ، قال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ (3) ، فتقدّم الدين الإسلامي عن باقي الأديان السابقة له بالتالي :

أولاً : أنه كان خاتمة الأديان السماوية ، فتقدّم بهـٰذا الشرف الكبير عن باقي الأديان الأخرىٰ ، فلا دين بعده يُقْبل من الإنسان ، وبتقدّمه هـٰذا يتقدّم أتباعه المخلصون درجات عند ربهم .

ثانياً : هـٰذا الدين باقٍ ليوم الدين ، لأنه هو الدين الذي ارتضاه ٱلله تعالىٰ للبشر ، فلا يُقبل ممن جاء بعده دينٌ سواه .

ثالثاً : ببقائه ليوم القيامة فقد تقدّم وعد ٱلله تعالىٰ له بالحفظ من التحريف والتغيير ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (4) ، فالوعد بهـٰذا الحفظ تقديم لهـٰذا الدين عن ما سبقه من أديان سماوية أخرىٰ لم يعد ٱلله بحفظها فحرفها البشر وغيّروا ما جاء فيها من تشريعات وأحكام لا تتناسب مع أهوائهم .

رابعاً : جاء الدين الإسلامي ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام للجن والإنس كافة أي لا سابقة في ذلك أبداً ، وبهـٰذا فالإسلام ومحمد مقدمان بهـٰذا الأمر الذي يتضمن شيئين اثنين هما :

1 ـ آخر رسالة .

2 ـ وآخر رسول .

---

(1) آل عمران ، 19 ـ 20 .

(2) آل عمران ، 85 .

(3) المائدة ، 3 .

(4) الحجر ، 9 .

خامساً : تقدّم الدين الإسلامي أيضاً بالتبشير به حتىٰ قبل نزوله في الأديان السابقة له ، فقد ذكر ٱلله تعالىٰ مجيء الدين الإسلامي في الكتب السماوية السابقة له تمهيداً لقدومه وتقديماً له .

بذلك فقد قدّم ٱلله تعالىٰ أمة محمد عليه الصلاة والسلام عن بقية الأمم ، قال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) .

ويتضمن اسم المقدم صفات تخص الخالق عز وجل منها :

المقدم هو العليم :

علم ٱلله تعالىٰ المطلق بجميع الأمور جعلت من الأمور ما هي مقدّمة ومنها ما هي مؤخّرة ، ذلك حسب علمه تعالىٰ وحكمته في تسيير أمور هٰذا الكون ، فقد اقتضىٰ علمه خلق الملائكة والجن قبل خلق الإنسان ، فبذلك تقدّم خلق الملائكة والجن عن خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، ولٰكن علمه المطلق أيضاً اقتضىٰ أن يتقدّم آدم عليه الصلاة والسلام عن الملائكة والجن بحمل أمانة استخلاف الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (2) ، فنلحظ كما جاء في الآيات الكريمة السابقة أن علم الخالق المطلق قد جعل من الإنسان خليفة

(1) آل عمران ، 110 .

(2) البقرة ، 30 ـ 33 .

متقدماً عن ما عداه من المخلوقات ، وقد كان هـٰذا العلم مختصاً به وحده لا يُطلع عليه أحداً من خلقه .

إذاً فالعليم هو المقدّم والمؤخّر للأمور حسب حكمته ومشيئته عز وجل ، وحسب علمه بخلقه جميعاً ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) ، فعلمه يحيط ببواطن الأمور قبل ظواهرها ، فيدرك ما هو خير وما هو شر مهما كانت هـٰذه الأمور خافية ، فكيف يخفىٰ عليه شيء وهو الذي لا يعجزه أي شيء في الأرض أو في السماء ، قال تعالىٰ : ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) ، ومن علمه المستقبلي المطلق جاءت حكمة التقديم والتأخير لأمور العباد ، فيضع الأشياء في مواضعها الصحيحة ، فإنه لا يقدّم العطاء عن المنع ، ولا يضع الثواب مكان العقاب ، ولا يقدّم الذل عن العز في موضع يحتاج للعز .

وخليفة ٱلله بالإضافة عليه أن لا يقدّم أمراً أو يؤخر آخراً إلا عن علمٍ ودراية ، فلا يقدم عمله عن عبادةٍ أو حديثٍ لا طائل منه عن ذكر الخالق عز وجل ، وأن يكون مقدّماً للخير في نفسه والحب عن كل المشاعر الأخرىٰ ، فلا يبدأ بالعداء ولا يتقدّم الخيار السيئ عن الطيب في حل الأمور ، وكذلك لابد لخليفة ٱلله في الأرض أن يكون مقدّماً لعلمه عن حاجاته الأخرىٰ فلا يجعل الفرصة تفوته لتحصيل المزيد من العلم النافع ويتركها تذهب سدىً ، بل عليه أن يكون من المتقدّمين في طلبه والسعي بحثاً عن جديده ومفيده ، وقد كان صحابة رسول ٱلله ﷺ من أشد الناس حرصاً علىٰ التسابق لمعرفة أمور دينهم ودنياهم ، لعلمهم أنه يتكلم بلسان ٱلله تعالىٰ فلا ينطق إلا بما هو مفيد وحق ،

---

(1) الملك ، 14 .
(2) سبأ ، 3 .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [1] ، فكانوا مقدّمين لقول ٱلله عند الكلام ، سمّاعين للحق ومقدّمين له عن الباطل .

وبهٰذا التقديم الإيجابي يصبح بوسع خليفة ٱلله أن يدرس الموروثات الاجتماعية تحت عناية معيارية ، ونسبية فلا يتأثر أو يقع تحت آثار سلبية في التفكير أو الرأي ، وبذلك يستطيع أن يصل إلىٰ معيارية ليفصل بها بين الخطأ من هٰذه الموروثات والصواب ، ليتكون لديه كمٌّ هائل من العلم الذي يمنحه الثقة بما يحلل من حوادث وأمور تتعلق به وبمن حوله .

المقدم هو الرحيم :

من رحمة ٱلله تعالىٰ بالعباد أنه قدّم مشبعات الحاجة ، فقد خلق ٱلله تعالىٰ الإنسان ولٰكن قدّم عن خلقه وجود كل احتياجاته سواء كانت مادية أو معنوية ، فمثلاً أوجد كل احتياجات الإنسان من هواء وماء وطعام لإشباع حاجاته المادية من مأكل ومشرب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ

---

(1) النجم ، 3 ـ 4 .

(2) الأنعام ، 99 .

فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قدّم تهيئة حاجاته المعنوية أيضاً من حنان وحب ورعاية بخلق المجتمع وما يحويه من أهل وأصدقاء وأحباب ، فيخرج الوليد إلىٰ الدنيا وهو محاط بما يطلبه ويحتاجه .

الحمد لله علىٰ رحمته التي خلق الناس بها وغفر لهم بها وقدّم الخير لهم والهدىٰ بها ، قال تعالىٰ : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (2) ، فقد قدّم ٱلله فواتح الخير والهدىٰ للبشر وذلك بأنه :

أ ـ قدّم رحمته عن عقابه :

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (3) .

ب ـ قدّم البرهان والحجة عن الجزاء العادل :

لم يكن ٱلله تعالىٰ يأخذ أحداً من عباده بالعذاب أو الجزاء إلا بعد أن يفصّل له ويوضّح عاقبة الأمور ، فإقامة الحجة والدليل هو الرد علىٰ كل جاحد وكافر بالله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(1) النحل ، 10 ـ 14 .
(2) فصلت ، 2 ـ 4 .
(3) الأحزاب ، 41 ـ 43 .
(4) النساء ، 164 ـ 165 .

ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (1) .

ج ـ قدّم النصيحة قبل العقاب :

من رحمة ٱلله تعالىٰ أن العقاب الأخروي استند إلىٰ تقديم سابق ، تمثل بالعبر والنصح والرسل ، فلم يكتب ٱلله العقاب علىٰ عباده العاصين إلا بعد أن قدّم إليهم البراهين بشكل تحذير ونصح ، وقدّم المعجزات لعلهم عن كفرهم يرجعون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (3) ، فما من عقلٍ بشري إلا وله القدرة علىٰ أن يستشعر هٰذا النصح وهٰذه الرحمة في النصح .

د ـ قدّم العطاء قبل الحرمان :

تقدم ٱلله تعالىٰ للبشر بالعطايا والنعم المتعددة ، قبل أن يكون مانعاً لنعمةٍ ما فهو المعطي لغيرها ، فالإنسان إذا حرمه ٱلله من نعمة واحدة فإنه قد قدّم له نعماً أخرىٰ لا تحصىٰ ولا تعد ، فالمرء إذا كان فقيراً فهو محروم من نعمة المال ، لأن المال نعمة من ضمن النعم التي تقدّم بها الرزاق علىٰ العباد بالتفاوت ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (5) ، فمنهم من كان غنياً ومنهم من كان فقيراً ، ومنهم من كان متوسط

---

(1) النساء ، 174 .
(2) آل عمران ، 101 .
(3) إبراهيم ، 52 .
(4) لقمان ، 20 .
(5) النحل ، 18 .

الحال ، وذلك التفاوت لعلم ٱلله المطلق بعباده ، فالفقير محروم من نعمة المال ولكنّ ٱلله تقدّم إليه بنعمٍ أخرىٰ كثيرة ، فوجوده في الدنيا نعمة ، وهٰذه الصحة التي يتمتع بها هي أيضاً مقدمة من ٱلله تعالىٰ له ، والصبر علىٰ فقره نعمة ، وبصره وعقله وغيرها من النعم التي لا يمكن حصرها ، قدّمها ٱلله تعالىٰ إليه قبل أن يحرمه نعمة المال ، ويكون في هٰذا الحرمان نعمة من ٱلله إذ يختبر صبره ويبتليه ليعطي ويجزي له العطايا يوم يقوم الحساب ، ففي الحرمان من نعمة ما اختبار وابتلاء للإنسان علىٰ تحمُّل ذلك .

وخليفة ٱلله هو من كان ينظر إلىٰ عطاء ٱلله قبل حرمانه ، فيشكره ويحمده علىٰ ما تقدّم به عليه ، فلا ينسىٰ ولا يتذمر من منع الخالق له أو حرمه من نعمة واحدة فقط ، بالتالي لابد له أن يتصف بهٰذه الصفة أي أن يكون معطياً قبل أن يكون مانعاً علىٰ حسب قدرته الجسدية والعقلية ، فيقدّم الحب والخير والعون والنصح والعلم قبل أن يحرم ، فمثلاً بحبه للإنفاق فإنه يقدّم في نفسه أولاً حب العطاء عن حب الشح والمنع ، ويقدّم في نفس الوقت حب العون والمساعدة للفقراء كما أراد ٱلله تعالىٰ قبل حبه للمال ، ويقدّم حبه لله ولطاعته عن حبه للمال والغنىٰ في الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [1] ، والله تعالىٰ قد تقدّم

(1) البقرة ، 271 ـ 274 .

بالعطاء لإنسان ما ومنع غيره ليكون لهـٰذا المحروم حق في مال من أُعطِيَ له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ (1) ، فهـٰذا الحق قد تقدّم به ٱلله تعالىٰ علىٰ البشر بعطائه لكي يتقدموا به لله طمعاً بنيل الثواب والحسنات التي تكون من نصيب المنفقين ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (2) .

هـ ـ قدّم الخير عن الشر :

الخير والشر مخلوقان مع الإنسان أسكنهما الله النفس البشرية منذ بداية الخلق ، فمنهم من تقدّم الخير في نفسه عن الشر ومنهم من تقدّم الشر فيها ، دون إجبار من المولىٰ عز وجل الذي ترك للعقل البشري باب الاختيار مفتوحاً أمامه ، فيسعىٰ الإنسان إلىٰ اختياره في الدنيا إلىٰ أحدهما ، ومع أن ٱلله قد خلق حب الشهوات في النفس البشرية إلا أنه تقدّم عنها بخلق العقل والإيمان اللذين يمنعان الإنسان من اللهث وراءها ، قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (3) ، فالشهوات موجودة ولـٰكن تقدّم عليها وجود الكابح لها إذا اختار الإنسان الخير ، فكان استعماله لها في الخير ، فلا يزني ولا يبخل ولا يقع في معصية هو يدرك عاقبتها

---

(1) الذاريات ، 19 .

(2) البقرة ، 261 ـ 262 .

(3) آل عمران ، 14 ـ 15 .

بما أعطاه ٱلله تعالىٰ من قدرة علىٰ التمييز بين الخير والشر ، فمن اتبع أوامر الخالق قد نجا ومن اتبع الشيطان فقد هلك ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ (1) .

المقدم هو المؤخر :

المقدّم هو المؤخر سبحانه وتعالىٰ ، فقدرته علىٰ التأخير تسير علىٰ نسق مرتب ، فلا يقدّم ولا يؤخّر إلا بحكمة وتقدير ، فالمقدّم صفة لله تتعلق بقدرة الخالق ومشيئته وحكمته وكذلك المؤخر ، كلاهما صفتان قائمتان بالله تعالىٰ وهو متصف بهما معاً ، فقد قدّم المقادير حتىٰ قبل أن يخلق الخلق ، ووضع الموازيين التي يسير عليها الكون ، فلا يستطيع أحد أن يؤخر ما قدّمه ٱلله أو أن يقدّم ما أخره ، فقد يتأخر ما نتوقع نحن البشر حدوثه في حينه أو أن يسبق وقت توقعه ، فأحياناً نتوقع الفرج من الهم ولا يأتي في الوقت المحدد ، وأحياناً أخرىٰ يأتينا الفرج دون أن نتوقعه .

وقد يقدّم الخالق عز وجل بعض الخلق عن بعض في الدرجات ، كما رفع وقدّم الخلق علىٰ باقي ما خلق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ (2) ، في حين أنه جعل بعض الخلق في أسفل الدرجات ، أمثال أبي جهل وأبي لهب .

فخليفة ٱلله تعالىٰ هو الذي علىٰ يقين بأن ٱلله تعالىٰ هو المقدّم والمؤخّر في الرتبة والخلق ، فإرادته عز وجل اقتضت ذلك ، وأن يصبر علىٰ أمور دنياه ، وعليه أن يكون مقدّماً لما قدّمه ٱلله تعالىٰ ، فيقدّم أحباء ٱلله المتقين من العباد عن غيرهم ، ويترك أذلاء ٱلله وأعداءه ، وأن يخلق هـٰذا الاسم في نفسه عدم الأمان حتىٰ ولو كان كثير الطاعات ، وكذلك أن يزيل اليأس حتىٰ مع كثرة المعاصي ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ

---

(1) مريم ، 59 .
(2) الشرح ، 4 .

ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (1) .

المقدم هو القادر :

لله عز وجل القدرة الكاملة والمطلقة علىٰ التقديم والتأخير ، فالخالق قادر علىٰ أن يقدّم قيام الساعة أو أن يؤخرها كما يشاء ، لأنه هو واضعها بعلمه وحكمته وتقديره ، والقادر إذا أراد شيئاً فيأمره أن يكون فيكون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (3) ، وقدرة ٱلله في التقديم لا تأتي إلا عن علم وحكمة وإرادة ، فقدرته علىٰ التقديم تتضح في أمور منها :

أ ـ قدرته علىٰ تقديم الهداية للبشر :

فالله عز وجل قادر علىٰ هداية من يشاء من عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ (5) ، فقدّم ٱلله تعالىٰ الهداية للبشر وترك لهم اختيار سبيل الهداية أو سبيل الضلال ، فبالرغم من تقديم القادر علىٰ الهداية فإن البشر تقدّموا عن بعضهم البعض في الهداية ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ

---

(1) الأعراف ، 99 ـ 100 .
(2) الأنعام ، 73 .
(3) النحل ، 40 .
(4) الأنعام ، 88 .
(5) الحج ، 16 .

بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (1) .

ب ـ قدّم بقدرته خلق الكون عن خلق الإنسان :

فقد خلق ٱلله تعالىٰ السمٰوات والأرض والجبال والهواء والتراب والماء وباقي مكونات الكون قبل أن يخلق الإنسان ، ليقدّم للإنسان ما يحتاجه منها ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (3) .

المقدّم هو القريب :

الله عز وجل قريبٌ من عباده دائماً ، لا يغفل عنهم ولا تأخذه سنة ولا نوم ، يقدّم ويؤخر ما يشاء من أمرهم كما تقتضي حكمته وإرادته ، والخالق لا يقدّم إلا ما فيه خير الناس أجمعين ، فيستشعر العبد الصادق في هٰذا التقديم قرب الخالق عز وجل منه وذلك بالآتي :

ٱلله قريب بتقديم وده للعباد :

هٰذا الود الذي يتقدّم به لعباده إذا صدقوا عهده ووده ، فيتقدم حب ٱلله لهم ووده ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ

---

(1) البقرة ، 253 .

(2) البقرة ، 22 .

(3) إبراهيم ، 32 ـ 33 .

لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

ٱلله قريب بتقديم إجابة دعوته :

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِى وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ (2) .

ٱلله قريب بتقديم هدايته للعباد :

إن ٱلله يهدي من أراد أن يهتدي ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِىۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (3) .

فعلىٰ خليفة ٱلله بالإضافة أن يكون قريباً من ٱلله ، حريصاً علىٰ قصر المسافة بينه وبين خالقه ، وأن يكون متقدماً في السير نحو جنته ونعيمه ، ومن كان قريباً من ٱلله سبحانه وتعالىٰ كان ٱلله قريباً منه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (4) .

ولا يمكن القرب من الخالق دون الآتي :

أ ـ تقديم ذكر ٱلله عن أي شيء آخر :

الإكثار من ذكر ٱلله من أقوىٰ الوسائل للقرب من ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

---

(1) المائدة ، 54 .

(2) البقرة ، 186 .

(3) سبأ ، 50 .

(4) صحيح البخاري ، ج 22 ، ص 409 .

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (1) ، فلا أروع ولا أطهر من روح باتت تذكر ٱلله سراً وعلناً ، قولاً وفعلاً ، ولا أقرب من ٱلله من إنسان دائم الذكر له ، رطب باسمه ، فيستشعر الخليفة قربه من الخالق بحبه ووده له .

ولقد قدّم ٱلله الذاكرين له والحافظين لحبه وطاعته وحدوده عن غيرهم من الناس ، وذلك بتقديم جنان الخلد لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (3) ، فاستحقوا هٰذا التقديم من الخالق بما عملوه وقدموه في حياتهم الدنيا ، فأين منهم من نسي ذكر ٱلله وتلهّىٰ عنه بما في الحياة الدنيا من شهوات وزينة ؟

وخليفة ٱلله بالإضافة هو من ذكر ٱلله في قلبه قبل لسانه ، مستحضراً إياه في كل لحظة ، فينأىٰ بذكر ٱلله تعالىٰ عن أية مفسدة أو معصية من الممكن أن يقع فيها من نسي ذكر ٱلله تعالىٰ .

---

(1) آل عمران ، 191 ـ 194 .
(2) النساء ، 13 .
(3) المائدة ، 83 ـ 85 .

ب ـ تقديم الطاعات عن ملاهي الدنيا :

لا تكون الطاعة بوجود حب الشهوة والنزوة ، فالنفس البشرية قد تقع في لحظة ضعف تحت سيطرة الشيطان الرجيم ، وهو لا يأمر الإنسان إلا بالمعصية والرذيلة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، فقد قدّم الشيطان وعده بتضليل الإنسان طالما هو في غير طاعة ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (2) ، فبذلك تقدّم المخلصون لله في الطاعة والعبادة بالخروج من سيطرة الشيطان الرجيم عليه .

ج ـ تقديم الخير والمعروف :

الخير أصل كل المكارم والصلاح ، فما من أمرٍ بُنيَ علىٰ حب الخير إلا وكان نتيجته الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة ، لذلك فالأمر بالمعروف والدعوة للخير من أسباب رقي الأمة ، وهما لا يأتيان في أمة إلا بالعلم الصحيح الذي يصل بالإنسان إلىٰ الحق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (3) ، هٰذه هي الأمة التي دعا إليها ٱلله ورسوله الكريم والخير منبعه الرحمة ، فإذا تقدّمت الرحمة في قلوب الناس كان الخير رائداً للحياة ، فالإحساس ببعضنا البعض خير نقدمه علىٰ شكل رحمة ومحبة ومودة ، عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ

---

(1) البقرة ، 168 ـ 169 .

(2) ص ، 79ـ83 .

(3) آل عمران ، 104 ـ 105 .

بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » (1) .

وخلفاء ٱلله في الأرض كانوا سباقين لشرف نيل طاعة ٱلله تعالىٰ ، متقدمين بحبهم وخضوعهم له عز وجل ، لا يتأخرون عن تلبية أوامره ، ولا يتقدمون إلا في الخير والصلاح ، وهم المتصفون بصفات ٱلله تعالىٰ التي منها تقديمهم لما يجب أن يكون مقدّماً ، وتأخيرهم لما هو واجب تأخيره ، هـٰذه هي المعادلة الطبيعية التي تصل إلىٰ طريق النجاح والفوز .

فصحوة الإنسان من جهله إذا جاءت متأخرة لا أمل يُرجىٰ منها ، فليستوعب أصحاب المعاصي قيمة هـٰذا التقديم والتأخير في حياتهم ، فهم بذلك يقدّمون الفوز والخسارة ، وكذلك إذا قدّم الإنسان الشرور والمعاصي فليس عليه توقع الخير أو الصلاح ، فمن يقدّم خيراً يجده ومن يقدم شرّاً سيجده أيضاً .

ولذا فالخليفة دائماً يُقدم الصبر والشكر والحمد لتُفتَح له أبواب الرزق والعطاء والرحمة ، وتقدّم بطلب الجنة التي لن يؤخرها الرحمـٰن عنه ، وعليه فقد قدّم الخالق الحياة ابتلاء وامتحاناً للعباد ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (2) ، فالصبر علىٰ الضراء والحمد عند زوال النعم هو مفتاح تقديم للسعادة في الآخرة ، فالإيمان الحقيقي صبر علىٰ البلاء ورضا بالقدر وشكرٌ في الشدة والرخاء ، فتقديم الصبر لا يكون علىٰ الفقير والمحتاج والضعيف ، بل أن القوي والغني هما بحاجة لتقديم الصبر والشكر أكثر ، ذلك أن ٱلله قدّم لهما ما يصعب معه الصبر والثبات ، فالله جل جلاله خلق الإنسان بتركيبة معينة تشير إلىٰ حب المال

---

(1) صحيح مسلم ، ج ، 12 ، ص468 .
(2) الأنبياء ، 35 .

والحياة ، والجنة لها ثمن عكس ذلك تماماً .

فليتقدّم الإنسان بنزع بذور التمادي بحب الدنيا ليغرس مكانها بذرة طيبة إذا وجدت الأرض الصالحة لها أنبتت في نفسه حب ٱلله وتقدمّ في طلبه عن أي شيء آخر .

فقد أسعدك ٱلله بالعلم والحكمة فلما البحث عن الشقاء بالجهل والضلال ؟ قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، بالطبع لا يستوي من كان يميل عن الحق مع علمه به ، ومن يسير عليه ، لذلك قدّم ٱلله العالِم والعارف فقدّم لهم علامات الهداية التي يبحثون عنها ويجتهدون للوصول إليها ، عن الجاهل والمتلهي فقدّموا لأنفسهم الظلمات والخسران ، فلا يكون لهم وزن عند ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ (2) ، فلكل إنسان درجة ومكانة عند ٱلله فمنا المتقدّم ومنا المتأخر ، فقد يكون الإنسان في الدنيا ذا مكانة ودرجة رفيعة بين الناس ويكون هيناً عند ٱلله تعالىٰ .

وعليه فالخليفة هو الذي قدّم الإيمان علىٰ الكفر والشرك ، وقدّم الطاعة علىٰ العصيان ، وهو الذي استمد صفة التقديم للحق والخير علىٰ الظلم والشر من المقدّم المطلق جل جلاله ، وهو الذي تقدم للإيمان بالرسل صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ، وهو المؤمن بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم ، ولهـٰذا فهو المقدّم للمعروف في أهله ، والمنتهي عما نهىٰ ٱلله عنه ، والمجتنب لما أوجب اجتنابه ، وإذا حكم بين الناس يُقدّم العدل قولاً وفعلاً

---

(1) الزمر ، 9 ـ 10 .
(2) الكهف ، 103ـ106 .

وعملاً ، ويقدم التفكر والتذكر عند إقدامه علىٰ ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات ، ولا يتأخر عن إزهاق الباطل فيتقدم علىٰ دمغه إحقاقاً للحق .

اللهُمَّ يا المقدم اغفر لنا ما تقدم منا من خطايانا وما جهلنا وما نسينا ، وما أسرفنا في أمرنا ، وما أنت أعلم به منا !

اللهُمَّ يا المقدم قدم لنا من الخير الباقيات والأفعال الصالحات والأعمال المنجيات !

اللهُمَّ أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت علىٰ كل شيءٍ قدير ، فنسألك أن تقدم لنا الحسنات وفعل الخيرات والنجاة من كل ذنب في الحياة ويوم الممات ويوم البعث إنك قريب سميع مجيب الدعوات ، اللهُمَّ يا المقدم قدم لنا ما قلنا من كلمات مصلحات وأفعال صالحات ونوايا طيبات وتجاوز لنا عن الزلات !

اللهُمَّ يا مقدم إليك قدمنا عملنا ، ولك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا وبقولك احتكمنا فاجعلنا من المتقدمين لا من المتخلفين عن الفوز برحمتك ورضاك !

اللهُمَّ يا المقدم اجعلنا بتوحيدك نتقدم وبذكرك نتقدم وبتسبيحك نتقدم ، وبطاعتك نتقدم وبأخذ ما أمرت الأخذ به نتقدم وبالانتهاء عما نهيت عنه نتقدم ! اللهُمَّ اجعلنا بذلك نتقدم حتىٰ بلوغ الجنة ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إلـه إلا أنت سبحانك جل جلالك !

اللهُمَّ اجعل حسناتنا مقدمة لطاعتك ، واجعل طاعتنا مقدمة لرضاك ، واجعلنا علىٰ ما يرضيك حتىٰ ترضىٰ عنّا ، وأن نكون في رضاك خالدين في جنة الخلد ، وقدّم حمل أعمالنا ثقلاً في موازين رحمتك ، نستغفرك ونتوب إليك حتىٰ ترحمنا وتغفر لنا ، سبحانك لا إلـه إلا أنت المقدّم جل جلالك واحد أحد لا شريك لك !

المؤخر جل جلاله

المؤخر : اسم من أسماء ٱلله عز وجل يحمل في طياته معنىٰ الإرادة المطلقة في تدبير وتوقيت جميع الأمور ، فيؤخر أمراً علىٰ أمر ويقدم أمراً علىٰ آخر بعلمه وحكمته المطلقين ، فمن بيده التقديم لابد أن يكون بيده التأخير أيضاً .

المؤخر : هو الذي يؤخر ما يجب تأخيره وهو يعلم أن في تأخيره خيراً [(1)] .

المؤخر : هو الذي يملك الأمر الذي به تتم مستوجبات التقديم أو التأخير ، وهو المتصرف كما يشاء متىٰ ما شاء ، وهو العليم بمبررات التقديم والتأخير في كل ظرف ، وهو الذي تقديمه حق وتأخيره حق سبحانه محق الحق ودامغ الباطل جل جلاله .

والمؤخر هو اسم فاعل من أخر في حين أنه المصدر للتأخير ، فالله عز وجل هو الذي أوجد التأخير والتقديم وفق الأولويات بين جمع الأشياء لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو ، ومن أجل تنظيم هـٰذا الكون والخلق بهـٰذا النظام الذي أبدعه الخالق سبحانه وتعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 59 .

ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (1) ، ومن أجل تسهيل حياة الخليفة الذي أراده ألله تعالىٰ منذ البداية أن يكون مقيماً في الأرض ، راعياً لها قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (2) .

والمؤخر المطلق بحكمته المطلقة أخر خلق المخلوقات بعضها عن بعض ، فأخر خلق الإنس عن الملائكة والجن ، فقد أخر خلق آدم عليه السلام علىٰ خلق الملائكة والجن وبالرغم من تأخير خلقه عنهم إلا أن ألله تعالىٰ قدّمه عليهم بتفضيله عنهم ، ذلك أن المولىٰ عز وجل حمّله الأمانة التي أبت الأرض والجبال أن تحملنها ، وهـٰذه الأمانة هي استخلاف الإنسان في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (3) .

ولـٰكن ألله هو المؤخر عن علم وليس لإهمال أو تقصير مما يتنافىٰ مع قدرة الخالق المطلقة ، بل هو المؤخر لتحكمه في تقدير الأمور ، والمؤخر المطلق هو المقدّر الوحيد لموعد الخلق والموت والميلاد والحساب والرزق وغيرها فكل أمور الخلق بمواعيد مسبقة ومقدرة من المؤخر ولا حول ولا إرادة

---

(1) يس ، 36ـ40 .

(2) البقرة ، 30ـ33 .

(3) الأحزاب ، 72 .

للإنسان في ذلك ، فلا يد للإنسان فيما قدَّر ٱلله من أمور عظيمة تأتي علىٰ الخلق دون علم أو معرفة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (1) ، فيوم الحساب يوم عظيم وعلىٰ الإنسان أن يكون متيقناً من قدومه بدون أن يعرف توقيت وقوعه لأن ذلك من علم الغيب الذي لا يطلع ٱلله عليه أحد من خلقه ، بل يأتي علىٰ غفلة من الإنسان الذي سبق أن حذره ٱلله تعالىٰ من وقوعه ، فيكون مجيء هـٰذا اليوم علىٰ ضعف وغفلة من الإنسان وعلىٰ علم وقوة من ٱلله عز وجل ، فمهما كان الإنسان علىٰ درجة كبيرة من العلم أو من المقربين إلىٰ ٱلله فإن ذلك الموعد يبقىٰ خافياً عليه ويبقىٰ من أسرار الغيب ، فالرسول ﷺ كان هو المصطفىٰ من عباد الرحمـٰن الذي اختاره الرحمـٰن ليبلغ آخر رسالاته السماوية وبالرغم من ذلك فإنه كان خافياً عليه علم وقوع الساعة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) ، فالعلم المطلق للأشياء وموعد وقوعها هي عند ٱلله تعالىٰ ، لا يطلع عليه أحدٌ من الخلق في الأرض أو في السماء .

المؤخر : هو الذي أصدر أمر الخلق مسبقاً علىٰ من خلق ، وأخر الحساب والعقاب والثواب عن الأعمال ، وأخر الأفعال عن الأقوال ، وأخر علم الغيب عن المعرفة علىٰ كل ما خلق .

والمؤخر هو المقدم بما له من مطلق الأمر في الخلق والإرادة والسيطرة الكاملة ، وإذا كان ٱلله تعالىٰ مؤخراً فليس معنىٰ ذلك أنه قد يترك عباده سدىً دون عقاب أو ثواب مهما طال الزمن أو قصر عليهم ، فهو المؤخر وهو الرقيب

---

(1) سبأ ، 29 ـ 30 .

(2) الأعراف ، 187 .

مع تأخيره وهو المهيمن بحكمته في تأخير الأمور ، فلا يترك عباده ولو طال الوقت دون محاسبة أو يهمل الخلق بسبب تأخير يوم الحساب .

قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (1) ، وقال كذلك : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (2) ، في الآية الكريمة السابقة يربط ٱلله بين إقرار وقوع يوم الحساب وبين عملية الخلق والرابط هنا هو القدرة المطلقة لله ، وهـٰذا يلغي أي تبرير أو حجة للمذنب في حق ٱلله وحق نفسه بتقصيره في الطاعات والعبادة ، فقد أمهله الخالق ليعمل ويصلح لـٰكنه أخر إصلاحه وخيّره لوقت لا ينفع فيه الندم أو التحسر علىٰ ما فات من الوقت ، وكذلك الكافر والجاحد كان لديه متسع من الوقت ليرجع إلىٰ ٱلله فيؤمن به ويعود لـٰكن الكثير منهم سرقهم الوقت وشغلتهم الدنيا وغرهم الشيطان فلم يعرفوا الحق إلا في اليوم الذي لا فائدة تعود عليهم فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ (3) .

وقد يتساءل البعض : لماذا لم يكن من صفات ٱلله تعالىٰ المؤجل ؟

الله عز وجل بتأخيره لبعض الأمور وفق حكمته المطلقة ، يكون مؤخراً ولا يكون مؤجلاً ولا لاغياً ، لأن اللاغي للذنب أو الخطأ تتجلىٰ فيه صفة العفو الغفور ، فالله بصفتيه يلغي لنا أخطاءنا ويبدلها حسنات إذا توافرت فيه الشروط

---

(1) إبراهيم ، 42 .
(2) القيامة ، 36 ـ 40 .
(3) النبأ ، 38 ـ 40 .

التي تجعل هٰذا الإنسان ضمن من يشملهم ٱلله تعالىٰ بهاتين الصفتين وهي التوبة الصادقة والندم علىٰ ما ارتكبه من ذنب واتباع السيئة الحسنة .

وفي اسم المؤخر رسالة لكل الخلق لٰكنها تُفهم علىٰ طريقتين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ (1) ، ليس من صفات ٱلله المؤجل لأن التأجيل لا يتم إلا بمشاركة آخر فيه ، فمثلاً إذا كان مقرراً أن ينعقد اجتماع بين رئيسك في العمل وبينك ويتم تأجيل هٰذا الموعد ، فإن هٰذا التأجيل يحدث بالاتفاق بينك وبين رب العمل علىٰ إلغاء الموعد المحدد للاجتماع واستبداله بموعدٍ آخر متفق عليه بينكما ، ولهٰذا في التأجيل المشاركة والله واحد أحد لا شريك له ، أما في التأخير أمر ذاتي يتعلق بالواحد جل جلاله . وما نسميه بالتأخير علىٰ المستوىٰ البشري أو الخلقي ، هو في حقيقته بأسباب المشاركة دائماً ، فعندما يتأخر التلميذ عن الوصول في الموعد المناسب للمدرسة فإن وراء ذلك أسباباً منها المواصلات أو الحوادث أو الطبيب بأسباب المرض أو الوالدين بأسبابهما ، أو الأخوة وفي جميعه بأسباب المشاركة ، أما الله المؤخر لا شيء يؤخره عن أن يفعل ما يشاء أن يفعله متىٰ ما شاء وكيفما يشاء .

وبما أن ٱلله تعالىٰ لا يشاركه أحد في إرادته وحكمه ، إذ أنه فعّال لما أراد إذاً هو المؤخر المطلق بتأخيره ما يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ (2) ، فقدرته علىٰ فعل أي شيء متىٰ أراد هي التي تؤخر وتقدم ما تريد ، فالتأخير للأمر لا يكون إلا ممن بيده الأمر كله أوله وآخره ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (3) .

(1) الفرقان ، 70 ـ 71 ،
(2) المائدة ، 120 .
(3) النحل ، 40 .

أما من كُتِب عليه الأمر فلا يملك تقديم هـٰذا الأمر أو ذلك أو تأخيره ، لأنه لا يملك أمر (كن) ، قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [1] ، فالمؤخر بالإضافة هو الذي يدرك الأهداف والغايات من وراء كل عمل يقدم عليه ويحدد لهـٰذه الأعمال المواعيد المحددة التي تساعد في تحقيق أهدافها المرجوة ومنها .

1 ـ المفهوم الصحيح :

إن هـٰذه الرسالة تصل إلىٰ عقل وقلب الخليفة بالشكل الصحيح الإيجابي ، إذ أن تأخير ٱلله تعالىٰ للأشياء لا يكون عن غفلة أو عن نسيان بل يكون عن خبرة وعلم مطلقين بمقادير الأشياء ومواقيتها التي يجب أن تكون فيها ، ووضعها في المواضع الصحيحة لها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [3] ، وأيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4] .

فيستشعر الإنسان في هـٰذا التأخير رحمة المؤخر به وحبه ، لأن يكون لدىٰ الإنسان الوقت الكافي للطاعة والإصلاح فيسير في الأرض بالشكل الذي يرضي ٱلله ، فيزرع الخير أينما سار ، وينشر الحب في كل جهات الأرض الذي

---

(1) سبأ ، 30 .
(2) سبأ ، 28 ـ 30 .
(3) يس ، 43 ـ 44 .
(4) الزمر ، 42 .

به تعمر النفوس وتقترب إلىٰ خالقها تطلب رضاه ، بذلك يرفع درجته عند ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (1) ، هـٰذا جزاء من قرأ رسالة ٱلله قراءة صحيحة فوصلت لعقله وقلبه في الوقت المناسب فأحسن الخالق له جزاء إحسانه ، فقد أخر هـٰذا الخليفة كل حب في قلبه إلىٰ ما وراء حب المؤخر فأخر عنه ٱلله كل شر .

وهناك نوع آخر من الخلق يتأخرون في فهم الرسالة التي يضمنها هـٰذا الاسم ، وهم المذنبون الذين يقضون جزءاً من أعمارهم في فعل ارتكاب الذنوب والمعاصي لـٰكن يأتي اسم المؤخر وما يحمله من فرص لهـٰؤلاء المذنبين للتوبة والرجوع للحق والعودة لما فيه خيرهم وصلاحهم ، فيقبل الخالق توبتهم ، ويصلحون حالهم بإنقاذها من عذاب الحريق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ (3) ، فرحمة ٱلله تعالىٰ

---

(1) الرعد ، 20 ـ 24 .
(2) الأنعام ، 54 .
(3) الزمر ، 53 ـ 56 .

بعباده كما جاءت في الآية الكريمة السابقة علىٰ ثلاث مراحل هي :

الرحمة الأولىٰ : تتمثل في تأخير اليأس من رحمة ٱلله تعالىٰ عن القلوب النادمة والإسراف في تأنيب النفس والغرق في بحر الحسرة والندم ، وكذلك بقبول التوبة من المذنبين ومغفرة ما قدموا من سوء يصل بصاحبه إلىٰ العذاب المهين ، فتأتي رحمة ٱلله تعالىٰ بفتح باب التوبة أمام هـٰؤلاء المذنبين زارعة الأمل في قلوبهم بالنجاة من النار وسوء المصير ، فتبدأ الرحمة بقبول التوبة أصلاً ، ولولا ذلك لما كان الغفران للذنوب .

فما من قلبٍ يستطيع أن ينتعش الأمل فيه دون أن يشعر بأن هناك باباً قد يُفتح له إذا طرقه بالشكل الصحيح وفي الوقت الصحيح ، عندها لن يتأخر هـٰذا الإنسان عن طرقه وهـٰذا الشعور هو من رحمة ٱلله بنا يزرعه فينا فلا نكون فريسة اليأس الذي يقودنا إلىٰ أبشع النهايات .

والرحمة الثانية : هي تأخير أخذهم بالعقاب الفوري لدىٰ ارتكابهم للذنوب مفسحاً لهم الوقت للرجوع للحق ، فالمؤخر المطلق قادر علىٰ تسليط العقاب الفوري علىٰ الإنسان لـٰكنه يؤخر ذلك رحمة به ، وقد سبق أن أخذ أقواماً سابقة بالعقاب الفوري لشدة كفرهم وليأخذوا عبرة مما أصابهم ويكونوا برهاناً لقدرة الخالق علىٰ الانتقام فنصل بذلك التحليل إلىٰ رحمته مع امتلاك القدرة في التأخير ، قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ

مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (1) ، فتأخير ٱلله تعالىٰ قد يكون عن حلم أو عن صبر ، فصفة ٱلله المؤخر تحمل بين طياتها صفة الحليم ، فقد يؤخر المولىٰ عز وجل العقاب مع العفو والغفران له فيكون بذلك حليماً ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (2) ، وقد يؤخر ٱلله العقاب علىٰ الذنوب مع بقائها فيكون ٱلله صبوراً ، فصفة الصبر عند ٱلله لا تحتمل غفران الذنب والعفو عن مرتكبه بل تحتمل التأخير فقط ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ (3) .

الرحمة الثالثة : تتمثل في توضيح الصورة التي ستكون عليها حالتنا يوم الدين ، وهـٰذا من شأنه أن ينزل الخوف والرهبة في قلوب المذنبين ، فقد صوّر لنا المؤخر الحال الذي سيكون عليه الغافلون ، فيأتي تحذيره عز وجل رحمة للبشر ، ففي التحذير من الشيء لفت لنظر الغافل والجاهل لما كان لاهياً عنه فيتوقف عند هـٰذا التحذير مستشعراً حاله يومئذ فيرجع عما كان فيه ويعود للحق ، فمع وجود العقل البشري وقدرته علىٰ التمييز والاختيار أمكن للإنسان استيعاب الدروس واستنباط العبر التي تعود بالفائدة علىٰ الإنسان بنجاته من الهلاك المحقق بسيره في طرق الضلال وعدم استعمال العقل كما أراد الخالق عز وجل له أن يُسْتعمل ، فلقد بُعِثت الرسل والأنبياء للتبشير والتحذير فأين من ذلك المكذبين ؟ قال تعالىٰ : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (4) .

---

(1) القمر ، 18 ـ 32 .
(2) آل عمران ، 155 .
(3) الطارق ، 9 ـ 17 .
(4) الأعلىٰ ، 9 ـ 13 .

فالجهل لا يبقىٰ جهلاً مع وجود الوقت الكافي للمعرفة التي من شأنها أن تعود بصاحبها للحق وطريق الهداية ، فينقلب من الخاسرين إلىٰ الفائزين ، فتكون رحمته عز وجل قد تجلت في تأخيره أخذ هـٰؤلاء بالعقاب الفوري لوقوع الذنب ، فمن رحمة المؤخر عز وجل أنه لا يقدم عقابه عن الذنب الذي يرتكبه الإنسان ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « يَقُولُ اللهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجلي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ »[1] ، ما أروع رحمة ٱلله بعباده وما أروع حبه لهم مع قدرته عليهم وضعفهم وقلة حيلتهم ، بل إنه لا يعاقبه عليه في حين وقوع الذنب ، إذ أنه يؤخر ذلك مانحاً المذنب فرصاً عديدة للرجوع للصواب والحق ، فما أعظم هـٰذا الخالق القادر الكريم ، ولو أن كل كافر أو جاحد تأمل في هـٰذا الاسم مستدركاً ما فيه من محبة وود من المولىٰ عز وجل لهم ما ابتعدوا عن رحمته وطلب رضاه .

2 ـ المفهوم الخاطئ :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[2] ، ويتكون هـٰذا المفهوم لدىٰ الكافرين والمتكبرين عن نعم ٱلله تعالىٰ ومنها تأخيره العذاب الفوري لهم مع قدرته علىٰ ذلك ، إذ أنهم يتمادون في تكذيبهم وطغيانهم بحجة عدم وقوع الساعة كما سبق أن كذبت الأقوام السابقة ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا

(1) صحيح البخاري ، ج 23 ، ص 20 .
(2) يونس ، 7 ـ 8 .

مُنقَلَبًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] ، فتأخير ٱلله تعالىٰ ليوم الدين وتأخيره العقاب جعلا من الكافر والجاحد أكثر تمادياً وطغياناً ظناً منهما بما أن الموعد غير محدد فإن الساعة لن تقوم ، ولو أن الكافر فهم رسالة المؤخر له لأدرك مدىٰ حرصه عز وجل علىٰ نجاته من عذاب الجحيم ولكان استفاد من وقته بما ينفعه في يوم لا ينفع الإنسان إلا عمله الذي هو المسؤول عنه أمام ٱلله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [3] ، والفهم الخاطئ لهٰؤلاء الكفرة لا يصل بهم إلىٰ الاقتناع بأن حتىٰ هـٰذا التأخير له نهاية وموعد محدد في علم ٱلله ، فموعد لا يعلمه إلا واضعه عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [4] ، أي أن هـٰذا التأخير لا يكون بلا نهاية بل إن له نهاية آتية لا محالة بأجل محدد ووقتٍ معين هما في علم الغيب عند العزيز

(1) الكهف ، 35 ـ 36 .

(2) سبأ ، 3 .

(3) الزلزلة ، 1 ـ 8 .

(4) هود ، 102 ـ 108 .

الجبار المالك لكل شيء ، لا يقع هـٰذا الموعد إلا في الوقت الملائم له والمفروض له وقوعه حسب علم وحكمة ٱلله تعالىٰ .

وخليفة ٱلله بالإضافة هو من أحسن قراءة هـٰذه الرسالة وأحسن الاستفادة منها ، فكان همه لقاء الخالق محِباً ودوداً له عاملاً من أجل رضاه فيكون له البشرىٰ يوم اللقاء العظيم ، متيقناً أن هـٰذا اليوم قائم في أية لحظة لا يمسكه عنا إلا المؤخر ولا يؤخره عنا إلا الرحيم ولا يرحمنا إلا وداً ومحبةً بنا ، فلا يسترسل في الاتكال علىٰ الوقت لتصليح ما أخطأ فيه ولا يسير في الدنيا لاهياً عن موعد الساعة ، فيسير بين الناس بتذكيرهم بذلك إذا تناسوا وبتحذيرهم من مباغتة هـٰذا اليوم إذا ألهتهم الحياة الدنيا بالسعي وراء الكسب المادي ومغرياتها العديدة .

وفي اسم المؤخر عدة صفات ينطوي عليها منها :

المؤخر هو القادر :

تتجلىٰ قدرة الخالق في تأخير ما يشاء من الأمور بعلمه المطلق ، وبما أنه القادر علىٰ التأخير فهو بالتالي يملك القدرة علىٰ تقديم ما يشاء من الأمور ، فهو القادر علىٰ قيام الساعة وقتما يشاء ، والقادر أيضاً علىٰ تأخيرها وتقديمها ، وهو الذي يملك القدرة أيضاً علىٰ الإماتة والإحياء ، وتأخير هـٰذا الأمر عن ذاك ، قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

وخليفة ٱلله بالإضافة عليه أن يكون قادراً علىٰ تأخير حب الدنيا وتأخير شهوات نفسه عن حب المولىٰ عز وجل ، وأن يكون مؤخراً لكل مفسدة أو ضلال علىٰ قدر استطاعته ، سواء كان بقوته أو بعقله أو بقلمه ، فالمفاسد

---

(1) الأحقاف ، 33 .

والشرور كثيرة مبعثرة في الكون ، لذلك كان لزاماً علىٰ خلفاء ٱلله بالإضافة أن لا يكونوا مؤخرين لإصلاحهم حسب قدراتهم التي وهبها ٱلله تعالىٰ لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) .

فإذا كان الخليفة بالإضافة قادراً علىٰ إفادة الآخرين من علمه فلا يتأخر بذلك العلم عن أحد ، فالعلم إذا لم يُسْتفد منه يبقىٰ كالمياه الراكدة ، ولٰكن إذا عمت الفائدة كل من حوله تحركت هٰذه المياه وشرب منها الجميع واستفاد ، وبذلك سيستشعر الخليفة بالسعادة ، لأن السعادة شعور منعكس من الآخرين علينا .

المؤخر هو الحليم :

الله هو الحليم المطلق الذي لا يمكن أن يصل أحد من المخلوقات إلىٰ درجة حلمه ، لأنه مع حلمه عز وجل يملك القدرة المطلقة للتصرف ويملك القوة المطلقة للانتقام والعقاب ويملك الإرادة المطلقة للتغير والتبديل ، وحلمه المطلق عز وجل لا ينحصر في عباده المتقين بل إنه يشمل جميع الخلق ، فهو لا يمنع فضله ورحمته ورزقه عن جميع عباده بسبب ذنوبهم ومعاصيهم ، بل إنه يعطي العاصي كما يعطي المطيع ، ويمنع عن الجاحد المرض والأضرار كما مع المحسن ، لكنّ الفرق بين العبدين أن العاصي والجاحد يتأخر في فهم هٰذا الحلم وهٰذا الصبر ، فيبقىٰ غافلاً لا يذكر فضل الحليم ونعمه عليه ، علىٰ عكس العبد المطيع والمحسن الذي لا يتأخر عن شكره عز وجل وحمده وطاعته .

والحليم المطلق لا يمكن أن يستفزه الغضب ولا جهل الجاهلين ، فهو الحليم المتأني ذو الصفح مع امتلاكه للقوة الكافية للرد والانتقام ، لكنّ حلمه

---

(1) النساء ، 114 .

يؤخر عقابه وعذابه رحمة وحكمة منه بعباده أجمعين ، فنحن نشاهد بأعيننا الدليل علىٰ ذلك إذ أنه بالرغم من عصيان وجحود الكفرة إلا أنه لا يمنع عنهم نعمه من رزقٍ وصحة ونعم كثيرة يتقلبون فيها دون صحوة منهم يلتفتون فيها إلىٰ مصدر وسبب ذلك كله ، لـٰكن صبر الكريم وحلمه يجعله يؤخر عقابه لهم فور صدور ذنوبهم ممهلاً إياهم ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ (1) .

وعلىٰ خليفة ٱلله بالإضافة أن يكون متصفاً بصفات الحليم المطلق ، فلا يأخذه الغضب بعيداً عن الحلم والصبر والتأني ، وأن يكون مؤخراً لعقابه ورده إذا أمكن ذلك حتىٰ ولو كان يمتلك السلطة والقوة للقيام بذلك ، وإذا كان لابد من تنفيذ عقوبة ما فإنه من الحلم عدم تجاوز الحد ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (2) ، فما أروع الصبر علىٰ الأذىٰ علىٰ ألا يكون ذلك لضعفٍ أو خوف بل مع امتلاك القوة للرد والانتقام .

والخليفة بالإضافة هو الصابر علىٰ أذىٰ من حوله راجياً أن يكون بحلمه رادعاً لهم عن ذلك ، معطياً لهم درساً في روعة الصبر ونبل الحلم عند الإنسان ولنا في رسول ٱلله ﷺ أفضل قدوة وأروع مثل ، فقد كان لا يأخذه الغضب عند شدائد الأمور ولا يتهور في الرد علىٰ من عاداه ، بل كان متأنياً صبوراً في حكمه فكان حكيم الرأي صائب النظرة بعيد النظر ، قال تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(1) فاطر ، 45 .

(2) الشورىٰ ، 39 ـ 43 .

لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) ، فمن شأن الحلم أن يزرع في القلب الرحمة والمودة واللين ، وأن يؤخر عنه القسوة وحب الانتقام ، وهـٰذا بدوره ينشر بين الناس العفو عند المقدرة ، والرحمة ، والتسامح .

المؤخر هو الرحيم :

المؤخر صفة من صفات الرحمة بالخليفة فما أخره ٱلله جل جلاله إلا لإعطائه الفرصة للتوبة من ذنوبه والرجوع عن أخطائه وهـٰذا التأخير إنما هو خير للعباد ، لأن ٱلله يريد بهم الصلاح لهم في الدنيا والآخرة ولا يريد أن تضيع أعمالهم بالوقوع في المعاصي والأخطاء ، فيؤخر عنهم العقاب علىٰ ما اقترفوه من ذنوب ومعاصي فلا يعاجلهم به حتىٰ يتيح لهم الفرص لمراجعة ومحاسبة أنفسهم قبل أن يأتي الحساب الكبير فيكون لهم ذلك زيادة في الرحمة والخير ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴾ (2) ، فالعقوبة علىٰ المعاصي مقررة أصلاً علىٰ العصاة ولـٰكن المؤخر عز وجل يمسكها عنهم ، لسببٍ عظيم وهو أن المؤخر رحيم وحليم بعباده حتىٰ العصاة منهم ، لأن ٱلله تعالىٰ خلق العباد ليرحمهم لا ليعذبهم ، فجاء تأخير العقاب ليستغفروا من ذنوبهم ويتوبوا إلىٰ خالقهم العظيم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ (3) ، فرحمة ٱلله تسبق عقابه وانتقامه وتنفيذ عقوبته علىٰ من يستحقها .

وهـٰذا التأخير يكون في حق كل البشر المؤمن منهم وغير المؤمن وهو لكلٍ

---

(1) آل عمران ، 159 .

(2) طه ، 129 .

(3) الأنفال ، 33 .

خير ورحمة ، ورحمته واضحة جلية في اسم المؤخر ، ففي التأخير رحمة لكل الناس بكافة أحوالهم :

للمؤمن التقي بمنحه المزيد من الوقت لنيل الحسنات التي ترفع درجته عند خالقه ، بالزيادة في عمل الطاعات وما أمر ٱلله به ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) ، ومثل قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (2) ، فيصل بذلك إلىٰ استحقاقه لخلافة ٱلله تعالىٰ في الأرض ، وبهٰذه الخلافة يكون قد فاز الفوز العظيم .

فيكون تأخيره للمؤمن المطيع هو من باب المحبة والرحمة .

* للمذنب الفرصة للعودة عما كان فيه والتوبة الصادقة التي قد يقبلها المؤخر ويغفر له ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (3) .
فإذا أخذ ٱلله كل إنسان بذنبه في حين وقوعه لما بقي علىٰ الأرض من أحد ، فالإنسان بطبعه كثير الزلات والأخطاء ، وهو مخلوق علىٰ القوة من جهة إذا ما قورن بغيره من الخلائق ، ومخلوق علىٰ الضعيف إذا ما وضع نفسه في غير محلها في مقارنة مع الخالق جل جلاله ، وهنا يقع فريسة للشيطان فيوقعه في

(1) البقرة ، 261 ـ 262 .
(2) التوبة ، 20 ـ 22 .
(3) آل عمران ، 155 .

المفاسد والذنوب ، لكنّ المؤخر عز وجل عليم بما ينفع الإنسان ورحيمٌ به ، فأمهله الوقت لتصليح ما اقترف والاستغفار عن ذنوبه ، فالحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان يصعب عبورها دون الوقوع في إحدىٰ مفترق طرقها أو منحياتها ، قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (1) ، فطوبىٰ لمن أفاق من غيبوبة الدنيا قبل أن يغشاه عذاب يومٍ عظيم لا ينفع فيه تحسر ولا ندم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (3) .

إذاً فالمؤخر عز وجل لم يعاقب العصاة من المسلمين علىٰ معاصيهم ذلك لأنه رحيمٌ بهم ودود يتودد إلىٰ عباده مع غناه عنهم وعن عبادتهم وتعذيبهم ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (4) ، فالعباد هم الفقراء إلىٰ حلمه وعفوه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (5) . فالمؤخر هو من خلق الفرص للخلق ومنحها لهم مبيناً لهم فائدتها ، وأخر عقابه حتىٰ يرجعوا عن عصيانهم ، ويصححوا مسلكهم ويكون التصحيح عن طريق تعديل وتصليح المعلومات الخاطئة التي تتعمق داخل عقل الإنسان منذ بداية نشأته فتبع ذلك وقوعه في الخطأ ، لذلك فقد فتح المؤخر بتأخيره أبواباً من الفرص لإعمال الإنسان عقله

---

(1) آل عمران ، 14 .

(2) البقرة ، 222 .

(3) الشورىٰ ، 25 .

(4) النساء ، 147 .

(5) فاطر ، 15 ـ 17 .

في تدبر ما حوله وتحليل ما يحصل معه وحوله فيرجع عن الخطأ ، وبذلك ينجو هـٰذا المذنب من دائرة عقاب القوي القادر برحمته عز وجل في تأخيره ، فالمؤخر لا يظلم أحداً ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [2] ، فيدخل بذلك دائرة من هداهم ٱلله ورضي عنهم ، قال عز وجل : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [3] .

* للعاصي العودة للحق وترك الضلال الذي كان يتخبط فيه ، ونحن نلاحظ في أيامنا هـٰذه تزايد أعداد الذين يعتنقون الدين الإسلامي تاركين ما كانوا عليه من ضلال وجهل ، فكان في تأخيرهم لهـٰذا الوقت خير لهم ومنفعة ، ومنهم من يتمادىٰ في كفره وجحوده بالله تعالىٰ فلا يلتفت إلىٰ ما فاته في الدنيا إلا حينما يقف بين يدي المولىٰ عز وجل ، فقد كان موالياً لغير الخالق مشغولاً عن التفكير بالحق متأخراً في الوصول إلىٰ النور ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [4] .

ومن مظاهر رحمته بالعباد ما يأتي :

أ ـ تأخير غضبه وعقابه للعباد إلىٰ ما بعد إرسال الرسل مبشرين ومنذرين

---

(1) فصلت ، 46 .

(2) الحج ، 10 .

(3) البينة ، 8 .

(4) الأحقاف ، 32 ـ 34 .

وموضحين وهادين بأمرٍ من المؤخر المطلق ، بتبليغ أوامر ٱلله ونواهيه كي لا يكون للناس حجة علىٰ ٱلله ، فلا يعذب ٱلله ولا يعاقب قوماً إلا بعد إقامة الحجة والدليل بإرسال الرسل والأنبياء ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (2) ، حتىٰ أن رحمة المؤخر تشمل من كان مذنباً بجهل ، فيؤخر عقابه إلىٰ أن يصله العلم الكامل بما فعله ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (4) .

ب ـ ادخار الرحمة لعباده ليوم الحساب العظيم ، فكل ما في الأرض من رحمة ما هي إلا جزء واحد من رحمة ٱلله تعالىٰ وادخر مؤخراً لعباده يوم القيامة جزءاً ليغفر بها إساءة المسيئين ويعفو عمن يشاء من المذنبين ويقبل شفاعة الأنبياء والصالحين والشهداء ، والله تعالىٰ يغفر جميع الذنوب إلا الشرك بالله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ (6) .

---

(1) النساء ، 165 .
(2) الأنعام ، 48 .
(3) النحل ، 119 .
(4) الأنعام ، 54 .
(5) النساء ، 48 .
(6) النساء ، 116 .

ج ـ قبول شفاعة الرسول ﷺ وتأخيرها إلىٰ يوم الحساب الكبير ، وبذلك يخرج كل من شفع فيهم رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام من عذاب النار إلىٰ جنة النعيم .

وخليفة ٱلله بالإضافة هو من يستغل وقته فيما يرضي ٱلله تعالىٰ ، فيسارع في الخيرات ويؤخر مشاغل الدنيا عن ذلك ، فلا يكون همه إلا كسب رضا الخالق وحبه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ (1) ، فمن شأن اسم المؤخر أن يجعله مسارعاً في الخيرات داعياً لها لا أن يجعله مهملاً مضيعاً لعمره سدىً لا فائدة تُرجىٰ منه .

د ـ للمؤخر الحمد والشكر لتأخيره التكاليف الشرعية وإلزام الناس بها ، ومجازاتهم عليها عقاباً أو حتىٰ ثواباً إلىٰ ما بعد أن يبلغ الإنسان سن البلوغ والرشد ، فيكون في ذلك الوقت قد أصبح العقل قادراً علىٰ التمييز بين الصواب والخطأ ليصل بذلك إلىٰ التمييز بين الحلال والحرام وإدراك الحكمة من ما هو مفروضٌ علينا تنفيذه تجاه الخالق عز وجل ، لأن العقل البشري في تلك السن يكون قد بدأ القدرة علىٰ التحليل والتدقيق والربط والاستنتاج ليخرج بذلك بقرارات لما عليه فعله والمنهج الذي سيسلكه سواء كان في دائرة الإيجاب أو في دائرة السلب ، وبذلك يكون متحملاً المسؤولية علىٰ قيامه بما قام به من أفعال وأقوال ، فتزول بذلك حجته علىٰ ٱلله تعالىٰ بأنه مسيّر في ذلك ، وأنه قام بها دون وعي أو إدراك لعواقبها نتيجة عدم وجود ما يدله علىٰ الخير والصواب .

فكانت رحمة المؤخر بنا أنه لم يعاقب من كان دون سن الرشد ، أو من

---

(1) المؤمنون ، 57 ـ 61 .

وصل إليها ولٰكنه فقد عقله بمرضٍ ، فمن هنا كان خطاب المؤخر للعقل البشري متكرراً ومتعدداً لأنه هو الذي يقود صاحبه إلىٰ الفوز أو الخسارة بإتباع المولىٰ أو باتباع الشيطان ، فالعقل هبة من ٱلله تعالىٰ لقدرته علىٰ استخراج مكامن المفاهيم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (1) ، فمن كان عقله مشغولاً بالتدبر والتأمل والتحليل بالتأكيد سيصل إلىٰ النور وسيبصر الحق الماثل أمامه ، وسيدرك الخالق العظيم الذي خاطبه وأرشده إلىٰ الهدىٰ ، أم من كان عقله متأخراً في تدبره وتأمله تأخر في الوصول إلىٰ الحق أو إنه لن يصل إليه ، فمثل تلك العقول تكون سهلة الوقوع تحت سيطرة الشيطان الرجيم فيقودها إلىٰ الظلام فيفقد العقل البشري إمكانياته وقدراته التي تصاب بالشلل والعمىٰ فتكون الخسارة هي نصيبه في الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (2) .

وفي تأخير ٱلله تعالىٰ لسن البلوغ إلىٰ مرحلة النضج واكتمال العقل تأخير لأمرين هما :

* تأخير بعض الحاجات التي تنشأ في نفس الإنسان بعد وصوله إلىٰ سن البلوغ ، مثل الحاجة إلىٰ الزواج والرغبة في النساء وهٰذه من الشهوات التي

(1) الرعد ، 16 .
(2) الإسراء ، 97 ـ 99 .

فطرنا المولىٰ عز وجل علىٰ حبها والتعلق بها ، ولـٰكنه برحمة التأخير لها فينا يتأخر تأجج هـٰذه الشهوة إلىٰ سن النضج واكتمال العقل الذي يعمل علىٰ الموازنة والتعقل ، فتكون بذلك هـٰذه الشهوة تحت سيطرة العقل وإرادته الكاملة ، فيتمكن هـٰذا البالغ من تسييرها كما يشاء ، والتحكم فيها بكبتها عند الحاجة ، فيتم بذلك توجيه هـٰذه الرغبة في الاتجاه الصحيح الذي أراده الخالق لها عز وجل والمؤخر لها ، بذلك فإن الإنسان واعياً مسيّراً لها فلا يقع في فاحشة الزنا التي هي من الكبائر التي نهانا ٱلله عنها وحذرنا من الوقوع فيها مبيناً عاقبة الوقوع فيها ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (1) ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) .

فلو أن سن البلوغ يتقدم سن اكتمال نضج العقل ووعيه الكامل بما حوله ، واتساع دائرة فهمه وتحليله ، لتأججت في الإنسان الشهوات وتحكمت فيه ، فتقوده وتسيّره كما تريد إلىٰ أن تصل به إلىٰ الهلاك والضياع دون وعي منه أو إدراك ذلك لقصور عقله عن الوصول إلىٰ مدىٰ عاقبة هـٰذه الفاحشة .

* وأيضاً بتأخير ٱلله تعالىٰ للإنسان البلوغ إلىٰ سن التعقل والرشاد أخر المؤخر بالإطلاق نظرة الآخرين من حوله إليه ، فالطفل عندما يكون صغيراً يحتاج لمن يخدمه ويرعاه ويهتم بنظافة جسده وطعامه ومشربه وغيرها من الحاجات الاعتيادية للطفل ، ذلك لأنه لا يمكن أن يعتمد علىٰ نفسه في تنفيذ هـٰذه المتطلبات لقصور ملكاته العقلية وقدراته الجسدية ، فكان تأخير ٱلله

---

(1) الإسراء ، 32 .

(2) النور ، 2 ـ 3 .

تعالىٰ للبلوغ حتىٰ يتعدىٰ الإنسان سن الطفولة نعمة ورحمة به وبمن حوله ، فلو كان هـٰذا الطفل باعتماده علىٰ من حوله بالغاً لتحركت فيه الغرائز الجنسية وكذلك تتحرك فيهم مما يجعلها قد تكون علىٰ حسابه ، ولـٰكن عملية الاهتمام الخارجي ممن حوله تسير بشكلٍ طبيعي لأنه ما يزال طفلاً لا يمكن أن تتحرك فيه هـٰذه الغرائز تجاه من يعتني به من أم أو أخت أو عمة أو خالة ، وتبقىٰ نظرتهم له نظرة خالية من أي حذر أو شك .

أما إذا تعدىٰ هـٰذه السن لسن الرشد واكتمال العقل فيه يكون قد وصل إلىٰ سن يمكنه الاعتماد علىٰ نفسه في تلبية احتياجاته الجسدية علىٰ الأقل ، بالإضافة إلىٰ أن ٱلله قد خلق في الإنسان الحياء ، فلا يستطيع مع هـٰذا الحياء أن يكشف الإنسان عن عورته أمام أحد ، حتىٰ يتم للإنسان نفسه مع تقدم السن به وتكوين خبراته في الحياة وعن طريق العلم والمعرفة أن يدرك المعاني الحقيقية للأمور ويستطيع أن يضع موازيين حياته بالشكل الذي يراه .

إذاً تأخير ٱلله عز وجل لا يكون إلا لحق وخير ، ويكون دائماً سائراً وفق مصلحة المخلوق .

المؤخر هو العليم :

فهو المؤخر للأمور بعلمه المطلق والمسبق بما يصلح للعباد ، وإذا تأملنا حولنا قليلاً لأدركنا أن الخلق جميعاً متفاوت في كثير من الأمور تقديماً وتأخيراً عن بعضهم البعض منها :

1 ـ الأرزاق :

فقد يرزق الإنسان في صغره بالرزق الوفير وأحياناً لا يكون له ذلك إلا بعد تخطيه سناً متقدمة وأحياناً أخرىٰ لا يكون له اتساع في الرزق ، وكل ذلك التقديم والتأخير بين الناس هو من تقدير ٱلله المسبق الذي يعلم ويدرك بقدرته أين الخير والشر لكل إنسان ، كما وأن في تأخير الرزق وتقديمه ابتلاء للإنسان

فمن شكر وحمد كان من الفائزين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

والرزق ليس مقصوراً علىٰ المال فقط ، بل حتىٰ الأبناء رزق من ٱلله مع اختلاف الوقت لهٰذا الرزق ، فمن الممكن أن يتزوج مثلاً أكثر من مائة إنسان في ليلة واحدة ولٰكن نجد أن هناك من يتأخر رزقه بالذرية في حين أننا نجد من يرزق فوراً بهم ، وهناك من لا يُرزق بهم أبداً ، ذلك كله بتقدير العليم لأمور عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (4) .

2 ـ الفرج بعد الضيق :

الله هو المفرّج للكرب إذا أخلص الإنسان الدعاء لله وتوجه إليه بقلب صادق منكسر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (6) ، فما من إنسان في هٰذه الدنيا إلا قد أصابه هم أو كدر وعند حلول الهموم والمشاكل نبحث عن

(1) النحل ، 71 .
(2) الإسراء ، 30 .
(3) العنكبوت ، 62 .
(4) الشورىٰ ، 49 ـ 50 .
(5) الأنبياء ، 76 .
(6) الصافات ، 114 ـ 115 .

الفرج مستعجلين قدومه لتنفرج تلك الأزمة ، وقد يؤخر ٱلله لحكمة ما مجيء الفرج وقد يستعجل فيه ، مختبراً بذلك صبر الإنسان وإيمانه ، وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وخليفة ٱلله هو من ثبُت عند حلول المصيبة وكان ٱلله عونه علىٰ تجاوزها أو تحملها وهو بطبعه لا يلتجئ إلا إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (2) ، فالخليفة هو الذي يثبت ويزداد إيماناً عند الشدائد مهما تأخر الفرج فيبقىٰ أمله بقدومه من أمله بحب الخالق وثقته برحمته .

المؤخر هو المقدم :

بما أن ٱلله تعالىٰ هو المؤخر فهو بالضرورة المقدم لما يريد ، فقدم الخير في النفس البشرية علىٰ الشر ، فكان خلقه للجن والإنس للخير بهدف عبادته وطاعته ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (3) ، فلم يخلق ٱلله تعالىٰ الخلق للنزاع والقتل ، وقدّم الحب عن الكره ، فقد خلق ٱلله تعالىٰ الإنسان محباً بطبعه والدليل علىٰ ذلك من يعلم الوليد الذي لا يعي أي شيء في الدنيا حبه وارتباطه بأمه وأبيه ، فنجده دائم التعلق بهما لحبه وحاجته لهما ؟ وكذلك هـٰذا الحب الذي يتولد لدىٰ الوالدين تجاه وليدهما الذي أتىٰ للدنيا منذ فترة وجيزة .

وقدم الحجة والبرهان مؤخراً العقاب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ

---

(1) البقرة ، 216 .
(2) البقرة ، 155 ـ 157 .
(3) الذاريات ، 56 ـ 57 .

إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (2) ، فيؤخر المؤخر بالإطلاق عقابه وحسابه إلىٰ ما بعد وضوح الحجة والدليل الواضح للهداية والضلال ، فيكون عقابه لأي قوم عبرة لمن يأتي بعدهم وذكرىٰ لمن نسي وانشغل عن الحق .

فلم يكن ٱلله معاقباً لقوم دون أن يبعث فيهم رسولاً لإنذارهم وتحذيرهم وهدايتهم ، وبعد الحجة والبرهان يأتي الجزاء والحساب ، فبذلك يتأخر العقاب عن الحجة لأن ٱلله تعالىٰ عادل لا يظلم أحداً ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (3) ، فشهادته هي الحق التي لا ظلم ولا جور فيها يوم تقوم الساعة ، فعلم الإنسان بالشيء ينفي أي تبرير له بالخطيئة .

المؤخر هو الآخر :

كيف يكون مؤخراً إذا لم يكن آخراً ؟

فهو الآخر بلا انتهاء وهو الآخر بعد كل شيء ، وهو الآخر الذي ترجع

---

(1) الشعراء ، 208 ـ 209 .
(2) الطلاق ، 8 ـ 12 .
(3) النساء ، 165 ـ 166 .

إليه الأمور جميعاً ، فعنده تبدأ وتنتهي جميع الأمور ، وهو المحيط بجميع الأوائل والأواخر ، فما من آخر إلا والله بعده ، لذلك فأمر التأخير بيده وحده عز وجل ما دام هو الآخر المتحكم في البدايات والنهايات جميعاً ، إنه المقدم بخلقه والمؤخر بفنائه لما خلق ، ومقدم بإحيائه ومؤخر ببعثه ، فهو الذي يؤخر ما يشاء ، ويُقدِّم ما يشاء ، فكل تأخير له نهاية يتحكم بها المؤخر المطلق ، فالمؤخر هو الباقي وكل أخير زائل ما عدا ٱلله جل جلاله ، فالآخر هو الذي يستحق العبادة والطاعة فلا نؤخرهما لانشغالنا بأمور الدنيا ، فكيف ننشغل عن الآخر الباقي الذي خلقنا وأنعم علينا بنعمٍ كثيرة ، قال تعالىٰ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [1] .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يدرك أن له بداية ونهاية ثابتتين وهما بأمر الخالق عز وجل ، لا يتدخل أحد في تقديم أو تأخير شيء لا يريده ٱلله تعالىٰ ، بل إن كل شيء له بداية ونهاية حتىٰ اللحظة والدمعة والبسمة إلا الآخر المطلق في بقائه فلا يتعلق الخليفة بسواه لأن التعلق بغيره هو تعلق بالعدم والفناء ، أما التعلق بالآخر الباقي فهو التعلق بالحي الذي لا ينتهي ولا يزول ، قال تعالىٰ : ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [2] ، فإذا وصل الإنسان إلىٰ هـٰذه الدرجة من القناعة فإنه سيوكل أمره لله ويرضىٰ بقدره ونصيبه ، قال تعالىٰ : ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [3] ، ففي الآية الكريمة السابقة تأخير لصفة من صفات ٱلله تعالىٰ عن الفعل الذي يجب أن يقوم به الإنسان ، فقد وصف الخالق نفسه بالحياة الأزلية التي لا تنتهي ولا تزول مقدماً علىٰ ذلك ضرورة توكل الإنسان

(1) الحديد ، 1 ـ 3 .
(2) الرحمـٰن ، 26 ـ 27 .
(3) الفرقان ، 58.

عليه ، وأخر التسبيح عن التوكل لأن من توكل علىٰ ٱلله فعلاً أخلص في عبادته والتسبيح نوع من العبادة .

لذا يجب علىٰ الخليفة أن لا يكون مؤخراً للآتي :

أ ـ لقول الحق :

كلمة الحق حين تقال في وقتها دون تأخير تكون أثمن من كنوز الأرض جميعاً ، فهي لا تقدر بثمن لما فيها من حفظ للحقوق البشرية التي قد تضيع بتفشي مرض موت الضمائر البشرية بسبب المصالح الدنيوية ، فالمصلحة الشخصية هي الصخرة التي تتحطم عليها المبادئ والقيم الأخلاقية ، وبذلك يتجرد الإنسان من آدميته فَيُزَوِّرُ شهادة الحق إذا تطلب الأمر ذلك ، متناسياً جريرة هـٰذه الشهادة وما تعود به من ضرر جسيم وهـٰذا ما جعل الرسول الكريم ﷺ يبين لنا خطورة وعقوبة هـٰذه الشهادة بوصفها من الكبائر ، « حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ : ذَكَرَ رسول الله ﷺ الْكَبَائِرَ أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ فَقَالَ الشِّرْكُ بِاللهِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَالَ أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قَالَ قَوْلُ الزُّورِ أَوْ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ » (1) ، فيصبح الإنسان ظالماً متجبراً دون رادع له بغياب الضمير ، لأنه بموت الضمير تموت صلته بالله سبحانه وتعالىٰ فتراه يكذب ولا يتردد في تزوير الحقائق التي تؤدي لتدمير الحقوق ونزع الثقة .

ولـٰكن علىٰ من يسعىٰ لأن يكون خليفة ٱلله في الأرض ، أن يكون من الذين قال ٱلله تعالىٰ عنهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ (2) ، فلا ينطقون إلا بالحق ولا يكتمون شهادتهم لخوف من زوال

(1) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 243 .

(2) الفرقان ، 72 .

منصب أو ضياع ترقية أو تهديد ممن هو أرفع شأناً منه أو مقابل مال ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

إذاً فتأخير شهادة الحق والنطق بها من شأنه أن يقضي علىٰ الحقوق التي يجب حفظها لتبقىٰ الحياة تسير وفقاً لما أرادها ٱلله تعالىٰ أن تسير .

ب ـ لفعل الخير :

لا يجب أن يتأخر الإنسان عن فعل الخير لأي سبب كان ، فالخير لابد أن يكون متقدماً علىٰ كل شيء في نفسه ليتم إحقاق الحق وانتشار الفضائل بين الخلق ، فتتأخر بذلك الشرور والمفاسد بين الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ (2) ، والخير كلمة جامعة لمعاني عديدة إذا اجتمعت عم الخير والصلاح في الأرض وكان البشر خلفاء ٱلله في الأرض يؤدون رسالته التي خُلِقوا من أجلها ، فيعمّروا ويصلحوا وينشروا الخير الذي يتضمن مما يتضمن الآتي :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

المعروف مطلوب أن يكون بين الناس ليبقوا علىٰ علاقة وثيقة ومودة مع بعضهم البعض ، فلا يتناحرون علىٰ متاع الدنيا ولا يتنازعون فيما بينهم ، فلا تضيع الحقوق ولا تُسْلَب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) ، فقد

---

(1) البقرة ، 283 .

(2) المؤمنون ، 60 ـ 61 .

(3) التوبة ، 71 .

أخر ٱلله طاعة الرسول ﷺ عن طاعته لأن طاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة ٱلله ، فلا يتقدم طاعة ٱلله شيء بل يتأخر عنها كل العبادات لأن طاعته عز وجل أصل كل العبادات وأساس قيام أنبل علاقة بين الخالق وعبده فلا يجد الإنسان في نفسه ضيقاً من عبادة ٱلله ولا يؤخرها من أجل شأن من شؤون الدنيا ، بل كل متاع الدنيا يتأخر عن رضا ٱلله تعالىٰ ، بذلك يكون الفوز في الدنيا والآخرة .

وعليه فالأمر بالمعروف حق علىٰ الخليفة مستوجب الاتباع والممارسة . والنهي عن المنكر واجب التنفيذ علىٰ الخليفة مع حُسن الأداء . وفي الآيات السابقة قدم ٱلله المقدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ إقامة الصلاة وإتاء الزكاة وطاعة ٱلله والرسول ، وذلك لأن الدين معاملة ، والمعاملة الحسنة لا يمكن أن تتم إلا بإيمان أي أن الإيمان هو الذي من ورائها ، أي لولاه (لولا الإيمان) ما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبهـٰذا يكون إثبات الإيمان وتقدمه علىٰ كل عمل صالح ونافع ، ولـٰكن مع الناس كما سبق أن قلنا الدين معاملة حسنة ، فمن عمل عملاً صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ولهـٰذا يجازىٰ العباد بالأعمال ويعاقبون عليها ، فبالأعمال يتم دخول الجنة أو دخول النار ، ولهـٰذا قدم ٱلله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما من الأعمال التي بها يتم الفوز بالجنة . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [1] .

والإنفاق في وجوه البر والإحسان :

قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

(1) البقرة ، 281 .

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (1) ، من وجوه الخير الإنفاق في سبيل ٱلله بدون تأخير لذلك ، وقد وضّحت الآية الكريمة السابقة جزاء الإنفاق في سبيل ٱلله مؤخراً الشرط لقبولها قبولاً تاماً ، وهـٰذا الشرط هو عدم المن والأذىٰ الذي قد يتبع الصدقة عند بعض الناس ، فجاء الشرط متأخراً عن الجزاء العظيم لها لبيان أهمية الإنفاق بين المسلمين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (2) .

وخلفاء ٱلله كانوا منفقين علىٰ قدر استطاعتهم مؤخرين بقدر الإمكان الفقر في المجتمع الإسلامي ومقدمين حاجة المسلمين عن متاع الدنيا ، وأول من يستحق هـٰذا الإنفاق هم صلة الأرحام من أقارب ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ (3) .

وبر الوالدين والإحسان إليهما :

قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا

(1) البقرة ، 261 ـ 262 .
(2) البقرة ، 272 ـ 274 .
(3) البقرة ، 215 .

كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (1) ، كان في تأخير الأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين عن الأمر بتوحيد ٱلله تعالىٰ توضيحاً لتعلق الأمرين ببعضهما البعض مع أسبقية التوحيد عن الإحسان للوالدين ، فالخير بأنواعه مرتبط ببعضه البعض لا نستطيع فصله إذ أن كل نوع منع يؤدي بالضرورة إلىٰ باقي الأنواع ، فطاعة ٱلله ترتبط بطاعة الوالدين ورحمتهما في كبرهما .

وليس من خلفاء ٱلله بالإضافة من كان عاقاً لوالديه جاحداً لهما ، بل خليفة ٱلله بالإضافة هو من سكنت الرحمة قلبه وامتلأت نفسه بالمحبة لكل من حوله وأولهما الوالدان اللذان أوصانا ٱلله بهما وأمرنا برعايتهما في كبرهما والإنفاق عليهما والدعاء لهما وصلة رحمهما .

والأمر بالعدل وإحقاق الحق والنهي عن الظلم :

من المستحيل أن يسود العدل بين الناس في وجود الظلمة والجبابرة ، فإذا وُجِد الظلم تأخر ظهور العدل لحين القضاء علىٰ جميع أنواع الظلم ، فالحقوق تبقىٰ ضائعة في وجود الظالمين ، والجور يكون عنواناً للتعامل بين القوي والضعيف ، ولـٰكن ٱلله تعالىٰ جعل من أساس المجتمع الإسلامي الصحيح قيامه علىٰ العدل والسعي إليه ليصل كل فرد مسلم لحقه بلا زيادة أو نقصان ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (2) ، وقد تأخر النهي عن الظلم عن الأمر بالعدل لأنه إذا ساد العدل انتهىٰ بالضرورة الظلم فلا يجتمع كل منهما مع الآخر ، فيُخْلَق

---

(1) الإسراء ، 23 ـ 24 .

(2) النحل ، 90 ـ 91 .

بتلك المبادئ النبيلة مجتمع سويٌّ لا أمراض اجتماعية فيه كالظن والغيبة وأكل مال الآخرين وغيرها فنستحق بذلك خلافة هـٰذه الأرض كما أراد ٱلله ، فخلافتها لا تأتي إلا بسيادة العدل وانتهاء الظلم من علىٰ وجهها .

وعلىٰ خليفة ٱلله بالإضافة مهما كان مركزه بسيطاً أو رفيعاً أن يلتزم هـٰذا المبدأ وهو العدل ، فالقاضي العادل هو كل ما يحتاجه المظلومون ، والأستاذ يجب أن يكون عادلاً بين طلبته لا يفضّل قريباً له أو ثرياً بغرض الاستفادة بل يعطي لكل طالب حقه ، وحتىٰ الأب عليه أن يكون عادلاً بين أبنائه فلا يحرم من حنانه ابناً ويعطي للآخر ولا يفضل الذكر عن الأنثىٰ كما نجد في بعض العائلات إلىٰ حد الآن .

ج ـ لمحاسبة نفسه :

بما أن النفس البشرية كثيرة الخطأ والزلل كان لابد لها من قاضٍ لها يحاكمها ويردعها وهـٰذا القاضي هو الضمير الذي أوجده ٱلله فينا رادعاً لنا عند الخطأ ، وبغياب هـٰذا القاضي تسود الفوضىٰ النفس البشرية وتضيع في دروب الضلال والفساد ، قال تعالىٰ : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (1) ، ولا يكون عاقبة ترك النفس تعمل ما بدا لها إلا الندم والتحسر لأن في ذلك وقوعاً في الذنوب والمعاصي التي لابد أن يستغفر الإنسان ويتوب عنها لعل ٱلله تعالىٰ يقبل توبته ، قال تعالىٰ : ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (2) .

الخليفة بالإضافة هو من صادق ضميره فصدقه ، وهو من كان علىٰ موعد في كل لحظة ودقيقة مع نفسه فلا تخرج عن طوعه لأمر الدنيا ، لأن في زينة الحياة الدنيا مفسدة ومضيعة للنفس البشرية ، والخليفة بالإضافة هو من قالت له

(1) القيامة ، 1 ـ 2 .

(2) يوسف ، 53 .

نفسه عندما عرضت الدنيا متاعها له : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، بذلك تكون النجاة من النار وبئس المصير ، وقد وضع ٱلله القوانين والشرائع العادلة التي تسهّل علىٰ الإنسان السير عليها في الحياة الدنيا ، ومن خالف هـٰذه الشرائع فقد زل ومال عن الحق ، ويكون هـٰذا الزلل والميل لضعاف النفس الذين يستمعون إلىٰ وسوسات الشيطان الرجيم الذي توعد بإغواء من يستطيع من البشر لجرّهم إلىٰ عذاب الجحيم ، انتقاماً منه وبغضاً له لتفضيل ٱلله تعالىٰ للإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (2) .

د ـ لحلمه :

الحلم من الصفات التي تصل بالإنسان إلىٰ أطيب النتائج ، ولنا في الرسل والأنبياء الأسوة الحسنة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (3) ، فلا يجب أن يؤخر الإنسان حلمه عن غضبه فإذا سبق غضبه حلمه لا فائدة تُرجىٰ منه بعد ذلك ، فالحلم من ٱلله والتسرع من الشيطان .

من شأن حلم الإنسان أن يريه الصواب من الخطأ في أمور حياته فيكون

---

(1) الأنعام ، 32 .
(2) ص ، 71 ـ 83 .
(3) التوبة ، 114 .

بذلك حكيم الرأي صائب النظرة ، علىٰ عكس من كان سريع الغضب فإنه يكون دائم الندم ذا نظرة ضيقة ولا يكون حكمه علىٰ الناس حكماً صحيحاً .

والخليفة بالإضافة يجب أن يتصف بالحلم البعيد عن الطيش ، مؤخراً عقابه ورده علىٰ من أغضبه ، راجياً بذلك أن يراجع ذلك المخطئ نفسه فيرجع عما فعله ، ويكون حليماً علىٰ من خالف أمره دون سبب لذلك فيتعامل معه بالحلم والأناة حتىٰ يتخطىٰ فورة غضبه الذي يقود الإنسان إلىٰ الانتقام السريع والمبالغ فيه ، بل إن خليفة ٱلله بالإضافة عليه أن يتعود الصفح حتىٰ يصبح من طباعه ، فكما أن الإنسان يحتاج أن يحلم عنه من هو مسؤول عنه فهو بالتالي عليه أن يحلم عمن هو مسؤول عنهم ، لأنك في الأصل تعبد وتوحد الحليم المطلق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (1) ، وقد كان لنا في رسول ٱلله ﷺ أفضل قدوة وأروع مثال للصبر وتحمُّل مصاعب الأمور وتخطيها بالحلم ، فلم يأخذه الغضب فعاقب بما يتعدىٰ الحدود ، بل كان كثير الصفح دائم الصبر حليماً متأنياً في أموره وأمور من حوله .

لذلك فخليفة ٱلله بالإضافة لا يجب أن يؤخر حلمه عن غضبه ، ولا تعجله عن صبره ، فبذلك يصل إلىٰ معالي الأمور ، وتكون علاقته بمن حوله من علاقته بالحليم المطلق ، الذي يصفح ويعفو مع قدرته عز وجل .

هـ ـ لعلمه :

العلم النافع يجب أن يكون مشاعاً لكل الناس ، لا يحتكره أحد لنفسه ، فالفائدة من علمٍ نافع هي فائدة يجب أن تكون جماعية وليست فردية

---

(1) الشورىٰ ، 40 ـ 43 .

وإلا لما كانت فائدة من الأساس ، لذلك نجد أن العليم المطلق أكّد علىٰ وجوب تحصيل العلم النافع الذي يصل بالإنسان إلىٰ أعلىٰ درجات الرقي في التفكير ، فأول ما دعا إليه رسول ٱلله ﷺ هو العلم ولو بإشارة له ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (1) ، فالقراءة أصل المعرفة ولـٰكن ليست أي قراءة فكثيراً ما نجد أعداداً هائلة من الكتب داخل المكتبات حالياً ليست لها علاقة بالعلم النافع الذي يوصي به ٱلله تعالىٰ خلفاءه ، فالعلم الصحيح هو الذي إذا ساد في مجتمعٍ ما أخر الجهل بل أنهاه ، فالجهل نقيض العلم ولا يمكن أن يسير أحدهما في طريق الآخر دون أن يتصادما ، وعلم لا يقود إلىٰ الهداية ضلالة ، ولذا فالعلم هو المؤخر للجهل والمرض والذل والظلم وللغش والتزوير والخيانة .

ومن شأن العلم أن يؤخر الغفلة التي قد تسود النفس البشرية في غياب المعرفة التي من شأنها أن تنير هـٰذه النفس ، فتبدع وتملك القدرة علىٰ خلافة الأرض .

وعلىٰ خليفة ٱلله بالإضافة أن لا يجعل من علمه عاملاً مؤخراً له ، فلا يؤخره عن أحد ولا يمنع غيره من الاستفادة منه ، فتكون دعوته البحث والفحص عن محاسن الأخلاق ومفاتحها بعيداً عن الغرور والتكبر به ، فيؤدي به ذلك إلىٰ الخوف من العليم المطلق في الأقوال والأفعال ، فعلمٌ كهـٰذا إذا ساد وانتشر ولم يتأخر عن أحد اتجه الناس للعلم بصفات ٱلله تعالىٰ وأحكامه وما هو حلال وحرام في حدود الإقدام علىٰ ما يجب والابتعاد والاجتناب عما لا يجب الإقدام عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦

(1) العلق ، 1 ـ 5 .

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، فالعليم المطلق يخاطب من يبحثون عن العلم لأن فيهم فلاح وصلاح الأرض ، وبهم يتأخر الجهل والضلال بين الناس وبتأخر الجهل تعلو درجات الإيمان الحاصل عن الوعي بما أرادنا الله تعالىٰ أن نكتشفه بعقولنا وقلوبنا .

ولهـٰذا يجب علىٰ الخليفة أن يكون مؤخراً للآتي :

أ ـ لغضبه :

الغضب من أسوأ نتائجه الانتقام السريع الذي يدمّر الإنسان نفسه ومن حوله ويوقعه في دوامة الندم والحسرة ، فعندما يؤخر الإنسان الحلم في نفسه فبالضرورة أن يكون الغضب متقدماً في نفسه علىٰ الصبر والتأني ، وليس معنىٰ ذلك أن لا تتحرك مشاعر الغضب لدىٰ الإنسان أو أن تتجمد عواطفه ، بل المقصود أن لا يكون الغضب والانفعال السريع رائداً في نفس الإنسان ، فيقوده غضبه إلىٰ التمادي في الرد وهـٰذا التمادي لا يكون عاقبته إلا سيئة وخطيرة ، وكثيراً ما نلحظ أنه في جرائم القتل والضرب يكون دافعها فورة غضب عارمة تلم بالإنسان يدعمها الشيطان لتتم الخطيئة والمعصية .

وعلىٰ خليفة الله بالإضافة أن يكون مؤخراً لغضبه بقدر الإمكان ليؤخر

---

(1) المائدة ، 96 ـ 103 .

بذلك أخطاءاً ومعاصي جمة تتعلق بسرعة غضبه ، وعليه أن يتخذ من علاقته بالله تعالىٰ دليلاً له للتعامل مع نفسه ومع من حوله ، فأصل العلاقة الصحيحة بين ٱلله وعبده هي علاقة رحمة وحلم مطلقين من الحليم المطلق عز وجل .

ب ـ لحكمه علىٰ الناس :

الحكم الصحيح علىٰ الناس يتطلب الوقت الكافي للمعرفة والحكمة والتأني في تكوين هٰذا الحكم ، حتىٰ لا يقع الإنسان في الخطأ ، فلا بد أن يؤخر الإنسان حكمه علىٰ الغير إلىٰ ما بعد التجربة والدليل ، فلا يتسرع في حكمه علىٰ أحد فيظلمه دون علم أو دليل ، لأن في تكوين الحكم السريع علىٰ الناس مخاطر جمة منها فقد الثقة ببعضهم ، وعدم الفهم الصحيح للتصرفات الخارجية للغير فتقل المحبة وتتأخر في المجتمع البشري ، فيتعامل الإنسان مع غيره علىٰ أساس رأيه هو ونظرته في ذلك الإنسان وكأن حكمه لا يمكن أن يكون خطأً .

والحال مع خليفة ٱلله بالإضافة يكون مختلفاً لأنه لابد أن يكون متأنياً في تكوين رأيه قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ (1) .

ج ـ مؤخراً لحاجته عن حاجة من حوله :

الإيثار من الصفات النبيلة التي قد لا تتواجد بكثرة في النفوس البشرية ، فنلحظ أن من الناس من يؤخر حاجة غيره عن حاجته ، فلا يلتفت إلىٰ غيره إلا بعد استكمال تلبية حاجاته الشخصية ، ولٰكن هٰذا لا ينفي وجود هٰذه الصفة الكريمة في صدور بعض الناس الذين أفلحوا في الدنيا والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ

---

(1) الحجرات ، 6 .

نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (1) .

ونلاحظ أن صفة تأخير الحاجات الشخصية عن حاجات الغير متواجدة في شخصيتين متميزتين في حياتنا وهما الوالدان ، فالأب والأم يؤثران حاجات الأبناء عن حاجاتهما الذاتية ، فنجد الأب يسعىٰ في الدنيا جاهداً لتوفير احتياجات أبنائه مؤخراً حاجاته الدنيوية عن ذلك ، وكذلك الأم فيكون كل هدفها تحقيق رغبات أبنائها وطلباتهم ، متناسية حاجاتها وطلباتها الشخصية .

وعليه يكون الخليفة مؤخراً للآتي :

1 ـ للشر بتقديم الخير :

الكون مليء بالشرور والخيرات ، وكل منها ينمو بالرعاية والمحافظة ، فالشر سريع الانتشار حينما يجد الأرض الملائمة في داخل النفس البشرية التي يسيطر عليها الشيطان الرجيم ، فيسكن فيها ويبث شروره وحقده التي يسير الإنسان بها في الأرض مفسداً ومدمراً ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (2) ، ولا يكون القضاء عليه إلا بزرع الخير بدلاً منه والخير بالتالي لا يأتي إلا بحب ٱلله الذي من شأنه أن يجعل الخير طاغياً علىٰ جميع مناحي النفس البشرية ، وبذلك يستحق الإنسان خلافة ٱلله في الأرض بدعائه للخير وتأخيره ما استطاع لكل دعوات الشر في الكون ، فيكون سلاحه الخير سلاحاً فعّالاً يرتوي من نبع محبة الخالق الذي أمرنا بنشر الخيرات والفضائل وهما الوسيلة التي نواجه بها كل شرور المفسدين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (3) .

---

(1) الحشر ، 9 .

(2) الشعراء ، 152 .

(3) آل عمران ، 104 .

2 ـ لليأس بتقديم الأمل :

لا يجتمع اليأس مع الأمل في نفس بشرية واحدة ، إذ أنه لابد أن يميت أحدهما الآخر ، فاليأس حين يتمكن من القلب تنطفئ كل شموع الأمل فيه ، ولا يمكن أن يتمكن اليأس من القلب الممتلئ بذكر ٱلله تعالىٰ وخشيته ، قال تعـالـىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (1) ، والمعادلة هنا واضحة فلا وجود للأمان والطمأنينة إلا بوجود الأمل ، والأمل بدوره لا يمكن أن يولد ويكبر إلا في الأرض المناسبة وهـٰذه الأرض هي روح الخليفة وقلبه ، وبالتالي لا يمكن أن يكون اليأس أحد طرفي هـٰذه المعادلة ، فالخوف ينتفي مع الأمان واليأس ينتفي مع الأمل ، والآية الكريمة السابقة قد أقرت مبدأً رائعاً لو سار عليه البشر لما خسروا دنياهم وآخرتهم ، وهـٰذا المبدأ هو إذا بحثت عن الطمأنينة فعليك أولاً بالبحث عن مكانة ٱلله فيك ، فكلما زاد حبك لله وقربك منه أهداك ٱلله أماناً يبحث عنه أغلب البشر ولا يجدونه في عملٍ رابح ، أو ابنٍ ناجح ، أو زواجٍ مميز ، فحب ٱلله للعبد لا يمكن أن يساويه محبة العبد للعبد ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (2) .

وخليفة ٱلله من كان الخير متقدماً في نفسه ، يدعو إليه ما استطاع لعلمه أن الدعاء للخير تأخير للشر في الدنيا ، وفيه غلبة الإنسان علىٰ الشيطان وما يوسوس به لبني الإنسان من ضلال وفساد .

---

(1) الرعد ، 28 .

(2) صحيح البخاري ، ج 22 ، ص409 .

3 ـ للباطل بتقديم الحق :

قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (1) ، فالباطل في أصله ضعيف وزائل والحق قوي وباقٍ لأن ٱلله حق والله باقٍ ، ولا يمكن للباطل أن يتقدم علىٰ الحق إلا لأجل يعلمه ٱلله ليأتي الحق دامغاً للباطل ومزيلاً له ، قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (2) ، حتىٰ ولو تأخر الحق قليلاً إلا أنه يبقىٰ متقدماً عن الباطل في قلوب خلفاء ٱلله في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (3) .

وقد كان لنا في الأقوام السابقة أكبر عبرة ، فقد زال كل ما كانوا يدعون من دون ٱلله لأن كل ما كانوا يدعون من دون ٱلله هو باطل وبقي الحق وأظهره ٱلله بأمره بالتوحيد والعبادة له وحده ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (4) .

وخليفة ٱلله من دعا للحق دائماً وأرسىٰ دعائم هـٰذا الحق في زوايا نفسه ، فلا يترك للباطل مدخلاً يلج منه لروحه ، وبدعوته للحق فإنه يؤخر تفاقم الدعوة للباطل التي تكون سريعة الانتشار في النفوس بالعديد من الوسائل منها :

❊ التودد لأعداء ٱلله :

فالقرب وتملق أعداء ٱلله لهدف ذاتي أو لغرض بشري من شأنه أن يجعل الباطل يسود مناحي نفسه ويسيطر علىٰ ذاته فيدعو غيره لذلك وعمل علىٰ نشر

---

(1) الإسراء ، 81 .
(2) الأنبياء ، 18 .
(3) سبأ ، 49 .
(4) الحج ، 62 .

الباطل الذي أمرنا ٱلله بالقضاء عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1) ، فعاقبة هـٰذا الود هو سوء المصير وفساد الحال ، في حين أن الحق يدعو إلىٰ صلاح الحال والنجاح الأكيد في الدنيا والآخرة .

* اللجوء لغير ٱلله :

اللجوء لغير ٱلله مذلة ، والعمل الصالح خير مقربٍ لله تعالىٰ ، فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره ومن عمل مثقال ذرة شراً يره ولا يظلم ربنا أحداً ، ولهـٰذا فالمشركون هم الذين يتخذون مع ٱلله إلـٰهاً آخرَ ، والله واحد أحد لا إلـٰه إلا هو عز وجل ، وهـٰكذا الذين اتخذوا أولياء ليقربوهم إلىٰ ٱلله زلفىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (2) . وهـٰكذا بعض الناس يخافون البعض الآخر منهم ، وكأن ما يصيبهم بسبب ما يملكه هـٰؤلاء الأولياء من إرادة متناهية وسلطة غير محدودة ، فإذا تحقق صدفةً ما يطلبه أحدهم دعا غيره إلىٰ اللجوء لهـٰذا الباطل وبهـٰذه الدعوة تتسع دائرة الباطل وتنتشر هـٰذه الدعوة الفاسدة ، وترسخ في العقول تلك الفكرة الباطلة التي تسير بأتباعها إلىٰ الهاوية وسوء المصير .

(1) آل عمران ، 28 .

(2) الزمر ، 2 ـ 5 .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون درعاً محافظاً علىٰ الحق ، وسهماً مصوباً في اتجاه الباطل ليردعه ويخفي معالمه في صدور وعقول الناس ، فيؤخر بذلك ازدياد وتفاقم الباطل بين الناس .

4 ـ للجهل بتقديم العلم :

من أوائل ما دعا إليه ديننا الإسلامي القيّم هو العلم ، فبه يصل الإنسان إلىٰ أعلىٰ درجات التقوىٰ وحب ٱلله ، فلا حب ولا خشية تسكن القلوب دون علمٍ نافع ومعرفة تدلنا علىٰ قدرة الخالق ، هـٰذا العلم الذي به نستطيع أن نسحق الجهل الذي يؤدي بصاحبه إلىٰ الضياع والهلاك ، والعلم الذي يدعو إليه ٱلله تعالىٰ هو المتصل بالتوصل لمعرفة الخالق ، فكلما زادت درجة علم الإنسان زادت درجة معرفته لله ، لأنه الظاهر في كل شيء بقدرته وعظمته ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) ، فقد جمع ٱلله تعالىٰ في هـٰذه الآيات الكريمة ما بين العلم والإيمان ، فكل هـٰذه الدلائل في الأرض هي هدية من ٱلله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ من أراد بعلمه أن يصل لخالقه معرفة وتقوىً دون أن يلجأ لشيء آخر ، فبالعلم الصحيح النافع يصل الإنسان إلىٰ أعلىٰ درجات الإيمان بهـٰذا الخالق العظيم .

---

(1) الأنعام ، 95 ـ 99 .

وبالتالي فالجهل أساس التكبر والجحود حتىٰ لو كان الإنسان عالماً في مجال الطب أو الهندسة أو أي نوع من العلوم الأخرىٰ ، فالجاهل حقاً هو من لا يسمع للحق ولا يُلقي له بالاً وهو من لا يرىٰ الإبداع والعظمة في الإعجاز ، فلا ينطق لسانه إلا بالباطل فيظل في الدنيا جاهلاً ، لأن العلم الذي يرقىٰ بالإنسان هو العلم الذي يقود الإنسان لإماتة الغرور والتكبر في النفس ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (1) ، فالجهل هو أقرب طريق لجنهم وبئس المصير والعلم النافع هو أقرب طريق لجنات النعيم ، لذلك أمرنا ٱلله أن نتوصل لحبه ومعرفته بالعلم والتأمل كما كان شأن أغلب الرسل والصالحين وخلفاء ٱلله في الأرض .

لذلك فخليفة ٱلله تعالىٰ لا يمكن أن يكون جاهلاً ضالاً الطريق ، فالجهل من شأنه أن يؤخر منفعة الإنسان من الحياة واستفادته من الوقت المحدد له في الحياة ، فلكل إنسان عمرٌ محدد لا يمكن أن يزيد أو ينقص ساعةً واحدةً ، إذاً العلم النافع والصحيح هو أحد مكونات خليفة ٱلله ، الذي يجب أن لا يتأخر به ولا يبخل به عن أحد طلبه ، بل لا بد للخليفة أن يسير في الأرض ناشراً ما لديه من علمٍ ومعرفة فيقدم بذلك الوعي والصحوة الإيمانية لدىٰ الناس عن الغفوة والضلال الذي قد يقع فيه البشر بسبب سوء الفهم والوعي لديهم ، لذلك فقد فضّل العليم المطلق العلماء عن بقية خلقه لما لهم من دور إيجابي في التعرف علىٰ الخالق بالشكل السليم وبما يجب أن يكون لهم من تأثير إيجابي بين الناس بدعوتهم وتذكيرهم بالحق إذا ضاع منهم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (2) ، فكما جاء في الآية الكريمة

(1) الأعراف ، 179 .
(2) فاطر ، 28 .

لا تسكن خشية ٱلله في قلب الإنسان إلا بما توصل إليه هـٰذا الإنسان من معرفة بما يستحقه هـٰذا الخالق العظيم ، فالقرب الذي يولده هـٰذا العلم بين الإنسان والمولىٰ عز وجل من شأنه أن يصحح خطىٰ هـٰذا الإنسان ويجعله مدركاً لما عليه ربه من عظمة وما يستحقه من إجلال ، بذلك يؤخر هـٰذا العلم الذي ترسخ بالشكل الصحيح في عقل وقلب الخليفة إذا سار به بين الناس أخَّر الجهل الذي يقودهم إلىٰ الخطيئة والمفاسد ، فيتجهون إلىٰ العقل للاستفسار ويتجهون بالقلب للاستفتاء فيجدون بذلك ٱلله في عقولهم وقلوبهم ، وإذا وجدوا ٱلله تعالىٰ فقد وصلوا إلىٰ أفضل حياة ونالوا أفضل مصير .

فالعليم المطلق قد رفع قدر العالم وأخَّر الجاهل ، قال تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (1) .

5 ـ للمرض بتقديم العلاج :

والمرض هنا نوعان المرض الجسدي والمرض النفسي ، والمرض النفسي أكثر صعوبة وتعقيداً من المرض الجسدي ، وكل منهما يصل بالإنسان إذا تأخر العلاج أو أُهْمِل إلىٰ أسوأ النتائج ، فالمرض الجسدي يجب أن يُعالج بالدواء وبالأمل ، من شأن العلاج الأول أن يحد من المرض أو أن يقضي عليه نهائياً فبذلك يؤخر استفحال وانتشار المرض بهـٰذا الدواء ، ومن شأن العلاج الثاني أن يعمل علىٰ القضاء علىٰ المرض وعدم الاستسلام له فيذكر ٱلله في مرضه وصحته وبذكر ٱلله يتجدد الأمل بشفائه وتخطيه لكل مرض ، لأن ذلك من عند الخالق وهو القادر علىٰ تخليصه من كل داء إذا شاء ، والنوع الآخر من المرض هو المرض النفسي الذي قد يصيب بعض الناس بسبب عوامل عدة منها التي تتكون داخل نفس الإنسان ومنها من تأتي له من البيئة المحيطة به ، فيتزلزل كيان هـٰذا الإنسان ويصبح متأخراً بعطائه وبقدرته علىٰ التكيف وسط الناس ،

---

(1) المجادلة ، 11 .

ويؤدي بهـٰذا الإنسان إلىٰ أسوأ مصير كالانتحار أو الانطواء المميت الذي يفقده الانتفاع من نعمة الحياة ، ولكي نتفادىٰ هـٰذه الأمراض النفسية يجب أن نتقدم نشر الوعي الإيماني لدىٰ الناس بخطورة تفشي هـٰذه الأمراض المدمرة التي من شأنها أن تهدم البنية التحتية لأي مجتمع تكثر فيه ، وهـٰذا الوعي يأتي علىٰ مراحل منها :

* الاختيار الصحيح للزوج :

فكل من الزوجين عاملٌ مهم وأساسي في بناء شخص سليم نفسياً قادر علىٰ العطاء ، إذ أن العلاقة السوية بين الزوجين تنتج عنها بالتأكيد أشخاص صحيحون نفسياً لا تشكل الأزمات التي نمر بها في الحياة أي خطورة في مسيرة حياتهم ، بل نجدهم أشخاصاً باحثين عن الأفضل في الدنيا ، علىٰ عكس من يجد نفسه وسط بيئة هي خليط من التناقض الذي يولد الأزمات بين الزوجين التي من شأنها أن تستقر في نفس هـٰذا الابن مخلفة فيها أسوأ أثر ، فلا يستطيع هـٰذا الإنسان أن يعيش فرداً سوياً معطاءاً وسط مجتمعه ، بذلك فإن المرض النفسي يؤخر تطور المجتمع من كل النواحي والمجالات ، وبهـٰذا التأخير لن يصل أفراد هـٰذا المجتمع إلىٰ درجة الوعي والتطور المنشود في الحياة ، ولذا خلق ٱلله الإنسان ليطور الحياة ويسمو بها فوق كل شيء آخر كنعمة من المولىٰ عز وجل وهبها للإنسان طالباً منه المحافظة عليها باستخلافه فيها وتأمينه عليها ، وهـٰذه الخلافة يؤخرها عن تحقيق الهدف من كان ذا نفسية مريضة أو من كان عاجزاً بشكل جزئي أو كلي عن تحمُّل ما هو أقل مسؤولية عن خلافة الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) .

❊ الثقافة الدينية السليمة :

لا يمكن إهمال هٰذا الجانب المهم في حياة أبنائنا ، وليس المقصود هنا فقط تعليمهم أصول الصلاة وأركان الإسلام فقط ، بل تهيئتهم دينياً لمواجهة أي زلزال قد يصيب النفس البشرية إثر فشل في موضوع ما أو توالي الأزمات علىٰ الإنسان ، أو التأثر ببعض الشخصيات التي لها تأثير سلبي ، فمن شأن الثقافة الدينية أن تنأىٰ بالنفس البشرية عن كل ما هو مدمر وفاسد ، فنكون بذلك مؤخرين للتخلف الديني الذي يصل بنا إلىٰ التخلف الحضاري ، والثقافي ، والديني ، بذلك فقط نستطيع أن نكوّن مجتمعاً صالحاً قوياً يواجه أي أزمات من أي نوع كانت وفقاً لدائرة الممكن .

ولا يجب علىٰ خليفة ٱلله الاتكال علىٰ الوقت للإصلاح أو إهدار العمر فيما لا ينفع بحجة وفرة الوقت للتوبة لأن المؤخر هو المقدم والمقدم هو المفاجئ والمباغت علىٰ غفلة من الزمن لا يدري الإنسان متىٰ تكون ، عندما لا ينفع ندم ولا عتاب علىٰ ما فرّط في الحياة الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (2) ، فالمؤخر حين يخاطب العقل البشري فذلك كي يدمغه بالحجة والبرهان ولكي يوضّح له طرق الخير والهداية فيستفيد من تأخير عقابه بالرجوع إلىٰ ٱلله الحق ، وتعديل ما يمكن تعديله .

---

(1) البقرة ، 30 ـ 33 .

(2) الأنعام ، 30 ـ 32 .

ومن حكمة المؤخر ورحمته بعباده أنه :

أخَّرَ الحاجات الدنيوية عن مشبعاتها :

فقد خلق ٱلله مشبعات الحاجة عن الحاجة نفسها ، فنلحظ أنه قد هيأ وجهَّز حاجات الإنسان علىٰ الأرض حتىٰ قبل خلقه ، مؤخراً بذلك حاجته عن مشبعاتها ، فخلق الهواء والماء والسماء والأرض والجبال وغيرها من مكونات الحياة ومتطلبات الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [2] ، فجاء الإنسان بحاجته إلىٰ الأرض فوجد ما يسده عليها من حاجات مادية ونفسية ، فأخر قدوم الأبناء إلىٰ ما بعد خلق مشبعاتهم المادية والنفسية ، فنجد أنه قبل خروج الجنين من رحم أمه يوجد ٱلله تعالىٰ مشبعات حاجته للطعام ، بأن يخلق الحليب في ثدي الأم فيشبع حاجته للطعام وتكون متوفرة فيأتي الوليد بعد مجيء طعامه ، وكذلك يهيئ ٱلله تعالىٰ ويوفر ما يحتاجه من متطلبات نفسية كالحاجة للشعور بالحنان والأمان والرعاية والدلال قبل أن يأتي للدنيا بوجود الوالدين اللذين يمثلان كل تلك المشاعر ، وخليفة ٱلله بالإضافة عليه أن لا يؤخر هٰذه المشاعر عنهما في كبرهما وحاجتهما ، فلا يتأخر بحنانه ولا بحبه عنهما ولا ينتظر أن يسألاه عنهما ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

---

(1) الأنعام ، 99 .

(2) النبأ ، 6 ـ 16 .

﴿تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [1] .

أَخَّرَ مراحل العمر مع النضج :

فقد أخر الشباب عن الطفولة وأخر الشيبة عن الشباب ، فيأتي الإنسان إلىٰ الدنيا طفلاً يتعلم من والديه وممن حوله ما يبني به أساس شخصيته فيكون بحاجة إلىٰ من حوله لكي يشب ويشق طريقه معتمداً علىٰ نفسه قوياً ثم يرجع بعد القوة ضعيفاً وذلك ليعلم الناس أن ٱلله هو الخالق المبدع الحكيم الذي بيده أمرنا من أوله لآخره ، فبتقديم الشباب عن الشيخوخة تتقدم القوة علىٰ الضعف ، والقوة حين توجد تجعل الإنسان مغروراً وأحياناً متكبراً فتأخرت الشيخوخة لمحاسبة فورة الشباب كالهدوء بعد العاصفة ، ففي هـٰذه المرحلة يتفقد الإنسان الأضرار التي قد تصيب الروح والنفس في المرحلة السابقة لها ، فكان لهـٰذا التأخير أثر إيجابي في تعديل السلوك ومحاسبة النفس .

والله هو المؤخر المطلق فلا يكون تأخيره إلا لصالح البشر وخيرهم ، فيؤخر أمور عباده إذا أراد لغاية لا يدركها الإنسان بعلمه المحدود البسيط ، فهو يؤخر مثلاً الأشياء غير المدركة عن فهم واستيعاب الإنسان كي يسعىٰ ويجتهد عقله في التفكير والتدبير ليصل إلىٰ الحق والهداية ، قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [2] ،

---

(1) الإسراء ، 23 ـ 24 .

(2) الأنعام ، 76 ـ 79 .

لذلك فإننا نلحظ أن الكثير من الآيات القرآنية التي تدعو إلىٰ إعمال العقل لا إلىٰ إطفاء نوره ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (2) .

وهنالك نوعان من التأخير عند البشر منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم :

النوع المحمود :

هو ما كان في سبيل الإصلاح وما فيه الخير والنجاح ، فلا يكون لهٰذا التأخير أية آثار سلبية تعود علىٰ الشخص ذاته أو علىٰ من حوله ، فلا يؤخر الإنسان أعمال الغير ومتطلباتهم بدون وجه حق ، لأنه بتأخير أعمال الناس يتأخر قضاء المصالح فتتأخر الفائدة المنتظرة من ذلك .

النوع المذموم :

مثل تأخير الإنسان لأعمال العباد وتأخير قضاء مصالحهم ، فتعم الفوضىٰ والشكوىٰ وتتأخر النتائج المرجوة من تلك الأعمال ، ومثل تأخير العبادات لما بعد انشغاله بتوافه الأمور ، فلا يقوم للصلاة إلا بعد فراغه من السهر والحديث مثلاً ، فيتأخر بذلك الخير .

وتأخير ٱلله سبحانه وتعالىٰ يكون في دائرة المطلق فهو يؤخر ما يشاء إلىٰ وقتما يشاء وكذلك يقدّم ما يشاء ولا يمكن لأي مخلوق أن يتدخل في هٰذا

---

(1) البقرة ، 164 .

(2) الذاريات ، 20 ـ 21 .

التوقيت المنظّم ، فهو المؤخّر الذي يملك أسباب التقديم والتأخير بالإطلاق ، ولا يملك غيره هـٰذه الأسباب ، أما المؤخر بالإضافة فتأخيره لا يكون إلا في دائرة النسبية ، فهو يستطيع أن يؤخر ويقدّم فيما يملك بما ملّكه ٱلله فيه ، ويكون تأخيره بحدود لا يمكن للإنسان أن يتعداها أو أن يتجاوزها بتأخيره في ملك غيره من البشر ، فما بالك في ملك ٱلله اللا محدود ؟

فالحمد لله علىٰ أنه هو المؤخر المطلق ، فلو لم يكن مؤخراً كما هو ما سار هـٰذا الكون علىٰ هـٰذا النسق البديع والمحكم ، لكانت الفوضىٰ سائدة فيه ، وما كنا استشعرنا الأمان والرحمة فيه ، وما كان الأمل في مغفرته وعفوه حياً في نفوسنا .

وقد تطلبت حكمة الخالق عز وجل ومشيئته أن يختلف الناس من حيث الأشكال والألوان والأعمال ، فكانت هناك درجات وفروق بين الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (1) ، ومع اختلاف هـٰذه الأشكال والصفات في البشر إلا أن الإنسان بصفة عامة إذا أدرك ووثق بقدرة وحكمة ٱلله تعالىٰ المطلقتين لما اعترض علىٰ ما لديه وطلب المزيد ، لأن الإنسان كثيرة المتطلبات والأحلام التي ينشغل بالسعي لتحقيقها في الدنيا متناسياً أنه لا يستطيع تغيير مجرىٰ أمور كثيرة تُخْلَق من أجله ، كموعد ميلاده وهوية والديه وغيرها من الأمور التي تتعلق بمشيئة ٱلله وحده ، ولكنّ الإنسان له حرية اختيار الدرب الذي سيسير عليه في الحياة الدنيا ، فإذا اختار الصدق والتزم الأمانة والدعوة للخير فقد رفع مكانته عند ٱلله تعالىٰ ، وإذا انتهج نهجاً دنيوياً خالصاً لا يلتفت لله في أي عمل يقوم به فقد انخفضت درجته عند ٱلله ، إذاً هناك من يسعىٰ للرفعة عند الخالق عز وجل وهناك من يسعىٰ للرفعة في الحياة الدنيا ، ومن هنا

(1) الإسراء ، 21 .

جاء الاختلاف الحقيقي بين البشر ، وجاء تقديم وتأخير العباد عن بعضهم البعض ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (1) ، فالتكريم للعبد من ٱلله أساسه عمل الإنسان وسعيه في الدنيا بالحق والخير وبتأخير سعيه للدنيا وتقديم سعيه لله عز وجل .

وبما أن الإنسان بصفة عامة يقع تحت اختيارات كثيرة ومتنوعة في الحياة ، فلابد أن يملك الحكمة والعلم الكافيين لتقديم وتأخير الأشياء بعضها عن بعض ومن هنا يظهر ويتميز خلفاء ٱلله ، فنجدهم يؤخرون إرضاء البشر عن رضا ٱلله ، ويقدمون ما ينفعهم في الآخرة عن ما ينفعهم في الدنيا ، فيكونون مؤخرين لشهوات النفس وطلباتها الدنيوية ، فلا يسعىٰ لتوافه الأمور ويؤخر حق الخالق عليه ، وسوف يعلم الإنسان يوم يقف بين يدي ٱلله تعالىٰ ما قدّم وما أخر ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (2) .

بذلك يكون من صفات خلفاء ٱلله تعالىٰ أنهم متأخرون في طلب الدنيا ومتاعها الزائل ، لـٰكنهم المسارعون في طلب الآخرة والسعي إليها ، لعلمهم أن ما عند ٱلله تعالىٰ أبقىٰ لهم ، نزولاً عند قوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (3) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (4) ، فكانوا سمّاعين لكلام ٱلله زاهدين في الحياة الدنيا بما فيها ، عيونهم وقلوبهم ممتدة شوقاً للقاء الخالق الكريم ، يرجون حلمه وعفوه ورحمته ، يطمعون في صحبة رسولهم الكريم عليه الصلاة

(1) يس ، 25 ـ 27 .
(2) القيامة ، 12 ـ 15 .
(3) القصص ، 60 .
(4) الأعلىٰ ، 17 .

والسلام في جنة الخلد ، تملأ قلوبهم الرحمة والحب ، فيؤخرون حب الدنيا عن حب الآخرة ، فالدنيا ما هي إلا هبة من الكريم ونعمة أهدانا إياها طالباً منا الحفاظ عليه ، لذلك فخلفاء ٱلله بالإضافة لابد أن يكونوا علىٰ يقين أن من يتأخر عن ٱلله يؤخره ٱلله فلا فوز له في الآخرة بما شغله عنها في الدنيا من متاع زائل ، يوقعه في الندم علىٰ ما فرّط في الدنيا من وقت وعمل ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، فالتأخير سيكون مطلب الإنسان الخاسر يوم القيامة ، أملاً منه بالنجاة مما يراه ، ولـٰكن المؤخر المطلق لن يؤخر الأجل الذي قدّره هو عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

واعلم أيها الخليفة الذي أراده ٱلله علىٰ الأرض إنك إذا وصلت متأخراً إلىٰ الحقيقة قد خسرتَ خسراناً كبيراً ، كما خسر فرعون عندما أنزل ٱلله تعالىٰ عقابه عليه ، عندها فقط أدرك متأخراً جداً أن ٱلله حق وأنه لا إلـٰه إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، فلم يحصد إلا الندم والعذاب بتأخير هـٰذا الاعتراف الذي هو أصل كل النجاح والسعادة .

فشعورك بالاستسلام لله وخضوعك للرحيم المطلق الذي يمنحك راحة لن تجدها في مال أو ولدٍ أو زوجة أو أي شيء آخر ، لن تجده إلا بين يدي ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا ما يخسره الكافر ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ

---

(1) المنافقون ، 9 ـ 11 .
(2) نوح ، 4 .

ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (1) ، فلا تؤخر أيها الخليفة شعورك بالسعادة ، وهـٰذا الشعور لا يأتي إلا بحبك لله ، الذي يحب أن يرحمك فكيف لا يؤخرك رحمةً بك ؟

وعليه فالمؤخر يؤخر لأجل أن يُقدم ، يؤخر الظلم ليقدم العدل ، ويؤخر الغضب ليقدم الرضا ، ويؤخر الجهل (الظلام) ليقدم العلم (النور) ، ويؤخر الاقتتال ليقدم الجهاد ، ويؤخر الكره ليقدم المحبة ، ويؤخر الحسد ليقدم المودة ، ويؤخر العذاب ليقدم المغفرة ، ويؤخر الكفر ليقدم الإيمان به واحداً أحداً لا شريك له ولم يكن له كفواً أحد ، ويؤخر الفقر ليقدم الزكاة والصدقة والغنىٰ ، ويؤخر الركوع والسجود لغيره ويقدم الركوع والسجود له ، ويؤخر الطلاق ويقدم الزواج ، ويحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون !

اللهُمَّ يا المؤخر لا تؤخر عنا المغفرة والفلاح ، واجعلنا من الغانمين الفائزين ! اللهُمَّ أخر عنا العناء والتعب والألم والجهل والمرض والفقر وقدم يا المقدّم لنا الخير في الدارين !

اللهُمَّ يا المؤخر إنك تؤخر العقاب ليوم الحساب فلا تجعل لنا من الأقوال والأفعال والأعمال ما يؤدي إلىٰ ذلك ، اللهُمَّ يا المؤخر برحمتك تؤخر الحساب علىٰ الخطايا والذنوب لأجل نيل الرحمة والمغفرة قبل الموت فاجعلنا برحمتك ومغفرتك من الفائزين !

اللهُمَّ يا المؤخر اجعل لنا الفوز بالجنة هو الفوز المؤخر بعد الممات ، ولا تجعلنا من المعذبين بالنار ! اللهُمَّ يا المؤخر اجعل لنا في ميزانك الحسنات ولا تجعل لنا فيه شيئاً من السيئات ، إننا نسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلىٰ وجهك الكريم ، وشوقا إلىٰ لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، ونعوذ بك من الظلم والظالمين والحسد

(1) يونس ، 90 ـ 91 .

والحاسدين والنفاق والمنافقين والشرك والمشركين والكفر والكافرين والفساد والمفسدين واجعلنا من عبادك المصلحين المعمرين والمفلحين في الأرض !

اللهُمَّ يا المؤخر نسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، ونسألك قلباً خاشعاً سليماً وخلقاً مستقيماً ، ولساناً صادقاً وعملاً متقبلاً ، ونسألك من خير ما تعلم ، ونعوذ بك من شر ما تعلم ، ونستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ما لا نعلم وأنت علام الغيوب !

اللهُمَّ اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا ، وما أنت أعلم به ، فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت علىٰ كل شيء قدير وعلىٰ كل غيب شهيد ، فاجعل اللهُمَّ خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائك !

✍ ✍ ✍

الأَوَّلُ جَلَّ جَلَالُهُ

الأول هو السابق علىٰ كل سابق ، والقادر علىٰ كل قادر ، والمهيمن علىٰ كل مهيمن ، والماكر بكل ماكر ، والكائد بكل كائد ، والخالق لكل مخلوق ، وهو المحيي والمميت والباعث من جديد ، وهو المحاسب والمعذب والمجازي بالجنة والمعاقب بالنار ، وهو الرحمـٰن الرحيم .

الأول : « العرب لا تستعمله إلا إلىٰ ٱلله ، أو إلىٰ ضميره » [1] .

الأول من أسماء ٱلله الحسنىٰ « يدل علىٰ أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن » [2] .

الأول من النهاية ، مهما فكرت عقلاً ومهما تأملت عقلاً فستصل في النهاية الواعية بأنه الأول بلا أول ، ومهما تذكرت عقلاً لن تبلغ لغيره أول ، ولهـٰذا فهو الآخر من البداية ، وعليه فالقاعدة تقول : (إنه الأول من النهاية والآخر من البداية) .

الأول : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، فهو أول لم يسبقه أول فَحُقَّتْ له بذلك الألوهية وعلا به علىٰ كل شيء ، فدائماً يكون للأول في كل الأشياء فضل علىٰ بقيتها ، فالأول في الفصل الدراسي له الفضل علىٰ بقية التلاميذ ،

(1) مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، ج 1 ، ص 446 .

(2) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 40 .

فهو الذي يتحصل علىٰ المكافأة تقديراً له علىٰ جهده وينال بأوليته هـٰذه احترام المعلمين والزملاء في مدرسته .

فمن يبادر بفعل الخير علىٰ آخر فيقدم له معروفاً ما فيكون هو الأفضل مهما فعل ذلك الآخر من أفعال ليرد جميل ذلك الأول ؛ ذلك لأن الأول فعل الخير للآخر دون أي سبب ولم يكن مُلْزَماً بفعل ذلك ، ولـٰكنه تفضل وتكرم ، وبادر بفعل هـٰذا الخير بدافع المحبة ، أما الآخر فدافعه لفعل الخير للأول هو شكر الأول علىٰ فعله السابق ورد جميله عليه ، ألا ترىٰ أن الوالد يقدم لولده الحب والرعاية ، والإنفاق والاهتمام ، وليس للولد يد علىٰ الوالد تجبره علىٰ فعل ذلك ولـٰكنه يفعله بدافع الحب لهـٰذا الولد ، بينما الولد عند فعله الخير للوالد في حال كبره إن فعل ذلك ، يكون دافعه هو الشكر علىٰ ما قدمه له في صغره كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [1] ، ومهما يقدم له لا يمكن أن يرد له جميله أو يتساوىٰ معه فيه ؛ لأن الوالد هو الأول في تقديم الخير ، ولذلك جاءت توصية ٱلله تعالىٰ للإنسان بوالديه ولم تكن هناك ضرورة لتوصيته بولده لأن الإنسان يفعل ذلك بدافع فطري فطره ٱلله عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [3] ، وقال أيضاً : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

(1) الإسراء ، 24 ـ 25 .

(2) العنكبوت ، 8 .

(3) لقمان ، 14 .

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

هٰذا الأمر بالنسبة للخليفة فما بالك بالأول المطلق الذي بدأنا بالكثير من النعم أفلا يستحق منا أن نكون شكورين له علىٰ نعمه .

وَتَقَدُّم الأول المطلق علىٰ كل ما سواه في الأزمان ، تقدمٌ لا يحده أي حد ، قال تعالىٰ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] ، وهو الأول بملكه لكل شيء بل بتقدمه بالملك والخلق وبذلك هو أصل ومصدر الأشياء جميعاً .

والخالق هو الأول في فعل ما يريد ، لا راد لمشيئته ولا مانع لفعله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [3] ، فالبداية تتضمن الخلق والخلق يتطلب القدرة المطلقة ، والإله الواحد الذي لا يتعدد ، لأنه إن كان هناك أكثر من إلـه لما كان هٰذا الكون المنظم الذي يسير وفق قوانين ثابتة لا تتغير ، فالواضع لها واحد لا يتغير وهي ثابتة لثباته ووحدانيته ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [4] ، فمثلاً إذا تكونت شركة من مجموعة من أصحاب رؤوس الأموال وكبرت تفرعت فإنه لابد أن يأتي يوم ويختلف فيه هٰؤلاء الشركاء علىٰ نظام العمل أو الوارد والصادر أو غيرها عندها يصر كل فرد منهم أن يفرض رأيه وينتج عن هٰذا الخلاف تفكيك الشركة ،

---

(1) الأحقاف ، 15 .
(2) الحديد ، 1 ـ 3 .
(3) البروج ، 13 ـ 16 .
(4) المؤمنون ، 91 ـ 92 .

والكون كذلك لو كان هناك أكثر من إلـٰه واحد يخلق وينظم ويقدر لما كان بهـٰذا الإبداع وهـٰذه المتانة في الخلق والتصوير ، ولـٰكن الخالق واحد وهو الأول لم يسبقه شيء ولن يعقبه شيء ، فهو الأول وهو الآخر ليس قبله ولا بعده شيء ، وهـٰذا من رحمة ٱلله بنا وكرمه ، إذ أنه واحد وإلا لكانت الحياة متناقضة وغير مستقرة بنا بسبب اختلاف الآلهة وتعددها .

والله سبحانه وتعالىٰ هو الأول الذي يُعَد ولا يتعدد ، فيمكن أن يُعَد بقولنا ٱلله واحد أحد الفرد الصمد ، وقد وصف ٱلله تعالىٰ نفسه بالأحدية علىٰ لسان رسوله الكريم ﷺ حينما سُئِل عن ٱلله فقال : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [1] ، وبالمقابل لا يمكن أن يتعدد فلو كان هناك العديد من الآلهة أو كان هناك حتىٰ إلـٰه آخر فما كان هو الأول كما هو ، ولتضاربت الأمزجة والقدرات ففسد الكون واختل نظامه وذهب كل إلـٰه بما أراد ، قال تعالىٰ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [2] ، وهو الأول والأوحد الذي تعددت صفاته وأفعاله فهو القادر علىٰ فعل كل شيء في آن واحد فلا يقف الزمان ولا المكان عائقاً أمام إرادته وقدرته عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [3] .

وبما أن ٱلله فردٌ صمد لا يتعدد فمن البديهي أن يكون أولاً فليس هناك من يسبقه أو من يليه ، فحكمه لا يتوارث بل هو ملكٌ أزلي لا ينازعه فيه أحد ، وليس هناك من يشبهه ولا يُقَارن به ، ومن كان علىٰ ذلك فهو الأول بلا منافس له ولا منازع .

والأول هو الذي لا تأتي الأعداد قبله ولا يتأثر بالإضافة والنقص ، فالواحد هو الأول الذي يؤثر فيما سواه ولا يتأثر بما سواه ، فالعدد واحد عندما

(1) الإخلاص ، 1 ـ 2 .
(2) الأنبياء ، 22 .
(3) البروج ، 16 .

نضيفه إلىٰ نفسه أو نكرره مرتين يتكون العدد اثنين وبزيادة واحداً إلىٰ الاثنين يتكون العدد ثلاثة وبذلك تكون النتيجة أن العدد واحد هو المُرَكِّب والمُكَوِّن لكل الأعداد التي بعده وهي تتأثر به زيادة فيكون عدداً جديداً أو نقصاً فيكون عدداً سابقاً ، فمثلاً العدد ثلاثة عندما ننقص منه واحداً ينتج العدد اثنين وفي حال زيادة واحد علىٰ العدد ثلاثة يتكون العدد الجديد أربعة ، وبهـٰذا يكون الواحد هو الجزء الأول وبأولويته يكون مؤثراً في تركيب الأعداد ، في حين أنه لا يتأثر بها لأنه غير مركب ، ولو كان العدد واحد مركباً لتغير وتبدل من حال لحال آخر بدخول المؤثرات عليه سلباً وإيجاباً .

وبهـٰذا فإن ٱلله هو الأول الذي لا يتغير ولا يتبدل بل هو ثابت أزلي ، ولو لم يكن ثابتاً كما هو لما ثبت نظام خلقه كما أراده فلا يمكن لأي مخلوق أن يتدخل في هـٰذا النظام أو يدعي أنه يستطيع أن يفعل مثله أو يغير شيئاً منه ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً مبيناً عجز المخلوق عن فعل أفعال الخالق : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (2) .

(1) البقرة ، 258 ـ 259 .
(2) الحج ، 73 .

ومن الملاحظ أن كل ما كان مركباً من أجزاء متداخلة فإنه لابد أن يتفكك ويعود إلىٰ أصله الأول وهي أجزاؤه الأولية التي تكوّن منها أساساً إما بقوة فاعلة خارجة عنه أو أن يصيبه الضعف نتيجة تقدم السن ، أو العطل نتيجة كثرة العمل ، فمثلاً الماكنة الكبيرة والرئيسية في المصانع والمعامل تتركب من عدة أجزاء وأجهزة متداخلة ومتكاملة ومن مجموعها تتكون هـٰذه الآلة الكبيرة ، وبسلامة كل جزء من هـٰذه الأجزاء يمكن لهـٰذه الآلة أن تقوم بوظيفتها التي صُنِعت من أجل القيام به قياماً تاماً وإنجازها علىٰ الوجه المطلوب ، ومن البديهي أن قوة وجودة هـٰذه الآلة تتأثر في حال تلف أحد الأجزاء المكونة لها ، والصانع لهـٰذه الماكنة يمكنه إصلاحها ، تفكيكها وإتلافها إذا أراد ذلك ، بدون أي إرادة للماكنة أو تدخل منها في ذلك . لأن الإنسان الصانع للماكنة بالنسبة لها هو الثابت وهي المتغيرة ، وبذلك فإن الثابت يمكنه أن يتصرف فيما هو أقل منه في دائرة النسبية ، أما المتغير فيفتقد لذلك لأنه لا يستطيع أن يؤثر فيما هو أعلىٰ منه في هـٰذه الدائرة .

فصاحب الشركة بالنسبة للموظف فيها هو ثابت والموظف متغير ، فالثابت يمكنه أن ينهي عقد المتغير فيها ولا يمكن للمتغير أن يفعل نفس الشيء معه ، ولله المثل الأعلىٰ .

فما بالك بالثابت المطلق وهو الأول المطلق الذي لم يسبقه أول الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد الصمد الباقي الذي لم ولن يتغير ، فالواحد كما عرفنا لا يتغير ولا يتبدل بحال من الأحوال ، وهو الصمد الباقي علىٰ حاله ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ (1) . فالله هو واحدٌ لا إلـٰه سواه ، وقد زاد ٱلله تأكيداً علىٰ هـٰذا المعنىٰ وهو معنىٰ البقاء والثبات والأولية والأحدية بقوله : (لم يلد) أي أنه لم يتغير من حالة العزوبة إلىٰ حالة

(1) الإخلاص ، 1 ـ 2 .

الزواج أو من حالة اللا أبوة إلىٰ حالة الأبوة ومن حالة الفردية إلىٰ حالة الثنائية ، فالابن عادةً يحمل من جينات والده الوراثية فيكون بذلك شبيهاً له في شكله وأفعاله ، والله تعالىٰ منزه عن الشبه والمثيل ، فمن ذا الذي يشبه الأول أو يدعيه !

وبقوله : (لم يولد) تأكيد قوي علىٰ أن ٱلله تعالىٰ واحد لا يتركب من أجزاء ولا يتجزأ إليها ، فالولادة عملية تحتاج إلىٰ أبوين موجودين من قبل وجود المولود ، أو علىٰ ألأقل إلىٰ أم لتحمله ومن ثم تلده كما كان من معجزة مولد نبي ٱلله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، لذلك فالمولود لا يمكن أن يكون أولاً : لأنه دائماً مسبوق بالوالدين وهما السبب القريب لولادته علىٰ اعتبار أن السبب البعيد للولادة هو ٱلله وإرادته بإتمام وتكليل عملية التزاوج هٰذه بإنجاب الولد ، فكم من عملية تزاوج لم يكن نتاجها الإنجاب لعدم إرادة الخالق لذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

وكذلك فالولادة تقتضي أن يكون المولود مركباً من خليتين أساسيتين هما الخلية الحيوانية المذكرة والخلية الحيوانية المؤنثة وباتحاد كل منهما يتم تشكيل الخلية الملقحة الأساس الأول للمولود ، فإذا بقيت كل من الخلية الحيوانية المذكرة أو المؤنثة مفردة فإنه لا يمكنها أن تكون جنيناً دون أن تتحد مع الخلية الثانية ، وعلىٰ ذلك فالله تعالىٰ بقوله : (لم يولد) فإنه ينفي عن ذاته العلية التركيب والتجزيء وينزهها عنهما فيكون ذلك دليلاً علىٰ أوليته وثباته وبقائه وصمديته علىٰ اعتبار أن المركب يتحلل ويتلاشىٰ وهٰذه سنة كل المخلوقات من دون الخالق عز وجل ، أما غير المركب فهو الباقي الأبدي

---

(1) الشورىٰ ، 49 ـ 50 .

ولا يكون ذلك إلا الأول المطلق الواحد الذي لا يتركب وهو ٱلله جل جلاله وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (1) .

ولا يمكن أن يكون هناك أول آخر في دائرة المطلق ، فالأول المطلق هو ٱلله عز وجل ولا مثيل له ولا شبيه أو نظير في الأولية أو غيرها من صفاته وأفعاله الإلـٰهية ، وبذلك قال تعالىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ، والكفء هو المساوي وبذلك لا يوجد من يساوي ٱلله في أي شيء أو حتىٰ يدانيه فيها .

أما الأول في دائرة النسبية فيمكن أن يتكرر ويتعدد ، فالأول في فعل ما ، قد لا يكون أولاً في فعل آخر وقد يكون معه أول آخر في نفس الفعل وهـٰذا يكثر في نطاق الأول بالإضافة ، وهو الأول الذي يستمد أوليته من طاعته وعبوديته للأول المطلق الذي أوجده علىٰ وجه هـٰذه الأرض من أجل رسالة عظيمة وهدف سام هو إعمار الأرض ، واستخلفنا في هـٰذه الأرض قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) ، وقال أيضاً : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (3) . وسيدنا داوود عليه الصلاة والسلام خليفة لله حيث اصطفاه ٱلله هو وجميع الأنبياء والرسل وختمهم بسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ أجمعين ، وترك للباقي من العباد حرية اختيار أن يكون خليفة له باتباعه الأوامر واجتناب النواهي ، أو عدم اختيار ذلك بارتكابه للمعاصي والشرور .

---

(1) الرحمـٰن ، 26 ـ 27 .

(2) البقرة ، 30 .

(3) ص ، 26 .

والاستخلاف لم يكن لكل من خلق ٱلله ويخلقه ، فالخلافة لا يكون فيها من لا يتصف بصفات ٱلله عز وجل قولاً وفعلاً وأن يكون هـٰذا المستخلف ربانياً فلا يمكن أن يكون الكافر والظالم والكاذب والخائن خليفة للحق العادل المجيد الودود .

وعليه فالخليفة لابد أن يكون أولاً في طاعته لأوامر ٱلله تعالىٰ وأن يكون مجال التسابق والأولية بينهم هو هـٰذه الطاعة والانصياع التام للأول المطلق ، وأن لا يكون مجال تسابقهم وأوليتهم في مسابقة غناء أو رقص أو قتل وإسراف في الرذائل والشرور مما يتسابق فيه الناس الآن فلا يحصلون من وراء هـٰذه المسابقات التي لا يراد بها وجه ٱلله تعالىٰ إلا علىٰ مضيعة للنفس والوقت وغضب الخالق عز وجل .

ولـٰكن ما الحكمة من معرفتنا بأن ٱلله هو الأول . الحكمة في ذلك أنه في معرفتنا بهـٰذا الاسم وإيماننا به توضيح من الخالق لهـٰذا المخلوق بأنه مهما علا وتقدم واخترع وأبدع في الدنيا فإن هناك من هو قبله والأول عليه في كل شيء ، ويؤكد الأولوية للخالق في كل ما شيء ويبقىٰ الإنسان مسبوقاً بهـٰذا الإلـٰه في كل ما يقوم أو يفكر به ، وهـٰذا من شأنه أن يصل بالإنسان إلىٰ التواضع ، والمراقبة ، والضعف ، وفي ذلك توضيح :

أولاً : التواضع :

مهما ارتفع شأن الإنسان في الدنيا فإن اسم الأول في حق ٱلله يرجعه إلىٰ ميدان التدبر ودائرة التواضع ، فبماذا ارتفع شأنه أو اسمه . هل حصل له ذلك لقوةٍ أو لعلم أو لجاه وسلطة . فإن كان قوياً فهو ضعيف لقوة ٱلله لأنه الأول في القوة والأسبق ، فالإنسان الذي تميز بقوته البدنية علىٰ الكثير يصبح مغتراً بها ونراه متفاخراً بقوته ، يرمق غيره أحياناً بنظرات التغطرس والغرور ، ولـٰكن إذا التقىٰ صدفة مع من هو أقوىٰ منه من البشر تراه قد انكمش علىٰ نفسه وخفف من

تغطرسه لعلمه بأن هـٰذا الذي أمامه يفوقه قوة ، فما بالك بالقوي الأول الذي يفوق كل شي ، إذا التفت قليلاً إلىٰ التمعن في اسم الأول في حق ٱلله تعالىٰ لأدرك أنه الأول حتىٰ في القوة ، فهو الذي يفوق كل شيء قوة ، بل وإنه قادر علىٰ سلب هـٰذه القوة من غيره لأنه هو مالكها ومعطيها لمن شاء ، فمن الممكن أن يتعرض هـٰذا المغتر بقوته لحادث فتزول عنه هـٰذه القوة ببتر أحد أعضائه مثلاً أو إصابته بشلل جزئي أو كامل ، أو حتىٰ عند تقدمه بالسن وترهل عضلاته ماذا سيتبقىٰ من قوته العضلية . فالقوة التي كان يملكها من الخالق لها وله القوي الجبار الذي لا حدَّ لقوته ولا نهاية لها ، فقوته ليست كقوة الإنسان إنما هي قوة مطلقة تعاقب وتحاسب وتخلق وتراقب ، قال تعالىٰ : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (1) . وقد أمرنا ٱلله بالتواضع وعدم الاختيال والتكبر علىٰ الآخرين في أكثر من آية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (2) ، فيأمرك ٱلله هنا أيها الخليفة بأن لا تعرض بوجهك عمن تكلمه تكبراً واستحقاراً له ، وأن تتواضع مع كل الناس في كل ما تفعل .

وإن كان تفاخر الإنسان بعلمه فأين علمه من علم الخالق السابق بعلمه كل علم ، هو العليم الذي لا حدود لعلمه المطلق ، فالخالق هو المعلم الأول لكل أمورنا ، فلا علم لنا إلا ما أراده ٱلله لنا .

وإن تفاخر بالجاه والسلطة يكفي أن يفكر من الذي وهب له هـٰذا . أو أن يقارن بين ما يملك هو وما يملك الملك الحق . فسيخرج بنتيجة واحدة وهي أن ما يملكه لا يصل حتىٰ لنقطة في بحر ملك الخالق المطلق ، وهـٰذا لأنه

(1) الأنفال ، 52 .
(2) لقمان ، 18 ـ 19 .

الأول فهو المعطي مما لديه وهو الوهاب لمن يريد بما يريد ، فالملك الأول لكل شيء هو للأول الخالق المالك ، والملك الذي يأتي بعد ذلك في الدنيا لأشخاص محدودين هو ملك زائل ومحدود ، ومن الممكن أن يزول عنهم بمجرد أن يشاء المالك الأول ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، فالأولوية لله تعالىٰ في كل شيء تمنحه القدرة والحق المطلق في التصرف والإرادة فلا مجبر له عز وجل ولا رقيب عليه .

وإن كان سبب تفاخره لشكلٍ جميل وخِلْقة حسنة فلا تلبث أن تزول بتوالي السنين وتقدم العمر ، أو أنها تزول بحادث عارض إذا شاء الخالق ، ويبقىٰ الإنسان علىٰ الحال التي أرادها الأول لها أن تكون عليه إما عقاباً وإما ابتلاء وفي كلا الحالتين ليس علىٰ الإنسان فعل أي شيء أمام قدرة الخالق عز وجل .

والخليفة بالإضافة هو من كان التواضع لبنة أساسية في أساس تركيب شخصيته ، فهو صفة لا يمكن أن لا تظهر في تصرفاته أو أن تقبع داخله دون إحساس الآخرين بها ، وقد اتصف به كل الأنبياء والرسل والصالحين ، لأنه من المستحيل أن يجتمع حب ٱلله وحب العباد مع التكبر والغرور في قلب واحد .

والأول في الخلق مدركٌ لما سيكون عليه الناس من تضارب في النفوس والشخصيات لذلك فقد خلق في الأرض والسماء دلائل ماثلة أمام أعين كل الناس من شأنها أن تُشْعِر الإنسان بضعفه وضآلته فلا ينظر لنفسه ولغيره نظرة رضا وتواضع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ (2) ، فلا يحتاج الإنسان إلىٰ أكثر من نظرة يوجهها إلىٰ الجبال الشاهقة التي هي من خلق الخالق ليتراجع عن ما يستشعره من غرور

(1) آل عمران ، 26 .

(2) الإسراء ، 37 .

وتكبر في الدنيا ، هـٰذا الشعور الذي لا يمكن أن يتمكن من نفس خليفة ٱلله بالإضافة ، الذي يكون لديه من الإيمان ما يردعه عن الكبرياء والغرور ، فهو دائم التفكر في خلقه وتكوينه وهو علىٰ درجة من العلم تكفيه هـٰذا الشر ، فعلم الخليفة وإدراكه لكل ما حوله من شأنه أن يرقىٰ به عن هـٰذا الشعور المريض الذي يؤدي بصاحبه إلىٰ التعاسة والخسران .

فإذا وجدتَ شخصاً يمسك بيد عاجز بكل حب وتواضع ليعينه علىٰ السير في الطريق ، أو إذا وجدت شخصاً يجالس يتيماً أو ضعيفاً يسمع شكواه وينشغل بهمه ، أو وجدته رغم مركزه المرموق إلا أنه ذو نفس شفافة تتوق لحب الناس جميعاً ومساعدتهم هنا تكمن بعض ملامح الخليفة بالإضافة .

وإذا عمرت الأرض فبالأيدي المترابطة ولا ترتبط الأيدي البشرية إلا إذا تواضع الغني والمسؤول والسلطان والملك لكي لا يتكون حاجز بين النفوس بسبب تكبر بعضهم وغرورهم .

وأساس إدراك التواضع هو إرجاع كل نعمة تحل بنا من مال أو أولاد أو علم أو جاه أو قوة أو جمال أو غيرها إلىٰ المعطي الأول وهو ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا المفهوم الذي عاش به الأنبياء والرسل أجمعون ، كقول سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام في الآية الكريمة : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (1) ، حين يصل الإنسان إلىٰ هـٰذه المرحلة من التيقن من فقرنا إلىٰ ٱلله نكون قد وقفنا علىٰ أرضٍ ثابتة لن تزل بنا في بئر التكبر والغرور ، بل شعورنا بالتواضع يعري حقيقة احتياجنا للخالق عز وجل .

ثانياً : المراقبة :

من المعروف أنه عندما يشعر المرء أنه مراقب ممن هو أعلىٰ شأناً ومكانة

---

(1) القصص ، 24 .

منه فإنه يحافظ علىٰ التزامه إما خشية وإما احتراماً وإما الاثنين معاً ، إذاً فوجود الرقيب ينتج عنه انضباط الشخص الذي يعود عليه وعلىٰ من حوله بالفائدة ، فكيف إذا أدرك المرء أن الرقيب الأول هو الخالق !

ومن فضل العلم علىٰ الإنسان أنه يفتح مداركه لوجوب مراقبة النفس وإلزامها أحياناً بما تستصعبه وتعويدها علىٰ وجود رقيب ومحاسب ، وأن كل المساحات في الدنيا ليست ملعباً لكي تلهو فيها وتتمرد ، إذ أن المعرفة بالشيء تُبْطل الجهل بالنتائج ، والإنسان يدرك أنه إذا ترك نفسه دون أي رقابة فإنها ستذهب إلىٰ ما تهوىٰ دون رادع أو محاسب لها في الدنيا ، فتتحكم فيه الشهوات وتذله المغريات لعدم وجود ما يردعها أو يمنعها من الخوض في تلك الأمور .

ومن شأن اسم الأول أن يمدنا بالسبب الكافي لضرورة مراقبة الذات والتحكم فيها ، فهو المراقب الأول للنفوس في هداها وفي ضلالها ، فلا أحد من الممكن أن يفلت من هـٰذه المراقبة ، وبالتالي لا يمكن أن يفلت أحد من نتيجة هـٰذه المراقبة التي يتولاها خالق النفوس والعالم بها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (1) ، فالآية السابقة توضح لنا عدة أمور هامة منها :

1 ـ أن الخالق ربط ما بين عملية الخلق والعلم بما يخالج النفس وذلك للتأكيد علىٰ أنه خالق النفوس ، ومراقبها بعلمه ودقته وقيوميته علىٰ ذلك ، فهو الأول في علمه بما في الأنفس والضمائر فلا تخفىٰ عليه خافية ، وكيف ذلك وهو العليم بما في الصدور من خير أو شر .

---

(1) ق ، 16 ـ 21 .

2 ـ رصد الخالق لما في النفوس البشرية يؤكدها قربه من صاحب النفس عينه ، والقرب تأكيد أيضاً علىٰ الحرص علىٰ مراقبة كل صغيرة وكبيرة .

3 ـ السائق والشهيد هما إثباتان علىٰ عمل الإنسان في الحياة الدنيا سواء كان خيراً فله من يدونه وإن كان شراً فله من يدونه ، وهـٰذا تأكيد ثالث علىٰ حرص مراقبة الخالق لخلقه وتسجيل أعمالهم وذلك لغرض الحساب ، فمعنىٰ الحساب مفهوم من قدوم السائق والشهيد يوم الحساب لكشف الأعمال .

والمراقبة لا تأتي ولا تصح إلا من القائم علىٰ الأمر ، فمثلاً القائد يراقب جنوده ، والأب يراقب أبناءه ، والمدير يراقب موظفيه ، والأستاذ يراقب طلابه ، والخالق يراقب كل أولئك العباد مهما كانت مكانتهم لأنه مولاهم والمحاسب لهم يوم يقوم الحساب ، ولا يصح حساب بلا مراقبة تبدأ مع الإنسان وتنتهي مع نهاية حياته ، والمراقب بالتالي لابد أن يكون متقدماً الجميع في القدرة والعلم والحكمة ، وأن تكون مراقبة لا تنتهي بنهاية الخلق أو عند حد معين أو زمن معين ، بل لابد أن يكون قائماً حياً أزلياً ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1) .

فبما أن الخالق له أولوية المراقبة فوجب بذلك علينا أن نتسابق بمراقبة أنفسنا أمام ٱلله تعالىٰ المحاسب لنا ولكل ما نقوم به من أقوال وأفعال ، والخليفة بالإضافة من كان سباقاً في مراقبة ذاته ، والأول في الحكم علىٰ ما يصدر منه من أقوال وأفعال ، مما يساعده علىٰ أن يكون الأول في وزن حياته والوصول إلىٰ حياة كريمة يرضاها ٱلله وترضاها نفسه ، وأن يكون علىٰ يقين أنه لم يُخْلق سدىً بل أن هناك امتحاناً سيجريه وحساباً سيلاقيه وأنه إذا طلب الفوز

(1) المائدة ، 117 .

والنجاح داوم علىٰ مراقبة ذاته وحثها علىٰ المكرمات ونهاها عن المنكر والرذائل من القول والفعل ونأىٰ بها عن كل ما هو دافعٌ للخسارة والهلاك ، قال تعالىٰ : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (1) .

ثالثاً : الضعف :

هـٰذا الضعف المحمود الذي لابد أن يستشعره كل إنسان أمام المولىٰ عز وجل ، وبالمقابل يستشعر أيضاً سلطة الخالق عليه كونه جل وعلا الأول في علمه وحكمته وقوته وقدرته وحسابه ، فمن شأن ذلك أن يعيش هـٰذا الضعف الآدمي تجاه القوة الإلـٰهية العظيمة التي بدأت خلقه .

والمؤمن الحقيقي هو من يردعه هـٰذا الضعف عن استغلال سلطته وقوته عن التحكم واستغلال من هم أدنىٰ منه مرتبة ، بل يكون حاضراً في ذهنه أنه ليس الأول ولو كان كذلك في مركزه في الحياة الدنيا وأن هناك من هو الملك والمهيمن عليه ، قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (2) .

والضعف له نوعان :

أولاً : ضعف محمود وهو الضعف المتصف به خلفاء ٱلله ، وهو ضعفٌ يلزم الخليفة تجاه الخالق ، فلا يتكبر ولا يتجبر في الأرض بما أعطاه ومنحه الخالق عز وجل ، هو ضعفٌ جميل من شأنه أن يُشعر الخليفة بمدىٰ قوة المولىٰ وسلطته عليه . وعليه كلما استشعرت بالضعف أمام خالق العباد ازددت قوة أمام العباد .

---

(1) القيامة ، 36 ـ 40 .

(2) الحشر ، 23 .

ثانياً : ضعفٌ مذموم وهو الضعف الذي يصيب الإنسان تجاه عدة أمور منها : الضعف أمام مغريات الدنيا وزينتها فلا يملك نفسه أمامه بل تملكه نفسه وتتحكم فيه ، فتهوي به إلىٰ مستنقع الرذائل والفساد ، أو الضعف أمام إنسان آخر يملك سلطة أو قوة تفوقه فلا يستطيع النطق بالحق بل يشعر بالخوف أمامه أكثر من شعوره بالخوف من الخالق العظيم .

فخليفة ٱلله من ينمّي خوف ٱلله في قلبه لردع أي مفسدة قد تجره لها الحياة الدنيا ، فهـٰذا الخوف من ٱلله تعالىٰ من شأنه أن يزرع في قلبه قوة وشجاعة يستطيع أن يكون فيها الأول والمتقدم في فعل وقول الحق ، والأمر بالعدل والخير والنهي عن المنكر .

والأول في حق ٱلله يتضمن صفات وأفعالاً أخرىٰ في حقه مثل :

هو الأول في علمه :

هناك فرق كبير بين علم محدود مقيد له حد معين يقف عنده وبين علم مطلق لا حدود له ، والعلم في حق ٱلله تعالىٰ هو علم لا حدود له وفوق كل علمٍ آخر ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (1) ، فلا يرتفع علم عن علم ٱلله لأنه الأول في علمه فاستحق الكمال ، والأول استوجب أن يشمل علمه بالماضي والحاضر والمستقبل ، وأكبر دليل علىٰ أنه الأول في علمه أنه يعلم بالأشياء قبل حدوثها فكيف لا يعرف وهو الخالق والمدبر لكل شيء . وهـٰذا هو علم التقدير والغيب في حق المولىٰ عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

(1) يوسف ، 76 .

(2) لقمان ، 34 .

﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ [1] ، فأين علم الإنسان الذي يمكن أن يصل لهـٰذه الدرجة من العلم والإدراك ولو كان عالم العلماء جميعاً . والناظر في سير هـٰذا الكون والنظام الذي خُلِق عليه لأدرك أن الخالق هو الأول لعلمه ، فهناك فرق بين الشريعة التي أنزلها ٱلله تعالىٰ والتي من المفترض أن يسير عليها الكون وبين القوانين التي وضعها الإنسان ، فالأولىٰ تحفظ الحقوق ولا تتغير بتغير الأشخاص أو الأزمان أو الأمصار ، والثانية لا تلبث أن تتبدل حسب توافقها مع المصالح والأهواء .

والإنسان يجب أن يكون عالماً بأنه محاسب علىٰ جهله إذا كان نتيجة تكبره أو إعراضه أو تلاهيه ، أما من كان الجهل خارجاً عن إرادته فهو غير محاسب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [2] ، أي : أن العلم بالشيء شرط لاستحقاق الإنسان العقاب ، فالعلم أولاً وقبل أي شيء والجزاء ثانياً لرفع الحجة .

والدليل الثاني علىٰ أن ٱلله هو الأول في علمه أنه يستطيع أن يوقف علمنا عند حد معين قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [3] ، فالله قد أوقف مداركنا عند بداية المخلوقات عند العرش والماء ، أما ما قبل ذلك فهو في علم العليم المطلق لأن ذلك من لوازم اتصافه بصفة الكمال ، فلن تفيدنا أي شيء معرفتنا بما قبل ذلك ، وهـٰذا يدل علىٰ محدودية علم المخلوق في هـٰذا الكون الذي خلقه ٱلله بعلمٍ وحكمة مطلقين ، فالأول في الملك والخلق هو

---

(1) النمل ، 65 .
(2) القصص ، 59 .
(3) هود ، 7 .

الأول في العلم والحكمة ، وهما مبلغ علم الإنسان ومداركه فإنه يبقىٰ مداره الذي يتجول فيه خياله محدود بإرادة الأول سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا ينطبق علىٰ جميع ما خلق الخالق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، فبالرغم من أن الملائكة مخلوقات قريبة من ٱلله تنفذ جميع أوامره وتسبح له وتطيعه إلا أن ٱلله تعالىٰ لم يجعلها ذات علمٍ مطلق بل إنه حدد لها ما يجب أن تكون علىٰ علم به وحجب عنها ما أراد .

وقد خص الخالق العلم بالأولوية ، إذ أن أول ما أنزل من القرآن الكريم علىٰ الرسول ﷺ كلمة (اقرأ) والقراءة هي سبيل المعرفة والفهم وهي أول طرق الهداية والصلاح ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (2) ، إذاً المعلم الأول هو العليم عز وجل للبشرية بما فيهم الرسل والأنبياء ، لأنه المدرك الأول لكل ما نعلمه وما لم نصل إليه بحواسنا ، وهـٰذا طبيعي في حق العليم الذي لا يعزب ولا يغيب عنه أي شيء ، فلا يعجز عن إدراك أي شيء سراً كان أو علناً ، فهو الأول في الإدراك والعلم بقدرته سبحانه وتعالىٰ ، ولذلك فإن كل علوم الخلق التي تم اكتشافها والوصول إليها وما لم يتم الوصول إليها بعد هو المحيط به قبلهم لأنه المقدّر للمستقبل والخبير ، فقد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسر والعلن والممكن والمستحيل وبكل الأزمان والأماكن فلا يخفىٰ عن علمه وإدراكه أي صغيرة أو كبيرة ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

---

(1) البقرة ، 31 ـ 32 .

(2) العلق ، 1 ـ 5 .

(3) آل عمران ، 29 .

يجب أن يكون الخليفة من السابقين للعلم والمعرفة ، العلم الذي يحث عليه العليم لما فيه خير هٰذا المتعلم ، هٰذا العلم الذي يسير بالخليفة إلىٰ الاستقامة كأن يكون من الأوائل في معرفة صفات الخالق وما حرّم وحلّل وما يقرّب العبد من ربه وما يبعده عنه ، وأن يقوده هٰذا العلم للبحث عن مفاتيح حسن الخلق التي من شأنها أن تبعده عن الغرور والتجبر والظلم ، وأن يكون من أوائل أتباع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في قوله : « بُعِثْتُ لأتَمِّمَ حُسْنَ الأخْلاقِ »[1] ، وحديث رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام يوضح أمراً هاماً ، إذ أنه يبين أن الأخلاق أولاً من خلق ٱلله تعالىٰ يضعها فينا ويأتي الرسول عليه الصلاة والسلام ليكمل ويهـذب ما بدأ ٱلله به ، وذلك مدعاة لنا بالإيمان بأن ٱلله هو الأول في خلق كل شيء .

الأول هو الحي المطلق :

والمقصود بالحياة في حق ٱلله هي الحياة الأزلية والبقاء الأبدي ، وهي بالطبع غير الحياة علىٰ الأرض التي لها أول تبدأ به ولها آخر تنتهي إليه ، فالخالق هو الأول الأزلي الباقي لا نهاية له ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[2] ، فارتباط الحياة بدوام القيام دليل علىٰ تكامل الحياة لديه عز وجل ، وعظمة وجلال الخالق الأول عز وجل ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[3] ، وفي هٰذه الآية دلائل بيّنة علىٰ أزلية حياته وهي :

أ ـ طلب من العبد أن يتوكل عليه ، وبالطبع لا يمكن أن نتوكل علىٰ من

(1) موطأ مالك ، ج 5 ، ص386 .
(2) آل عمران ، 2 .
(3) الفرقان ، 58 ـ 59 .

لا حياة له أو من كانت محدودة حياته ، لأن التوكل هو اعتماد تام علىٰ الأول جل جلاله حيث لا أول غيره يمكن التوكل عليه ، وبالتوكل الصادق علىٰ ٱلله تعالىٰ تكون الإجابة المحققة لأفعال الخير الحسان .

ب ـ نفي الموت عن جلاله تأكيد علىٰ دوام الحياة فلا يمكن أن يجتمع الفناء والحياة معاً ، لأن كلاًّ منهما مقابل للثاني ، وفي انتفاء الموت عنه إثبات صريح لحياة المولىٰ الأزلية .

ج ـ خبرته بذنوب عباده تدل علىٰ مراقبته الدائمة ، وقيامه علىٰ أمور الخلق جميعاً والمراقبة تتطلب الحياة التي تصل ما بين الخالق والمخلوق ، إذ أن المخلوق يعمل ويقدم والخالق يراقب لكي يحاسب ، هـٰذه المعادلة المتوازنة هي في الحقيقة تتضمن أولوية الخالق في الحساب والجزاء .

د ـ عملية الخلق لا تتم إلا ممن كان قائماً وحياً من قبل القيام بهـٰذه العملية أصلاً ، وهـٰذه العملية بالذات تؤكد اسم الأول في حق ٱلله تعالىٰ ، إذ أنه لا يمكن أن يكون المخلوق سابقاً الخالق ، والمتأمل في هـٰذا الكون يصل إلىٰ حقيقة أزلية وأولوية وجود ٱلله تعالىٰ قبل أي شيء آخر ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (1) .

ولا يكون خليفة الخالق إذا لم يكن قلبه حياً بذكر ٱلله ، وأن لا يكون الأول في إحياء كل أشكال الخير والمعروف في نفسه أولاً وفيمن حوله ثانياً ، فحياة الخليفة تكمن بدرجة إيمانه وحبه للمولىٰ عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ

---

(1) الإسراء ، 51 .

مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [1] ، فخلفاء ٱلله كانوا وما يزالون يتسابقون إلىٰ مرضاة المولىٰ وبذل كل ما لديهم من أجل أن يسارعوا إلىٰ حب ولقاء ٱلله عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [2] .

الأول هو القيوم :

نلاحظ دائماً أن رب الأسرة هو القائم علىٰ أمور عائلته ، ينظر إلىٰ احتياجاتهم ويراقب زلاتهم ويحثهم علىٰ المنفعة والفائدة ، لأنه المسؤول الأول عنهم في الدنيا ، وكذلك نجد أن رب العمل يشعر بمسئوليته الأولىٰ تجاه موظفيه ، فيهتم بشؤونهم وينظر إلىٰ أمورهم نظرة اهتمام ورعاية مما يجعله دائم الاطلاع علىٰ أمورهم ، فكيف بالذي هو الأول علىٰ كل أول وفوق كل العباد .

فمسؤولية الخلق تتطلب رباً يكون هو الأول في مسئوليته عنهم هٰذه المسئولية التي لا يمكن القيام بها إلا من كان عظيماً وسابقاً لكل شيء لا ينشغل بشيء عن شيء ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [3] ، فقد ربط ٱلله قيامه علىٰ أمور عباده بالحياة الأزلية التي لا نوم ولا كسل ولا خمول فيها ، مما يجعله عالماً بأدق التفاصيل راعياً لكل الخلق في آن واحد ، فاستحق بذلك أن يكون رباً عظيماً واحداً لا يتعدد .

ولأنه كان الأول استحق رعاية الخلق والقيام علىٰ أمورهم وكان له

---

(1) الواقعة ، 10 ـ 16 .

(2) المؤمنون ، 60 ـ 61 .

(3) البقرة ، 255 .

إحياؤهم وإماتتهم وقتما يشاء وكيفما يشاء ، فمن له الحق في التدخل في أمور الغيب وتقدير الأشياء سواه عز وجل .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون حاملاً لمسئوليات عدة ، تبدأ من نفسه ، وبعلمه أن كل جوارحه سيكون مسؤولاً عنها ، وتنتهي في حمله لمسؤولية هـٰذا الكون بأكمله الذي حمل أمانته ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [1] ، فهو المسؤول الأول عن هـٰذه الأمانة ، لذلك لابد أن يُثبت كفاءته في تحمل هـٰذه المسئولية بالاستقامة وبالإصلاح والتعمير وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن يفرط في هـٰذه الأمانة أو يهمل فهو الخاسر الأول في الدنيا والآخرة عند الخالق سبحانه وتعالىٰ .

هو الأول في الرحمة :

ورحمته واسعة عظيمة أزلية لا تتغير حسب الزمن والمكان ، وبما أنها أولية وأزلية فقد وسعت كل شيء وعمت الخلق جميعاً ، فرحمته مطلقة لا يتدخل فيها أي أحد من خلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، فرحمته أعم وأشمل للمتقين الذين يسعون لنيل رضاه وحبه والقرب منه ، فهناك رحمة عامة للبشر أجمعين تتمثل في حسن خلقتهم التي خلقهم ٱلله بها وبنعمه التي لا تعد ولا تحصىٰ ، وبرزقهم ، أما المؤمنون فقد خصهم الأول برحمة لا يستحقها إلا من كان تقياً صالحاً ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ

(1) الأحزاب ، 72 .
(2) الأعراف ، 156 .

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (1) .

فقد بدأ الخلق جميعاً برحمته ، بالرغم من غناه عن كل ما خلق في الدنيا ، وهو البادئ برحمة الناس عامة والمسلمين خاصة ، فبداية الرحمة من عنده هي إرسال الرسل للهداية ، وهو رحيم بقبول توبة التائب ورجوع العاصي .

والرحمة تستوجب أن يكون المرحوم ضعيفاً ، والرحيم قوياً لأنه البادئ بهٰذه الرحمة والمالك لها بالمطلق .

فعلىٰ الخليفة أن يرحم نفسه أولاً بإبعادها عن الضلال فينجيها من النار ويفوز بالنعيم ، ويرحم من حوله ثانياً بحفظهم من لسانه ويده وبنصح الضال منهم ، وأن يكون رحيماً بجميع ما خلق الخالق من كائنات حية ومن أرض حية تنمو وتثمر من أجله ورحمةً به من الخالق عز وجل .

هو الأول في القدرة :

بما أنه الأول خالق الخلق فتطلب ذلك أن يكون قادراً علىٰ كل أمر ، وأن يستسهل كل صعب ، فكل ما نجده نحن البشر أمراً مستحيل الحدوث يتحول إلىٰ ممكن بأمر من الأول .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾ (2) ، وكل إرادة للخالق تُنَفَّذ بلمح البصر إذ أنه الأول في الإرادة

---

(1) الأحزاب ، 41 ـ 43 .

(2) الفرقان ، 45 ـ 49 .

والمشيئة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] ، وهـٰذا أعظم دليل علىٰ أن ٱلله تعالىٰ هو الأول ، لأنه إن لم يكن كذلك لاحتاج إلىٰ جهد ووقت ومعونة لتنفيذ ما يريد ، لـٰكنه عز وجل تجلىٰ بعظمته عن كل ذلك .

ولـٰكننا نجد أن بعض الناس تتناسىٰ هـٰذه القدرة بتجاهلها فضل الأول فيما وصلت إليه من ابتكارات أو اختراعات أو اكتشافات ، وكأن هـٰذا الشخص له الفضل الأول في الوصول والقدرة علىٰ ذلك ! فهل تفوق قدرة المخلوق علىٰ قدرة الخالق . ما لهم كيف يفسرون الأحداث ويفهمون ما قد وهبهم الأول لهم من قدرات بسيطة بالنسبة لما عنده تعالىٰ .

وهو الأول في خلق المخلوقات جميعاً فكانت له القدرة المطلقة عليهم ولا يمكن لأي أحد مهما علا شأنه في الدنيا أن يخرج من دائرة قدرة الأول عليه ، ومن ثَم وهب ٱلله تعالىٰ بعض القدرات الثانوية للإنسان لكي يبدع بها في الحياة ، وأول هـٰذه القدرات هي :

التحكم في النفس :

فالخليفة هو من يروض نفسه أولاً علىٰ محاربة ما تشتهيه ، بذلك يستطيع أن يصل إلىٰ تصالح بينه وبينها فترضىٰ وتنأىٰ عن الفساد وتحسن فن الإنصات للخالق الذي كرّمها وإذا أنصتت النفس للخالق صلحت وطاعت وفازت ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [2] ، والفوز لها هي الجنة تنعم فيها .

أما إذا أعرضت النفس عن الخالق ضاعت في ظلمات الشرور والمهالك ، فكان لها سوء العقاب وخسارة المآب ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ

---

(1) النحل ، 40 .
(2) النازعات ، 40 ـ 41 .

كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

القدرة علىٰ تحصيل العلم :

وجني الفائدة منه لتعود عليه وعلىٰ من حوله ، فلابد أن يكون علىٰ معرفة بأن البشر هم عبارة عن فرع ولابد أن يرجع إلىٰ الأصل إلىٰ الأول عز وجل ليتم الجزاء ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [2] ، فالرجوع لا يتم إلا من التابع إلىٰ المتبوع ومن الفرع إلىٰ الأصل .

هو الأول في الغنىٰ :

بما أنه الأول فهو المعطي لكل شيء وبعطائه هـٰذا هو غني عن أي شيء ، قال سبحانه تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [4] ، الآية السابقة منه نفهم أن ٱلله تعالىٰ :

أ ـ غني عن كل شيء ، والغنىٰ يأتي دائماً من انعدام الحاجة للغير ولا يأتي

(1) الأنعام ، 24 ـ 27 .
(2) يونس ، 4 .
(3) طه ، 50 .
(4) الأنعام ، 133 .

ذلك إلا إذا كان المدبر الأول لكل الأمور ، فلن يضر ٱلله تعالىٰ كفر كافر قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) ، فانعدام الحاجة تثبت أولوية الخالق في كل أمر .

ب ـ كل ما خلق الخالق فقير إليه تعالىٰ ، فالغني من الناس هو بفضل ما عند ٱلله والفقير منهم هو بسبب منع الخالق عنه ، فالله تعالىٰ يغني الإنسان بالمال والحكمة والقوة والرحمة لأنه تعالىٰ فوق كل الخلق .

وخليفة ٱلله إذا وصل إلىٰ هـٰذه الدرجة من العلم فإنه بالتأكيد استغنىٰ عن كل من يُعْتَقد أنهم متحكمون بأموره ، وبهـٰذا الغنىٰ يكون الخوف منهم وخشيتهم قد فارقا قلب الخليفة لمن هو مستحقٌّ لهـٰذا الخوف وهـٰذه الخشية ، فحاجتك إلىٰ ٱلله تنتفي معها أي حاجة أخرىٰ لأي شيءٍ آخر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (2) ، والعيش بهـٰذا الغنىٰ يُسعِد المرء فلا يتذلل لأي كان من البشر مهما وصلت مكانته لكي ينال ما يريد ، فتغلب كرامته وعزة نفسه كل العقبات والصعوبات .

هو الأول في خبرته :

لا يملك الخبرة إلا من كان أولاً في كل أمر ، فالخالق هو الأول في الخلق لذلك تبع ذلك أن يكون خبيراً بصيراً بمن خلق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (3) ، ففي الآية السابقة توضيح وتوثيق لخبرة الخالق الدقيقة في عباده ، إذ إنه لم يجعل رزقهم واحداً

---

(1) الزمر ، 7 .

(2) آل عمران ، 109 .

(3) الإسراء ، 30 .

لسبب وهو أنه بما أن ٱلله هو الأول في خلق البشر فهو الخبير بنقاط ضعفهم ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [1] ، فهو إذاً علىٰ علمٍ تام ومطلق بأن نقص المال تعذيب لمن أحبه وملكه ، ولـٰكن هـٰذا الإنسان إذا كان ممن يحسنون فهم المصائب لما تعسرت حياته ، لأن في فهم المصيبة فهماً لرسالة الخالق له بالاستقامة والثبات وهـٰذا بحد ذاته أكبر مكافأة له من ٱلله عز وجل .

ولا أحد يستطيع أن يعلم بخبرته البشرية أي الأمور التي يملكها أو التي يفتقدها فيها خيّر له أم شر ، لذلك علىٰ المرء أن يترك أمره أوله وآخره للأول المطلق يتصرف كيفما يشاء به فهو الخبير بما ينفعنا وإن بدا لنا غير ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [2] .

فكما أن خبرته مطلقة فمعناه أن كماله مطلق كما ذاته ، فالخالق لم يكتسب شيئاً ناقصاً بل الكمال لديه في كل أمر وكل صفة وهـٰذا لا يكون إلا لمن كان أولاً في المقدمة دائماً لا يسبقه أحد أبداً .

وخليفة ٱلله لابد أن تكون لديه عين خبيرة وقلب خبير بما هو نافع وبما هو ضار ، فالصلاح للإنسان لا يأتي هدية من أحد بل هو نعمة من ٱلله تعالىٰ علينا إذا سعينا إليه والسعي لابد أن يكون علىٰ دراية لا عن تبعية عمياء دون معرفة ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ

---

(1) الكهف ، 46 .
(2) الفتح ، 11 .
(3) الأعراف ، 70 .

إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) ، هـٰذه التبعية التي تُلغي العقل وتُسْقط الروح في بئر الجهل والضلال .

هو الأول في العظمة :

وعظمته هـٰذه لا تتجزأ ولا تنتهي بزمن أو بموطن ، بل باقية أزلية كما الله تعالىٰ ، يرينا إياها في كل ما حولنا ، قال تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (2) ، فالأول تعالىٰ هو من بدأ الخلق بإبداع ، فكان عظيماً في خلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (3) ، كذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (4) .

---

(1) إبراهيم ، 10 .
(2) الواقعة ، 57 ـ 74 .
(3) البقرة ، 164 .
(4) السجدة ، 7 ـ 9 .

وعظيماً في رحمته ، هـٰذه الرحمة التي بدأت بخلقه للكون برحمته وللإنسان أيضاً الذي هداه السبيل للفوز بالنعيم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) ، وبما أنه الأول في فتح أبواب رحمته فهي رحمة مطلقة لمن استحقها وهي رحمة تزرع الأمل في قلب كل إنسان أراد أن يستند إلىٰ المولىٰ ويلتجئ إليه عز وجل ، لذلك فهو المتحكم بها يوزعها كيفما يشاء بعلمه المطلق وعدله الكبير ولا أحد يستطيع أن يتدخل فيها ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) .

وعظيماً في عقابه ، هـٰذا العقاب الذي لا يمكن أن يعاقب به أي إنسان مهما امتلك من سيادة أو سلطان ، لأن الخالق هو أول من خلق العقاب لمن استحقه بذلك كيف يكون للمخلوق أن يصل إلىٰ أن يكون له هـٰذا العقاب في الأرض ، وقد جعل ٱلله العقاب الحقيقي والخالد يوم الحساب لأن الدنيا ليست دار بقاء ولا يستحق أن تكون كذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (3) .

وعظيماً في مكافأته للمتقين ورحمته ، فمهما قدّم الإنسان من خير وحب لله لا يمكن أن يرقىٰ إلىٰ مكافأة الخالق له ، لأنه الأول في كرمه وحبه ورحمته ، ولذا فالأول دائماً سابق لغيره ببدئه للشيء ، قال سبحانه وتعالىٰ :

---

(1) التوبة ، 72 .

(2) فاطر ، 2 .

(3) الحاقة ، 25 ـ 33 .

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [2] .

ولابد للخليفة أن يستحق أن يكون عبداً لهٰذا الرب العظيم الذي بدأ الكون بعظمته وسينهيه بعظمته عز وجل .

هو الأول في سمعه وبصره :

فبصره وسمعه مطلقان لا حد زمانياً أو مكانياً لهما ، وهو الأول في سماع كل ما في الظاهر والباطن فلا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو الأول في إدراك كل شيء ببصره اللا محدود ، وإحاطة كل شيء بسمعه المطلق ، فكان له بذلك العلم المطلق بكل شيء بالسر والعلن وبما في الصدور وما تنطق الألسن ، لا يخفىٰ عليه شيء ، قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ كذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [4] ، وسمعه وبصره يشمل المسلم والكافر والمذنب والتائب بل

---

(1) الحديد ، 12 .

(2) التوبة ، 72 .

(3) المجادلة ، 1 .

(4) المجادلة ، 7 ـ 8 .

يشمل كل ما خلق سبحانه وتعالىٰ ولا يقتصر علىٰ البشر ، بل إنه تعالىٰ الأول في إحاطة الخلق بسمعه وبصره ، وبالتالي علمه يشمل كل شيء ، فلا يختلط ولا تختلف عليه الأصوات ولا تتشابه ، ولا ينشغل سمع عن سمع فهو الأول المطلق في سمعه .

والخليفة من كان سمعه لله وفي ٱلله وكذلك بصره ، لا يجعلهما يقودانه للضلال والمعصية ، فينتهي بسمعه عن كل ما هو مؤذٍ ومُفْسِد ، ويغض بصره عن ما حرم ٱلله ونهىٰ ، فيكون بذلك بصره لله ، وسمعه لله ، وطاعته لله رب العالمين ، والسمع مرسال الإيمان إلىٰ العقل والقلب فبه يدرك كل منهما الحق ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [1] ، فالسمع من الدعائم الأساسية للعلم الذي يصيب العقل فينيره وينأىٰ عنه التخبط في ظلمات الضلال ، فيكون سماعاً لكتاب ٱلله وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [2] ، وإذا أدرك الخليفة أن ٱلله هو الأول في بصره تمسّك بمراقبة نفسه ومحاسبتها قبل أن يحاسب من الآخرين في الدار الدنيا أو أن يحاسبه ٱلله يوم يقوم الحساب ، ولهٰذا يمضي الخليفة في الدنيا خائفاً من أن يراه الأول في ما لا يجب أن يكون عليه ، وإذا وصل الخليفة إلىٰ أن يعيش متيقناً بأنه علىٰ مرأىً من الخالق عز وجل فلا يستهين بذلك بل يداوم علىٰ مراقبة نفسه وإلزامها بما أمر ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وأن يكون نظره موجهاً إلىٰ ما في ملكوت ٱلله من إبداع وعظمة وقدرة ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] ، وقال سبحانه وتعالىٰ أيضاً : ﴿وَفِي

(1) الحج ، 46 .

(2) الأعراف 204 .

(3) يونس ، 101 .

ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (1) .

الأول هو إجابته :

إجابته للدعوات تسبق حتىٰ رجاء الإنسان بذلك أحياناً ، وتأتي رحمة له ومنجاة من أي كرب ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) ، والخالق هو الأول في حبه لإجابة عباده الصالحين ودليل ذلك قربه منهم وسماع دعواتهم في أي حال وأي وقت ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (3) ، فمطلوب من العبد الدعاء بقلبٍ ملؤه الرجاء والضعف والحاجة للخالق عز وجل ، فيهديه هٰذا الخالق المجيب الذي لا يرد من لجأ إليه الإجابة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (4) .

وهو الأول في زرع الأمل في قلوب اليائسين واخضرار القلب بمغفرة الخالق للذنوب ، فهو المجيب لكل عائد عن ذنبه مستغفر خائف من بطشه عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (5) .

وخليفة ٱلله من كان مجيباً لدعوة الخير أينما كانت ، فلا يبخل بما عنده من معرفة وعلم علىٰ من طلبه بل يجيبه بما أراد ، وأن يكون من دعاة الأمر بالمعروف استجابة لقول ٱلله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

---

(1) الذاريات ، 20 ـ 21 .
(2) النمل ، 62 .
(3) غافر ، 60 .
(4) البقرة ، 186 .
(5) البقرة ، 160 .

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) ، وألا يكون مجيباً لدعوة الضلال والفساد يلهث وراء دعوة الملذات ومغريات الدنيا التي تفسد عليه آخرته .

يجب على الخليفة توحيد الخالق والإيمان بأن بدايته ومرجعه إلى الأول الذي لا سابق له ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) .

وبما أن ٱلله هو الأول الذي لا ثاني ولا حتى لاحق له عز وجل فاستحق بذلك التعظيم والإجلال ، فمن حق الخالق علينا أن نعظِّمه ونقدِّسه ، لٰكننا نجد في بعض الأشخاص ابتعاداً وتلاهياً عن ذلك ، ومن العجيب أننا نجدهم متوجهين بذلك الشعور لجهات أخرى لا تستطيع لهم شيئاً إذا أراد ٱلله بهم أمراً ، فنجدهم يستشعرون بالرهبة الممزوجة بالضعف والحاجة تجاه من يعلوهم مكانة في العمل أو في أي مجال آخر ، بالرغم أنه يجب أن يتذكروا أنهم ليسوا بأوائل في أي شيء بل ٱلله هو الأول بعطائه لهم هٰذه المراكز ، فهو بذلك المستحق الأول لهٰذا الاحترام وهٰذه الرهبة والطاعة بالوحدانية والعبادة والقيام بأفعال الخير الحسان .

---

(1) آل عمران ، 110 .

(2) يونس ، 3 ـ 4 .

(3) الروم ، 27 .

ومن آثار اسم الأول في حياة الخليفة ما يلي :

1 ـ **أن يكون الأول في الخير** : فلا يرضىٰ الخليفة أن يكون من أواخر الداعين والساعين إلىٰ الخير ، أو المانعين له ، أو الغافلين عنه بالفساد والشرور التي تملأ قلوب الكثير من البشر المبتعدين عن حب ورضا الخالق ، فتراه في مجال عمله محوراً للمعروف وأساساً له لا يجتمع مع دعاة الفساد والرذائل إلا كي يدعوهم للخير والتوبة لعلهم يستجيبون ، زارعاً في كل أرض يحط بها أملاً للفلاح وبذوراً للخير والرضا والصلاح ، ولا يتأتىٰ ذلك إلا بالتالي :

ـ أن يسعىٰ للصلح في أي خصام فيكون بذلك الأول في السلام ، كما حثنا رسولنا الكريم ﷺ . عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ ، أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ »[(1)] ، فالسلام لا يعني كلمة تخرج من الفم فقط بل هي ملامسة القلوب بالإحساس بحلاوة الرجوع للحب والصفاء ، والمصافحة تعني ارتقاء الإنسانية فوق كل شيء آخر ، وفيها دعوة لنشر الأمن والسلام بين كافة المسلمين ، ولو علم المسلمون معناه الحقيقي لما بخل مسلم بالسلام علىٰ آخر ولما خطر ببال أحدهم خاطر معيب في حق أخيه البادئ بالسلام ، والخالق يحب أن يعم السلام بكل معانيه بين الخلق أجمعين .

وأن ينطق بالحق لأن الحق موطن الخير ، فلا يصمت حينما يجب أن يتكلم بالحق فتضيع بذلك الحقوق وتعم الفوضىٰ ويسير الناس في ظلمات جهل الحقوق والواجبات .

وعلينا أن نفرق بين السلام الذي يؤسس علىٰ المحبة والإرادة والحق

(1) صحيح البخاري ، ج 19 ، ص22 .

والعدل ، وبين الاستسلام الذي يؤسس علىٰ تنازلات تحت الضغوط غير المتوازنة .

وطوبىٰ لمن كان سباقاً للخير داعياً له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) ، ولما كانت هٰذه مكافأة الداعي للخير ذلك مدعاة لأن ندرك مدىٰ عمق أثره في المجتمع بصفة عامة وفي نفس الإنسان بصفة خاصة ، فلا يمكن لداعي الخير إلا أن يبدأ بإصلاح وتهذيب نفسه فأسوأ شيء أن تدعو لمكرمة أو فضيلة أنت تفتقد إليها .

ومن شروط رضا الأول علينا واستجابة دعواتنا أن نكون من المسارعين في الخير ، لا أن نكون ممن يتباطئون في فعل الخير أو يغفلون عن أدائه .

2 ـ **أن يكون الأول في الالتزام** والحرص علىٰ رضا ٱلله تعالىٰ ، وأن لا يكون من أواخر من يسعون إلىٰ ٱلله بكل ود وحب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (2) ، وكذلك قال تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (3) ، فاستجابة دعوة المسلم مرهونة بإسراع العبد لفعل الخير والعمل عليه .

---

(1) التوبة ، 71 ـ 72 .

(2) المؤمنون ، 60 ـ 61 .

(3) الأنبياء ، 90 .

3 ـ **أن يكون أول الصابرين عند حلول المصائب** ، التي يكون بحلولها فيصلاً لمن كان مؤمناً حقاً ومن كان ضعيف الإيمان ، فعند بداية نزول المصيبة نجد هناك من يحتسب أمره للخالق ويصبر ، ونجد من لا يحتمل ذلك فيغيب عنه الصبر والتحمل فيسعىٰ لطلب العون من غيره ، كاللجوء لبعض الشيوخ والأولياء .

لـٰكنّ الخليفة هو من وكل أمره لله في أول الأمر وآخره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (1) ، فبما أن الدنيا كانت دار امتحان وبلاء للإنسان فهو معرّضٌ فيها لحلول مصيبة عليه في أي وقت أو حتىٰ أن تتوالىٰ المصائب وتتكاثر الهموم فوقه ، ولـٰكن في فهم حكمة المصيبة يكمن قوة الإيمان وصبر الإنسان ، وهي بمثابة مرسال من المولىٰ عز وجل لهـٰذا الإنسان ، وبالمقابل فالإنسان يختار الرد الذي يناسبه للرد علىٰ هـٰذا المرسال ، والفائز منهما هو من كان رده علىٰ هـٰذا المرسال كما جاء في الآية القرآنية السابقة ، فكانت للمصيبة الأثر الإيجابي الفعّال في حياة المؤمن الصادق .

4 ـ **أن يكون أول المضحين بالنفس والمال في سبيل ٱلله** : إذا تيقَّن الإنسان أنه وما يملك لله فلن يضن بشيء في سبيل ٱلله تعالىٰ ، بل سيرخص عليه كل ما ملك في الحياة الدنيا ونفسه معها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ

(1) البقرة ، 155 ـ 157 .
(2) الحديد ، 10 .

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) ، فالإسراع بالجهاد بالنفس والمال يأتي بالبشرىٰ والخير علىٰ المسلم ، لأنه يستحق ذلك بمسارعته وراء رضا المولىٰ وحبه .

5 ـ **الإسراع في الاستغفار** : تحاصرنا الزلات والأخطاء أينما اتجهنا ، فالإنسان بطبعه كثير الخطأ والزلات سواء كان في حق ربنا الكريم أو في حق أنفسنا أو في حق الآخرين ، وعندها نكون بحاجة لمن يشد علىٰ أيدينا ويدلنا علىٰ طريق الصلاح ، ولا أعظم ولا أفضل ولا أسبق من ٱلله تعالىٰ في ذلك ، لـٰكن علينا أن نسرع إليه أولاً بقلبٍ يحبه ويتمنىٰ رضاه ومغفرته ، بقلبٍ خاشع خائف من خالقه عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، فعمر الإنسان محدود والذنب مغفور إن شاء ٱلله إذا أسرع العبد في الاستغاثة بالله والاستغفار من ذنبه والرجاء بقبول توبته .

6 ـ **أن يكون أول المستعدين للقاء الأول** : أكثر الناس يعيشون اللحظة الراهنة فقط مستمتعين بها تأخذهم النشوىٰ بعيداً عن الواقع الذي يجب أن لا يتناسوه ، فيتوه عن بالهم رحيلهم عنها في أية لحظة شاء رب العالمين ذلك ، والخليفة هو من كان يعيش الحاضر بتعقل مع دمجه بالمستقبل الذي سيرحل فيه بالتأكيد عن الدنيا فيُعد لهـٰذه اللحظة كل ما يحتاجه من انضباط مع الخالق وحب له ومسارعة في مرضاته ، لأن العبد إذا أحب ٱلله تعالىٰ أعطاه ٱلله الأمان بذلك من عذابه ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ

---

(1) الصف ، 10 ـ 13 .

(2) المائدة ، 39 .

لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [1] ، فقد استحق الأمن بإيمانه الصحيح ، هـٰذا الإيمان الذي ثبت في قلبه محبة المولىٰ عز وجل ومحبة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : « أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرسول الله ﷺ : مَتَىٰ السَّاعَةُ ؟ قَالَ لَهُ رسول الله ﷺ : مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ : حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » [2] .

فبذلك كله يكون خليفة ٱلله علىٰ خلق طيب وهـٰذا ما سعىٰ إليه خالقنا العظيم من بعث رسولنا الكريم ـ ﷺ ـ الذي أوضح الصورة التي يجب أن يكون عليها المؤمنون حين قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [3] ، بما أن رسولنا الكريم قدوة لنا فلابد أن نكون من أوائل المتصفين بحسن الخلق .

والأخلاق قابلة للتغيير والتحسين فهي مرآة النفس البشرية ، فلا يقوم الإصلاح المرجو في أرجاء الأرض إلا بتهـذيب هـٰذه النفس وتقويمها وردعها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [4] ، فإما الصلاح لها وبها وإما الفساد لها وبها ، فالنفوس البشرية متباينة حسب استيعاب كل إنسان لرسالة خلقه في هـٰذه الأرض ، فمنهم من أحب حمل الأمانة بوعي كامل وفهم عميق لهـٰذه المسئولية ، ومنهم من أتلف هـٰذه الأمانة وأضاعها في أحضان الدنيا فضاع بضياع هـٰذه الأمانة العظيمة .

وفي معنىٰ اسم الأول رسالة لكل متجبر وظالم بأن هناك الأول في القوة والجبروت فهو الأعلىٰ والأجل والأعظم ، وهو المعيد لهم لحسابهم وعقابهم فيقفون بين يديه يوم الحساب ضعافاً وجلين ، ولنا في القرآن الكريم عبر

---

(1) الأنعام ، 82 .

(2) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص91 .

(3) القلم ، 4 .

(4) الشمس ، 7 ـ 8 .

وقصص تثبت ضعف الإنسان أمام قوة ٱلله ، فكم كانت قوة فرعون وتجبره إذ أنه جعل نفسه إلـٰهاً بما وصل إليه من غرور وجبروت علىٰ الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [1] ، وكأنه ملك الأرض والخلق بقوته ، أو كأنه الأول في قدرته وعظمته ! لكنّ ٱلله تعالىٰ رد عليه جحوده وكفره وأظهر له ولمن حوله مدىٰ ضعف الإنسان أمام عظمة الأول ، ليكون عبرة للبشرية جمعاء ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [2] ، فقد خُلق الإنسان ضعيفاً أمام الخالق عز وجل محتاجاً لمن هو أقوىٰ منه ، يستند إليه دائماً ليشد أزره ، ولو أنه خُلق قوياً لاستغنىٰ بقوته وشقي ولـٰكن ٱلله تعالىٰ خلقنا ضعفاء ليرحمنا من انتقامه ، ويا سبحان ٱلله حتىٰ ضعف الإنسان نعمة من نعم ٱلله تعالىٰ لأنها تجعلنا نفتقر ونعود إلىٰ الأول وهنا تكمن السعادة الحقيقية .

والإنسان قوة إذا آمن بالقوي المطلق واستند علىٰ قوته في الكلمة والفعل والأمر والنهي ، وفي الإدراك والتدبر وفي التفكر والتذكر حتىٰ يتعظ بكل معطيات القوة .

والخليفة هو من أوائل من وصلوا إلىٰ الخالق مطمئنين به راضين بحكمه ، وهو من كان شاغلاً نفسه بالحق فلم تشغله نفسه بالباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(1) النازعات ، 17 ـ 26 .

(2) يونس ، 90 ـ 92 .

ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (1) ، فما أكثر ما نجد أنفسنا تائهين في الحياة الدنيا لاهثين خلفها لا ندرك مدىٰ الخسارة التي تنزل بنا .

وكأن اسم الأول في حق ٱلله تعالىٰ يحمل في معناه رسائل للعباد جميعاً ويخاطب الإنسان قائلاً : إليك يا عبدي فتدبر هـٰذه الرسائل :

الرسالة الأولىٰ :

إن مرحلة الطفولة رسالة لمرحلة الشباب ، والشباب رسالة لمرحلة الكبر والعجز ، إذ أن أول القوة ضعف وبداية الضعف قوة ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾ (2) ، ولله حكمة في ذلك ليعيش الإنسان جميع المراحل والأعمار بمختلف الشعور والأحاسيس التي من شأنها أن تتدرب ذاته علىٰ التواضع عند امتلاك القوة والصبر عند الضعف ، وبعلمه المطلق عز وجل أدرك أن الإنسان يحتاج إلىٰ رسالة تلفت نظره إلىٰ أن الحياة لا تدوم ، فالشباب حيوية ونشاط وحب للحياة فإذا دام للإنسان وصل به إلىٰ التكبر والغرور وتناسىٰ آخرته بحماس شبابه ، وفورة القوة وتأججها في نفس الشباب ستلهي البعض عن عجزهم عن فهم رسالة الشباب تلك فلا يقرؤون إلا العنوان دون النظر في محتوىٰ الرسالة الإلـٰهية الموجهة لهم ، لأن الخالق أراد منا أن نكون قوة للحق والعدل والمحبة وأن نتوجه إلىٰ الخالق شاكرين وحامدين هـٰذه النعمة التي أنعمها علينا ، فلا تذهب قوانا سدىً في الشرور والمفاسد ، بل يجب أن نطوعها من أجل الخير وإعمار الأرض التي هي أمانة لدينا تحملناها منذ بدء الخليقة إلىٰ يوم الحساب فلا مفر من المحاسبة علىٰ

(1) الأنعام ، 82 .
(2) الروم ، 54 .

التفريط فيها وإهمالها بالفساد ، وفي الشباب قوة تدعم هـٰذه الأمانة وتعين علىٰ حملها والمحافظة عليها بالدعوة للحق والعدل والمحبة والسلام ، فالدنيا لا تقوم ولا تصلح إلا بهـٰذه الهمم الجبارة التي لا تخشىٰ إلا خالقها عز وجل وباستقامة الشباب تستقيم الحياة وتصلح ، وإذا تم ذلك تحققت رسالة الشباب علىٰ الأرض وكانت عوناً للحق لا عوناً علىٰ الحق كما يحدث في بعض الحالات ، إذ يكون موعد الإنسان مع الشباب هو موعد للتكبر واللهو والفسوق ، فتضيع معه الرسالة ويضيع بضياعها هو ، وهناك حالات أخرىٰ يكون الموعد بدخول سن الشباب دعة للاستقامة وهـٰؤلاء هم من يحسنون قراءة الرسائل ويدركون المعنىٰ الجوهري لها ، لا من يتفاخر بفتل العضلات وتوزيع الشرور بقوته وغروره الفاسد الذي يجلب الدمار والهلاك لنفسه ولمن حوله ، لذلك فالشيخوخة تأتي ختماً نهائياً للشباب وذروة الحماس ، فيكون الهدوء بعد العاصفة والتأمل بعد الضجيج فيسكن الإنسان لذاته ويرجع إليها محاسباً أحياناً ومعاتباً أخرىٰ ، حينها يكون قد وعىٰ جزءاً من الرسالة وبدأ بالندم علىٰ ما فات إذا كان ممن يتأججون بنار الطيش والرغبة في الاستمتاع بالحياة بالشكل الخاطئ .

الرسالة الثانية :

العقاب رسالة لكل ضعيف النفس أمام الشهوات ومغريات الدنيا ، فبداية الذنب قد يكون خطأً صغيراً ثم يبدأ الإنسان تصاعدياً تجاه الأكبر من الذنوب ، ورسالة الخالق عز وجل لكل مذنب هي العقوبة كي يرتدع ويتوب ويقلع عما كان فيه من أذىً لنفسه ولمن حوله وهي في جوهرها رسالة رحمة ، إذ أن إحلال العقوبة من شأنها أن تحد من اندفاع الإنسان اللاعقلاني نحو الجريمة والمعصية وفي هـٰذا الحد رحمة للإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (1) ، فالبشر بطبيعتهم يميلون نحو السلام

---

(1) البقرة ، 179 .

وحب الحياة ، والعقوبة إذا تم تطبيقها حقاً فإنها تكفل لهم الحياة الكريمة التي يتمنوها ، لـٰكن في بعض الأحوال يتغلب الشيطان بوسواسه علىٰ طبيعة الإنسان التي خلقه ٱلله تعالىٰ عليها وهي ميله للسلام والحق ، فيتغلب الشر بذلك علىٰ الخير في نفسه ، ويصبح عبداً للشر والضلال اللذين يقودانه لخسارة نفسه ورضا ربه عليه ، وبذلك يخسر الدنيا والآخرة ، فتأتي العقوبة كرادع له ورسالة تحمل عقاباً قد يكون أحياناً روحياً قبل أن يكون عقاباً جسدياً ، وإذا طُبقت العقوبة بالشكل الصحيح وصلت الرسالة في الوقت الصحيح وبالشكل الصحيح ، فهـٰذه الرسالة تنطوي علىٰ مضمون حب الخالق للسلام والعدل ، ومن كان محباً لهما فقد أحبه ٱلله لذلك ، ولابد أن يكون أول طريق الإصلاح هو عدم التسيب والتراخي في العقوبات ، بل بتنفيذها بالشكل المحدد لا زيادة ولا نقصان في حدود تقوىٰ ٱلله تعالىٰ .

الرسالة الثالثة :

يكفي أن يتأمل الإنسان في كيفية حياة نبتة صغيرة قد نمت بين الجبال الشاهقة والجو القاسي الذي قد لا يحتمله العديد من الأشجار الضخمة ليستوعب رسالة الخالق له بالدعوة بالتعايش فيما بيننا باختلاف ألواننا وأجناسنا ومراكزنا ، فلا يمتنع غني في التعامل مع من هو أقل منه غنىٰ ، ولا يرفض صاحب سلطة أو مركز مرموق أن يناسب إنساناً عادي المركز أو متواضع المكانة لأن الفيصل الوحيد بين البشر في القانون الإلهي هو تقوىٰ واستقامة الإنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو شكله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) ، إذ أن الإنسان من الممكن أن يقرأ الدعوة للتعارف والمحبة من هـٰذه النبتة البسيطة التي قد تنمو وتكبر وتذبل دون أن تشير لأي

(1) الحجرات ، 13 .

معنىً إذا لم ينصت الإنسان لرسائل الطبيعة التي ترسلها لنا بأمرٍ من الخالق عز وجل .

وأروع ما يكون إذا خاضت البشرية هٰذه التجربة التي لا خسران فيها ، إذ لا خسارة في تجربة الحب الجماعي والأخوة والصداقة أن تكون بديلاً للنزاع والضغينة بين البشر .

فأول هٰذه الرسالة هي الدعوة للمحبة وآخرها حب التعايش جنباً لجنب مع بعضنا البعض فيسعد الصحيح العليل بزيارته والغني الفقير بمساعدته والشاب الشيخ بمساندته وغيرها من صور التعايش التي تدعو لها هٰذه الرسالة الإلٰهية .

الرسالة الرابعة :

الموت رسالة للحياة ، والحياة رسالة للموت ، فكل منهما بداية للآخر فلا تبدأ كل منها إلا بالآخر ،قال تعالىٰ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) ، فرسالة الحياة تبدأ بإحياء الإنسان من شيء ميت ، وبقدرة الخالق عز وجل تُبَث فيه الروح وتدب فيه الحياة ، ويولد هٰذا الإنسان وينمو ويكبر متناسياً أصل حياته وبداية خلقه لاهياً في الدنيا لاهثاً خلف أيامها ، ثم يأتي الموت لتبدأ حياة جديدة مختلفة عما كان فيها ، حياته هٰذه تبدأ للحساب ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (3) ، وهٰذه الرسالة هي أصل كل الرسالات الأخرىٰ ، فالله هو الأول في الإحياء والإماتة والحساب ، وهو

(1) البقرة ، 28 .
(2) الروم ، 11 .
(3) الجاثية ، 15 .

بذلك يرسل للإنسان بأن يكون أولاً في محاسبة نفسه في الحياة ، بل بمحاسبة نفسه كل ليلة علىٰ ما قدم في نهاره من خير أو شر ، وأن يكون ميزاناً لأفعاله وأقواله ، فأول الناس في الحكم علىٰ نفسه هو الإنسان نفسه لأنه غير قادر علىٰ خداع ذاته وغشها الأمر الذي قد يستعمله مع من حوله .

وأول كلمات هـٰذه الرسالة الاستقامة في الحياة طريق النجاح ، وأول درجة يعتليها الإنسان للصعود إلىٰ الآدمية هي تحقيق رسالة الخالق لنا في الأرض علىٰ الشكل الصحيح ، فالحياة لا تدوم لـٰكنك تختار فيها أي المكانين ستقيم إقامة أبدية إما الجنة وإما النار ، كل إنسان حسب ما سبق أن قدّم في حياته ، حتىٰ الرسل والأنبياء لا يمكن أن تكون حياتهم أبدية علىٰ الأرض بل كل منهم وله أجل قد أتاه لأن الخلد للأول المطلق والآخر المطلق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (1) .

الرسالة الخامسة :

أول الشرور هو العصيان والغرور ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (2) ، فما من مفسدة أو ضلال إلا وكان الشيطان وراءها ، فأول وأصل الشرور والضلال هو العصيان والتكبر علىٰ أوامر

---

(1) الأنبياء ، 34 ـ 35 .
(2) ص ، 71 ـ 83 .

الخالق عز وجل ، فما من عاصٍ ولا متكبر إلا وكان خاسراً لأنه بخسران رضا وحب ٱلله يكون قد خسر كل شيء آخر ، ومن عصيان وتكبر الشيطان وحقده تولدت الوسوسات التي تؤدي بالناس إلىٰ طريق الضلال والهلاك ، وتنشر في الأرض الشرور والمفاسد ، التي نهانا ٱلله عز جل عنها ، والتي تبيح للإنسان أن يكون تابعاً للشيطان ، الذي يأمر التابع له بالفحشاء والمنكر فيضله عن طريق الحق الذي أراده ٱلله أن يكون عليه : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (1) ، فبذلك كان الشيطان أول ساعٍ للشر والضلال بعصيانه لأوامر ٱلله تعالىٰ ، وتكبره عن السجود للإنسان بالتالي تولدت الشرور الأخرىٰ كالطمع والبخل والكذب والنفاق وغيرها من وسوساته للإنسان بغرض تضليل بني آدم عن طريق الحق والخير ، فبداية بذرة الشر أنبتت العديد من أصناف الشرور التي استولت علىٰ بعض النفوس البشرية الضعيفة ، بالرغم أن الأول بالإطلاق كان سباقاً بتنبيه بني آدم لهٰذا الشر وتحذيره له من الابتعاد عنه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ (2) ، وكذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ

(1) النور ، 21 .

(2) يس ، 60 ـ 62 .

مُّبِينٌ ﴾ [1] ، فالله كان أولاً في توضيح الخير من الشر للإنسان ، فكان أولاً بهدايته له ورحمته به بتعليمه التمييز بين الحق والباطل ، وأولاً بإهدائه العقل للتمييز قبل كل شيء آخر ، فكان خيره وكرمه وحكمته سابقة لنزعة الشر التي دعا إليها الشيطان للانتقام من البشر بإغوائهم ، لذلك فقد انقسم البشر إلىٰ قسمين :

أولهما : تابعٌ للأول المطلق ومطيعٌ له في أوامره ، وهـٰذا هو الناجي والفائز بسباقه لحب الأول وتغلبه علىٰ وسوسات الشيطان ، فيكون بذلك الخليفة الذي أراده الخالق عز وجل في الأرض حافظاً لها راعياً حقها .

وثانيهما : تابعٌ للشيطان يُملي عليه ما يؤدي به للهلاك والخسران ، مبعداً عن حب المولىٰ عز وجل لاهثاً وراء ملذات ومفاسد هي سبب هلاكه ، قال تعالىٰ : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [2] .

فالفائز من الفريقين هو الخليفة الذي وجد سعادته بالقرب من الأول المطلق ، بعد أن بحث عنها وسعىٰ إليها ، فكان ٱلله الأول في رحمته به وهدايته له وحفظه من كل الشرور ، ومكافأته بجنة الخلد التي وعد بها خلفاءَهُ الذين سعوا في الأرض بالخير والصلاح ، منفذين إرادة الخالق عز وجل ، فكان الخالق عند وعده لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] ، وأيضاً قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [4] .

---

(1) الأعراف ، 19 ـ 22 .
(2) الأعراف ، 30 .
(3) الأنعام ، 165 .
(4) النمل ، 62 .

فجميع رسائل الأول عز وجل يدركها خلفاؤهُ الذين رضي ٱلله عنهم ورضوا عنه ، فأتم ٱلله عليهم نعمته ، فأدركوا الحياة كما أرادهم المولىٰ ولم تدركهم الحياة ، فكان سمعهم من سمع الأول ، وبصرهم ورحمتهم كذلك ، وما يزال خلفاء الأول يتسابقون علىٰ الفوز بحب ٱلله ونيل رضاه وما يزالون يتوافدون لرحاب ٱلله يختارون لذلك أقصر الطرق وهي حبه وحب رسوله الكريم ﷺ فهـٰذا الحب هو سبيل الاستقامة ، والاستقامة سبيل النجاح ، والنجاح هو الفوز بشرف خلافة الأرض كما أرادنا الأول عز وجل .

والخليفة الحق من كان أولاً في فتح أبواب الخير وأولاً في إغلاق أبواب الشر بما استطاع ، فيقذف الأول المطلق في قلبه نور البصيرة الذي به يدرك الخليفة حب الخالق وأمانه .

الأول هو الآخر ، وهو البداية والنهاية ، ولأنه البداية والنهاية فهو الذي لم يكن من بعده آخر ، وهو الباقي الدائم الذي يوحَّد ولا يتعدد ، ولأنه الباقي فكل شيء هالك إلا وجهه ، ولأن الحياة منتهية إثباتاً ، فإن ذلك يعني أن كل مخلوقاتها منتهية ، وبما أن كل مخلوقاتها منتهية ، والمخلوقات كم عددي ، إذاً كل كم في الدنيا مُنتهٍ حتىٰ حبات الرمل ، وقطرات الماء ورذاذه .

إن الحياة الدنيا التي نود التعرف عليها والتطور فيها لن تكون باقية إلىٰ ما لانهاية ، بل إنها منتهية . ولأننا نعرف إثباتاً أن للحياة نهاية فلا نتفق مع الذين يقولون غير ذلك . فلا تحليل إلا لوجود ، ولا تحليل إلا بموجود ، ولكل شيء بداية ونهاية ، وهـٰكذا يستمر الوجود ، والتفكير ، والتغيير ، والتحليل إلىٰ النهاية ، وأن الذين يعتقدون في وجود اللامتناهي رياضياً ، هم كمن يلهث وراء السراب من أجل أن يروي ظمأه . ولهـٰذا يحدث الاختلاف مع البعض الذين يحللون القضايا والمسائل الرياضية ، وهم معتقدون في وجود اللامتناهي ، ومن أجل ذلك أطرح السؤال الآتي :

هل اللامتناهي موجود .

قد تكون إجابتهم بنعم ، وقد تكون بلا ، فإذا كانت الإجابة بنعم . فإنهم فتحوا لنا المجال بأن نطالبهم بإثباته ، وإذا أثبتوه ، أثبتوا أن له بداية ونهاية ، وإذا كانت له بداية ونهاية ، فإنه أصبح موجوداً (المتناهي) ، ولم يكن اللامتناهي ، أما إذا كانت الإجابة بلا ، إذاً نفوا وجود اللامتناهي . وبما أنه أصبح غير موجود ، إذاً لا حجة لهم علينا ، ولنا عليهم حجة .

والمنطق العلمي وخاصة الرياضي منه ، لا يعترف بمسلمات إلا بعد إثبات . وعليه إذا اعتبروا أن اللامتناهي مسلمات ، فإنهم اعترفوا بأنه مثبت ، وإذا كان مثبتاً كان موجوداً ، وبما أنه موجود ، إذاً له بداية ونهاية ، وإذا كانت له بداية ونهاية ، فإنه لم يكن أللامتناهي . يقول ٱلله تعالىٰ في سورة الحديد : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ سبحانه وتعالىٰ إنه البداية التي لم يكن من قبلها شيء ، والآخر بلا نهاية الذي جعل للنهار بداية ونهاية ، ولليل بداية ونهاية ، وللعمر بداية ونهاية ، وللتفكير بداية ونهاية ، ولكل الوجود بداية ونهاية . وعليه إذا كان لكل شيء بداية ونهاية ، والأعداد شيء ، إذاً للأعداد بداية ونهاية . وإذا سلمنا بأن لكل بداية نهاية ، وأن للأعداد بداية ، إذاً لابد وأن تكون لها نهاية ، ولـٰكن هل تستطيع قدراتنا العقلية المحدودة (التي لها بداية ونهاية) أن تكتشف هـٰذه النهاية ، أو لا تكتشفها . هـٰذه مسألة تتعلق بمدىٰ استخدامنا لقدراتنا العقلية ، التي تتطور وتتغير عبر الزمن إلىٰ النهاية ، فما نعتبره استحالة اليوم ، قد لا يكون كذلك غداً . ولذلك لا مكانة في العلم للأحكام المطلقة مسبقاً .

اللامتناهي رياضياً لا وجود له إلا افتراضاً ، وبما أنه افتراض ، إذاً لم يكن مثبتاً بعد ، فالافتراضات العلمية التي تصاغ بهدف دراسة المواضيع ليست يقينية . بل إنها احتمالية شكية ، قد تثبتها الدراسة وقد تبطلها . وإذا كان لكل كم نتيجة محددة ودقيقة ، علىٰ سبيل المثال : إذا كان أي كم هو نتيجة حاصل

الجمع ، أو الطرح ، أو القسمة ، أو الضرب ، وسواء في التربيع أو التكعيب ، أو غيرها من المسائل الحسابية ، وبما أنه بالإمكان الحصول علىٰ هـٰذه النتيجة كحاصل للعمليات الحسابية السابقة ، إذاً لا مكان بينها إلىٰ اللامتناهي إلا افتراضاً . وبما أنه كذلك ، إذاً لا مصادق لوجوده . وإلا هل هناك كم حسابي يقبل القسمة والجمع والطرح ، ولم تكن له نتيجة (نهاية) . لا وجود لذلك . ولهـٰذا اللامتناهي علىٰ قيد الوجود لا وجود له إلا افتراضاً .

إن افتراض وجود اللامتناهي ، مثل الافتراض الذي يقول (يظل المستقيم مستقيماً مهما امتد) . هـٰذا الافتراض لا مصادق له ، لان المستقيم إذا أمتد إلىٰ مهما ، لا يمكن أن يكون مستقيماً ، بل يكون دائرة وهـٰكذا حال أي مستقيم يبتدئ بنقطة وينتهي بنقطة .

يقول أرسطو : « يجب التمييز بين اللامتناهي بالقوة ، وبين اللامتناهي بالفعل » ، وهو يقر بوجود الأول ، وينكر وجود الثاني . وهـٰذا يعني عدم اعترافه بوجود اللامتناهي إلا نظرياً ، أما واقعياً فلا وجود له . وهـٰذا حال الفكر اليوناني عامة الذي ينظر إلىٰ العالم علىٰ أنه متناه . وعليه أتساءل : كيف يؤمن أرسطو بوجود اللامتناهي بالقوة ، ولا يؤمن بوجود اللامتناهي بالفعل . إذا كان المتناهي موجوداً بالقوة يكون بالضرورة موجوداً بالفعل . وإذا لم يكن موجوداً بالفعل ، فلا وجود له بالقوة . وإلا هل يحق لنا أن نقول : إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر وهي في حقيقتها من الناحية الفعلية لا تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر . إذا كانت كذلك فإنها لم تكن الصلاة . الصلاة هي التي تنهىٰ عن ذلك بالقوة والفعل . وإذا وجدنا مسلماً يصلي ولم ينته عن ارتكاب الفواحش والمنكرات ، فالعيب هنا لم يكن في الصلاة ، بل العيب في المصلي الذي لم يدخل الإيمان قلبه بعد . ولمَّا يدخل الإيمان قلبه سينتهي عن ارتكاب كل ذلك ، وتكون الصلاة في هـٰذه الحالة حقيقة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي .

وفق المنطق العلمي لكل بداية نهاية ، والذي لا بداية له ولا نهاية لا يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح بنتائج دقيقة ومحددة ، وليس له منتصف أو مركز يحدد نزوعه وتشتته مما يجعله معدوم التعامل الحسابي .

ونورد القضايا المنطقية الآتية عن المتناهي واللامتناهي :

القضية الأولىٰ :

كل ما له بداية له نهاية .

للمتناهي بداية .

إذاً للمتناهي نهاية .

هـٰذه القضية منطقية وفقاً للمسلمات الحسابية التي تم التعرف عليها والبرهنة بها .

القضية الثانية :

كل ما له نهاية له بداية .

اللامتناهي ليست له نهاية .

إذاً اللامتناهي ليست له بداية .

هـٰذه قضية منطقية صادقة . وذلك لفقدان اللامتناهي معطيات الإثبات ، وهي البداية والنهاية .

القضية الثالثة :

كل ما له بداية ونهاية يقبل التعامل الحسابي .

المتناهي له بداية ونهاية .

إذاً المتناهي يقبل التعامل الحسابي .

القضية الرابعة :

كل ما له بداية ونهاية يقبل التعامل الحسابي .

اللامتناهي ليست له بداية ونهاية .

إذاً اللامتناهي لا يقبل التعامل الحسابي .

هـٰذه قضية صادقة إثباتاً .

وبناء علىٰ هـٰذه القواعد هل للزمان بداية ونهاية . نعم ، للزمن بداية ونهاية ، حتىٰ وإن لم نعرف تاريخ بدايته ونهايته . لأننا نعرف من الزمان ما هو ماض ، وما هو حاضر ، وما هو مستقبل . وهـٰذا يدل علىٰ قبول الزمان للقسمة والجمع والطرح . يقول ٱلله تعالىٰ في سورة يونس : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ . وبما أن النهار جزء من اليوم ، والساعة جزء من النهار ، ألا يكون النهار واليوم جزأين من الزمان . ولأن الإجابة بنعم فتكون البرهنة أيضاً بنعم ، إن للزمان بداية ونهاية ، ونحن الذين لم نتمكن من معرفتهما . لأننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً . وفي هـٰذا الأمر أقول كل متعدد متناهٍ وكل ما ينتج عن القابل للتعدد متناهٍ إلا الواحد الذي لا يتعدد باعتباره هو الأول والآخر .

وعليه يكون الزمان متناهياً مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] . ربي ، الأول والآخر . وهو الواحد الذي لا يتعدد ، وبالتالي لا يقع في شك الفلاسفة والرياضيين المتجادلين علىٰ النهاية واللانهاية . ولهـٰذا قدرات ٱلله لا تحصىٰ ولا تعد بالقدرات البشرية المخلوقة ، ولا هي

---

(1) الأعراف ، 187 .

موضع مقارنة ، ولا يمكن أن تدخل في حساباتنا المتناهية بقصورها أمام قدرته . وهـٰكذا دائماً المخلوق أقل قدرة من خالقه .

وبناء علىٰ ذلك هل للأعداد بداية ونهاية . الأعداد مهما كبرت فإنها تبتدئ بواحد وتنتهي بواحد ، إذاً الواحد هو البداية ، والنهاية ، وإذا لم نصل بقدراتنا العقلية إلىٰ معرفة وجود النهاية العددية ، فإن ذلك لا يعني إثبات عدم وجودها ، بل إنه دليل علىٰ قصور قدراتنا العقلية ، والفكرية ، التي لم يستخدم منها إلا القليل جداً من سعتها الإدراكية ، والاستيعابية ، وهـٰذا يتطلب منا عدم اليأس ، ويدفعنا إلىٰ البحث الجاد ، والتقصي الدقيق ، من أجل التعرف علىٰ نهاية الأعداد ، كما تعرّفنا علىٰ بدايتها ، ولذلك لا نيئس مثل الذين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [1] . والآخرة هي التي تكتمل بها البداية ، وتنتهي ، كما تبتدئ الأعداد (أي أعداد) بواحد ، وتنتهي به ، مما يجعل الواحد ككل ، أو كجزء هو البداية والنهاية .

وما لانهاية ، هو الذي لا يشاهد ، ولا يحس به ، وهو احتمال ، لم يخضع للإثبات ، وإذا عرفناه أصبح نهاية ، والأعداد سواء بالسلب ، أو بالإيجاب تستمر في تضاعف إلىٰ النهاية (نهاية الشيء المعدود ، أو نهاية الذي يقوم بفعل العد) ولا يبقىٰ إلا الأول الواحد الأحد .

ومثالاً علىٰ ذلك : إذا اتجه أحد المتخصصين في دراسة الرياضيات من نقطة معينة علىٰ الأرض في اتجاه مستقيم ، فإنه بالضرورة يصل إلىٰ النهاية ، لأن لكل بداية نهاية ، ولـٰكنه لو انحرف قليلاً ، أو كثيراً عن خط سيره ، فإنه يجد نفسه مستمراً في اتجاهه ، دون أن يمر بنقطة النهاية ، وكأن الأرض ليست دائرية ، وهـٰكذا في كل دورة علىٰ الأرض إذا لم يصل إلىٰ نقطة البداية التي

---

(1) الممتحنة ، 13 .

وضعها أو أنطلق منها ، وفي هـٰذه الحالة قد يحكم علىٰ الأرض بما لانهاية ، وهو يعرف مسبقاً أنها منتهية .

وعليه أتساءل : هل في دراستنا للأشياء والمواضيع في دائرتها ، أو فلكها المنتهي ، تكون غير منتهية . نحن نعرف أن كل شيء ندرسه ، أو خاضعٍ للدراسة لا يخرج عن حيز من الزمان ، والمكان ، وهو أيضاً لا يخرج عن حيز تفكيرنا وقدراتنا العقلية . إذاً كل ما ندرسه ونبحث فيه ، هو في إطار محدود ، مع فارق حدوده مع غيره ، إذا قورن به ، وبما أن ما ندرسه في إطار محدود ، ألا يكون لِمَا ندرسه حدود ونهايات . إذا قمنا بإحصاء عدد سكان الصين علىٰ سبيل المثال ، فمهما كان عددهم فإن له نهاية ، لأن المكان الذي استهدفناه محدد ، إذاً مسبقاً نعرف : أن لعدد سكان الصين نهاية ، مع أننا لا نعرف عددهم بعد . وإذا قمنا بتعداد سكان العالم ، وحيواناته ، وطيوره ، وأسماكه ، ونباتاته ، وحتىٰ حبات رمله ، ألا نصل إلىٰ النهاية . بالتأكيد سنصل ، لأن كل هـٰذه الكائنات في رقعة جغرافية محددة بالكرة الأرضية المتناهية ، إذاً لابد وأن تكون لها بداية ونهاية ، مع العلم أن بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهون قبل أن يعرفوا النهاية ، وإذا خرجنا بقدراتنا العقلية إلىٰ التعرف علىٰ ما هو خارج الأرض ، فإننا سنعرف بقدر ما تستوعبه عقولنا وتفكر فيه ، ولا نستوعب ولا نتعرّف علىٰ ما هو خارج عنها . وبما أن لكل شيء بداية . إذاً لابد وأن تكون له نهاية . وبما أن التطور شيء (سواء كان مادياً أو مجرداً) إذاً لابد وأن تكون له بداية ونهاية . وعليه لا وجود في الحياة الدنيا إلىٰ ملا نهاية ، بل الوجود إلىٰ النهاية ، وهـٰذا يستوجب التعرف علىٰ شيئين :

الأول : المتعرف عليه بالمتعرف به :

عندما يكون الموضوع معرفة سابقة سواء كانت هـٰذه المعرفة مادية أو فكرية ، فيكون هو المتعرف عليه ، ويكون هـٰذا الموضوع هو المعرفة التي يتم

استيعابها بالعقل وهو المتعرف به . فالمتعرف عليه لو لم يكن له بداية ونهاية ما عرفناه معرفة علمية ، ولهٰذا عندما تتوفر المعلومات عن الموضوع ، يمكن التعرف عليه بالعقل باعتباره المتعرف به .

الثاني : غير المتعرف عليه بالمتعرف به :

عندما يتمكن العقل من البحث والتقصي العلمي يمكن أن يتعرف علىٰ الجديد بالمتعرف به (بالعقل) ، في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية إدراكية . وغير المتعرف عليه هو الذي لم يُكتشف بعد حتىٰ يعتبر معرفة علمية ولهٰذا يُعتبر بالنسبة للمدركات العقلية مجهولاً ، والعقل معروف كوسيلة للتعرف به ، وعندما يتعرف العقل (المتعرف به) علىٰ الجديد يصبح غير المتعرف عليه معروفاً .

إن المعرفة الممكنة هي المعرفة المتاحة ، أما المعرفة غير الممكنة هي المعرفة غير المتاحة . مثل معرفة اليوم الآخر في الحياة الدنيا ، هي معرفة نظرية فقط ، ولا يدركه إلا المؤمن الذي يدرك ٱلله (الأول والآخر) . وفي الوقت ذاته لا يعرفه عملياً لأنه غير قابل للمشاهدة والملاحظة ، وهٰذه معرفة غير متاحة . وهٰذه التي أطلقنا عليها (غير المتعرف عليه بالمتعرف به) . وكل معلومة لم يتم التعرف عليها بعد وهي في الإمكان تندرج تحت (المتعرف عليه بالمتعرف به) إلىٰ النهاية . وكل معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت (غير المتعرف عليه بالمتعرف به) ، وذلك لقصور العقل (المتعرف به) عن إدراكها ، وهٰذه نهاية للفكر الإنساني وذلك لمحدودية قدراته ومدركاته . كل شيء عرفناه يكون هو المتعرف عليه . وكل شيء هو موجود ولم نتمكن من التعرف عليه سواء في الأرض أو في السمٰوات أو ما بينها ، يكون غير المتعرف عليه .

عندما يتأمل المفكر في المجرد يمكن أن يتعرف علىٰ الجديد . القوانين الفيزيائية التي أصبحت بين أيدينا في المعامل والمختبرات هٰذه نُقلة من مجرد

إلىٰ مجرب (خاضع للتجريب) في مثل هـٰذه الحالة انتقل العقل من غير المتعرف عليه إلىٰ المعرفة . أما إذا انتقل العقل من المتعرف عليه إلىٰ معرفة أخرىٰ جديدة مثل النظر إلىٰ الإبل والجبال والأرض كمتعرف عليها ، وانتقل منها إلىٰ معرفة الكيفية التي بها خلقت تكون المعرفة الجديدة معرفة مجردة تمت معرفتها بالمعرفة المجربة التي تشاهد وتلاحظ .

إذاً المشكلة هي عدم التعرف ، وإذا عرفنا ، عرفنا النهاية كما عرفنا ٱلله الأول والآخر ، وإذا لم نعرف ، ليس معنىٰ ذلك أن للأشياء مالا نهاية ، بل إن للأشياء نهايات ولـٰكن لم نعرفها بعد ، وإذا لم نتمكن من معرفتها ، فإن ذلك لا يعني مالا نهاية ، بل يعني قصور قدراتنا عن معرفته إلا ٱلله ندركه بآياته دون أن يكون مشاهداً .

وإذا كانت للأرض بداية ونهاية إثباتاً من خلال معرفة مساحتها ، وحجمها ، ألا يكون لما عليها ، بداية ونهاية . وبما أن لانطلاقة الرصاصة من فوهة البندقية ، إلىٰ الهدف الذي يمكن أن تصل إليه ، بداية ونهاية ، ألا يكون لما بينهما أيضاً بداية ونهاية . وإلا كيف نقبل بأن لها بداية ونهاية في الحالة الأولىٰ ، ولا نقبل أن يكون لها في الحالة الثانية (الحالة المحصورة بين نقطة الانطلاق ، ونقطة إصابة الهدف) وهـٰكذا يعتقد البعض بقولهم عندما تتجزأ المسافة المقطوعة إلىٰ أجزاء ، تتجزأ هي الأخرىٰ إلىٰ مالا نهاية . إنها مسألة خيالية لا يمكن أن تتفق مع الواقع المشاهد ، والمقاس ، أو إنها أضحوكة خيالية ، وإلا كيف تكون لانطلاقة الرصاصة ، بداية ونهاية ، وتكون المسافة بينهما (بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول إلىٰ الهدف) غير منتهية ، وهـٰكذا لكل الأشكال الهندسية ، بداية ونهاية من خلال تحديد مساحاتها ومحيطاتها وأحجامها المحددة لها ، فكيف هي الأخرىٰ تكون محددة ومعروفة بدقة ثابتة ، بداية بوحدة القياس ، ونهاية بوحدة القياس ، ويكون لما بينهما مالا نهاية .

هل المسافة العددية المحصورة بين 1 ، 2 ، التي تتجزأ إلىٰ أجزاء هي الأخرىٰ تتجزأ إلىٰ درجة أطلق عليها مالا نهاية ، هل هٰذه المسافة تساوي المسافة بين 2 ، 3 ، وتساوي المسافة بين 3 ، 4 ، وهٰكذا بقية المسافات بين الأعداد إلىٰ النهاية . بالتأكيد أن العدد 1 ، هو البداية لما يأتي من بعده من أعداد ، ويكون العدد 2 نهاية للأعداد الجزئية التي أتت بعد العدد 1 ، وهٰكذا إلىٰ النهاية ، إلا الأول والآخر هو واحد أحد يعد ولا يتعدد ، ولأن المسافات المحصورة بين الأعداد متساوية ، باعتبارها محددة ، وبدقة واحدة ، إذاً لابد وأن يكون لها بداية ونهاية . وإلا هل يمكن أن يكون للشيء الواحد بداية ونهاية ، ويكون للمحصور بينه مالا نهاية ؟ ! وإذا لم تكن للأعداد المتجزئة (المحصورة بين الأعداد الصحيحة ، بين 1 ، 2 ، 3 ، الخ) نهايات لا يمكن أن نصل لأي عدد صحيح .

الكون بما فيه من يابس وماء وهواء وخلاء ، أثبت العلماء أن له بداية ، والتي عرفوها بالانفجار العظيم ، ومنهم من اعتبرها النقطة الصفرية التي بدأ منها الامتداد ، وعرفوا حديثاً أن للامتداد العظيم أيضاً نهاية يقف عندها ، ويعود منها إلىٰ نقطة البداية الأولىٰ بالانكماش ، ومع أن العلماء الروس هم الذين أثبتوا ذلك حديثاً ، إلا أن ٱلله عز وجل قد قال في الكتاب الحكيم في سورة الأنبياء : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (1) ، السماء التي بسطت كانبساط أوراق الكتب وسجلاتها أثناء لحظة الانفجار العظيم ، والتي امتدت إلىٰ ما عرفناه ، وما لم نعرفه بعد ، ستطوىٰ بقدرة الخالق الأول كما تطوىٰ أوراق الكتب وسجلاتها ، إلىٰ أن تنتهي إلىٰ الحجم الذي بدأت منه ، وكأنها ذرة ، ثم تنتهي إلىٰ ما يراد إليها أن تكون عليه بقدرة الخالق العظيم الذي قال في سورة

(1) الأنبياء ، 104 .

العنكبوت : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، فإذا عرف الإنسان الكيفية التي عليها نشأ الخلق (الذي تكوّن أو تأسس أو بدأ عليها) ، يعرف بالضرورة أن لهٰذا الخلق لابد من نهاية ، لأن معطيات تكوين الخلق محددة بعمر زمني لابد وأن تنتهي إليه ، وهٰكذا تنتهي أعمار المخلوقات بمختلف أنواعها ، وأجناسها وفصائلها ، وخصائصها وقوانينها . وهٰذا ذكرني لحديث جرىٰ بين أحد أساتذة الفلسفة من السودان الشقيق وبيني حينما سألته أين مكان الإقامة . فقال : مؤقتاً في طرابلس . فسألته : ودائماً أين ؟ فقال في الخرطوم . فقلت له : ألا تعتقد أن وجودك مؤقت أينما كنت . فقال : نعم لكل بداية نهاية .

إن التفكير الإنساني في حالة تطور ونضج ، وتغير بالسلب والإيجاب حسب الموقف والظرف ، ولهٰذا لا ينبغي أن يوضع علىٰ التفكير الإنساني سقف ليحد منه ، بل ينبغي أن يُحفز علىٰ التفكير الحر ، ليكون مبدعاً ومنتجاً ومتطوراً . وعليه نقول إن التفكير الإبداعي المتطور لا حدود ثابتة له ، ولٰكن له نهاية .

الأول هو الواحد البداية والنهاية :

تبتدئ الأعداد بواحد فيكون الصدارة ، وتختتم به ويكون النهاية ، وجميع الأعداد هي مواليد الواحد خلقاً ، فلولا الواحد الأول ما عرفنا الاثنين اللذين يتكونان من 1 + 1 ، والواحد دائماً مستقل عن كل واحد من حيث أنه واحد ، ومن تكرار الواحد القابل للتكرار والمثيل تتكون الأعداد والأرقام مما خلق الأول المطلق ، تكرار 1 ، 1 ، 1 بالجمع تساوي ثلاث ، وثلاث بطرح واحد تساوي اثنين ، وهٰكذا ، إذاً أي عدد لا يمكن أن يكون هو المقصود إذا سحب منه الواحد ، أو أضيف إليه ، علىٰ سبيل المثال إذا كان

(1) العنكبوت ، 20 .

العدد المقصود هو 4 أو 5 ، أو 9 ، فإنه لا يمكن أن تتكون هـٰذه الأعداد إلا بالواحد ، وإذا سحب من كل منها تصبح ، 3 ، 4 ، 8 ، وهـٰكذا تنتهي هـٰذه الأعداد وغيرها ويبقىٰ الواحد الدائن جل جلاله ، وإذا انتهىٰ الواحد كعدد انتهىٰ الوجود أو الموجود ، وكانت النهاية ، ولم تكن ما لانهاية .

إذاً بالواحد تكون البداية ، وبه تكون النهاية ، وأي عدد لا يمكن أن تكون له بداية ولا نهاية إلا بالواحد ، فالرقم 8 بدايته واحد ، ويستمر الواحد في تضاعف إلىٰ أن يصل إلىٰ الرقم أو العدد7 وإذاً إضافة واحد إلىٰ 7 يجعلها 8 ويكون نهاية لها ، إذاً الواحد هو البداية والنهاية بالنسبة إلىٰ العدد 8 والىٰ أي عدد .

وعلينا أن نفرق بين الواحد الذي يتعدد والأول الذي لا يتعدد ، فالذي يتعدد يتعدد بالمقارنة والمثيل والشبيه ، والذي لا يتعدد ليس له بمقارن ولا مثيل ولا شبيه ، إنه الأول المطلق جل جلاله .

وعرف الرياضيون الأعداد الصحيحة المتكون جميعها من الواحد ، وهي 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 . وهـٰكذا تتكرر الأعداد وتتكاثر في حركة دائرية ، من العدد 1 إلىٰ العدد 9 ، مما جعلها تنتهي عند 9 وتستأنف الدورة العددية بالواحد . إذاً لهـٰذه الأعداد بداية ونهاية . وبعد التعرف علىٰ الصفر كنقطة بداية افتراضية ، تكونت دائرة عددية أخرىٰ تبتدئ بالعدد 10 الذي يتكون من تزاوج الصفر مع الواحد ، والذي عرف بالعدد الموالي للعدد 9 ، وبداية دائرة عددية جديدة تنتهي عند العدد 19 ، وتبتدئ دائرة أخرىٰ بالعدد 20 وتنتهي عند العدد 29 وهـٰكذا تبتدئ الأعداد وتنتهي في دوائر عشرية ، إلىٰ أن تتضاعف وتصل إلىٰ الدائرة المئوية ، التي تنتهي بدائرة الألف ، وتبتدئ بعدها دوائر العشرة آلاف وتنتهي ، والمئة ألف ، والمليون وتنتهي ، وهـٰكذا تتضاعف الأعداد وتتكاثر ، وتستمر الدوائر بداية ونهاية ، ولا يمكن أن تبتدئ دائرة إلا وأن تنتهي ، ومن يعارض ذلك نقول له لو أعددت طول حياتك لن

تجد دائرة عددية تبتدئ ولم تنتهِ . وكل دائرة لا يمكن أن تبتدئ إلا بواحد ، ولا تنتهي إلا به ، وإلا هل يمكن أن تنتهي دائرة العشرات ، أو المئات ، أو غيرها بدون الواحد . العدد 99 مئوي ، لا يمكن أن يكون إلا بالواحد ، ولا تقفل دائرته (تنتهي) إلا بزيادة واحد ، والعدد 999 ألفي ، هو الآخر لا يمكن أن يكون إلا بالواحد ولا ينتهي إلا به . علىٰ سبيل المثال : إذا شاهدنا سباق جري علىٰ مضمار ملعب كرة القدم الذي مساحته تساوي طوله × عرضه ، فتكون مساحته محدودة (منتهية) وطوله بالأمتار له بداية ونهاية ولا تتجاوز 400 متر تقريباً ، فإذا بدأ السباق من نقطة الصفر الافتراضي وقطع المتسابقون مساحة 5000 متر طولي ، فهل يعني ذلك : أن طول مضمار كرة القدم تمطط إلىٰ أن أصبح يساوي 5000 متر . وإلا كيف قطع المتسابقون هٰذه المسافة الطولية . بدون شك أنهم قطعوها نتيجة تكرار عدد الدورات علىٰ المضمار ، الذي يساوي طول المضمار ضرب عدد الدورات عليه ، والتكرار لا يزيد طول المضمار ولا ينقصه ، لأن طوله محدد ، وله بداية ونهاية . وكل من له بداية ونهاية له منتصف ، ويتجزأ إلىٰ نقاط ، لأنه متكون منها (من نقاط) ، فالمستقيم علىٰ سبيل المثال مهما امتدّ بدايته نقطة ونهايته نقطة ، وتقترب نقاط البداية والنهاية في حالتين :

الأولىٰ : الحالة الموجبة :

كلما زاد طول المستقيم ، أو الخط الرياضي والهندسي المتشكل (المرتسم) في الاتجاه الموجب ، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها ، والتي سيتصل بها عندما يستمر في اتجاهه إلىٰ النهاية ويرسم دائرة ، وكلما نقص ، نقص عن الاتجاه الموجب ، وزاد ابتعاداً ولم يرسم دائرة .

الثانية : الحالة السالبة :

كلما نقص طول المستقيم ، أو الخط الرياضي والهندسي المرسوم في الاتجاه السالب ، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها ، والتي سيتصل

بها عندما يصل إلىٰ النهاية (في حالة العودة) ، وكلما زاد ، زاد عن الاتجاه السالب ، وزاد ابتعاداً .

لا عدد إلا لكم ، ولكل كم نهاية ، فإذا كان الكم بشراً ، فإن للبشر بداية ونهاية ، وإذا كان الكم حيواناً ، أو نباتاً ، أو سمكاً ، أو طيراً ، أو أي جماد ، فإن لكل ما ذكر بداية ونهاية . وعليه إذا كان كل ما يعد له بداية ونهاية ، ألا يكون للعدد نهاية . ومن يخالف أن للأعداد نهاية ، أطالبه إثبات ذلك (إثبات مالا نهاية) .

وعليه كل الأعداد تزيد وتنقص وتتكرر بالواحد ، وبما أنها كذلك إذاً تبتدئ وتنتهي به ، وإذا أصر البعض علىٰ أن للأعداد مالا نهاية ، اطرح عليهم السؤال الآتي : ألا يكون بين كل الأعداد ما تسمونه بما لانهاية . إذا كانت الإجابة بنعم ، إذاً لا يمكن أن يحصل الانتقال من عدد لآخر علىٰ الإطلاق ، فالمسافة بين الصفر الافتراضي ، والواحد تساوي ما تسمونه مالا نهاية ، والمسافة بين الواحد والاثنين كذلك وهٰكذا . ومع ذلك أن التوليد العددي يزداد نتيجة التكرار من الواحد ككل والواحد كجزء ، والواحد كمتجزئ ، 1 ، 01 . ، 001 . ، 0001 . ، 00001 . ، 000001 . ، 0000001 . ، ويستمر التوليد العددي إلىٰ النهاية ، وإلا لا يمكن أن نصل إلىٰ العدد صفر ولا العدد 2 . وإذا كانت الإجابة بلا . إذاً اعترفوا أن للأعداد نهاية ، وهي الواحد ككل ، وكجزء ، وكمتجزئ ، والذي جعل الرياضيين يؤسسون نسب التقريب عليه ، وجعلهم يطوون المسافة في تنقلهم من عدد إلىٰ الذي يليه ، ولهٰذا كل الأعداد تتولد من الواحد وتعود إليه ، إذاً الواحد هو البداية والنهاية وهو الأول والآخر . وإن ٱلله تعالىٰ يعلم بكل كم وعدد كما جاء في سورة مريم : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [1] ، كل ما خلق في السمٰوات والأرض معلوم عدده

(1) مريم ، 93 ـ 95 .

عند ٱلله ، وبما أن كل الأعداد تم إحصاؤها من عنده ، إذاً كل الأعداد لها نهاية ، وكل الأعداد يتم التعامل معها فرادىٰ (واحداً واحداً) ، ولهـٰذا كل الأعداد تعود إلىٰ الواحد الأول . ونحن نعرف أن لكل شيء نهاية ، ولـٰكن لم نعرف متىٰ تكون نهايته ، ولا كيف تكون ، ولـٰكن للرحمـٰن كل شيء معلوم ، مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة الجن : ﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴾ . إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ أحصىٰ كل شيء تعداداً أي كل ما خلق معروف له كماً وعدداً . وكل من يحمل في معناه واحداً تكون له صورة وشكل كالإنسان ، والغزالة ، الطير ، الشجرة ، البحر ، الجبل ، السمك ، إلا الواحد الذي خلق الواحد ، لا يمكن أن تكون له صورة ولا شكل ، إنه الأول والآخر جل جلاله . وكل مخلوق لا يمكن أن يشاهد خالقه ، أو صانعه ، فالإنسان الذي صنع القلم ، أو المقعد ، أو الحاسوب ، أو السيارة ، أو الطائرة ، يمكنه مشاهدتها بنظره السليم ، وهي لا يمكن أن تشاهده ، ويمكنه استخدامها أو التخلص منها في أي وقت يشاء ، وهـٰكذا المخلوقات بالنسبة لخالقها الذي يشاهدها ولا تشاهده ويحييها ويميتها متىٰ يشاء وفي أي مكان كيفما شاء .

وعليه الواحد هو الحقيقة التي لا تتمركز الجموع إلا به ، ولا تتشتت إلا به ، ولا تبتدئ أو تنتهي إلا به ، لأن الجموع هي تكرار الآحاد ، أو التقاؤها علىٰ قيم ، أو في مضامين . والقيم هي المضمون الذي تكونه الجموع ، ويحتويه الواحد ، وكلما زاد الواحد في الاتجاه الموجب كلما كان للتطور شأن ومعنىٰ ، وكلما زاد الواحد في الاتجاه السالب كلما حدث الانكماش والتخلف . وكلما نقص الواحد في دائرة النسبية من الاتجاه السالب كلما ازداد الأمل . وكلما نقص الواحد من الاتجاه الموجب كلما حبط العمل . ولهـٰذا تصف المجتمعات كلاًّ من التطور العمراني والتطور الثقافي والتطور العلمي بالتطور الموجب ، وعند زيادة أي وحدة أو مفردة علىٰ ذلك

تعد علىٰ سلم التطور الموجب ، وأي نقص من ذلك يعد علىٰ سلم التأخر . وتصف المجتمعات في ذات الوقت كلاًّ من التطور في الانحراف والجريمة ، والتطور الاستهلاكي بالتطور السالب وعند زيادة أي وحدة أو مفردة علىٰ ذلك تعد علىٰ سلم التأخر ، وأي نقص من ذلك يعد علىٰ سلم التطور الموجب .

وعليه قد يتساءل البعض : ما هو الفرق بين العدد ، والمعدود ، والعاد (الذي يقوم بفعل العد) . وهل هٰذه متناهية . العدد هو المقدار وجمعه أعداد ، وهو المجرد من التمييز ، فعندما أكتب علىٰ سبيل المثال : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، أكتب أعداداً ، وهٰذه الأعداد عندما تكتب علىٰ كميات أو كائنات تميز وتصبح هٰذه الكميات أو الكائنات هي المعدودة ، ويكون الذي أحصاها بهٰذه الأعداد هو العاد ، فإذا قلت : أنا العاد تكون أنا المعدود من الآخر ، وبما أنني معدود من الآخر فيكون الآخر متناهياً وتكون لي نهاية . إذاً العاد والمعدود شيء واحد ولا فرق بينهما إلا أنا وأنت ، أما العدد فهو فكرة ذهنية مجردة إذا لم يوحد مع معدود ، وعندما نفرق بين العاد والمعدود من جهة والعدد من جهة أخرىٰ نكون قد فرقنا بين الفكرة المفترضة والواقع المثبت ، وبما أن العاد والمعدود متناهيان ، فكذلك العدد ، وذلك لأنه يقع في دائرة الممكن ، ولا يقع في غيرها ، ولأنه يقع في دائرة الممكن إذاً هو متناه . ولأن الزمان والحركة متناهيان ولا شيء من الموجودات يقع خارجهما ، فإذاً كل ما يقع فيهما متناهٍ وفقاً للقضية الآتية :

الزمان والحركة متناهيان .

والعدد يقع فيهما .

إذاً العدد متناهٍ .

وبما أن كل الأعداد تبتدئ بواحد وتنتهي به ، إذاً من أين أتىٰ غير المتناهي . فالأعداد 1 ، 10 ، 100 ، 1000 ، 10 . 000 ، 100 . 000 .

1000000 ، 10 . 000000 ، 100 . 000000 ، 10000 . 000000 ، 1000000 . 000000 ، وغيرها من الأعداد التي تُكتب أو تُعد ، كلها متناهية ، وإن لم تكن متناهية فلا تُكتب ، وإذا كانت كذلك فمن أين أتىٰ افتراض غير المتناهي . وبما أن العدد متناه والعاد والمعدود كذلك ، فهل يؤدي المتناهي إلىٰ مالا نهاية . إذا كان المتناهي كما بالجمع أو الضرب أو التربيع والتكعيب فلا بد وأن يؤدي إلىٰ كم ، وكذلك إذا كان بالطرح أو التقسيم فلا بد وأن يؤدي هو الآخر إلىٰ كم ، والكم متناه ، إذاً المتناهي لا يؤدي إلا إلىٰ متناه .

اللهُمَّ يا الأول يا محباً للأوائل وأنت تقول فيهم : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (1) اجعلنا من أوائل المطيعين ، ومن أوائل المخلصين ، ومن أوائل الساعين في إعمار الأرض وإحقاق الحق عليها إنك مجيب الدعاء !

اللهُمَّ يا الأول اجعلنا من الأوائل في قول الحق ، ومن الأوائل في فعل الحق ، ومن الأوائل في الاستماع للحق واتباع أحسنه ، ومن المسبحين الأوائل باسمك العظيم ، ومن المصلين والمسلمين علىٰ رسولك الكريم محمد رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام !

اللهُمَّ إنك الأول الذي لا أول قبله ، والآخر الذي لا آخر بعده ، نعبدك ونتوكل عليك ونولي أمرنا لك نستغفرك ونتوب إليك ! اللهُمَّ اجعلنا من الأولين الفائزين بما يرضيك ، ولا تجعلنا من الضالين ولا الغافلين ولا المنافقين ولا المجرمين والمنحرفين إنك بنا لطيف خبير سبحانك لا إلـه إلا أنت الأول والآخر !

---

(1) التوبة ، 100 .

الآخِرُ جلّ جلاله

الآخِر هو الذي لم يكن بعده آخَر ، وهو الذي لا يثنىَّ ولا يجمع لأنَّه الآخِر الذي لم يسبقه آخَر ولن يلحقه آخر ، فهو الأول هو كما هو ، واحد أحد لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ولم تكن له صاحبة . ولهٰذا لا يكون له المثيل والشبيه ، بيده البداية والنهاية إنه ٱلله جل جلاله .

الآخر في أسماء ٱلله تعالىٰ : هو الباقي بعد فناء خلقِه كله ناطقِه وصامتِه [1] .

الآخر هو الذي لا يزول « أنت الأول في أزليتك وعلىٰ ذلك أنت دائم لا تزول وأنت الآخر » [2] .

لله الحمد أنه آخر الوجود أبداً ، كما أنه أوله أزلاً ، فقد وصف نفسه تقدست أسماؤه وجلت صفاته بأنه الآخر حيث قال : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، أي : أنه (هوَّ هو) فلا آخر سواه ، ولا مدرك لمنتهاه ، إذ أنه الآخر بلا نهاية ، كما هو الأول بلا بداية ، ونحن عندما نتكلم في توضيح وفهم صفاته جل شأنه ، فإنما نتكلم علىٰ قدر عقولنا ، ونقيس آياته بمشاهداتنا ، ونحكم علىٰ تلك المشاهدات بما نقف عليه من الأدلة لإثبات

(1) لسان العرب ، ج 4 ، ص 11 .
(2) نهاية الإقدام في علم الكلام ، ج 1 ، ص 176 .
(3) الحديد ، 3 .

الصفات حيث تتجلىٰ صفة الآخر عز وجل في كونه أنه الأول حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (1) ، وهنا نقف علىٰ التلازم الدقيق الواجب بين الصفتين الأول والآخر وآثار كل منهما في ذكر البدء والإعادة ، فالآخر يستلزم من وجه عودة كل شيء إليه ، وهو معنىٰ الميراث لله تعالىٰ ، لا بمفهوم الملكية ، إذ أنه هو مالك الملك ، لذلك فإن صفة الآخر لا تدرك من بداية الأشياء التي هو آخرها من حيث العدد حتىٰ يكون هو آخر الأعداد ، وهـٰذا مخالف لصفة الواحد الأحد ، وعلىٰ هـٰذا فهو آخر خارج الحساب المتضمن للأعداد ، فلا يمكن أن يكون آخرها من هـٰذا الباب . فعندما نقول جاء فلان آخر المتسابقين ، فهـٰذا يعني أن هناك عدداً من المتسابقين الذين انطبقت عليهم شروط السباق لاتصافهم بصفات وإمكانات وأشكال وأبعاد وصور ميزتهم عن غيرهم من الناس بحيث امتلكوا ما لا يمتلكه الآخرون فكانوا أهلاً لهـٰذا السباق ، والذي جاء آخراً فقد اشترك معهم في الجهد والسعي والجد من أجل تحقيق الغاية ولـٰكنه جاء آخراً ، فهـٰذا الآخر هو آخر الأعداد الذي حمل مواصفات النقص فجاء آخراً ، ومن هنا تخرج الذات الألوهية من العدد كونها آخراً لأنها تتصف بصفات الكمال ، فلا يصح أن يكون آخراً من اتصف بصفات النقص ، وإدراك كونه آخراً من هـٰذه الجهة محال ، لأنه يعلم بصريح العقل أنه مخالف للمعقول من جهة التصديق ، ونقصد بالمعقول هنا إدراكات ما وراء الحس التي تأتي أدلتها من طريق الاستنتاج عن كونه آخراً وإن عجز البعض عن إدراك ذلك ، وما يعجز عن فهمه البعض يدخل في باب المحيَّرات ، أي ما حارت به العقول فعجزت عن فهمه واستيعابه ، والذي نعجز عن فهمه فبالضرورة نعجز عن إدراكه ، وما لا ندركه لا يمكن الحكم عليه باستحالته ، ذلك أن القضايا العقلية تعطي أدلة يقينية علىٰ غير

(1) الأنبياء ، 104 .

المعقولات إذ أنه لا يتوقف وجودها هي علىٰ علمنا بها من عدمه ، ولا يتوقف وجودنا نحن علىٰ علمنا بها ، كونها موجودة بذاتها ، ومن المعلوم أن بعض الناس يعلم بفكره ما لا يعلمه غيره ، فإن كان غيره لا يعلمه فهـٰذا لا يعني انتفاءه ، وعدم انتفائه يعني إمكان وجوده ، وهنا نقول إنه سبحانه وتعالىٰ هو الآخر من هـٰذه الجهة خارج العدد وخارج الحساب . وكونه الآخر جل شأنه فبالضرورة لما كان خارج الحساب والعدد ، فهـٰذا يعني أنه خارج المادة مطلقاً ، ذلك أن العدد والحساب يجري علىٰ صنفين :

أولهما : الأيام والشهور والسنون ، ونؤجل الكلام في هـٰذا الصنف عندما نتناول الزمان .

وثانيهما : الأشياء المادية ذات الجواهر والأحجام والأبعاد التي تشكل هـٰذا الوجود الكوني . فكل موجود هو محدَث ، وكل محدَث له حادث ، والحادث هو الصانع المبدع الذي أبدع هـٰذه الموجودات من ماهيتها الأولىٰ ، ولا نقول وجود بالقوة ووجود بالفعل لأن ذلك مما يشترك فيه كثير من الموجودات من الناحية الفلسفية التي نقول فيها علىٰ سبيل المثال إنَّ غابة ما من الأشجار موجودة وجوداً فعلياً ، ولـٰكن ضمن هـٰذه الأشجار ومن مادة الخشب نفسها موجود أشياء كثيرة وجود قوة ، فالأسرّة والكراسي والأبواب التي تصنع من مادة الخشب موجودة في الغابة وجود قوة ، أي إمكانية وجوده ، فيمكن أن تصبح أي شيء مما ذكرنا طالما أن هناك خشباً وصمغاً ومنشاراً ، فوجود هـٰذه الأشياء تؤهلها لأن تكون في الممكن ، والممكن هو باعتبار ما سيكون كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (1) ، وما كان ممكناً فهو شيء ، وما هو شيء يتبدل ، وما يتبدل لا يصح أن يكتسب صفة الآخر الذي ليس له

(1) نوح ، 26 ـ 27 .

مثيل وشبيه وهو الدائم الذي لا يتبدل ، ومن ناحية أخرىٰ فإن الأشياء المادية ذات أبعاد وأشكال وصور ، وأي شيء اتصف بهـٰذه الصفات أو اكتسب واحدة منها ، فله أول مبدوء وآخر معلوم فهو مدرك من مبدئه إلىٰ منتهاه بالحواس مثل طوله وعرضه وقصره وشكله والحيز الذي يشغله ومرتبته علواً أو انخفاضاً ، وتعدده كالنجوم والكواكب ، أو إفراده وتخصيصه كالأرض والشمس والقمر ، وكذلك لونه وحرارته وبرودته ورطوبته وما فيه من الصلابة والشدة أو اللين والضعف ، ومن الخشونة أو نعومة الملمس ، فكل هـٰذه الأشياء مدركة عن طريق الحواس ، حتىٰ وإن قلنا إن أورانوس أو نبتون هما آخر المجموعة الشمسية فهـٰذا الآخر ينتهي بانتهاء حجمه من الطرف المقابل لأوّله ، مع العلم أن هناك كواكب أخرىٰ تلي آخره ، فهو إذاً ليس آخراً ، خاصة إذا علمنا أن في هـٰذا النظام الكوني العجيب إدراكات لا تخضع للحس ، لذلك تخرج عن طبيعة التجارب في محاولة إخضاع هـٰذه الظواهر لقوانين علم الفيزياء ، وعلىٰ هـٰذا فإن جميع هـٰذه الموجودات شغلت حيزاً بصرف النظر عن المساحة كبيرة كانت أم صغيرة ، وما شغل الحيز فهو مكانيٌّ ، وما كان مكاناً فهو محاط ، وما كان محاطاً فهو محدَث طارئ ، والمادة حدوث طارئ ، ولذا فإن السمـٰوات والأرض وما بينهما محدث طارئ ، وأن هـٰذا العالم مخلوق محدث خلقه ٱلله وأحدثه من المادة وهي الشيء المخلوق منه المخلوق ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [1] . فقد أخبر ٱلله تعالىٰ عن مبتدأ السمـٰوات والأرض وعن أصل مبدئهما ، وما عُلم مبدؤه لا يُجهل منتهاه وإن طال ، وعلىٰ ذلك فلا يمكن

---

(1) فصلت ، 9 ـ 11 .

للمكان أن يكون الآخر من جهة ، ولا يمكن أن يكون الآخر يشغل المكان ، وإذا كان العدد والحساب والمكان سينتهي ويتلاشىٰ ، فمعنىٰ ذلك أن كل ما تضم هـٰذه المسميات وما يجري فيها وما ينتج عنها فإنه لا شك سينتهي بانتهائها ، وإذا كان الزمان لا يقوم إلا بوجود العدد الذي يحصي هـٰذا الزمان ، والمكان القائم علىٰ الحركة هو الوعاء الزمني حقيقة ، وإن كنا نحصيه ذهنياً ، فلولا وجود المكان والحركة والعدد ، لم نعرف ما هي حقيقة الزمان ، إذ أن المكان والعدد هما اللذان نعرف من خلالهما مسميات الأشياء وأعدادها ومن خلال هـٰذه الأشياء نستنتج الزمان ، وهـٰذه الأشياء تجعلنا نقف علىٰ أسماء الأماكن (المادة) وعلىٰ أسماء المعاني من الصورة والتخيل ، وهنا يكون مدار قولنا في توضيح الأمر ينصب علىٰ أربعة أسماء ، اثنان منها أسماء لفظية (مادة) والآخران من الأسماء المعنوية (صورة) وهي الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهـٰذه المسميات تشير إلىٰ المكان والعدد والزمان بحيث لها ترتيب مترابط دقيق يوضح العلاقة والأثر والنتائج القائمة علىٰ الحركة التي تبدأ بالمكان مروراً بالعدد وانتهاء بالزمان حيث نقف علىٰ ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) . فالشمس والقمر وحركتهما بعد خلقهما هو الحيز ، والزمان المقدر بحركتهما هو الليل والنهار التابع لهـٰذه الحركة ، وهـٰذه الحركة إنما حدثت قبل خلق السمـٰوات والأرض وما فيهما ، وقد أخبر ٱلله تعالىٰ أنه خلق السمـٰوات والأرض في ستة أيام ، فهـٰذه الأيام الستة هي مدة زمان مقدر بحركة غير حركة الشمس والقمر ، لأن خلق الشمس والقمر داخل ضمناً في الأيام الستة ، وذكر العدد هنا ليس دليلاً علىٰ وقت استغراق الخلق وعاء زمني لمقدار كمية الإنتاج في وقت

(1) يونس ، 5 .

معلــوم ، ذلــك أن ٱلله قــال : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] . وإنما هو دليلٌ من جهة وأَمْرٌ من جهة أخرىٰ ، هو دليل علىٰ كيفية تعلّم عدد السنين والحساب ، وأَمر بتعلم هـٰذه الصنعة .

ومما ذكرنا نتبيَّن أن الزمان له ابتداء ، وكان ابتداؤه بالحركة التي تقوم عليها تلك الأجرام التي عبرنا عنها بالمكان ، وكل ما له بداية فله نهاية وما كان معروف الأول فهو بالضرورة مُدرك الآخر ، وهـٰكذا لكل بداية نهاية ولن يبقىٰ إلا الآخر جل جلاله ، فإذا كانت المادة وأعدادها التي نتبيَّن منها الزمان ليست آخراً ، فبالضرورة أن الزمان ليس الآخر كونها جميعاً مخلوقة وقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [2] ، فهي إذاً متلاشية ومنتهية ، وبما أن المادة والعدد والحركة التي تشغل الحيز المكاني وتتلازم معه وجوداً حيث لا حركة إلا والزمان معها ولا زمان لو لم تكن الحركة ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [3] ، ولهـٰذا فبالضرورة ما انعدم أصله ، انعدم نفسه ، وبالمحصلة فإن الزمان ليس الآخر . ولأن الزمان والحركة شيئان فهما المخلوقان بداية ونهاية ، ولذا فهما يشكلان دائرة التوأم ، فالمستقيم عبارة عن مجموعة نقاط متصلة بداية ونهاية ، وتعد كل نقطة بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها ، وهـٰكذا يستمر المستقيم في اتجاهه إلىٰ أن تتصل آخر نقاطه بأولها فيكوِّن المستقيم دائرة ، ولـٰكن لا يمكن أن تقفل هـٰذه الدائرة ولا أي دائرة إذا لم تكن هناك حركة . وعندما تقفل الدائرة بآخر نقطة تكون هـٰذه النقطة في منظومة تكوين الدائرة ، وتصبح بعد ذلك بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها . وعندما يكون وقتها الآن تكون الآن في حالة حركة ، وتصبح كل النقاط السابقة لوقتها هي في الماضي ، وبعد قفل دائرة الزمان بآخر نقطة

---

(1) يس ، 82 .
(2) الأنبياء ، 104 .
(3) الأنبياء ، 33 .

فلا يكون لغيرها من النقاط مستقبل في تكوين هـٰذه الدائرة التي أقفلت بها ، ولذلك عندما تقفل دائرة الزمان والحركة فلا يكون في هـٰذه الدائرة مستقبل ، ولهـٰذا فمن أراد المستقبل فليعمل عليه قبل قفل دائرة التوأم التي لم يعد فيها مكان للمستقبل بعد النهاية ، وأصبح اليوم الآخر . واليوم الآخر هو يوم الوقت المعلوم ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [1] ، ويوم الوقت المعلوم هو الذي نعلمه ، ونعلم أننا لا نعلم يوم حدوثه ، ولأن اليوم هو الوقت وليس الزمان ، فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ ولم يقل اليوم المعلوم . إذاً اليوم هو الوقت ، والليل والنهار والشروق والغروب هي أوقات ، والوقت يرتبط بالمواقيت وهي العلامات الدالة علىٰ الحركة والزمان ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [2] ، بمعنىٰ أن الأهلة علامات دالة علىٰ وجود الحركة والزمان . ومن خلال حركة الأهلة وفق المنظومة الفلكية نتعرف علىٰ اليوم وغد وأمس كمواقيت زمنية تلاحظ ولا تشاهد يحس بها ذهنياً ولا تلمس مادياً ، وبما أنها لا تشاهد فكيف إذاً تعد ؟ تعد لأن مكوناتها تشاهد وتلحظ ، فمكوّنات اليوم هي الليل والنهار والشروق والغروب ، وهـٰذه جميعها تشاهد وتلحظ ، ولذلك تعد الأيام بمواقيتها الحركية (الأهلة) ومواقيتها الزمنية (الليل والنهار) . ولذلك تكون (الآن ، وقبل ، وبعد) مؤشرات لمواقيت حركية وزمنية ، أما (أسرع ، وأبطأ ، ومتساوٍ) فهي مؤشرات لمتحرك .

وعليه أتساءل : هل الزمان يعد ؟

الإجابة : لا ، الزمان لا يعد ، وذلك لأنه لم يقع تحت سيطرة حواسنا ، فهو لا يُلمس ولا يشم ولا يذاق ولا يشاهد ولا يسمع ، ولـٰكنه يدرك ويعقل

(1) الحجر ، 37 ـ 38 .

(2) البقرة ، 189 .

مجرداً ، وبما أن الزمان لا يعد ، فما هو الذي يعد ونعتقد بأنه الزمان ؟

الذي يعد ، ويعد به هو اليوم والشهر والعام والدهر ، وهـٰذه مواقيت لها بداية ونهاية معلومة ترتبط بحركة الفلك المكونة لليل والنهار والشروق والغروب والأهلة . ولذلك نعرف كم عدد الأيام والشهور والسنين وبم تحسب أعمارنا (كم قضينا من العمر) وتؤرخ أعمالنا وتسجل ولـٰكن هل اليوم الذي به تؤرخ أعمالنا هو اليوم المساوي لأي يوم في حركة الكواكب والنجوم ؟ من المسلمات لا . فاليوم الذي نعيشه علىٰ الأرض لم يكن هو اليوم علىٰ الكوكب عطارد ، فعدد أيام السنة علىٰ الأرض 365 يوماً تقريباً ، في حين عدد أيام السنة علىٰ الكوكب عطارد يساوي 88 يوماً تقريباً ، وهـٰذا يعني أن اليوم علىٰ الكوكب عطارد أطول بكثير من اليوم علىٰ الأرض . والسنة علىٰ الكوكب الزهرة تساوي 224 يوماً تقريباً ، وهـٰذا يعني أن اليوم علىٰ الزهرة أطول من اليوم علىٰ الأرض وأقصر من اليوم علىٰ عطارد . واليوم الذي يعد به ٱلله تعالىٰ يساوي ألف يوم ممّا نعد علىٰ الأرض وذلك لأنها أيام شدائد ، وأيام الشدائد بالضرورة تكون طويلة بالنسبة إلىٰ من خفّت موازينه وهو في الهاوية وكذلك قد يكون المعنىٰ بأن خيرات ربك والتي لا تحصىٰ سيكون اليوم فيها كألف سنة مما تعد علىٰ الأرض ، وذلك جزاء لمن ثقلت موازينه وهي العيشة الراضية ، وطبيعياً قد تختلف الحركة وذلك من حيث مجال امتدادها ، أو من حيث سرعتها ، ولهـٰذا بالضرورة تختلف الأيام في الدنيا عن الأيام في الآخرة ، ولا ينبغي أن ننسىٰ أن الأيام التي يعد بها ٱلله هي أيام الحركة الكلية للكون ، وليس أيام الحركة الجزئية للأرض حول نفسها ، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [1] .

الزمان والحركة هما توأم الوجود الحي ، وهـٰذا الوجود بشكله المطلق

(1) الحج ، 47 .

مادي ولا مادي ، ولهٰذا لا يكون المادي لو لم تكن هناك حركة وزمان مصاحبان له ، ولا غير المادي يكون لو لم يكن هناك حركة وزمان مصاحبان له ، وفي هٰذه الحالة لا يكون أحدهما سابقاً علىٰ الآخر ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [1] . فلا الحركة سابقة علىٰ الزمان ولا الزمان سابق علىٰ الحركة ، وكل في فلك يسبحون .

ومن خلال دراستنا للزمان والحركة نلحظ ما يخالف القول بنسبيتهما ، فالزمان مطلق بسبب عدم تحكمنا فيه وسيطرتنا عليه ، وهٰكذا تكون الحركة هي الأخرىٰ مطلقة . ولتوضيح ذلك أعرض المثال الآتي علىٰ مطلق الزمان ونسبية السرعة : إذا انطلق متسابقان من النقطة0 صفر في وقت واحد وليكن 0 الصفر الافتراضي ، ووصل الأول نقطة 0 صفر النهاية بعد أن قطع مسافة 100متر ، في زمن 10 ثوان ، ووصل المتسابق الثاني نقطة 0 صفر النهاية بعد أن قطع المسافة السابقة نفسها في زمن 20 ثانية ، فماذا يعني هٰذا الاختلاف مع أن زمن البداية واحد والمسافة المستهدف قطعها واحدة ؟

هٰذا يعني أن في الزمن الواحد قد تختلف السرعة بين المتحركات مما يؤدي إلىٰ اختلاف المسافة المقطوعة في الزمن الواحد . فعندما قطع المتسابق الأول المسافة في (10 ث) ، قطع الثاني نصف المسافة تقريباً في الزمن نفسه الذي وصل فيه المتسابق الأول إلىٰ نقطة النهاية (10 ث) ، وعندما سُلمت راية النصر للمتسابق الأول (الفائز) في الزمن (15 ث) بعد الزمن الصفر (زمن البداية) لازال المتسابق الثاني يجري في المضمار لعدم وصوله نقطة النهاية . وعليه فالزمن لم يتباطأ مع سرعة الثاني ولم يسرع مع سرعة الأول ، فالزمن هو الزمن تراكمي متصل ولم يختلف ، واختلفت السرعة بين المتسابقين وذلك باختلاف قوة الامتداد لكل منهما ، ممّا جعل متوسط

---

(1) الذاريات ، 49 .

سرعة الأول تساوي ١٠ متر في الثانية ، ومتوسط سرعة الثاني تساوي 5 متر في الثانية ، ولهٰذا قلنا الزمان مطلق وثابت ، والسرعة نسبية ومتغيرة .

والفرق يكون أيضاً بين الحركة والامتداد ، فالحركة مطلقة لأنها خارج سيطرتنا وتحكم أدواتنا ، والامتداد نسبي حيث أنه متوافق مع قوة الجسم الممتدة ، فحركة الكون متصلة طبيعياً ومنتظمة ، وحركة الأرض حول نفسها حركة مطلقة ، وهي جزء من الحركة العامة ، وهي المقدرة باليوم المتكون من الليل والنهار ، وحركتها حول الشمس هي الأخرىٰ حركة جزئية مطلقة (خارج قدرة تحكمنا) وهي المقدرة بالنسبة المتكونة من فواصل الأهلة الشهرية . ولهٰذا يتصل الزمان بالحركة كاتصال التوأم بحبل المشيمة في رحم الأم ، مما يجعل بينهما ثباتاً واتصالاً ، فثبات الزمان بثبات الحركة ، وثبات الحركة بثبات الزمان ، ولهٰذا كل منهما مطلق . أما الامتداد ، فنسبي ، فامتداد الأرض حول نفسها نسبيّ بالنسبة إلىٰ امتدادها حول الشمس ، ولذلك يكون زمن امتدادها (دورانها) حول نفسها وامتدادها حول الشمس يساوي 365 يوماً تقريباً ، وقد يختلف طول اليوم عن أمس وغد ، وذلك نتيجة اختلاف مجال الامتداد مما يجعله (الامتداد) هو الآخر مختلفاً باختلاف مجاله ، ولهٰذا لا يختلف طول اليوم نتيجة اختلاف الحركة ، فالحركة ثابتة ومطلقة ، بل الذي يختلف هو مجال الامتداد ، وعليه تكون الحركة ثابتة والامتداد متغير .

وقد يتساءل البعض : بما أننا لا نشاهد الحركة فما هو الذي نشاهده عندما يكون الجسم في حالة حركة ذاتية أو مدفوعة وهو منطلق من النقطة (أ) إلىٰ النقطة (ب) ؟ الذي نشاهده في هٰذه الحالة هو أولاً : المتحرك وثانياً : الامتداد ، فالمتحرك هو الجسم ، والامتداد هو اندفاع الجسم بين صفر البداية وصفر النهاية ، فامتداد الرِّجل وفق خُطاها يُشاهد ، وامتداد الفراشة من زهرة إلىٰ زهرة يُشاهد ، وامتداد الكرة من الهداف إلىٰ الهدف يشاهد ، وهٰكذا امتداد المستقيم أو المنحرف وكل ممتد بقوة دفع ذاتية أو معتمدة علىٰ قوة .

وعليه فالقاعدة هي : (الامتداد مادي وكل مادي يشاهد) .

مجال الامتداد :

لا امتداد ولا حركة إلاّ في حدود الممكن ، ولذلك يكون الممكن هو مجال الامتداد ، ومجال الحركة والزمان ، ولأنه ممكن فهو متوقع الحدوث وبعد حدوثه قد يكون مساوياً لما هو متوقع وقد يكون أكثر أو أقل وعليه فالممكن ضروري الحدوث ، ولـٰكن نسبة حدوثه احتمالية مما جعلنا نفترض لها ثلاثة احتمالات وهي :

الاحتمال الأول : يكون الممكن مساوياً للمتوقع .

الاحتمال الثاني : يكون الممكن أقل من المتوقع .

الاحتمال الثالث : يكون الممكن أكثر من المتوقع .

وعليه لا يكون الامتداد للآخر إلاّ من مجال الممكن ، ولا ممكن إلاّ في دائرة الزمان ، فما نشاهده أو نلحظه ونحس به أو نتذوقه أو نشمه أو نسمعه فهو الواقع في حدود الممكن ، ولذلك يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة إلىٰ مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا ، فمنّا من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا ، وهـٰذا يعني أن البعض منّا قدرة تمييزه أقل ، والبعض الآخر يساوينا .

وعندما نتحدث الممكن فلا ينبغي إغفال عن غير الممكن حيث لا وجود لغير الممكن بالنسبة إلىٰ ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [1] . أما بالنسبة إلىٰ البشر فهناك الممكن ، وهناك غير الممكن ، الممكن في نضج القدرة ، وغير الممكن في قصورها ، ولهـٰذا قد يتوقع المفكر ما هو ممكن ، ولـٰكنه قد لا يستطيع تحقيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته .

---

(1) البقرة ، 117 .

يقع الممكن في الزمان الحاضر والزمان المستقبل ، ولا يقع في الزمان الماضي ، وذلك لأن الممكن هو افتراض قابل للتحقق وليس افتراضاً محققاً ، فالمحقق هو الكائن أو الكائنة ، أما الممكن فهو الذي لم يكن بعد ولـٰكنه سيتحقق في الآن أو في المستقبل ، ولهـٰذا يكون الفرق واضحاً بين المحقق ككائن ، وبين الممكن الذي سيتحقق . وعليه يمكننا الآن الحوار مع السؤال الذي طرح منذ زمن بعيد في الفكر الفلسفي وهو : ما هو الأسبق في الوجود : الممكن أم الواقعي ؟ وأجاب أرسطو علىٰ ذلك بأن الواقعي أسبق في الوجود من الممكن معللاً ذلك بقوله : « إن الممكن يحتاج كي يوجد إلىٰ واقعي يسبقه »[1] . من هـٰذه الناحية نعم لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود أول ، ولـٰكن من ناحية أخرىٰ فالأمر السابق غير مطلق مما يجعلنا نقول : لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة . فالله سابق الوجود علىٰ الممكن ، وكل ما تحقق من بعده وما سيتحقق هو الممكن بالنسبة إليه ، والبشر كمحقق من هـٰذا الممكن عندما يسعون إلىٰ تحقيق ما هو ممكن من ناحية عقلية ، يكون الممكن في هـٰذه الحالة سابقاً علىٰ المحقق ذهنياً أو إدراكياً . وهـٰكذا يكون حال الممكن الإلـٰهي الذي لم يحقق بعد للمشاهدة والإدراك العقلـي ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] بمعنـىٰ عندما يصدر ٱلله أمراً وهو الممكن لابد وأن يتحقق في الوقت المحدد له ، وفي هـٰذه الحالة يكون الممكن سابقاً علىٰ المحقق . وعليه يكون الممكن قراراً معطياته مثبتة للتحقق ، والتحقق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة ، والبشـر لا يحققـون إلاّ الممكـن ، أمـا الله فيحقـق الممكـن والمستحيـل ، فسبحان ٱلله العظيم .

---

(1) عبدا لرحمـٰن بدوي ، موسوعة الفلسفة ، بيروت ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولىٰ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1948 ، ص448 .

(2) البقرة ، 117 .

وعلىٰ هـٰذا يجب أن نعلم أن العالم بما يضم من مكان وعدد وحركة وزمان ، كله محدث مخلوق وهو عبارة عن كل موجود سوىٰ ٱلله تعالىٰ ، والدليل علىٰ حدوثه تغيره من حال إلىٰ حال بقوة الأول والآخر جل جلاله ، ومن صفة إلىٰ صفة ، وكذلك تجزئته واختلاف هـٰذه الأجزاء وما كان هـٰذا سبيله ووصفه كان محدثاً ، وكذلك فقد بين ﷺ هـٰذا العالم بما يتضمن من جميع الموجودات سوىٰ ٱلله هي محدثة مخلوقة ، لما قال : « كان ٱلله ، ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه علىٰ الماء ، ثم خلق السمـٰوات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء »[1] ، ثم خلق ٱلله الأشياء فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق ، وكذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إنما استدل علىٰ حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلىٰ حالة لأنه لما رأىٰ النجم والشمس والقمر وتبدل أحوالها فأنكر أن يكون أي منها رباً ، فعلم أن هـٰذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلىٰ حال دلت علىٰ أنها محدثة مخلوقة ، وأن لها خالقاً ، فقال عند ذلك وجهت وجهي للذي فطر السمـٰوات والأرض ، فدل ذلك علىٰ أن لها بداية وتحولاً وتبدلاً وهو سوف ينتهي كما بدأ . ومن هنا نعلم أن الخالق جلت قدرته أبدع الأشياء بأوليته الأزلية فهو واحد أحد ، ولما كان مآلها إليه وهو الوارث لا بمعنىٰ المُلك ، إذاً فهو الآخر لا بمعنىٰ العدد ، وهو دليل أيضاً علىٰ أنه ليس معه إلـه سواه ، ولا من يستحق العبادة إلا إياه ، وهو المرتجىٰ وإليه المرجع والمآب ، ومن كان المآب إليه فهو الآخر ولا نقصد بذلك أنه آخر من جهة العدد ، لأنه هو آخر مثل قولنا أحد وفرد وصمد ، فهو نفي لصفات المماثلة والمراد منها نفي الشبيه والنظير والمثيل ، حيث أن المراد ليس معه من يستحق الألوهية سواه ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

(1) صحيح ابن حبان ، ج 25 ، ص 327 .

لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1] ، وهو دليل علىٰ أنه الآخر سبحانه من حيث أنه الأول ثبت أنه موجود بصفة الوجوب أي أنه واجب وجوده تعالىٰ ثبت أنه واحد ، بدليل ما جاء به الشرع في باب الإيمان بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته واليوم الآخر وما يتبع ذلك ، من أنه الأول القديم ، وبما أن الدليل اليقيني قطع بقدمه وأوليته ، فهو الصانع الذي أحدث المحدثات ، ومن هٰذا فإن الدليل العقلي الظني يستوجب ملك الصانع لما صنع ، بمعنىٰ أنه يؤول كل ما صنعه إليه ، فإذا آلت إليه فهو الوارث الآخر ، وما كان غير ذلك فلا يجوز أن يكون إلٰهاً مبدعاً قديماً ، ولا يكون الوارث الآخر ، وهنا دليل الأول الواحد الفرد الذي بدأ الخلق ونفىٰ الشريك وأحسن الصنع وتفرد بالأمر ، فلو لم يكن كذلك لما كان هو الآخر إذ أن تعدد الآلهة لا يخلو إما أن تكون كلها متساوية في القوة والألوهية والمشيئة والإرادة وكمال القدرة ، ولو كان الأمر كذلك لكان كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [2] وإنما يذهب كل إلٰه بما خلق لأجل طلب الاستعلاء بالعلو والقدرة ، وذلك منشأ المخالفة والمنافسة والتغالب والمغلوب لا يكون إلٰهاً ، ومعناه أن الآلهة تطلب المنازعة والمخالفة في المراد فحينئذ يقع الفساد إذ يريد أحدهما حياة شخص والآخر يريد موته ، أو إسعاده والآخر يريد إشقاءه ، ولوجدنا أكواناً متصارعة متناحرة كما يفعل ملوك الأرض ، وإما أن يكون بعضها كامل الصفات وبعضها ناقصاً ، وفي هٰذه الحال سوف يخضع بعضهم لبعض ، فالخاضع لا يصلح أن يكون إلٰهاً أصلاً ، والمخضوع له لو كان إلٰهاً حقاً ويمتلك صفات الكمال لنفىٰ الآلهة الشركاء وهٰذا محال لأن ذلك من صفة الخلق ، إذ أننا نقف علىٰ تعدد الآلهة وتخصصها عند البشر وخاصة في الملاحم القديمة في الإلياذة عند

---

(1) الأنبياء ، 22 .

(2) المؤمنون ، 91 .

الإغريق والإنيادة عند الرومان وملحمة جلجامش عند السومريين ، وجميعها تتكلم عن إلـٰه للحب وآخر للحرب وثالث للخصب ورابع للجمال وخامس للفن وهـٰكذا ثم يدور الصراع فيما بينها وينتهي بالمأساة ، وإما أن تكون كلها ناقصة الكمال . غير أن السنة الكونية تقتضي من أصلح أولها يؤول إليه آخرها ، وعلىٰ هـٰذا فالمسلّم به أن الأول هو الآخر ، والذي بدأ الخلق يعيده ، أي كامل من كل وجه ، وهو واحد أحد مستغن عما سواه ، وهو ٱلله الأول والآخر الغني عما سواه ، وما سواه إن هو إلا خلق محتاج إليه ، فوجود إلـٰه آخر سوف يؤدي لأن يستبد كل إلـٰه بالذي خلقه ويستقل به ويتصرف به ليمتاز ملكه عن ملك الآخر ولوقع الخصام والحرب بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك ، ومن هنا فهو باطل لما يلزم من ذلك نفي ألوهية الجميع أو ألوهيتهم ما عدا واحداً منهم وهو خلاف المفروض أو لما أنه يلزم أن لا يكون بيده تعالىٰ وحده ملكوت كل شيء ، وهو باطل في نفسه لما برهن عليه في الكلام في الآية ، لأنه يقول باختصاص ملكوت كل شيء ، وهـٰذا مفهوم من سياق الآية بأنه إشارة إلىٰ دليل إقناعي في التوحيد ، والذي نريد أن نقوله ما هو مفهوم مما تقدم من الكلام أن كل ما سوىٰ ٱلله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن ، وأن ٱلله وحده هو قديم أول أزلي ، وعلىٰ هـٰذا فهو آخر أبدي ، ليس معه أول سابق عليه ، إنه الأول بالمطلق وهو الآخر بالمطلق وهـٰذا الأمر يعني : أنه (هو هو) ، ولا يبقىٰ معه أبدي آخر غيره ، وذلك لانعدام وجوده ، فكل ما سواه كائن بعد أن لم يكن ، فهو المختص بالأزلية والأبدية ، كما اختص بالخلق والإبداع والربوبية ، والذي أحاط الأزل والأبد ، فقد أحاط بهما علمان فهو إذاً عالم مريد قادر في الأزل والأبد ، فالله سبحانه وتعالىٰ هو الآخر علماً ، فأين علم الأولين والآخرين من علم ٱلله تعالىٰ الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية ، وإن كان ليس له بداية فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمـٰوات ولا في الأرض ، وقد خاطب الخلق كلهم من الإنس والجن والملائكة فقال عز

وجل : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (1) وهو شيء قليل في جانب علم ٱلله تعالىٰ ، بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء علىٰ أن يحيط بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة أو أكبر من ذلك أو أصغر لكانوا عن ذلك عاجزين فهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بمقدار ما شاء ٱلله تعالىٰ أن يحيطوا به ، والقدر اليسير الذي علمه للخلائق كلهم بمشيئته وإرادته علموه كما قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (2) لأن أصل النعم علىٰ الإنسان هي خلقه ، والخلق للإنسان أعظم النعم التي حباه ٱلله بها ، وهـٰذه النعمة تشير إلىٰ الغاية من خلق الإنسان وهو كماله في قوة العلم ، والغاية متقدمة علىٰ صاحب الغاية ، والمراد بالإنسان الجنس وبخلقه إنشاؤه علىٰ ما هو عليه من القوىٰ الظاهرة والباطنة ، ثم أتبع عز وجل ذلك بنعمة تعليم البيان لأن البيان هو الذي به يتمكن عادة من تعلم القرآن وتعليمه وتعلم علوم أخرىٰ وتعليمها ، إذ المراد به المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير والعقل ، ومهما أوتي العلماء من العلم ، فعلومهم جهل إذا ما قورنت بعلم ٱلله تعالىٰ ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك العلم الأعلم ، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم تتطلبه حياته وأمور معيشته .
والتفاوت بين علم ٱلله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد ، وفضل علم ٱلله تعالىٰ علىٰ علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ، ومعلومات الخلق متناهية ، فهو الآخر علماً ، فقوله تعالىٰ : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (3) ، إنما هو سؤال عن

(1) الإسراء ، 85 .
(2) الرحمـٰن ، 3 ـ4 .
(3) الإسراء ، 85 .

العلم الآخر وهو بمعنىٰ آخر ما يعلم إن كان يعلم ، وهو كذلك من علوم الآخرة الذي لا يعلمه إلا الآخر تبارك وتعالىٰ ، وعلم الروح هو روح البدن الإنساني ومبدأ حياته وهو من جنس ما استأثر ٱلله بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقل البشر ، لأنها من الإبداعات الكائنة من غير مادة وجدت في البدن ، ونقيضها وجود مادة من غير روح ، وهو متعلق أيضاً بإيجاد الخلق بصرف النظر عن حجمه وطبيعته ومكانه وزمانه ، فكل ما تعلق به الإيجاد ودخل تحت الوجود فإما أن يكون حصوله ووجوده لا من مادة ولا في مدة فهي المبدعات كالمجردات والروح من هـٰذا القبيل فهي موجودة من كل وجه بالفعل وليس لها حالة منتظرة الوجود ، وكذلك الحركة وهي مظهر من مظاهر الأسماء التي بها يقدر الزمان ، وإما من مادة وفي مدة فهي المسميات بالمحدثات وهي العناصر والمركبات منها وهي كثيرة معروفة ، وعلىٰ هـٰذا فما أوتي البشر من العلم إلا القليل ويأتي إدراكه وفائدته من طرق الحواس ، لأن اكتساب العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً ، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئاً من أحوال المعرفة لذاته ، وهو إشارة إلىٰ أن علم الروح ممالا يمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يتلبس به لذلك استأثر به ٱلله تعالىٰ ، ومهما وصلنا إلىٰ آخر العلم والمعرفة سيبقىٰ النقص قائماً ، ذلك أن ٱلله هو الآخر ويعلم ما لا يعلمه الآخرون ، لأن العلم صفة الآخر وهي من متممات قدرة الخلود فهي أيضاً كمال ، والعجز في هـٰذا المجال نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإن فيه نوعاً من الخلود والبقاء بقدر معين قياساً إلىٰ المخلوق وهو محبوب وإدراكه لذيذ ، حتىٰ أننا عندما نسمع عن شجاعة علي وخالد رضي ٱلله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلائهما علىٰ الأقران فيصادف في قلوبنا نوعاً من الاهتزاز والفرح والارتياح لمجرد لذة السماع فضلاً عن تلك المشاهد التي تورث نوعاً من الخلود في نفس الإنسان أو المتلقي وشعوراً في القلب ضرورياً للمتصف به ، بأنه نوع من كمال الخلود

والبقاء ، فكيف إذا قيست صفات الخلق إلىٰ صفات الخالق تعالىٰ ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقواهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة علىٰ سياسة نفسه وسياسة غيره و منتهىٰ قدرته وبقائه وخلوده وديمومته ، إنما هي ممنوحة له بمشيئة وإرادة الآخر المطلق ، ومبلغ غايته علىٰ بعض صفات نفسه وعلىٰ بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور ممن دخل في طاعته لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا بعثاً ولا نشوراً ، بل لا يقدر علىٰ أن يصون نفسه من المرض ، أو يحفظ عينه من العمىٰ ، أو لسانه من الخرس ، أو أذنه من الصمم ، ولا نحتاج إلىٰ كثير من الجهد والتفكير في أن نثبت عجزه في نفسه وفي غيره مما هو علىٰ الجملة متعلق بقدرته علىٰ أن يكون آخر من يرىٰ أو آخر من يتكلم أو آخر من يسمع ، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته وأثره علىٰ المحيط الخارجي من ملكوت السمٰوات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فهو لا يملك حيالها قدرة ولا قوة ولا إرادة ولا مشيئة ، وما هو قادر عليه من نفسه في الحركة والسكون والإرادة ، فليست قدرته في نفسه من نفسه ، بل ٱلله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ، وهٰذا يعني أن المخلوق مهما أوتي من أسباب البقاء والديمومة فلن يكون الآخر بالمطلق ، ولو سلط ٱلله بعوضاً علىٰ أعظم ملوك الأرض وأقواها لأهلكه ، فليس للعبد قدرة التمكين إلىٰ أجل مسمىٰ إلا بتمكين ٱلله له فيما أراد كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ (1) ، فلم يكن جميع ملكه وسلطانه وقوته إلا بمشيئة ٱلله و بتمكين ٱلله تعالىٰ إياه في جزء من الأرض ، ومهما بلغ عبد من قوة وملك وسلطان فسوف يرثه الآخر جل شأنه ، فقد حاول بعض الخلق أن يكون آخراً ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً فأخذهم ٱلله أخذ عزيز مقتدر

(1) الكهف ، 84 .

ليدلل لنا علىٰ أنه هو الآخر وإليه المصير والمرجع والمآب حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ (1) ، ولاتصاف فرعون بالتكبر والتجبر قال يا هامان ابن لي صرحاً أي بناء مكشوفاً عالياً لعلي أبلغ أسباب وطرق السمٰوات لما كان يرىٰ في نفسه من الجبروت والطغيان وأنه باقٍ ما شاء أن يبقىٰ ، لذلك كانت فكرة التحنيط والاحتفاظ بأجساد الفراعنة فكرة قائمة علىٰ الخلود ، وكان الاحتفاظ بأجساد الفراعنة فيه نوع من الأمل في انتظار عودة الروح فأراد أن يبني له رصداً في موضع عال ليرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل علىٰ الحوادث الأرضية فيرىٰ هل فيها ما يدل علىٰ إرسال ٱلله تعالىٰ إياه أو أن يرىٰ فساد قول موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وذلك لقوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (2) وذلك ظنه أن إلـٰه السماء يتوقف علىٰ اطلاعه عليه ووصوله إليه وذلك لا يتأتىٰ إلا بالصعود إلىٰ السماء وهو مما لا يقوىٰ عليه إنسان .

ومهما جمع الإنسان من الملك والقوة والقدرة وأسباب البقاء التي يحظىٰ بها ، فهي لا تشكل من الأرض ذرة من الملكوت الأعظم ، ثم إن تلك الذرة هي أيضاً من فضل ٱلله تعالىٰ وتمكينه ، فيستحيل أن يملك عبد من عباد ٱلله تعالىٰ بقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ، وإنما هو فضل ٱلله يؤتيه من يشاء ، ويعطيه لمن يختاره علىٰ علم ، لذلك كان الخليفة هو المقصود باختيار ٱلله تعالىٰ له بعلمه المسبق بما أودع ٱلله فيه من صفات الآخر النسبية

(1) غافر ، 36 ـ 37 .
(2) القصص ، 38 .

التي أهلته أن يتبوأ هـٰذه المكانة ، حيث أنه آخر المتقين والورعين والعلماء ، وليس المقصود هو الآخر من جهة العدد ، وإنما من جهة الجمع والشمول بأنه يحمل ويجمع تقىٰ هـٰؤلاء وورعهم وعلمهم فهو الآخر من هـٰذه الجهة لذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [1] . فكانت مكافأتهم عظيمة بقدر ما حملوا من أعباء التكليف في الأولىٰ والآخرة ، فهـٰؤلاء الخلفاء هم ورثة الأرض سواء في الدنيا أو الآخرة ، والمراد به المكان الذي استقروا فيه ، فإن كانت أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمىٰ أرضاً حقيقة فذاك ، وإلا فإطلاقهم الأرض علىٰ ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً لها بأرض الدنيا ، وإيراثها وتمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه بناء علىٰ أنه لا ملك في الآخرة لغيره عز وجل وإنما هو إباحة التصرف والتمكين مما هو ملكه جل شأنه ، وهم أيضاً يرثون من أهل النار ما كان مكتوباً لهم من الجنة بشرط الإيمان ، فيتبوأ كل منهم في أي مكان أراده من جنته الواسعة لا أن كلاً منهم يتبوأ في أي مكان من مطلق الجنة أو من جنات غيره المعينة ، وعلىٰ أية حال فقد كسب الخليفة رضوان ٱلله تعالىٰ وعنايته القدسية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر ، وهـٰذا ما ادخره ٱلله لعباده الصالحين في اليوم الآخر ، وهو دليل علىٰ أنه الآخر تبارك وتعالىٰ . لذلك كان الاعتقاد باليوم الآخر متعلقاً بأنواع التوحيد جميعها وهي الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات ، فيجب علىٰ المسلمين عموماً الاعتناء بمعرفة ٱلله تعالىٰ ، وبأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وآثار ذلك في الأنفس والآفاق ، ووحدانيته جل وعلا في ربوبيته وأسمائه وألوهيته ، وحقه علىٰ عباده ، وما أخبر به من النبوة والكتب ، وما سيكون في اليوم الآخر من

---

(1) الزمر ، 73 ـ 74 .

الأحوال والأهوال ؛ فيحقق أركان الإيمان الستة وهي :

1 ـ الإيمان بالله .

2 ـ الإيمان بملائكته .

3 ـ الإيمان بكتبه .

4 ـ الإيمان برسله .

5 ـ الإيمان باليوم الآخر .

6 ـ وبالقدر خيره وشره . وحلوه ومره حتىٰ يصل إلىٰ درجة البر حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (1) . إن البر المعول عليه الذي ينبغي أن يهتم بشأنه ويجد في تحصيله من آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراك لا كإيمان اليهود والنصارىٰ المشركين بقولهم : عُزير ابن ٱلله ، وقولهم : المسيح ابن ٱلله ، وتقديم الإيمان بالله في الذكر لأنه أصل لجميع الكمالات العلمية والعملية واليوم الآخر أي بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال علىٰ أنه كائن لا محالة وعلىٰ ما هو عليه لا كما يزعمون من أنهم لا تمسهم النار إلا أياماً معدودة وأن آباءهم الأنبياء ويشفعون لهم ، فالبر هو التوجه إلىٰ المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب في الحقيقة ، ولما كان الإيمان باليوم الآخر متفرعاً علىٰ الإيمان بالله ، لأنا ما لم نعلم باستحقاقه الألوهية وقدرته علىٰ جميع الممكنات لا يمكننا أن نعلم صحة الحشر والنشر وكان الإيمان به محركاً وداعياً إلىٰ

---

(1) البقرة ، 177 .

الانقياد بالله في جميع ما أمر به ونهىٰ عنه خوفاً وطمعاً ، وذكر الإيمان به عقب الإيمان بالله ، وكذلك الإيمان بالملائكة كلهم بأنهم عباد ٱلله ليسوا بذكور ولا إناث ولا بشر ولا أولاد ، مكرمون عنده متوسطون بينه وبين أنبيائه بإلقاء الوحي وإنزال الكتب ، والإيمان بالأنبياء جميعاً بأنهم المبعوثون إلىٰ خلقه والقائمون بحقه والصادقون عنه في أمره ونهيه ووعده ووعيده وإخباره من غير تفرقة بين أحد منهم ، فالإيمان بهٰذه الأمور الخمسة المذكورة هو الإيمان بأصول الدين وقواعد العقائد ، فهٰذه أصول الدين التي يجب العلم بها واعتقادها والعمل بمقتضاها ، وهي أساس الأحكام العملية ؛ فإنها تتوقف عليها ولا تصح إلا بها ، وعندما يقفون عليها فإنما يقفون علىٰ النور والعلم والهدىٰ ، الذي جمعهم الأول والآخر تبارك وتعالىٰ ، فالله سبحانه وتعالىٰ هو ذو الصفات الكاملة العليا والأسماء الفاضلة الحسنىٰ ، خلق الأرض والسمٰوات العلىٰ الرحمـن علىٰ العرش استوىٰ لا إلـٰه إلا هو وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وتدبيره ، ولا نظير له في صفاته ولا راد لتقديره ، فهو العلي الأعلىٰ الكامل في أسمائه الحسنىٰ وصفاته ، ولذلك وجب معرفة الأسماء والصفات فإن معرفة ذلك زيادة في الإيمان وبصيرة في دين ٱلله وعرفان به ، فهو المتنزه عن العيوب والنقائص والآفات ، خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولو شاء لخلقها في لحظة ، فهو رب السمٰوات ورب الأرض ورب الآخرة والأولىٰ ، فتحقيق هـٰذه الأسماء والصفات والاتّصاف بها نسبياً لمن اختاره ٱلله ليكون خليفته في الأرض ، إنما هي من أوليات هـٰذه الخلافة ، لذلك فإن معرفة ما تدل عليه من المعاني الجليلة العظيمة ، هي من كمال وصفات الخليفة المكلف بأمر ٱلله تعالىٰ في إعمار أرضه ، ولذلك كتب ٱلله الإيمان في قلوب الأنبياء والأولياء والخلفاء حتىٰ شاهدوا بعين البصيرة ونور العلم ما كان غائباً عن العيون وبهٰذا أوتوا من العلم الآخر ما خفي علىٰ الناس ، فالله تعالىٰ العليم الكامل في علمه ، القدير الكامل في قدرته ، الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فما شاء ٱلله كان ، بأن

أطلع هـٰؤلاء علىٰ منابع العلم ومنائر الهدىٰ ، فآتىٰ الخليفة من التقوىٰ والشكر والعلم والهدىٰ والصلاح ما حجبه عن غيره ، وذلك لعلمه جل جلاله بأن معظم الخلق لا يدرك بعقله إلا ما يحكم به الحس ، وإن آمن بالغيبيات تسليماً ، إلا أنهم لا يدركون ما يدركه الخليفة مما خفي علىٰ كثير من الخلق وخاصة ما أخبر به ٱلله تعالىٰ في كتابه وعن طريق الوحي للرسل بغيبيات اليوم الآخر ومواقف يوم القيامة والأمر بالإيمان بها ، وما جاء في القرآن الكريم من أحوال اليوم الآخر ، وذكر الشفاعة والحوض والميزان والصراط ، وصحائف الأعمال ، وما ذكر من صفات الجنة والنار ، وصفات أهلهما ، كل ذلك حق لا ريب فيه ، وكله داخل في الإيمان باليوم الآخر ، وكانت معظم شروط الإيمان متعلقة بالغيبيات وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، إيماناً مجملاً شاملاً ، وقد قرر القرآن الكريم ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن ٱلله ، وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) ، فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر علىٰ الوجه الذي نطق به الشرع ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان ، والمسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر السرعة علىٰ التراخي والمبادرة مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة من الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها لأنهم من الصالحين ، فصلحت أحوالهم عند ٱلله تعالىٰ واستحقوا رضاه وثناءه بإيمانهم باليوم الآخر ، وكان جزاء إيمانهم في ذلك اليوم عظيماً .

(1) آل عمران ، 113 ـ 115 .

لقد بين ٱلله عز وجل الأدلة والبراهين في ذلك الإيمان وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التي بعث بها الرسل كلهم ، ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الألوهية وأمور المعاد ، والنبوات ، والأخلاق والسياسات والعبادات ، وسائر ما فيه من كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ، ومن أهل الرأي والفلاسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن ، فالإيمان باليوم الآخر هو الحدُّ الفاصل بين الجنة والنار إذ لا شيء يمكن أن يرتقي بالنفس أعلىٰ درجة من درجة الإيمان ، لأنه هو الذي يوفر الحوافظ التي تحفظ النفس من الانفلات ، والهبوط مع ثقل الشهوات ، ثم يحبب إليها الارتفاع في مدارج السالكين إلىٰ أعلىٰ الدرجات ، وعلىٰ قدر ما يعيش الإنسان مع ٱلله ، ويحبه ويخشاه ، ويذكره في سره وجهره ، ويبتغي رضاه ، وعلىٰ قدر ما يعيش علىٰ ذكر من اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور ، وحساب وجزاء ، وجنة ونار ، تكون قدرته علىٰ ضبط شهواته ، وقدرته علىٰ تمثل القيم العليا ، وقدرته علىٰ إعداد نفسه للجهاد في سبيل ٱلله وأعلىٰ درجات الجهاد هي جهاد النفس ، وهي ميزة امتاز بها الخليفة عن غيره من الخلق ، ورغبته كذلك في التطوع النبيل ابتغاء مرضاة ٱلله في تنفيذ أوامره بإعمار الأرض وإصلاح الرعية ، ثم الربط بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر هي من متممات الإيمان ، والأمر بها واجب علىٰ الخليفة مندوب لغيره ، حتىٰ يصبح أحدهما مذكراً بالآخر تلقائياً ومؤدياً إليه لأن تذكير الإنسان بالله هو تذكير باليوم الآخر ، وبنعيمه وعذابه ، وإن التذكير باليوم الآخر هو تذكير بالله سبحانه وتعالىٰ ، أنه مالك الدنيا والآخرة ، ومالك كل شيء في الوجود ، ولهٰذا امتاز الخليفة أيضاً بعلو الهمة وشدة الصبر وبعد النظر والتبصر في الأمور إضافة إلىٰ الحكمة والروية والأناة والحلم والصفح والعفو لأنه مقتدر ، وأما أصحاب النفوس الضعيفة ، و الهمم الفاترة التي لا تتصف بالحماس المتقد والمتطلع

نحو الأفضل ، فإنما يكون هـٰذا من الآفات ، غير أن الإسلام عالج هـٰذه الظواهر علاجاً رائعاً من جميع الجوانب ونبه هـٰؤلاء علىٰ التطلع إلىٰ أبعد من الدنيا ، فمن جهة وجَّهَ أنظارهم وأفئدتهم إلىٰ هدف يتجاوز الحياة الدنيا كلها ، والأرض كلها ، والزمن كله ، ويصل إلىٰ بعد لا يدانيه بعد ، وهو اليوم الآخر ، وما فيه من بعث ونشور ، وحساب وجزاء ، وجنة ونار ، فوصل العاجلة بالآجلة ، وجعل العمل في العاجلة هو وسيلة الوصول الآمن إلىٰ الآجلة ، وليس وراء ذلك بعد من عمل تعمل من أجله النفوس ، ولا مدىً تتطلع إليه ، وتثابر علىٰ القيام بمتطلباته ، لأن أي فتور في الطريق قد يقطع عليهم الطريق ، والإنسان في حلبة الصراع قد يستوحش ، حين يتكاثر عليه الأعداء ، ويجد نفسه وحده ، أو يجد من حوله مستضعفين مثله لا يملكون نصره ، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تؤنسه بذكر ٱلله فلا يستوحش ، وتذكره بالثمرة الجنية في اليوم الآخر فيجدَّ في السعي ويجتهد في العمل ، والإنسان في حلبة الصراع قد يفتقد المتاع الحسي ، والأهل والأصحاب ، والفراش الوثير ، والطعام الوفير ، فتحنَّ نفسه لذلك كله ، أو لشيء منه ، فيتثاقل إلىٰ الأرض ، وهنا تبرز الطاقة الروحية أيضاً توازن في حسه ثقل الأرض ، وتعوضه عن حرمانه بما أعد ٱلله في الآخرة من رضوان لأهل طاعته في دار الخلود وهي الدار الآخرة ، والإنسان المتكامل المترابط المتوازن هو الإنسان الراشد ، الذي يقوم بعمارة الأرض علىٰ هدىً وبصيرة ، ويتطلع في الوقت ذاته إلىٰ اليوم الآخر ، الذي تكتمل فيه الحياة .

إن الآخر علماً عز وجل يقدر المقادير ويسيّر الأمور وفق مشيئته بما هو أعلم ، لذلك كان اختيار الخلفاء من خلقه بحسب المشيئة وما يريده لخير خلقه فما كان اختيار أول الخلفاء لأوليته ولا آخرهم لآخريته وإنما الثاني الذي يلي الأوّل إلىٰ ما بعده فهو المسمىٰ بالآخر لأن له حكم التلاحق والمتابعة وهـٰكذا كان تلاحق الخلفاء الكرام رضي ٱلله عنهم ، فما منهم واحد إلا وهو مترشح

للتقدم والخلافة مؤهل لها ، فقدم في علمه الذي لا نعلمه الأسباب لكل منهم ليكون تواليهم كما كان والله أعلم ، إلا أنه من كون الآجال المعلومة لله تعالىٰ ولا بد للخلافة أن يليها في علم ٱلله أحد خلفائه ، فلا بد من تقدم من تقدم أجله قبل صاحبه وكذلك تقدم عمر بن الخطاب وعثمان وعلي فما تقدم من تقدم منهم لكونه أحق بها من هٰؤلاء الباقين ولا تأخر من تأخر منهم عنها لعدم الأهلية ، وما علم الناس ذلك إلا بعد أن بين ٱلله ذلك بآجالهم وموتهم واحداً بعد آخر في خلافته ، لذلك فإن التقدم إنما وقع بالآجال أو بأمر آخر في علم ٱلله لم نقف عليه وحفظ ٱلله المرتبة عليهم رضي ٱلله عنهم أجمعين ، فهٰذا من حكم التأخر والتقدم ، ولله الأولية لأنه موجد كل شيء ولله الآخرية فإنه قال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (1) . ولله وحده علم كل غيب في السمٰوات والأرض ، فيعلم ما سيحل بالخلق ، وما يكون لهم ، وإليه وحده يرجع تصريف كل أمر من الأمور ، فلا يعلم غيب العواقب ، ووقت وقوع المواعد إلا هو ، ولا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم ، وهنا نعلم أنه لا حَظَّ لمخلوق في معرفة علم الغيب حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (2) . إن الأمور كلها تعود إلىٰ ٱلله خلقاً وملكاً وتصرفاً ، وقد أضاف الروح إلىٰ أمره تعالىٰ لتفخيم شأن الوحي وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه واتباعه لأنه هٰذا صراط ٱلله وطريقه الذي له ملك الملكوت ، فإن كون جميع ما فيه من الموجودات له تعالىٰ أولاً وآخراً ومآلاً ومرجعاً مما يوجب اتباع صراطه أتم إيجاب ، وفي هٰذا من الوعد للمهتدين إلىٰ الصراط المستقيم

---

(1) هود ، 123 .

(2) الشورىٰ ، 52 ـ 53 .

والوعيد للضالين ما لا يخفىٰ في الآخرة حيث إلىٰ ٱلله تصير أمور الخلائق كلها في الدنيا والآخرة فلا يدبرها إلا هو حيث لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه وتقديره ، فقد قضىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ قضاءه عندما خلق الخلق أو قبل ذلك ، فهو الأول من هٰذا الوجه ، وإليه يرجع الأمر كله ، فهو الآخر من هٰذا الوجه ، فهو الآخر كما هو الأول وما بين الأول والآخر تظهر مراتب الأسماء الألوهية فلا حكم للآخر إلا بالرجوع إليه في كل أمر ، فإذا كان ٱلله الأول ، فالإنسان الكامل هو الآخر لأنه في الرتبة الثانية بالنسبة للإنسان وهو الخليفة ، وهو أيضاً الآخر بخلقه الطبيعي فإنه آخر المولدات لأن ٱلله لما أراد به الخلافة والأمانة بدأ بإيجاد العالم وهيأه وسواه وعدله ورتبه مملكة قائمة بذاتها فلما استعد للقبول أن يكون مأموناً أنشأ ٱلله جسم الإنسان الطبيعي ونفخ فيه من الروح الإلـٰهي فخلقه علىٰ صورته لأجل الاستخلاف فظهر بجسمه فكان المسمىٰ آدم فجعله في الأرض له خليفة وكان من أمره وحاله مع الملائكة ما ذكر ٱلله في كتابه العزيز إذ يقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) فهو سبحانه بعلمه الذي خلق الإنسان ومكَّن له في الأرض ، وأودع فيه من علم الأشياء وذكره به ، وأسبغ عليه نعمه ، ومن أعظم تلك النعم علىٰ الإنسان ، وهي أنه قال لملائكته إني جاعل في الأرض من أُمكِّنه منها وأجعله صاحب سلطان فيها ، وأستخلفه هو وذريته في عمارة الأرض .

ثم جعل ٱلله الخلافة لإعمار الأرض في آدم عليه الصلاة والسلام ومن صلح من ذريته ، وجعل الأمانة في نبيه عليه الصلاة والسلام إلىٰ يوم القيامة ، فهو الآخر بالنسبة إلىٰ الصورة الألوهية والآخر أيضاً بالنسبة إلىٰ الصورة الكونية

(1) البقرة ، 30 .

الطبيعية ، فهو آخر نفساً وجسماً وهو الآخر برجوع أمر الدنيا إليه ، فهو المقصود به عمارة الدنيا وإصلاحها وإذا رحل عنها زالت الدنيا ومارت السماء وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال وعطلت العشار وسجرت البحار وذهبت الدار الدنيا بأسرها : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [1] فالمراد هنا زمان واحد هو الزمان الآخر وهو ممتد يسع الأمور المذكورة ، مبدؤه قبيل النفخة الأولىٰ ، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق ، وهو الوقت الآخر قبل الخلود إما في الجنة وإما في النار بما أحضرت من أعمالها من الخير أو الشر ، وبحضور الأعمال الظاهرة في هـٰذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها ، وبموازين الأعمال انتقلت العمارة إلىٰ الدار الآخرة بانتقال الإنسان فعمرت الجنة والنار ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار ، فالاسم الأول للأولىٰ وهي الدار الدنيا ، والاسم الآخر للأخرىٰ وهي الآخرة ، ولقد قال ٱلله تعالىٰ لمحمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [2] لأن الآخرة هي المطلب والمبتغىٰ وهي الغاية فمن حصل علىٰ هـٰذه الدرجة فإنه لا ينتقل لأن له الثبات والبقاء والدوام والأول ليس كذلك ، فإنه ينتقل في المراتب حتىٰ ينتهي إلىٰ الآخر وهو الغاية فيقف عندها ، فلهـٰذا قال له وللآخرة خير لك من الأولىٰ ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ ، فأعطاه صفة البقاء والدوام والنعيم الدائم الذي لا انتقال عنه ولا زوال له فهو البقاء الآخر .

---

(1) التكوير ، 1 ـ 14 .

(2) الضحىٰ ، 4 .

فالله سبحانه وتعالىٰ وإن خاطب نبيَّه عليه الصلاة والسلام ، بأن الآخرة خير لك من الأولىٰ ، فإنما هو من باب تخصيص العموم ، ومعنىٰ ذلك أن هٰذا الأمر لك خاصة ولمن تبعك وسار علىٰ نهجك الذي أوحيناه إليك عامة ، وإن هٰذا الأمر سوف يمضي لما أراده ٱلله تعالىٰ إلىٰ أن يرث ٱلله الأرض ومن عليها ، وإن كان عليه الصلاة والسلام هو آخر الأنبياء والرسل ، وحمل آخر الرسالات ، وبلغ ما أنزل إليه من ربه ، إلا أن دعوته عليه الصلاة والسلام سوف يمضي بها خلق مكلفون من غير الأنبياء ، ألا وهم العلماء ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، ورأس العلماء هم الخلفاء الذين أنعم ٱلله عليهم بخلافته في الأرض ومكّن لهم من الأسباب والصفات بما يكونون أهلاً للخلافة علىٰ الوجه الأكمل الذي شرعه ٱلله للخلق جميعاً .

فالله سبحانه وتعالىٰ لما شاء أن يجعل في أرضه خلفاء شاء لهم أن يمشوا في الأرض وهي ذلول لهم ليعمروها ويصلحوها ليكونوا هم الوارثون ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (1) فهي غير صعبة يسهل عليكم السلوك فيها للسعي والعمل من أجل مصالحكم وما تغرسون فيها من أسباب الرزق وأسباب الأجر وما تدخرون لليوم الآخر ، فإن المرجع بعد البعث إلىٰ ٱلله لا إلىٰ غيره عز وجل فبالغوا في شكر نعمه التي منها تذليل الأرض وتمكينكم منها وبث الرزق فيها منافع لكم ولأنعامكم ثم تعودون إليها بموتكم ومنها سيكون نشوركم ورجوعكم فتخرجون إلىٰ اليوم الموعود من أجل الحساب وذلك في اليوم الآخر . لذلك قدم الإنسان ورشحه لهٰذه الخلافة دون غيره من جنس الخلق وجعل بينه وبينهم سفيراً وهو الروح الأمين وسخر لهم ما في السمٰوات من ملك وكوكب سابح في فلك وما في الأرض وما بينهما من الخلق جميعاً منه ، وأباح لهم

---

(1) الملك ، 15 .

جميع ما في الأرض أن يتصرّفوا فيه ، وأيد هـٰؤلاء الخلفاء بالآيات البينات ليعلم المرسلون إليهم أن هـٰؤلاء خلفاء ٱلله عليهم ، ومكنهم من الحكم في رعيتهم بالصفات الألوهية التي يتصفون بها استمداداً منه جل جلاله ، وشرع لهم الشرائع وحد لهم الحدود ورسم لهم المراسم يقفون عندها حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (1) فقد شرع ٱلله سبحانه وتعالىٰ هـٰذه العقائد والتشريعات للخلق ما عهد به إلىٰ نوح ، والذي أوحاه لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وما عهد به إلىٰ إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ، أن ثبّتوا دعائم الدين بامتثال ما جاء به ولا تختلفوا في شأنه ، وهـٰذا دليل علىٰ أن رسالة التوحيد واحدة من أول الأنبياء إلىٰ محمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (2) فالدين الحق المرضي عند ٱلله هو الإسلام ، فهو التوحيد والخضوع لله في إخلاص ، وقد اختلف كل من اليهود والنصارىٰ في هـٰذا الدين فحرَّفوا وبدَّلوا ولم يكن اختلافهم عن شبهة أو جهل إذ جاءهم العلم ، بل كان للتحاسد والتطاول ، وهنا يبرز دور الخليفة في إقامة الشرع الذي شرعه لخلقه في السير علىٰ خطىٰ النبوة وصولاً إلىٰ العاقبة الحسنىٰ في الدار الآخرة ، وفي هـٰذا تكليف ومشقة لما يواجهه الخليفة من عناد البعض بما يدعوهم إليه من إقامة دعائم الدين ، ولـٰكن ٱلله يصطفي لرسالته من يشاء ، فهو يختار خليفته بما أودع به من علم وصبر وهمة جعلته أن يكون الآخر من حيث هـٰذه

---

(1) الشورىٰ ، 13 .

(2) آل عمران ، 19 .

الصفات ، وبذلك يوفق للإيمان وإقامة الدين وإعمار الأرض وإصلاح الخلق . وهنا يقع الوجوب علىٰ الخلق باتباع الخليفة ولا يجوز لأحد من رعاياهم أن يتخذ لنفسه شرائع ولا يقتدي بغير ما أمر به ٱلله تعالىٰ وكلف به الخليفة ؛ لأن ٱلله تعالىٰ نصب لهم شرائعَ وسنّ لهم سنناً يعملون علىٰ هداها ، والخليفة هو المكلف بالقيام بهـٰذا الأمر ، وكتبَ لهم كتباً بذلك ونزلت عليهم ليسمعوها وليعلموا حدود ما أنزل ٱلله الذي استخلفهم في الأرض فيقفوا عندها ويعملوا بها سرّاً وجهراً ، حيث نزل الروح الأمين عليهم بالكتاب المبين من اللوح المحفوظ ، وأعلمهم قدر ما يقع به التصريف في الدنيا إلىٰ يوم القيامة ويتضمن ما في العالم من حركة وسكون واجتماع وافتراق ورزق وأجل وعمل ثم أنزل ذلك كله في كتاب مكنون إلىٰ السماء الدنيا وجعله بأيدي سفرة كرام بررة مطهرين أرواح قدس صحفاً مكرّمة مرفوعة مطهرة بما وعد ٱلله المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاءت به رسله من اليوم الآخر والبعث الآخر وما يكون في ذلك اليوم من حكم ٱلله في خلقه وتولّي ٱلله ذلك كله بنفسه علىٰ صورة الحق الذي بعث به رسله ليصدقهم عند عبيده فعلاً بحكمه ذلك كما صدقهم في حال احتجابه بما أيدهم به من الآيات فآمن من آمن وكفر من كفر فتوقف الأمر علىٰ ظهوره لعباده فيتولىٰ الفصل بينهم بحكمه بنفسه وهو العزيز العليم ، فإذا فصل وحكم وعدل وأفضل جعلهم في الفصل فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ
ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ
مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ
أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ
ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ وَأُزۡلِفَتِ
ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ

بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [1] فهٰذا هو اليوم الذي يؤول فيه كل شيء إلىٰ الرحمـٰن ، وكان الخلق فيه علىٰ قسمين في ذلك اليوم الآخر الدائم ، وقضىٰ في علمه بما كان من أعمال الخلق علىٰ القسم الأول بقوله تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [2] يحصرهم فيها ، وأما القسم الثاني فهم السعداء بما عملوا من طاعة ٱلله والتزام أوامره واجتناب نواهيه ، فهم في دار كرامته ، ودار رضوانه فإنها الدار الآخرة التي قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ففي ذلك اليوم وهو اليوم الآخر تأتي غشية الموت بالحق الذي لا مرية فيه ، ذلك الأمر الحق الذي كانت تخشاه الناس حيث ينفخ في الصور نفخة البعث ووقوع الحساب الذي يحمل الثواب والعقاب الذي وعد ٱلله به وأوعد ، وما من نفس سواء كانت بارة أم فاجرة إلا و معها من يسوقها إلىٰ المحشر ومن يشهد بعملها من أول عمل إلىٰ آخر عمل ، حيث كان البعض في الدنيا في غفلة تامة من هـٰذا الذي يقاسونه في الآخرة ، فينزع ٱلله عن بصيرتهم الحجاب الذي كان يغطي أمور الآخرة فيصبح البصر في اليوم الآخر نافذاً قوياً حتىٰ يشهد الإنسان علىٰ نفسه بما كان يعمل ، فيقال للملكين ألقيا في جهنم كل مبالغ في الكفر ، مبالغ في العناد ، وتارك الانقياد للحق ، مبالغ في المنع لكل خير ، ظالم متجاوز للحدود ، وكان يشك في ٱلله تعالىٰ وفيما أنزله ، حيث اتخذ مع ٱلله إلـٰهاً آخر يعبده فألقياه في العذاب البالغ غاية الشدة ، وعندما يرون عذاب اليوم الآخر يبدأ الخصام بين الكافرين وبين قرنائهم من الشياطين الذين كانوا أغووهم في الحياة الدنيا ، فيقول ٱلله تعالىٰ لا تختصموا عندي في موقف الحساب والجزاء ، وقد قدَّمت إليكم في

---

(1) ق ، 20 ـ 35 .

(2) الإسراء ، 8 .

(3) العنكبوت ، 64 .

الدنيا وعيداً علىٰ الكفر في رسالاتي إليكم ، فلم تؤمنوا ، وكونه اليوم الآخر الذي لا تقبل بعده توبة ولا عمل ، فالله سبحانه وتعالىٰ قضىٰ بأنه لا يُغَيَّر القول الذي عندي ووعيدي بإدخال الكافرين النار ، ولست بظلام للعبيد فلا أعاقب عبداً بغير ذنب ، وفي هـٰذا اليوم الآخر يتبدل كل شيء حتىٰ أن جهنم تصبح ناطقة متكلمة ، فيقول الحق لجهنم تقريعاً للكافرين : هل امتلأت من هـٰؤلاء ؟ فتقول جهنم غضباً عليهم وانتقاماً منهم : هل من زيادة أستزيد بها من هـٰؤلاء الظالمين ؟ هـٰذا حال الكافرين في اليوم الآخر ، وأما المتقون ، فيومهم الآخر يختلف كل الاختلاف عن أولائك ، حيث أدنيت الجنة مزينة للذين اتقوا ربهم ، بامتثال أمره واجتناب نهيه ، مكاناً غير بعيد منهم ، وهو ثواب لهم بما وعدهم ٱلله ، حيث حفظوا شريعته ، وكانوا من المصلحين في الأرض ، فأقاموا حدوده خوفاً من عقابه وطمعاً في رحمته ، وهو محجوب عنهم لم يروه فجاءوا إلىٰ الآخرة بقلب راجع منيب إليه سبحانه و تعالىٰ عما يصفون ، فيُقال تكريماً لهم : ادخلوا الجنة آمنين فزع ذلك اليوم ، وإدخالهم فيه الجنة هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له وهو اليوم الآخر لهـٰؤلاء المتقين فلهم كل ما يشاؤون في الجنة ، وعند ٱلله مزيد من النعيم مما لا يخطر علىٰ قلب بشر ، فذلك يوم الخلود .

إن الآخر بوجه عام له من الفضائل والصفات ما لبقية صفات ٱلله تعالىٰ من الأسماء الحسنىٰ التي يتمثلها العبد نسبياً بما أنعم ٱلله عليه من نعمة اتصافه بتلك الصفات ، وكون محمد عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء والمرسلين ، الذي أنزل عليه آخر الكتب ، فإن ما جاء به محمد من صفات ٱلله وأسمائه وذكر اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الأنبياء ومنه ما تختلف الشرائع والمناهج كالقبلة والنسك ومقادير العبادات وأوقاتها وصفاتها والسنن والأحكام وغير ذلك ، فمسمىٰ الإيمان والدين في أول الإسلام ليس هو مسماه في آخر زمان النبوة ، بل مسماه في الآخر أكمل من مسماه في أول البعثة وأوسطها ، كما قال تعالىٰ

في آخر الأمر : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، ولهٰذا كانت أركان الدين في أول النبوة غير مكتملة ، وبدأت تتم شيئاً فشيئاً وذلك للتدريج في التشريع ، ومن هٰذا الباب وجدنا أن الخمر لم يحرم تحريماً قطعياً إلا في المرحلة الأخيرة ، حيث لم يأتِ في أول الكلام عن الخمر أكثر من التنبيه علىٰ أن فيه إثماً ومنافع فقال تعالىٰ : ﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ ﴾ (2) فبدأت عملية التفكير والمناقشة العقلية لدىٰ المسلمين بين الإثم والمنفعة والرابط بينهما ، فكانت مرحلة استعداد نفسي لتقبل خطوة جديدة في هٰذا الاتجاه وخاصة أن الخمر كانت متمكنة من المجتمع فبدأ يتهيأ للجديد في هٰذا المجال ، ولما أصبح لديهم الاستعداد النفسي والعقلي لتقبل ما هو أشد من تلك الخطوة في المرحلة الثانية قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (3) ، فكان الاستعداد للابتعاد الجزئي والمرحلي عن هٰذه الآفة وتقبلها المجتمع وأصبح لديه طاقة للسير حثيثاً في الاتجاه الصحيح في المرحلة الأخيرة التي تحمل خير الآخرة ، فلما علم ٱلله تعالىٰ ـ وهو أعلم ـ أن الإيمان تمكن من نفوسهم وفي قلوبهم قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (4) فكان آخر الأمر خيره لأنه يحمل خير اليوم الآخر ، وعلىٰ هٰذا نستطيع أن نقول أن الإيمان في أول الإسلام ناقص فجعل يتم شيئاً فشيئاً ، وهٰكذا مسمىٰ الإيمان والدين قد يتنوع بحسب الأشخاص ، وبحسب أمر ٱلله في تدريج

---

(1) المائدة ، 3 .
(2) البقرة ، 219 .
(3) النساء ، 43 .
(4) المائدة ، 90 .

الإيمان من الأول إلىٰ الآخر ، وبحسب ما يفعله الإنسان مما أمر به ، وبحسب إقباله وحضوره وإخلاصه ، فإن المؤمنين من الأولين والآخرين مشتركون في الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ولـٰكن بينهم تفاوت ما في القلوب إذا ذكر ٱلله وما في اليوم الآخر ما يتفاوت به الإيمان أيضاً ، فعند ذكر الجنة والنجاة من النار وذم من ترك بعضه ونحو ذلك ، يزداد الإيمان الواجب لدىٰ الآخر الذي يكون آخر الصائمين وآخر القائمين ، بمعنىٰ الكثرة من الطاعة في العبادات والفرائض ، فهو آخر من يشار إليه في عمله هـٰذا فهو من الأوائل والأواخر بمعنىٰ السابقين الذين ذكرهم ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ (1) ، وعلىٰ هـٰذا فمن ترك بعض الإيمان الواجب في الجملة لعجزه عنه إما لعدم تمكنه من العلم أو لعدم تمكنه من العمل لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه ، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل ، بمنزلة صلاة المريض والخائف وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أمروا ، وإن كانت صلاة القادر علىٰ الإتمام أفضل وأكمل ، بمعنىٰ أنه يكمل صلاته وعبادته علىٰ الوجه الأمثل حتىٰ آخرها وحتىٰ يكون أحب إلىٰ ٱلله كما قال النبي ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » (2) . قال فإن ٱلله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن بالسيئات ، وأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وإن مصائب الدنيا تكفر الذنوب ، وأنه يقبل شفاعة النبي ﷺ في أهل

---

(1) الواقعة ، 10 ـ 14 .

(2) صحيح مسلم 1 ، ج 3 ، ص 142 .

الكبائر ، وأنه يغفر الذنوب جميعاً ، ويغفر ما دون الشرك ، وأن الصدقة يبطلها المن والأذىٰ ، وأن الرياء يبطل العمل ، ونحو ذلك ، فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها ، كما قد جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها ، لـٰكن لا شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة ذلك أنها آخر ما يلجأ إليه العبد بعد الإسراف في المعاصي ، كما أنه لا شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة وهي آخر ما يُخرج المسلم من الملة ، وبهـٰذا يتبين أنا نشهد بأن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً علىٰ الإطلاق والعموم ، ولا نشهد لمعين أنه في النار لأننا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه ، لأن لحوق الوعيد بالمعيّن مشروط بشروط وانتفاء موانع ، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه وإنما يعلمها الآخر جل جلاله ، وفائدة هـٰذا الوعيد أن هـٰذا الذنب سبب مقتضٍ لهـٰذا العذاب ، والسبب قد يقف تأثيره علىٰ وجود شرطه وانتفاء مانعه بآخر أعمال العبد . فإن كانت آخر أعمال العبد صالحة ختمت له آخرته بالحسنىٰ ، والذي علم ٱلله منه خيراً يقبل منه التوبة التي يلجأ إليها العبد بعد الإسراف في الذنوب والخطايا ، فيكون آخر ما يقدم به علىٰ ربه هي التوبة ، فيتوب ٱلله عليه ثم يغفر له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (1) . إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يتوب علىٰ التائبين فهو يتوب علىٰ المذنبين ليتوبوا فهو يرجع إليهم كونه الآخر ليرجعوا عما بدر منهم وأسرفوا في أعمالهم ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) . جاء بفضله بالرحمة والمغفرة ليتوب علىٰ العباد فكانت التوبة علة الرحمة والمغفرة ، فالرجوع عن المعاصي هو نفسه رجوع

---

(1) الأنعام ، 54 .

(2) الزمر ، 53 .

إلىٰ الحق ، فإن رجع العبد رجع ٱلله إليه ، وكونه آخراً فإنه كلما رجع عبد رجع ٱلله إليه ، فالرجعة الأولىٰ من ٱلله علىٰ العبد هي التي يعطيه ٱلله فيها الإنابة إليه فإذا رجع العبد إليه بالتوبة رجع ٱلله إليه غير الرجوع الأول وهو الرجوع بالقبول ، فإن ٱلله لا يقبل معاصي عباده ويقبل التوبة والطاعات وهـٰذا من رحمته بعباده ، فلا يشهد ٱلله من عباده إلا ما قبله ، وإن كان يحصي كل شيء عدداً من الأعمال الحسنة والسيئة ، ولـٰكنه يؤخرها لليوم الآخر الذي يحتاج فيه الخلق إلىٰ المغفرة والرحمة وحتىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد جاء في قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (1) ، فقد طلب المغفرة والرحمة من ٱلله تعالىٰ ، وهنا التفاتة لطيفة في ترتيب الكلام وتقديم الأولىٰ علىٰ الأول وهـٰذا من علم النبوة لنوح عليه الصلاة والسلام ، حيث طلب المغفرة أولاً ثم بعد ذلك أتبعها بطلب الرحمة ، وذلك لسبب بسيط لا ينتبه إليه كثيرون ، وهو أن الرحمة أوسع وأشمل وأعم من المغفرة ، ذلك أن الرحمة لعموم العموم ، بينما المغفرة لعموم الخصوص ، فالرحمة يدخل فيها جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وعاصيهم وتدخل فيها البهائم وجميع المخلوقات ، فالكافرون يتراحمون فيما بينهم برحمة ٱلله والبهائم تتراحم فيما بينها بنواميس الطبيعة التي شاءها ٱلله جل جلاله ، ولا يصح وصف ذلك بالمغفرة ، فإذا طرد أحد من رحمة ٱلله فلا مطمع له في شيء بعد ذلك ، فإبليس طرد من رحمة ٱلله بمعصيته لربه وإصراره علىٰ المعصية فقال تعالىٰ : ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (2) . فالمغفرة تأتي بعد الرحمة ، وهي رحمة خاصة بالمؤمن ، فالرحمة تأتي أولاً ثم المغفرة ، ومن غفر له كان مرحوماً ، وليس كل مرحوم مغفوراً له ، فالخلق كلهم في رحمة ٱلله ، ولـٰكن

---

(1) هود ، 47 .

(2) الأعراف ، 18 .

ليس كل الخلق ينال المغفرة ، وعلىٰ هـٰذا فالمغفرة تأتي آخراً من الآخر جل شأنه ، وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ (1) ، فهـٰؤلاء الذين مُنعوا المغفرة هم مشمولون بالرحمة ، فيرحمهم ٱلله في أنه يرزقهم ومرحومون في أموالهم ، ومرحومون في أبنائهم ، ومرحومون في آجالهم التي أجلها ٱلله لهم ولم ينتقم منهم ولـٰكنهم مُنعوا المغفرة التي آخر ما يمنحه ٱلله لمن يشاء من عباده .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ كونه يتصف بصفة الآخر ، فقد دخل ضمن هـٰذه الصفة إحاطته بكل مخلوقاته منذ بداية الخلق إلىٰ أن يرث ٱلله الأرض ومن عليها ، فهو الأوّل الأزلي قبل الكون والمكان ، من غير أوّل ولا بداية ، والآخر الأبدي بعد فناء المكنونات والأزمان بغير آخر ولا غاية ، الظاهر في علوّه بقهره عن غير بعد ، والباطن في دنوّه بقربه من دون مسّ ، الذي أحسن بلطفه كل شيء بدأه وأتقن صنع كل شيء أنشأه ، ودبرت الأحكام حكمته وصرفت المحكومات مشيئته ، فأظهر في الغيب والشهادة لطيف قدرته وعمّ في العاجل والأجل خلقه بنعمته ، ونشر علىٰ مَن أحبّ منهم فضله ، وبسط لجميعهم عدله ، وأنعم عليهم بتعريفهم إياه ، سبحانه وتعالىٰ ، وأحسن إليهم باجتبائه إياهم إليه ، وأفضل عليهم بتيسير كلامه لهم ، وجعل لهم خلفاء يسوسونهم ويقيمون لهم أمور الدنيا والآخرة ، ويخلفهم في أهلهم وأموالهم وأولادهم إذا دعتهم الحاجة إلىٰ الانتقال لغير مكان إقامتهم فقد جاء في الحديث : أن رسول ٱلله ﷺ كان إذا استوىٰ علىٰ بعيره خارجاً إلىٰ سفر كبر ثلاثاً ثم قال : « اللهُمَّ إنا نسألك في سفرنا هـٰذا البر والتقوىٰ ومن العمل ما ترضىٰ ، اللهُمَّ هون علينا سفرنا هـٰذا واطو عنا بعده ، اللهُمَّ أنت الصاحب

---

(1) التوبة ، 80 .

في السفر والخليفة في الأهل ، اللهُمَّ إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظـر وسـوء المنقلـب فـي المـال والأهـل . وإذا رجـع قـالهـن ، وزاد فيهن : آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » [1] .

والخليفة في الأهل هو المسؤول علىٰ رعايتهم عندما يكونون في حاجة للرعاية ، الذي أوكله ٱلله في الأسرة والعائلة والأهل وكل من يتحمل مسؤولية في مرضاة ٱلله طاعة وإصلاحاً لا كفراً وإفساداً ، ولأن ٱلله تعالىٰ جعل في الأرض خلفاء ، فهو سبحانه لم يتخلَّ عنهم وعن رعايته وعنايته لهم ولرعيتهم ، فإن كان الخليفة الذي استخلفه ٱلله علىٰ عباده غادر سلطانه ومكان إقامته لأمر من أمور الدنيا أو الآخرة ، فإنه يكون قد استخلف ٱلله في ملكه وسلطانه ورعيته فيهم ليقوم عليهم بما كان يقوم به من ممارسة للحقوق وأداء للواجبات وحمل للمسؤوليات ، لذلك جعل ٱلله الخلفاء في الأرض ليصلحوا ولا يفسدوا فيها ولا يسفكوا الدماء بغير حق ، ويتقوا ٱلله في كل كبيرة وصغيرة ، ومهما كان الخليفة مقدماً للرعاية فهو وما يقدمه من رعاية في حاجة لرعاية الأول والآخر جل جلاله ، ولذا فبعنايته ورعايته يتفضل علىٰ خلفائه بالإنعام من الوهب والكرم والجود وغير ذلك من الفضائل التي لا تعدُّ ولا تحصىٰ ، لذلك وجب التزام الأوامر واجتناب المناهي ، فمن خرج عن ذلك فقد انتهك الحرمة من عدم حفظ الرعية وصيانتهم والغيرة عليهم ، فمن خلف غائباً بسوء في أهله فقد أتىٰ باباً من أبواب الكبائر ، فإنه انتهك حرمة الخليفة في الرعية وغره حلم ٱلله تعالىٰ وإمهاله وما علم سر ٱلله في ذلك من استخلاف من يشاء من عباده إلا وله فيه خير ، قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ

(1) صحيح مسلم ، ج 7 ، ص 56 .

ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ، وهـٰذا خطاب خارج عمن استخلفه في قومه وهو هارون عليه الصلاة والسلام وهو هنا نائب الخليفة وليس خليفة ثانياً ، وكذلك قومه فسماهم خلفاء ولـٰكنه ما استخلفهم ، لـٰكنه تركهم خلفه ، أي أصبحوا خلفه وسار إلىٰ ميقات ربه ، فعصوا أمر الخليفة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [2] ، وبهـٰذا خرجوا من الملة ودخلوا في الكفر لأنهم لم يلتزموا ما أمرهم به موسىٰ عليه الصلاة والسلام وهو خليفة ٱلله في الأرض وخليفة لقومه اصطفاء من الأول والآخر عز وجل .

إن صفة الآخر لله سبحانه وتعالىٰ واضحة جلية إضافة إلىٰ ما تقدم مما تكلمنا به ، حيث نقف علىٰ ذلك في نصوص قطعية الدلالة من القرآن الكريم بدلالة معنىٰ المعنىٰ ، لا بذكر النص الصريح في إيراد الصفة نفسها بلفظ الآخر ، وإنما ما يفهم من السياق في أمر الفناء والبقاء الذي يتضح من خلاله القديم والمحدث ، والخالق والمخلوق ، والمالك والمملوك ، فهـٰذه الأمور التي تؤشر التلازم والترابط بوجود أولٍ صانع أحدث المحدثات كونه قديماً فبالضرورة أن يكون هو نفسه آخراً يؤول إليه ما كان بدأه حيث قال تعالىٰ في محكم التنزيل : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [3] . بطبيعة الحال إذا طرح سؤال : من الذي سيرث السمـٰوات والأرض ؟

تكون الإجابة لا وارث لهما إلا خالقهما بداية ونهاية ، ولا وارث لهما بداية ونهاية إلا هو جل جلاله وهو الأول والآخر . ومع ذلك قد يتساءل البعض : هل للزمان بداية ونهاية ؟

---

(1) الأعراف ، 150 .
(2) الأعراف ، 148 .
(3) ال عمران ، 180 .

تكون الإجابة ، نعم ، للزمن بداية ونهاية ، حتىٰ وإن لم نعرف تاريخ بدايته ونهايته ، وذلك لأننا نعلم أن الأول سابق علىٰ كل أول ، والآخر هو الأول الذي ليس من بعده آخر ، ولأننا نعرف من الزمان ما هو ماض ، وما هو حاضر ، وما هو مستقبل ، فإن ذلك يدل علىٰ قبول الزمان للقسمة والجمع والطرح . يقول ٱلله تعالىٰ في سورة يونس : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [1] . وبما أن النهار جزء من اليوم ، والساعة جزء من النهار ، ألا يكون النهار واليوم جزأين من الزمان ؟ ولأن الإجابة بنعم فتكون البرهنة أيضاً بنعم ، إن للزمان بداية ونهاية ، ونحن الذين لم نتمكن من معرفتهما . لأننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً . وفي هـٰذا الأمر أقول كل متعدد متناهٍ ، وكل ما ينتج عن القابل للتعدد متناهٍ إلا الواحد الذي لا يتعدد باعتباره هو الأول والآخر .

وعليه يكون الزمان متناهياً مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] . ربي ، الأول والآخر . وهو الواحد الذي لا يتعدد ، وبالتالي لا يقع في شك الفلاسفة والرياضيين المتجادلين علىٰ النهاية واللانهاية . ولهـٰذا قدرات ٱلله لا تحصىٰ ولا تعد بالقدرات البشرية المخلوقة ، ولا هي موضع مقارنة ، ولا يمكن أن تدخل في حساباتنا المتناهية بقصورها أمام قدرته . وهـٰكذا دائماً المخلوق أقل قدرة من خالقه .

وبناء علىٰ ذلك هل للأعداد بداية ونهاية ؟ الأعداد مهما كبرت فإنها تبتدئ

---

(1) يونس ، 45 ـ 46 .

(2) الأعراف ، 187 .

بواحد وتنتهي بواحد ، إذاً الواحد هو البداية والنهاية ، وإذا لم نصل بقدراتنا العقلية إلىٰ معرفة وجود النهاية العددية ، فإن ذلك لا يعني إثبات عدم وجودها ، بل إنه دليل علىٰ قصور قدراتنا العقلية والفكرية ، التي لم يستخدم منها إلا القليل جدًّا من سعتها الإدراكية ، والاستيعابية ، وهـٰذا يتطلب منا عدم اليأس ، ويدفعنا إلىٰ البحث الجاد ، والتقصي الدقيق ، من أجل التعرف علىٰ نهاية الأعداد ، كما تعرّفنا علىٰ بدايتها ، ولذلك لا نيأس مثل الذين ﴿ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [1] . والآخرة هي التي تكتمل بها البداية ، وتنتهي ، كما تبتدئ الأعداد (أي أعداد) بواحد ، وتنتهي به ، مما يجعل الواحد هو البداية والنهاية .

وما لانهاية ، هو الذي لا يشاهد ، ولا يحس به ، وهو احتمال ، لم يخضع للإثبات ، وإذا عرفناه أصبح نهاية ، والأعداد سواء بالسلب ، أو بالإيجاب تستمر في تضاعف إلىٰ النهاية (نهاية الشيء المعدود ، أو نهاية الذي يقوم بفعل العد) ولا يبقىٰ إلا الأول الواحد الأحد أولاً وآخراً .

ومثال علىٰ ذلك : إذا اتجه أحد المتخصصين في دراسة الرياضيات من نقطة معينة علىٰ الأرض في اتجاه مستقيم ، فإنه بالضرورة يصل إلىٰ النهاية ، لأن لكل بداية نهاية ، ولـٰكنه لو انحرف قليلاً ، أو كثيراً عن خط سيره ، فانه يجد نفسه مستمراً في اتجاهه ، دون أن يمر بنقطة النهاية ، وكأن الأرض ليست دائرية ، وهـٰكذا في كل دورة علىٰ الأرض إذا لم يصل إلىٰ نقطة البداية التي وضعها أو انطلق منها ، وفي هـٰذه الحالة قد يحكم علىٰ الأرض بما لانهاية ، وهو يعرف مسبقاً أنها منتهية . ولذا بما أن لكل شيء أولاً وآخراً سابقاً عليه إذاً لابد وأن تكون له بداية ونهاية .

وعليه أتساءل : هل في دراستنا للأشياء والمواضيع في دائرتها ، أو فلكها

(1) الممتحنة ، 13 .

المنتهي ، تكون غير منتهية ؟ نحن نعرف أن كل شيء ندرسه ، أو خاضع للدراسة ، لا يخرج عن حيز من الزمان ، والمكان ، وهو أيضاً لا يخرج عن حيز تفكيرنا وقدراتنا العقلية . إذاً كل ما ندرسه ونبحث فيه ، هو في إطار محدود ، مع فارق حدوده مع غيره ، إذا قورن به ، وبما أن ما ندرسه في إطار محدود ، آلا يكون لِمَا ندرسه حدود ونهايات ؟ إذا قمنا بإحصاء عدد سكان الصين علىٰ سبيل المثال ، فمهما كان عددهم فإن له نهاية ، لأن المكان الذي استهدفناه محدد ، إذاً مسبقاً نعرف أن لعدد سكان الصين نهاية ، مع أننا لا نعرف عددهم بعد . وإذا قمنا بتعداد سكان العالم ، وحيواناته ، وطيوره ، وأسماكه ، ونباتاته ، وحتىٰ حبات رمله ، ألا نصل إلىٰ النهاية ؟ . بالتأكيد سنصل ، لأن كل هـٰذه الكائنات في رقعة جغرافية محددة بالكرة الأرضية المتناهية ، المخلوقة من الأول الذي لم يكن قبله أول ولا بعده آخر ، إنه ٱلله الواحد الأحد الأول والآخر سبحانه وتعالىٰ هو كما هو لم يكن من بعده آخر .

إذاً لكل شكل وصورة وكائن ومخلوق بداية ونهاية ، إلا الخالق هو الأول وهو الآخر جل جلاله ، وعود علىٰ بدء بما أن كل شيء متناهٍ فإن تعداد ما يكون داخل المتناهي ممكن مع العلم أن بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهون قبل أن يعرفوا النهاية ، وإذا خرجنا بقدراتنا العقلية إلىٰ التعرف علىٰ ما هو خارج الأرض ، فإننا سنعرف بقدر ما تستوعبه عقولنا وتفكر فيه ، ولا نستوعب ولا نتعرّف علىٰ ما هو خارج عنها . وبما أن لكل شيء بداية . إذاً لابد وأن تكون له نهاية . وعليه لا وجود في الحياة الدنيا إلىٰ مالا نهاية ، بل الوجود إلىٰ النهاية ، وهـٰذا يستوجب التعرف علىٰ شيئين :

الأول المتعرف عليه بالمتعرف به :

عندما يكون الموضوع معرفة سابقة سواء كانت هـٰذه المعرفة مادية أو فكرية ، فيكون هو المتعرف عليه ، ويكون هـٰذا الموضوع هو المعرفة التي يتم استيعابها بالعقل وهو المتعرف به . فالمتعرف عليه لو لم يكن له بداية ونهاية

ما عرفناه معرفة علمية ، ولهٰذا عندما تتوفر المعلومات عن الموضوع ، يمكن التعرف عليه بالعقل باعتباره المتعرف به .

الثاني : غير المتعرف عليه بالمتعرف به :

عندما يتمكن العقل من البحث والتقصي العلمي يمكن أن يتعرف علىٰ الجديد بالمتعرف به (بالعقل) ، في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية إدراكية . وغير المتعرف عليه هو الذي لم يُكتشف بعد حتىٰ يعتبر معرفة علمية ، ولهٰذا يُعتبر بالنسبة للمدركات العقلية مجهولاً ، والعقل معروف كوسيلة للتعرف به ، وعندما يتعرف العقل (المتعرف به) علىٰ الجديد يصبح غير المتعرف عليه معروفاً .

إن المعرفة الممكنة هي المعرفة المتاحة ، أما المعرفة غير الممكنة هي المعرفة غير المتاحة . مثل معرفة اليوم الآخر في الحياة الدنيا ، هي معرفة نظرية فقط ، ولا يدركه إلا المؤمن الذي يدرك ٱلله (الأول والآخر) . وفي الوقت ذاته لا يعرفه عملياً لأنه غير قابل للمشاهدة والملاحظة ، وهٰذه معرفة غير متاحة . وهٰذه التي أطلقنا عليها (غير المتعرف عليه بالمتعرف به) . وكل معلومة لم يتم التعرف عليها بعد وهي في الإمكان تندرج تحت (المتعرف عليه بالمتعرف به) إلىٰ النهاية . وكل معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت (غير المتعرف عليه بالمتعرف به) ، وذلك لقصور العقل (المتعرف به) عن إدراكها ، وهٰذه نهاية للفكر الإنساني وذلك لمحدودية قدراته ومدركاته . كل شيء عرفناه يكون هو المتعرف عليه . وكل شيء هو موجود ولم نتمكن من التعرف عليه سواء في الأرض أو في السمٰوات أو ما بينها ، يكون غير المتعرف عليه .

عندما يتأمل المفكر في المجرد يمكن أن يتعرف علىٰ الجديد . القوانين الفيزيائية التي أصبحت بين أيدينا في المعامل والمختبرات هٰذه نُقلة من مجرد إلىٰ مجرب (خاضع للتجريب) في مثل هٰذه الحالة انتقل العقل من غير

المتعرف عليه إلىٰ المعرفة . أما إذا انتقل العقل من المتعرف عليه إلىٰ معرفة أخرىٰ جديدة مثل النظر إلىٰ الإبل والجبال والأرض كمتعرف عليها ، وانتقل منها إلىٰ معرفة الكيفية التي بها خلقت تكون المعرفة الجديدة معرفة مجردة تمت معرفتها بالمعرفة المجربة التي تشاهد وتلحظ .

إذاً المشكلة هي عدم التعرف ، وإذا عرفنا ، عرفنا النهاية كما عرفنا ٱلله الأول والآخر ، وإذا لم نعرف ، ليس معنىٰ ذلك أن للأشياء مالا نهاية ، بل إن للأشياء نهايات ولـٰكن لم نعرفها بعد ، وإذا لم نتمكن من معرفتها ، فإن ذلك لا يعني مالا نهاية ، بل يعني قصور قدراتنا عن معرفته إلا ٱلله ندركه بآياته دون أن يكون مشاهداً .

وإذا كانت للأرض بداية ونهاية إثباتاً من خلال معرفة مساحتها ، وحجمها ، ألا يكون لِمَا عليها ، بداية ونهاية ؟ وبما أن لانطلاقة الرصاصة من فوهة البندقية ، إلىٰ الهدف الذي يمكن أن تصل إليه ، بداية ونهاية ، ألا يكون لما بينهما أيضاً بداية ونهاية ؟ وإلا كيف نقبل بأن لها بداية ونهاية في الحالة الأولىٰ ، ولا نقبل أن يكون لها في الحالة الثانية (الحالة المحصورة بين نقطة الانطلاق ، ونقطة إصابة الهدف) وهـٰكذا يعتقد البعض بقولهم عندما تتجزأ المسافة المقطوعة إلىٰ أجزاء ، تتجزأ هي الأخرىٰ إلىٰ مالا نهاية ؟ إنها مسألة خيالية لا يمكن أن تتفق مع الواقع المشاهد ، والمقاس ، أو أنها أضحوكة خيالية ، وإلا كيف تكون لانطلاقة الرصاصة ، بداية ونهاية ، وتكون المسافة بينهما (بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول إلىٰ الهدف) غير منتهية ؟ وهـٰكذا لكل الأشكال الهندسية ، بداية ونهاية من خلال تحديد مساحاتها ومحيطاتها وأحجامها المحددة لها ، فكيف هي الأخرىٰ تكون محددة ومعروفة بدقة ثابتة ، بداية بوحدة القياس ، ونهاية بوحدة القياس ، ويكون لما بينهما مالا نهاية ؟

هل المسافة العددية المحصورة بين 1 ، 2 ، التي تتجزأ إلىٰ أجزاء هي

الأخرىٰ تتجزأ إلىٰ درجة أطلق عليها مالا نهاية ، هل هٰذه المسافة تساوي المسافة بين 2 ، 3 ، وتساوي المسافة بين 3 ، 4 ، وهٰكذا بقية المسافات بين الأعداد إلىٰ النهاية ؟ بالتأكيد أن العدد 1 ، هو البداية لما يأتي من بعده من أعداد ، ويكون العدد 2 نهاية للأعداد الجزئية التي أتت بعد العدد 1 ، وهٰكذا إلىٰ النهاية ، إلا الأول والآخر هو واحد أحد يعد ولا يتعدد ، ولأن المسافات المحصورة بين الأعداد متساوية ، باعتبارها محددة ، وبدقة واحدة ، إذاً لابد وأن يكون لها بداية ونهاية . وإلا هل يمكن أن يكون للشيء الواحد بداية ونهاية ، ويكون للمحصور بينه مالا نهاية ؟ وإذا لم تكن للأعداد المتجزئة (المحصورة بين الأعداد الصحيحة ، بين 1 ، 2 ، 3 ، الخ) نهايات لا يمكن أن نصل لأي عدد صحيح .

الكون بما فيه من يابس وماء وهواء وخلاء ، أثبت العلماء أن له بداية ، والتي عرفوها بالانفجار العظيم ، ومنهم من اعتبرها النقطة الصفرية التي بدأ منها الامتداد ، وعرفوا حديثاً أن للامتداد العظيم أيضاً نهاية يقف عندها ، ويعود منها إلىٰ نقطة البداية الأولىٰ بالانكماش ، ومع أن العلماء الروس هم الذين أثبتوا ذلك حديثاً ، إلا أن ٱلله عز وجل قد قال في الكتاب الحكيم في سورة الأنبياء : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (1) ، السماء التي بسطت كانبساط أوراق الكتب وسجلاتها أثناء لحظة الانفجار العظيم ، والتي امتدت إلىٰ ما عرفناه ، وما لم نعرفه بعد ، ستطوىٰ بقدرة الخالق الأول والآخر كما تطوىٰ أوراق الكتب وسجلاتها ، إلىٰ أن تنتهي إلىٰ الحجم الذي بدأت منه ، وكأنها ذرة ، ثم تنتهي إلىٰ ما يراد إليها أن تكون عليه بقدرة الخالق العظيم الذي قال في سورة العنكبوت : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى

(1) الأنبياء ، 104 .

ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [1] ، فإذا عرف الإنسان الكيفية التي عليها نشأ الخلق (الذي تكوّن أو تأسس أو بدأ عليها) ، يعرف بالضرورة أن لهٰذا الخلق لابد من نهاية ، لأن معطيات تكوين الخلق محددة بعمر زمني لابد وأن تنتهي إليه ، وهٰكذا تنتهي أعمار المخلوقات بمختلف أنواعها ، وأجناسها وفصائلها ، وخصائصها وقوانينها . وهٰذا ذكرني بحديث جرىٰ بين أحد أساتذة الفلسفة من السودان الشقيق وبيني حينما سألته أين مكان الإقامة ؟ فقال : مؤقتاً في طرابلس . فسألته : ودائماً أين ؟ فقال في الخرطوم . فقلت له ألا تعتقد أن وجودك مؤقت أينما كنت . فقال نعم لكل بداية نهاية .

إن التفكير الإنساني في حالة تطوُّر ونضج ، وتغير بالسلب والإيجاب حسب الموقف والظرف ، ولهٰذا لا ينبغي أن يوضع علىٰ التفكير الإنساني سقف ليحد منه ، بل ينبغي أن يُحفَّز علىٰ التفكير الحر ، ليكون مبدعاً ومنتجاً ومتطوراً . وعليه نقول إن التفكير الإبداعي المتطور لا حدود ثابتة له ، ولٰكن له نهاية .

الواحد البداية والنهاية هو الأول والآخر :

تبتدئ الأعداد بواحد فيكون الصدارة ، وتختتم به ويكون النهاية ، وجميع الأعداد هي مواليد الواحد خلقاً ، فلولا الواحد الأول ما عرفنا الاثنين اللذين يتكونان من (1 + 1) ، والواحد دائماً مستقل عن كل واحد من حيث أنه واحد ، ومن تكرار الواحد القابل للتكرار والمثيل تتكون الأعداد والأرقام مما خلق الأول المطلق (الآخر بالمطلق) ، تكرار (1 ، 1 ، 1) بالجمع

---

(1) العنكبوت ، 19 ـ 22 .

تساوي ثلاث ، وثلاث بطرح واحد تساوي اثنين ، وهٰكذا ، إذاً أي عدد لا يمكن أن يكون هو المقصود إذا سحب منه الواحد ، أو أضيف إليه ، علىٰ سبيل المثال إذا كان العدد المقصود هو (4 أو 5 ، أو 9) ، فإنه لا يمكن أن تتكون هٰذه الأعداد إلا بالواحد ، وإذا سحب من كل منها تصبح ، (3 ، 4 ، 8) ، وهٰكذا تنتهي هٰذه الأعداد وغيرها ويبقىٰ الواحد الدائم الأول والآخر جل جلاله ، وإذا انتهىٰ الواحد كعدد انتهىٰ الوجود أو الموجود ، وكانت النهاية ، ولم تكن ما لانهاية .

إذاً بالواحد تكون البداية ، وبه تكون النهاية ، وأي عدد لا يمكن أن تكون له بداية ولا نهاية إلا بالواحد ، فالرقم 8 بدايته واحد ، ويستمر الواحد في تضاعف إلىٰ أن يصل إلىٰ الرقم أو العدد 7 وإذاً إضافة واحد إلىٰ 7 يجعلها 8 ويكون نهاية لها ، إذاً الواحد هو البداية والنهاية بالنسبة إلىٰ العدد 8 والىٰ أي عدد .

وعلينا أن نفرق بين الواحد الذي يتعدد والأول الذي لا يتعدد ، فالذي يتعدد يتعدد بالمقارنة والمثيل والشبيه ، والذي لا يتعدد ليس له بمقارن ولا مثيل ولا شبيه ، إنه الأول والآخر المطلق جل جلاله .

وعرف الرياضيون الأعداد الصحيحة المتكون جميعها من الواحد ، وهي (1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9) . وهٰكذا تتكرر الأعداد وتتكاثر في حركة دائرية ، من العدد (١ إلىٰ العدد 9) ، مما جعلها تنتهي عند (9) وتستأنف الدورة العددية بالواحد . إذاً لهٰذه الأعداد بداية ونهاية . وبعد التعرف علىٰ الصفر كنقطة بداية افتراضية ، تكونت دائرة عددية أخرىٰ تبتدئ بالعدد (10) الذي يتكون من تزاوج الصفر مع الواحد ، والذي عرف بالعدد الموالي للعدد (9) ، وبداية دائرة عددية جديدة تنتهي عند العدد (19) ، وتبتدئ دائرة أخرىٰ بالعدد (20) وتنتهي عند العدد (29) وهٰكذا تبتدئ الأعداد وتنتهي في دوائر عشرية ، إلىٰ أن تتضاعف وتصل إلىٰ الدائرة المئوية ،

التي تنتهي بدائرة الألف ، وتبتدئ بعدها دوائر العشرة آلاف وتنتهي ، والمئة ألف ، والمليون وتنتهي ، وهٰكذا تتضاعف الأعداد وتتكاثر ، وتستمر الدوائر بداية ونهاية ، ولا يمكن أن تبتدئ دائرة إلا وأن تنتهي ، ومن يعارض ذلك نقول له لو أعددت طول حياتك لن تجد دائرة عددية تبتدئ ولا تنتهي . وكل دائرة لا يمكن أن تبتدئ إلا بواحد ، ولا تنتهي إلا به ، وإلا هل يمكن أن تنتهي دائرة العشرات ، أو المئات ، أو غيرها بدون الواحد ؟ العدد (99) مئوي ، لا يمكن أن يكون إلا بالواحد ، ولا تقفل دائرته (تنتهي) إلا بزيادة واحد ، والعدد (999) ألفي ، هو الآخر لا يمكن أن يكون إلا بالواحد ولا ينتهي إلا به . علىٰ سبيل المثال : إذا شاهدنا سباق جري علىٰ مضمار ملعب كرة القدم الذي مساحته تساوي (طوله × عرضه) ، فتكون مساحته محدودة (منتهية) وطوله بالأمتار له بداية ونهاية ولا تتجاوز (400) متر تقريباً ، فإذا بدأ السباق من نقطة الصفر الافتراضي وقطع المتسابقون مساحة (5000) متر طولي ، فهل يعني ذلك أن طول مضمار كرة القدم تمطط إلىٰ أن أصبح يساوي (5000) متر ؟ وإلا كيف قطع المتسابقون هٰذه المسافة الطولية ؟ بدون شك أنهم قطعوها نتيجة تكرار عدد الدورات علىٰ المضمار ، الذي يساوي طول المضمار ضرب عدد الدورات عليه ، والتكرار لا يزيد طول المضمار ولا ينقصه ، لأن طوله محدد ، وله بداية ونهاية . وكل من له بداية ونهاية له منتصف ، ويتجزأ إلىٰ نقاط ، لأنه متكون منها (من نقاط) ، فالمستقيم علىٰ سبيل المثال مهما امتدّ بدايته نقطة ونهايته نقطة ، وتقترب نقاط البداية والنهاية في حالتين :

الأولىٰ : الحالة الموجبة :

كلما زاد طول المستقيم ، أو الخط الرياضي والهندسي المتشكل (المرتسم) في الاتجاه الموجب ، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها ، والتي سيتصل بها عندما يستمر في اتجاهه إلىٰ النهاية ويرسم دائرة ،

وكلما نقص ، نقص عن الاتجاه الموجب ، وزاد ابتعاداً ولم يرسم دائرة .

الثانية : الحالة السالبة :

كلما نقص طول المستقيم ، أو الخط الرياضي والهندسي المرسوم في الاتجاه السالب ، كلما اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها ، والتي سيتصل بها عندما يصل إلىٰ النهاية (في حالة العودة) ، وكلما زاد ، زاد عن الاتجاه السالب ، وزاد ابتعاداً .

لا عدد إلا لكم ، ولكل كم نهاية ، فإذا كان الكم بشراً ، فإن للبشر بداية ونهاية ، وإذا كان الكم حيواناً ، أو نباتاً ، أو سمكاً ، أو طيراً ، أو أي جماد ، فإن لكل ما ذكر بداية ونهاية . وعليه إذا كان كل ما يعد له بداية ونهاية ، ألا يكون للعدد نهاية ؟ ومن يخالف أن للأعداد نهاية ، أطالبه إثبات ذلك (إثبات مالا نهاية) .

وعليه كل الأعداد تزيد وتنقص وتتكرر بالواحد ، وبما أنها كذلك إذاً تبتدئ وتنتهي به ، وإذا أصر البعض علىٰ أن للأعداد مالا نهاية ، أطرح عليهم السؤال الآتي : ألا يكون بين كل الأعداد ما تسمونه بما لانهاية ؟ إذا كانت الإجابة بنعم ، إذاً لا يمكن أن يحصل الانتقال من عدد لآخر علىٰ الإطلاق ، فالمسافة بين الصفر الافتراضي ، والواحد تساوي ما تسمونه مالا نهاية ، والمسافة بين الواحد والاثنين كذلك وهٰكذا . ومع ذلك إن التوليد العددي يزداد نتيجة التكرار من الواحد ككل والواحد كجزء ، والواحد كمتجزئ ، (1 ، 01 . ، 001 . ، 0001 . ، 00001 . ، 000001 . ، 0000001 .) ، ويستمر التوليد العددي إلىٰ النهاية ، وإلا لا يمكن أن نصل إلىٰ العدد صفر ولا العدد 2 . وإذا كانت الإجابة بلا . إذاً اعترفوا أن للأعداد نهاية ، وهي الواحد ككل ، وكجزء ، وكمتجزئ ، والذي جعل الرياضيين يؤسسون نسب التقريب عليه ، وجعلهم يطوون المسافة في تنقلهم من عدد إلىٰ الذي يليه ، ولهٰذا كل الأعداد تتولد من الواحد وتعود إليه ، إذاً الواحد هو البداية والنهاية

وهو الأول والآخر . وإن ٱلله تعالىٰ يعلم بكل كم وعدد كما جاء في سورة مريم سلام ٱلله عليها : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (1) ، كل ما خُلق في السمٰوات والأرض معلوم عدده عند ٱلله ، وبما أن كل الأعداد تم إحصاؤها من عنده ، إذاً كل الأعداد لها نهاية ، وكل الأعداد يتم التعامل معها فرادىٰ (واحداً واحداً) ، ولهٰذا كل الأعداد تعود إلىٰ الواحد الأول الآخر . ونحن نعرف أن لكل شيء نهاية ، ولٰكن لم نعرف متىٰ تكون نهايته ، ولا كيف تكون ، ولٰكن للرحمٰن كل شيء معلوم ، مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة الجن : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾ (2) . إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ أحصىٰ كل شيء تعداداً أي كل ما خلق معروف له كماً وعدداً . وكل من يحمل في معناه واحد تكون له صورة وشكل كالإنسان ، والغزالة ، الطير ، الشجرة ، البحر ، الجبل ، السمك ، إلا الواحد الذي خلق الواحد ، لا يمكن أن تكون له صورة ولا شكل ، إنه الأول والآخر جل جلاله . وكل مخلوق لا يمكن أن يشاهد خالقه ، أو صانعه ، فالإنسان الذي صنع القلم ، أو المقعد ، أو الحاسوب ، أو السيارة ، أو الطائرة ، يمكنه مشاهدتها بنظره السليم ، وهي لا يمكن أن تشاهده ، ويمكنه استخدامها أو التخلص منها في أي وقت يشاء ، وهٰكذا المخلوقات بالنسبة لخالقها الذي يشاهدها ولا تشاهده ويحييها ويميتها متىٰ يشاء وفي أي مكان كيفما شاء ، إنه الأول والآخر جل جلاله .

وعليه الواحد هو الحقيقة التي لا تتمركز الجموع إلا به ، ولا تتشتت إلا به ، ولا تبتدئ أو تنتهي إلا به ، لأن الجموع هي تكرار الآحاد ، أو

---

(1) مريم ، 93 ـ 95 .

(2) الجن ، 28 .

التقاؤها علىٰ قيم ، أو في مضامين . والقيم هي المضمون الذي تكونه الجموع ، ويحتويه الواحد ، وكلما زاد الواحد في الاتجاه الموجب كلما كان للتطور شأن ومعنىً وازدادت الأعمال الحسان ، وكلما زاد الواحد في الاتجاه المنقوص كلما حدث الانكماش والتخلف ونقص عمل الإنسان الذي يراد له أن يكون خليفة . وكلما نقص الواحد في دائرة النسبية من الاتجاه السالب كلما ازداد الأمل . وكلما نقص الواحد من الاتجاه الموجب كلما حبط العمل . ولهٰذا تصف المجتمعات كلاًّ من التطور العمراني والتطور الثقافي والتطور العلمي بالتطور الموجب ، وعند زيادة أي وحدة أو مفردة علىٰ ذلك تعد علىٰ سلم التطور الموجب ، وأي نقص من ذلك يعد علىٰ سلم التأخر . وتصف المجتمعات في ذات الوقت كلاًّ من التطور في الانحراف والجريمة ، والتطور الاستهلاكي بالتطور السالب وعند زيادة أي وحدة أو مفردة علىٰ ذلك تعد علىٰ سلم التأخر ، وأي نقص من ذلك يعد علىٰ سلم التطور الموجب .

وعليه قد يتساءل البعض : ما هو الفرق بين العدد ، والمعدود ، والعاد (الذي يقوم بفعل العد) ؟ وهل هٰذه متناهية ؟ العدد هو المقدار وجمعه أعداد ، وهو المجرد من التمييز ، فعندما أكتب علىٰ سبيل المثال : (1 ، 2 ، 3 ، 4، 5 ، 6) ، أكتب أعداداً ، وهٰذه الأعداد عندما تكتب علىٰ كميات أو كائنات تميز وتصبح هٰذه الكميات أو الكائنات هي المعدودة ، ويكون الذي أحصاها بهٰذه الأعداد هو العاد ، فإذا قلت أنا العاد تكون أنا المعدود من الآخر ، وبما أنني معدود من الآخر فيكون الآخر متناهياً وتكون لي نهاية عندما يكون مخلوقاً في دائرة النسبية ، ويكون نالواحد باقياً بالمطلق عندما يكون هو الخالق وهو الأول والآخر . إذاً العاد والمعدود شيءٌ واحدٌ ولا فرق بينهما إلا أنا وأنت ، أما العدد فهو فكرة ذهنية مجردة إذا لم يوحد مع معدود ، وعندما نفرق بين العاد والمعدود من جهة والعدد من جهة أخرىٰ نكون قد فرقنا بين الفكرة المفترضة والواقع المثبت ، وبما أن العاد والمعدود متناهيان ،

فكذلك العدد ، وذلك لأنه يقع في دائرة الممكن ، ولا يقع في غيرها ، ولأنه يقع في دائرة الممكن إذاً هو متناه . ولأن الزمان والحركة متناهيان ولا شيء من الموجودات يقع خارجهما ، فإذاً كل ما يقع فيهما متناهٍ وفقاً للقضية الآتية :

الزمان والحركة متناهيان .

والعدد يقع فيهما .

إذاً العدد متناهٍ .

وبما أن كل الأعداد تبتدئ بواحد وتنتهي به ، إذاً من أين أتىٰ غير المتناهي ؟ فالأعداد 1 ، 10 ، 100 ، 1000 ، 10 . 000 ، 100 . 000 . 1000000 ، 10 . 000000 ، 100 . 000000 ، 10000 . 000000 ، 1000000 . 000000 ، وغيرها من الأعداد التي تُكتب أو تُعد ، كلها متناهية ، وإن لم تكن متناهية فلا تُكتب ، وإذا كانت كذلك فمن أين أتىٰ افتراض غير المتناهي ؟ وبما أن العدد متناه والعاد والمعدود في دائرة النسبية كذلك ، فهل يؤدي المتناهي إلىٰ مالا نهاية ؟ إذا كان المتناهي كما بالجمع أو الضرب أو التربيع والتكعيب فلا بد وأن يؤدي إلىٰ كم ، وكذلك إذا كان بالطرح أو التقسيم فلا بد وأن يؤدي هو الآخر إلىٰ كم ، والكم متناه ، إذاً المتناهي لا يؤدي إلا إلىٰ متناه ، ولن يبقىٰ إلا وجه ربك الأول والآخر ذو الجلال والإكرام .

وعليه فالأول هو الآخر ، أي لا وجود لاثنين ، والقصد بالأول هو ٱلله عز وجل ، والقصد بالآخر هو ٱلله عز وجل ، وذلك لأن ٱلله واحد أحد لا يتعدد وصفاته تتعدد ولا تحصىٰ ، ولذا كل الصفات الحسان المحصورة في التسعة وتسعين صفة أو اسماً لم تكن هـٰذه النهاية ، ولـٰكن اجتهاد البحاثة المحترمين ومعظم اتفاقاتهم علىٰ مجموع المسبحة التي يسبح بها المسبحون من الخلائف اسم ٱلله تعالىٰ توحيداً فإنما يدل علىٰ أن الصفات مهما تعددت فالله واحد ويسبح له من في السمـٰوات والأرض جميعاً جل جلاله .

ويكفي أن نقول صفة واحدة ولتكن صفة (القادر) فهـٰذه الصفة الحسنىٰ جاءت مطلقة أي لا حدود ولا نهاية لها ، ومن يمتلك صفة القدرة المطلقة يمتلك كل شيء ولا ينقصه شيء بالمطلق ، أي بما أنه القادر بالمطلق فهو لم يكن في حاجة لأحد بالمطلق ، وهـٰذا يعني أنه غني بالمطلق وقوي بالمطلق ، والقصد من هـٰذا الاستشهاد بصفة القادر إثبات وجود الكمال فيها من كل شيء أي من كل صفة من الصفات المعروفة وغير المعروفة التي نسلِّم بها بالمطلق لأنه القادر .

ومهما عدّدنا لمعطيات الكمال لن تنتهي فتبارك ٱلله علىٰ حُسن صفاته العظام ، ولهـٰذا فإن صفات ٱلله لا تحصىٰ ولا تعد ولم يتم التمكن بالمطلق علىٰ اكتشاف أسرارها . ولأن ٱلله سميع مجيب الدعاء لكل من آمن وأسلم وجهه إليه فالدعاء بصفاته إخلاصاً وتوبة تكون الإجابة بالصفة المدعو بها وفقاً للطلب الحميد فهو القادر المجيب جل جلاله .

وحظ الخليفة من الاسم الآخر أن يكون آخر شيء له في الحياة الدنيا التوبة المطلقة والإيمان التام بالله واحداً أحداً لا شريك له ، وأن يكون مصلحاً في الأرض غير مفسد فيها ولا سافك للدماء بغير حق ، قوله الحق ، وفعله الحق ، وعمله مخلصاً لله وحده .

وأن يكون مؤمناً بأن الآخر جل جلاله هو ٱلله ولا آخر من بعده ، ولا أول من قبله ، يَخلِق ولا يُخلَق ، ولذا فالخليفة لا ظن في نفسه في الذي وحَّده واحداً أحداً لا شريك له في شيء ، إنه الآخر الذي لن يأتي بعده آخر ورسوله محمد ﷺ هو أيضاً كان الآخر الذي لن يكون من بعده رسول آخر ، ولهـٰذا سنته عليه الصلاة والسلام تتبع وجوباً . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن

(1) الحشر ، 7 .

كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (3) .

وأخيراً وخير ما نختتم به هٰذا المبحث في اسمه الآخر جل جلاله لا صوت آخر للخليفة إلا قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (4) !

اللهُمَّ إنك الآخر الذي منه البداية وإليه النهاية ، فاجعل بدايتنا طاعة وتوبة وآخرتنا مغفرة ورحمة ! اللهُمَّ أنت الآخر الذي لا أول له ولا آخر بعده فأنت قبل القبل وبعد البعد سبحانك لا إلـٰه إلا أنت ، فيا آخر اجعل خير أعمالنا آخرها وخير أيامنا يوم لقاك ، ولا تلهنا بما في الدنيا عن خير باق أخرته لنا في الآخرة ، ولا تجعلنا ممن قلت فيهم ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا

(1) آل عمران ، 31 ـ 32 .
(2) البقرة ، 143 ـ 145 .
(3) النساء ، 42 .
(4) آل عمران ، 53 .

أَلِيمًا ﴾ [1] ، فاملأ قلوبنا إيماناً بك يا آخر ، ونجنا من كل كرب ومن كل عذاب ، واجعلنا ممن يقومون الليل الساجدين الذين يحذرون الآخرة ويرجون رحمتك الذين علموا أنك الآخر فعملوا للقائك وعلموا بأنك الآخر الذي لا ينسىٰ ما قدمنا في الأولىٰ !

اللهُمَّ إنك الآخر الذي آمنا به الأول ، فلا أول نؤمن به غيرك يا الآخر ! اللهُمَّ إننا نشهد في اليوم الأول بأنك الآخر الذي له الملك فاجعلنا من الشاهدين بملكك في اليوم الآخر يوم تطرح سؤالك : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) !

✍ ✍ ✍

---

(1) الإسراء ، 10 .

الظَّاهِرُ جلّ جلاله

الظَّاهِرُ « يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الْعَالِي فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ ، فَلا شَيْءَ مِنْهَا فَوْقَهُ ، وَاسْمُهُ الظَّاهِرُ : دَالٌّ عَلَىٰ عُلُوِّهِ وَعَظَمَتِهِ » (1) .

قَالَ الْحَلِيمِيُّ ، فِي مَعْنَىٰ الظَّاهِر : « إِنَّهُ الْبَادِي فِي أَفْعَالِهِ وَهُوَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، فَلا يُمْكِنُ مَعَهَا أَنْ يُجْحَدَ وُجُودُهُ وَيُنْكَرُ ثُبُوتُهُ . وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ : هُوَ الظَّاهِرُ بِحُجَجِهِ الْبَاهِرَةِ وَبَرَاهِينِهِ النَّيِّرَةِ وَشَوَاهِدِ أَعْلامِهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ثُبُوتِ رُبُوبِيَّتِهِ وَصِحَّةِ وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَيَكُونُ الظَّاهِرُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ الظُّهُورُ بِمَعْنَىٰ الْعُلُوِّ ، وَيَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْغَلَبَةِ » (2) .

الظاهر « الذي ليس فوقه شيء ، لأنه العلي الأعلىٰ » (3) .

الحمد لله الظاهر الباطن والأول الآخر ، الواحد العلي ، الواجد الغني ، الطاهر عن كل عيب ، الظاهر له كل غيب ، الذي صفت بدائع آلائه ، وضفت سوابغ نعمائه ، حمداً يوافي نعمه العظام التي لا تحصىٰ كثرتها عدداً ، ويكافئ مننه الجسام التي لا تنفد ولو كان البحر لها مداداً ، ولن نحصي لها عدداً ، فتبارك ٱلله وتباركت أسماؤه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ

(1) شرح العقيدة الواسطية ، ج 1 ، ص 77 .
(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 47 .
(3) الوجيز في أسماء الله ، ج 1 ، ص 19 .

أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) وقد أمرنا ٱلله تعالىٰ بالدعاء بهٰذه الأسماء حسب المراتب ، وأعلاها الدعاء بلسان الفعل وهو التحلي بمعانيها بقدر ما يتصور في حق العبد وذلك حظ المقربين منها ، وإن حظوظ هٰؤلاء المقربين من معاني أسمائه تعالىٰ ثلاثة :

الأول : معرفتها علىٰ سبيل المكاشفة والمشاهدة حتىٰ تتضح لنا حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ وينكشف اتصاف ٱلله تعالىٰ بها انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرىٰ اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهره فقط ، ونقصد بهٰذا ، أن الآية والعلامة والدلالة علىٰ الشيء وجودها وثبوتها مستلزم لثبوت المدلول الذي هو آية له ودلالة عليه ، فإذا وجدت تلك الآية فإنها دلت علىٰ الصانع والواجد لذلك الموجود .

الثاني : استعظامنا لما يكشف لنا من صفات الجلال والكمال علىٰ وجه ينبعث منه شوقنا إلىٰ الاتصاف بما يمكننا من تلك الصفات لنتقرب بها من الحق قرباً بالصفة لا بالمكان فنأخذ من الاتصاف بها شبهاً بالملائكة المقربين عند ٱلله تعالىٰ ، والخلو من هٰذا الشوق لا يكون إلا لأحد أمرين إما لضعف المعرفة ، وإما لكون القلب ممتلئاً بشوق آخر مستغرقاً به ، ولذلك وجب أن يكون حب ٱلله في قلب المؤمن أعظم من حب أي شيء مع انعدام المقارنة بين حب ٱلله وغيره .

الثالث : السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها ، وبذلك يصير العبد ربانياً رفيقاً للملأ الأعلىٰ من الملائكة شبيهاً بهم ، وحينئذ لا يؤثر القرب والبعد في إدراكه بل لا يقتصر إدراكه علىٰ ما يتصور فيه ذلك ويكون مقدساً عن الشهوة والغضب فلا تكون أفعاله

---

(1) الأعراف ، 180 .

بمقتضاها بل الداعي إليها حينئذ طلب التقرب إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، ولا يلزم من هـٰذا إثبات المماثلة بين ٱلله سبحانه وتعالىٰ وبين العبد ، فالله سبحانه وتعالىٰ ظاهر في آياته وقدرته ، والعبد ظاهر بشخصه ومادته وأبعاده ، وفرق شاسع بين ظهور الخالق وظهور المخلوق .

والظاهر لغة بمعنىٰ ظهور الشيء الخفي ، وبمعنىٰ الغالب والمنتصر ، والله الظاهر بكثرة البراهين الظاهرة والدلائل علىٰ وجود أُلوهيته وثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته علىٰ عكس الباطن المحتجب عن عيون خلقه ، وأن كنه حقيقته غير معلومٍ للخلق ، فهو الظاهر بنعمته الباطن برحمته ، والظاهر بقدرته علىٰ كل شيء ، والباطن العالم بحقيقة كل شيء ، وهو الظاهر الذي لا يقهر ، والله ظاهر باطن في كونه الأول أظهر من كل شيء ، لأن العقول تشهد بأن المحدثات لها موجد مقدم علىٰ وجودها ، فالله ظاهر قديم فهو في ظهوره وقربه لا يبلغ أدنىٰ ما استأثر به من جلاله وعزته أقصىٰ نعت الناعتين وقد قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين وعجزت عن نعته أوهام الواصفين ، فهو ظاهر لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون ولا يصفه الواصفون بل هو كما وصف به نفسه و كما أثنىٰ علىٰ نفسه ضلت فيه الصفات وتقسمت دونه النعوت وحارت في كبريائه لطائف الأوهام والعقول ، فهو الأول في أزليته وعلىٰ ذلك فهو دائم لا يزول وهو الآخر في أبديته وهو قائم لا يحول وهو الظاهر فما احتجب عن شيء وهو الباطن فما اختفىٰ في شيء ولا تغيره الدهور ولا تبليه الأمور ولا يعتريه الزمان ولا يحويه المكان ولا يشغله شأن عن شأن كذلك فهو ٱلله الذي لا إلـٰه إلا هو له الأسماء الحسنىٰ والمثل الأعلىٰ والكلمة العليا ، أنزل الكتب بالحق وأرسل الرسل بالصدق وختمهم بآخرهم عصراً وأولهم مأثرة وذكراً محمد المصطفىٰ ﷺ . فهو ظاهر في آياته ، ظاهر في أنبيائه ظاهر في خلقه ، ورب قائل يقول : إن الظاهر هو الواضح في كل شيء ، ولـٰكن هـٰذا لا ينطبق علىٰ الذات الإلـٰهية مثل ما ينسحب علىٰ الخلق بهـٰذا المعنىٰ ، ولـٰكنه

ظاهر بقربه جل شأنه حيث يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [1] ففي هٰذه الآية الكريمة نجد ظهور ٱلله تعالىٰ بقربه من عباده وهي دلالة لاستجابة الدعاء حيث تولىٰ هٰذا الأمر بنفسه سبحانه وتعالىٰ والسؤال كان لرسول ٱلله عليه الصلاة والسلام ، فذلك السؤال إما أنه كان سؤالاً عن ذات ٱلله تعالىٰ ، أو عن صفاته ، أو عن أفعاله ، أما السؤال عن الذات فهو أن يكون السائل ممن يجوز التشبيه ، فيسأل عن القرب والبعد بحسب الذات ، وأما السؤال عن الصفات فهو أن يكون السائل سائلاً عن أنه تعالىٰ هل يسمع دعاءنا فيكون السؤال واقعاً علىٰ كونه تعالىٰ سميعاً ، أو يكون المقصود من السؤال أنه تعالىٰ كيف أذن في الدعاء ، وهل أذن في الدعاء ، وهل أذن في أن ندعوه بجميع الأسماء ، أو ما أذن إلا بأن ندعوه بأسماء معينة ، وهل أذن لنا أن ندعوه كيف شئنا ، أو ما أذن إلا بأن ندعوه علىٰ وجه معين ، وأما السؤال عن الأفعال فهو أن يكون السائل سائلاً عن ٱلله تعالىٰ أنه إذا سمع دعاءنا فهل يجيبنا إلىٰ مطلوبنا ، وهل يفعل ما نسأله عنه فقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ يحتمل كل هٰذه الوجوه ، إلا أن حمله علىٰ السؤال عن الذات أولىٰ لوجهين :

الأول : أن ظاهر قوله : ﴿ عَنِّى ﴾ يدل علىٰ أن السؤال وقع عن ذاته لا عن فعله .

الثاني : السؤال متىٰ كان مبهماً والجواب مفصلاً ، دل الجواب علىٰ أن المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعين ، فلما قال في الجواب : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ علمنا أن السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات ، ولقائل أيضاً أن يقول : بل السؤال كان علىٰ الفعل ، وهو أنه تعالىٰ هل يجيب دعاءهم ، وهل يحصل مقصود ، بدليل أنه لما قال : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ قال : ﴿ أُجِيبُ

(1) البقرة ، 186 .

دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ وهـٰذا يدلل علىٰ ظهوره ووضوحه وقربه ، أما قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنِّي قَـرِيبٌۖ ﴾ إنه ليس المراد من هـٰذا القريب بالجهة والمكان والظهور العياني المباشر ، بل المراد منه القرب بالعلم والحفظ ، فيحتاج ههنا إلىٰ بيان مطلبين :

الأول : في بيان أن هـٰذا القرب ليس قرباً بحسب المكان ، ويدل عليه أنه لو كان في المكان مشاراً إليه بالحس لكان منقسماً وهـٰذا محال علىٰ ٱلله تعالىٰ فهو الفرد الصمد والواحد الأحد ، إذ يمتنع أن يكون في الصغر والحجم مثل الجوهر الفرد الذي يشغل حيزاً مكانياً . ولو كان منقسماً لكانت ماهيته مفتقرة في تحققها إلىٰ تحقق كل واحد من أجزائها المفروضة وجزء الشيء غيره بمعنىٰ أنه لا يطابقه ولا يماثله ، فلو كان في مكان لكان مفتقراً إلىٰ غيره ليجعله في المكان ، والمفتقر إلىٰ غيره ممكن لذاته ومحدث ومفتقر إلىٰ الخالق ، وذلك في حق الخالق القديم محال ، فثبت أنه تعالىٰ يمتنع أن يكون في المكان فلا يكون قربه بالمكان ، فقد وسع كرسيه السمـٰوات والأرض فهو أعظم من المكان وأكبر من الحيز لذلك امتنع لأنه هو خالق المكان .

الثاني : أنه لو كان في المكان لكان إما أن يكون غير متناه عن جميع الجهات ، أو غير متناه عن جهة دون جهة ، أو كان متناهياً من كل الجوانب وهـٰذه إحاطة وحدود وهـٰذا يمتنع علىٰ ٱلله لأنه هو المحيط بكل شيء . والأول : محال لأن البراهين القاطعة دلت علىٰ أن فرض غير متناه في المكان محال والثاني : محال أيضاً لهـٰذا الوجه ، ولأنه لو كان أحد الجانبين متناهياً والآخر غير متناه لكانت حقيقة هـٰذا الجانب المتناهي مخالفة في الماهية لحقيقة ذلك الجانب الذي هو غير متناه وهـٰذا لا يقبله عاقل ، فيلزم منه كونه تعالىٰ مركباً من أجزاء مختلفة الطبائع وهـٰذه صفة المخلوقين وليست صفة الخالق ، ودليل أنه ظاهر في قربه بنفي الزمان والمكان ولا هو ظاهر في الكم ولا هو ظاهر في الكيف ، بدليل أن الأسئلة الأربعة عشر التي وردت في القرآن الكريم

كان الجواب فيها (قل) حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] فهـٰذه الآية ومثيلاتها التي أجاب القرآن الكريم عنها ليست بموضع قضاء الحاجة للعباد في الدعاء وإنما هي أسئلة واستفسارات إما من المسلمين عن أمور دينهم وإما من غير المسلمين لأجل الجدل الذي كان يصدر من اليهود والمشركين لتشكيك المسلمين في دينهم وعقيدتهم عندما سألوا عن ٱلله تعالىٰ وعن الروح وعن الساعة فكان ٱلله تعالىٰ يتنزل بالوحي علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيات التي تأمره بالإجابة (أي يا محمد قل) وذلك كثير في محكم التنزيل كقوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

فالله سبحانه ظاهر في قربه قريب في ظهوره ، ظهور قوة وظهور قرب وظهور علو ، فالله سبحانه فوق سمواته علىٰ عرشه ، وإن علوه سبحانه علىٰ سمواته من لوزام ذاته ، فلا يكون قط إلا عالياً ولا يكون فوقه شيء البتة وهو ظهور قوة وسلطان فهو الظاهر ليس فوقه شيء ، وهو سبحانه قريب في علوه ، عالٍ في قربه كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي موسىٰ الأشعري قال : كنا مع رسول ٱلله ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال : « كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَىٰ وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَىٰ جَدُّهُ » [3] فأخبر ﷺ وهو أعلم

---

(1) البقرة ، 189 .

(2) الأعراف ، 187 .

(3) صحيح البخاري ، ج 10 ، ص 169 .

الخلق به أنه أقرب إلىٰ المرء من حبل الوريد ، وهو فوق سمواته علىٰ عرشه ، مطلع علىٰ خلقه ، يرىٰ أعمالهم ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وهـٰذا حق لا يناقض أحدهما الآخر ، والذي يسهّل علينا ويقرب فهمنا معرفة عظمة ٱلله وإحاطته بخلقه أن السمـٰوات السبع وما أظلت والأرض وما أقلت كخردلة في يد العبد ، وأنه سبحانه يقبض السمـٰوات والأرض بيده لا تشبيهاً ولا تمثيلاً وإنما بقوة وقدرة الظاهر القاهر ، فكيف يستحيل في حق من هـٰذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه ، ويقرب من خلقه كيف شاء ، وهو علىٰ العرش سبحانه وتعالىٰ تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وهو الظاهر علىٰ كل شيء .

فهو سبحانه وتعالىٰ ظاهر في آيات ملكه وفي تكوين خلقه والظاهر هو الذي يظهر ما يشاء وإظهار الأشياء أو حدوث العالم لهو دليل علىٰ ظهور الظاهر ، ونفي الجسمية والمادية لا يستلزم نفي الصفات ، فالصفات الإلـٰهية لا تقوم علىٰ الحيز والمكان والجهة إذ ليس هناك تلازم بين إثبات الصفة والقول بالحيز والمكان ومن يقول بهـٰذا فقد جعل صفات الخالق كصفات المخلوق وهـٰذا لا يقول به عاقل ولا يستقيم له ، والذي يجب علىٰ العبد اعتقاده ويلزمه في ظاهره وباطنه اعتماده ما دلَّ عليه كتاب الله تعالىٰ ، وسنة رسوله ﷺ ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) فما من شك لأولي الألباب بأن ٱلله ظاهر لا كظهور الأجسام باطن لا كخفائها وعلىٰ العاقل أن يعتقد ويقرّ ويعترف بقلبه ولسانه أنّ اللّه واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، لا إلـٰه سواه ،

(1) الأعراف ، 143 .

ولا معبود إلا إياه ، ولا شريك له ، ولا نظير له ، ولا وزير له ، ولا ظهير له ، ولا سمي له ، ولا صاحبة له ، ولا ولد له . قديم أبدي أزلي ، أول من غير بداية ، وآخر من غير نهاية ، موصوف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والبقاء والبهاء والجمال والعظمة والجلال والمنّ والإفضال ، لا يعجزه شيء ، ولا يشبهه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، منزّه عن كل نقص وآفة ، مقدّس عن كل عيب وعاهة ، الخالق الرازق ، المحيي المميت ، الباعث الوارث ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الطالب الغالب ، المثيب المعاقب ، الغفور الشكور ، قَدَّر كلَّ شيء وقضاه ، وأبرمه وأمضاه ، من خير وشر ، ونفع وضر ، وطاعة وعصيان ، وعمد ونسيان ، وعطاء وحرمان ، لا يجري في ملكه ما لا يريد ، عدل في قضائه غير ظالم لبريته ، لا راد لأمره ولا معقّب لحكمه ، ربّ العالمين ، إلـٰه الأولين والآخرين ، مالك يوم الدين ، وإليه يرجع الأمر كله دقيقه وجليله ، وله عنت الوجوه تباركت أسماؤه وجلت صفاته : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] . نصفه بما وصف به نفسه في كتابه العظيم ، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ الكريم ، لا نجاوز ذلك ولا نزيد ، بل نقف عنده وننتهي إليه ، ولا ندخل فيه برأي ولا قياس ، لبعده عن الأشكال والأجناس ، ذلك من فضل الله علينا وعلىٰ الناس ، ولـٰكن أكثر الناس لا يشكرون ، وأنه سبحانه مستو علىٰ عرشه وفوق جميع خلقه كما أخبر في كتابه وعلىٰ ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام من غير تشبيه ولا تعطيل ، ولا تحريف ولا تأويل ، وكذلك كل ما جاء من الصفات نقره ونمضيه كما جاء من غير مزيد عليه ، ونؤمن بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، أنه من الله عز وجل لا معقب لما حكم ، ولا ناقض لما أبرم ، وأن أعمال العباد حسنها وسيئها خَلْقُ ٱلله عز وجل ،

(1) الشورىٰ ، 11 .

ومقدورة منه عليهم لا خالق لها سواه ، ولا مقدر لها إلا إياه ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنىٰ ، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، وأنه عدل في ذلك غير جائر ، لا يظلمهم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ، وقد جاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « اللهُمَّ رب السمٰوات السبع ورب الأرض ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوىٰ ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، اللهُمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر »[1]

ومن مراتب الاعتقاد بالظاهر هو الإحسان ، والإحسان نهاية الإخلاص . والإخلاص هو إيقاع العمل علىٰ أكمل وجوهه في الظاهر والباطن بحيث يكون قائماً به في الباطن والظاهر علىٰ أكمل الوجوه ، وهٰذا هو الإحسان ، ولذا يفسر بالإخلاص ، واشتقاقه من الحسن نهاية الإخلاص الناشئ عن حقيقة الاستحضار ، ومن حيث الظاهر كمال المتابعة . وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته ، فإنه من اتصف بذلك فإنه أكمل العمل في الظاهر والباطن . فالإحسان أعلىٰ المراتب وأعمها من جهة نفسها وأخصها من جهة أصحابها ، كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه ، فالاعتقاد بصفات ٱلله تعالىٰ شرط الإيمان ، فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي ٱلله عنه : أَنَّ رسول الله ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ : « الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ الله وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 239 .

الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ : الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَىٰ السَّاعَةُ ؟ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا اللَّهُ »(1) وقد أوردنا هـٰذا الحديث للدلالة علىٰ أن الاعتقاد بصفات ٱلله وأسمائه الحسنىٰ هي شرط من شروط الإيمان وإن لم تذكر صراحة ، غير أن الإيمان بالله يستوجب الإيمان بجميع صفاته ، فإن أنكرها منكر أو جحدها جاحد جملة أو تفصيلاً ، وجزئية أو كلية فقد شاب إيمانه الشوائب ، ذلك أن آيات الخلق تدل علىٰ صفات الخالق ، ولهـٰذا فكل ما يشهده العاقل من الحوادث آيات دالة بنفسها علىٰ الفاعل المحدث لها ، فكل محدَثٍ له محدِثٌ وهو دلالة علىٰ الخالق من حيث يعلم أنه لا يحدثها إلا هو ، وكما أن المحدثات لا بدَّ لها من محدِثٍ قادر عليم مريد حكيم ظاهر قاهر ، فالفعل يستلزم القدرة ، والإحكام يستلزم العلم والإرادة ، وحسن العاقبة يستلزم الحكمة ، والمطاوعة تستلزم الظهور والقهر ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(2) .

قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(3) هو الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، العليم ، وقد فسر الرسول ﷺ الأسماء الأربعة بقوله : « اللهُمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك

---

(1) صحيح البخاري ، ج 14 ، ص 453 .
(2) فصلت ، 9 ـ 11 .
(3) الحديد ، 3 .

شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء »[1] .

والظاهر والباطن بيان لإحاطته المكانية كما أن اسمه الظاهر يدل علىٰ أنه العالي فوق جميع خلقه ، فلاشيء منها فوقه ، فمدار هٰذه الأسماء الأربعة علىٰ الإحاطة ، فأحاطت أوليته وآخريّته بالأوائل والأواخر وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فاسمه الأول دال علىٰ أزليته ، واسمه الآخر دال علىٰ بقائه وأبديته ، واسمه الظاهر دال علىٰ علوه وعظمته ، والآية كلها في شأن إحاطة ٱلله بجميع خلقه من كل وجه ، لا يفوته منه شيء ، وهٰذا يدل علىٰ كمال عظمته وأنه لا نهاية لها ، وبيان إحاطته من كل وجه . ففي الأول والآخر إحاطته الزمانية ، وفي الظاهر والباطن إحاطته المكانية . ثم صرح بإحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العالم العلوي والسفلي ، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات ، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وهٰذا يشمل عالمي الغيب والشهادة ، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول ، وهٰذا لا يكون إلا لمن جلت صفاته وتجلت آياته ، فهو الظاهر والباطن عالم الغيب والشهادة الكبير المتعالِ ، وإن الاعتقاد بصفاته تعالىٰ من متممات الإيمان بالغيب ، عندئذ يكون هٰذا الإيمان هو ثمرة العقل الطبيعية لإزالة الحجب الساترة ، والوقوف علىٰ قوة الظاهر من خلال مظاهر القدرة والاطمئنان إليها ، ومع التقوىٰ والإيمان بالغيب ومن خلال التأمل بآيات ٱلله تعالىٰ يكون اليقين بظهور الظاهر وقدرته بلا تردد ولا تأرجح ولا شك في هٰذا اليقين .

والخلق يدرك أن ٱلله ظاهر في آياته جل شأنه ، ومن أعظم آيات ظهوره أنه نور علىٰ نور ، وهٰذا يعني أنه واضح جلي ساطع ظاهر لا يستطيع إنكاره أحد

---

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 239 .

ولا أن يغيّبه أحد ، قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (1) ، وإطفاء النار إذهاب لهبها الموجب لإذهاب نورها لا لإذهاب النار نفسها ، لـٰكن لما كان الغرض من إطفاء نار لا يراد بها إلا النور كالمصباح لإذهاب نوره جعل إطفاؤها عبارة عن مطلق إذهاب النور نفسه وإن كان لغير النار ، والمراد بنور ٱلله حجته تعالىٰ النيرة المشرقة الدالة علىٰ وحدانيته وظهوره من خلال آياته ومن خلال القرآن العظيم الصادع الصادح بنوره الظاهر ، ومن خلال نبوة محمد عليه الصلاة والسلام التي ظهرت صبحاً منيراً بعد أن استطال دُجىٰ الكفر ، ولـٰكن ٱلله غالب علىٰ أمره بظهور الهدىٰ من خلال نوره ، والمراد من إطفاء نور ٱلله الساطع الظاهر من قبل المشركين وأهل الكتاب هو الرد والتكذيب ، أي يريدون أن يردوا ما دل علىٰ توحيد ٱلله تعالىٰ وظهور نوره بأن يطفؤا هـٰذا النور بأفواههم ، أي بأقاويلهم الباطلة الخارجة عنهم من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند إليه ، وحال هـٰؤلاء في محاولة إبطال نبوته ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق ساطع ظاهر لا يقوىٰ عليه شيء ولا يقف بوجهه شيء ويكون قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ تحدياً في إتمام النور وزيادة في استنارته وفشو ضوئه وظهوره ، ونسبة النور إلىٰ ٱلله تعالىٰ العظيم الشأن دلالة علىٰ الظهور الذي لا يقوىٰ عليه شيء ولا يقف حياله شيء ، ومن شأن النور المضاف إليه سبحانه أن يكون عظيماً فكيف يطفئ المخلوق نور الخالق الذي جاء بالحق والتوحيد ليمحق الباطل والشرك ويظهر عليه ظهور حق وعدل وظهور انتقام وهم كارهون ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ (2) والظهور علىٰ هـٰؤلاء المشركين و المنافقين

(1) التوبة ، 32 .
(2) التوبة ، 48 .

ظهور أمر وإرادة وقوة ومشيئة ، حيث كانوا يمارسون الكيد والمكر وإثارة الفتنة وتنفير الناس عن قبول الدين حتىٰ جاء الحق وظهر أمر ٱلله علىٰ الرغم منهم ، والمراد بهـٰذا الظهور هو الإسلام و القرآن ودعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكذلك ظهر أمر ٱلله الذي كان كالمستور والمراد بأمر ٱلله الأسباب التي أظهرها ٱلله تعالىٰ وجعلها مؤثرة في قوة شرع محمد عليه الصلاة والسلام ، وهم لها كارهون أي وهم لمجيء هـٰذا الحق وظهور أمر ٱلله كارهون ، وفيه تنبيه علىٰ أنه لا أثر لمكرهم وكيدهم ومبالغتهم في إثارة الشر ، فإنهم منذ كانوا في طلب هـٰذا المكر والكيد ، والله تعالىٰ رده في نحرهم وقلب مرادهم وأتىٰ بضد مقصودهم ، فلما كان الأمر كذلك في الماضي ، فهـٰذا يكون في المستقبل لأن أمر ٱلله غالب أبداً ، ولما كان سر هـٰذا النور وروحه هو الظهور للإدراك ، وكان الإدراك موقوفاً علىٰ وجود النور وعلىٰ وجود البصيرة ، إذ النور هو الظاهر المظهر الذي يتجلىٰ للبصيرة ، وليس شيء من الأنوار ظاهراً لمن عمت بصيرته ولا مظهراً له آية ولا مقدماً له برهاناً ولا كاشفاً له حقيقة إذ أن الظاهر جل شأنه يُدرك بالروح والبصيرة والتأمل في آياته ، وبهـٰذا ترتقي الروح بالبصيرة إلىٰ النور الظاهر كونها ركناً لا بد منه لإدراك الظاهر ، لأن الروح ساعتئذٍ هي التي تكون الباصرة وهي المدركة وبها يكون الإدراك ، وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك ، بل عنده الإدراك ، فهو ظاهر بنوره مدرك لحقيقة خلقه وهـٰذا مصداق قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) وهي دعوة للتأمل والتبصر فيروا مصارعَ من أهلكهم اللهُ بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم الدارسة وقصورهم الخالية ، وجنانهم الخاوية وآبارهم المعطلة ، وديارهم المدمرة فيعتبرون ممن سبقهم من الأمم السالفة وكيف حق عليهم القول لما جحدوا آيات ٱلله بظهورها لهم وظهوره عز وجل

(1) الحج ، 46 .

في آياته ، وهو حث لهم ليشاهدوا ما حل بالظالمين ، وهـٰذه المشاهدة لا يكون النظر إليها بالعين الباصرة ، ولـٰكن إما عن طريق التأمل والتبصر ، وإما عن طريق الخبر بالسماع والاتعاظ بسبب ما وعته عقولهم وبصائرهم من مظان الاعتبار ومواطن الاستبصار لما يجب أن يُعقل من التوحيد والإيمان .

ومع ذلك فإن الظهور العياني ورؤية المشاهدة للذات الإلـٰهية بغير البصيرة أي بالعين الباصرة ممكنة وكل ممكنٍ يخرج عن الاستحالة وما خرج عن الاستحالة فهو واقع لا محالة ولـٰكنه يبقىٰ مجهول الزمان مجهول المكان ، وإن كان معلوماً بوقت غير محدد في الآخرة لا في الحياة الدنيا كما أخبر رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام من مشاهدة أهل الجنة لربهم وأنهم لم يعطوا نعمة أحب إليهم من النظر إليه جل جلاله ، ولـٰكن الظهور في الدنيا والتجلي للخلق مستحيل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

فظاهر الآية يستشف منه إمكانية الرؤية ، لأن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما جاء لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه لما أتىٰ طور سيناء . وفي القصة : أن ٱلله عز وجل أنزل ظلمة علىٰ سبعة فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه هوام الأرض ونحىٰ عنه الملكين وكشط له السماء ورأىٰ الملائكة قياماً في الهواء ورأىٰ العرش بارزاً وكلمه ٱلله وناجاه حتىٰ أسمعه ، وكان جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معه فلم يسمع ما كلمه ربه وأدناه حتىٰ سمع صرير القلم فاستحلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلام ربه واشتاق إلىٰ رؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ أرني نفسك أنظر إليك . وأعطني النظر إليك . فإن قيل : كيف سأل الرؤية وقد علم أن ٱلله تعالىٰ لا يُرىٰ في الدنيا ؟

(1) الأعراف ، 143 .

ولـٰكنه هاج به الشوق فسأل الرؤية ظناً منه أنه يجوز أن يُرىٰ في الدنيا قَالَ ٱللهُ تعالىٰ : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ وليس لبشر أن يطيق النظر إليَّ في الدنيا ومن نظر إلي في الدنيا مات ، فقال إلـٰهي سمعت كلامك فاشتقت إلىٰ النظر إليك [1] . الرؤية هنا مسببة عن النظر متأخرة عنه كما يريك ذلك النظر مثل قولنا : نظرت إليه فرأيته ، وأن النظر أصلاً هو تقليب الحدقة نحو الشيء التماساً لرؤيته ، والرؤية الإدراك بالباصرة بعد التقليب ، والمراد بالاراءة هنا ليس إيجاد الرؤية بل التمكن منها مطلقاً أو بالتجلي والظهور وهو مقدم علىٰ النظر وسبب له ، وإمكانية رؤية ٱلله وظهوره عياناً ممكنة عندما يأذن ٱلله لمن يريد ، لذلك لم ينكر موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ قومه بل قال : اتقوا ٱلله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [2] وكان سبب طلب قوم موسىٰ عليه الصلاة والسلام رؤية ٱلله تعالىٰ ظناً منهم أنه يظهر لهم وهو الظاهر الباطن ، « سمع القوم كلام ٱلله مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول له : افعل ولا تفعل ، فلما تم الكلام انكشف عن موسىٰ الغمام الذي دخل فيه فقال القوم بعد ذلك : لن نؤمن لك حتىٰ نرىٰ ٱلله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعاً وقام موسىٰ رافعاً يديه إلىٰ السماء يدعو ويقول : يا إلـٰهي اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم ، فأرجع إليهم وليس معي منهم واحد ، فما الذي يقولون فيّ ، فلم يزل موسىٰ مشتغلاً بالدعاء حتىٰ أحياهم ٱلله » [3] .

فالله جل شأنه وتقدست أسماؤه ظاهر لا بالتجسيم ولا بالتمثيل ولا بالتشبيه ، وإن جميع أسماء ٱلله الحسنىٰ هي صفات الذات الإلـٰهية الأزلية الأبدية المنعوتة بالكمال والجلال والإكرام فهو الأول والآخر والظاهر والباطن

---

(1) تفسير البغوي ، ج 3 ، ص 275 .
(2) البقرة ، 55 ـ 56 .
(3) تفسير الرازي ، ج 2 ، ص 112 .

أي الأول بوجوده والآخر بصفاته وأفعاله والظاهر بشهادته ومكوناته والباطن بغيبه ومعلوماته ، ثم التقديس عما لا يليق بكماله أو يشين بجماله من النقائص والرذائل ، ثم القدرة الشاملة للممكنات ثم العلم المحيط بجميع المخلوقات حتىٰ بدبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء وما هو أخفىٰ منه كهواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفايا السرائر ثم الإرادة بجميع الكائنات ثم السمع والبصر لا يحجب سمعه بُعد ولا رؤيته ظلام فيسمع من غير أصمخة وآذان ويبصر من غير حدقة وأجفان ، لبس ثوب العزة جلالة ومهابة فلا يحده المكان ولا يحتويه الزمان ، أما المكان فهو الفضاء الذي لا نهاية له ، والخلاء الذي لا غاية له ، وأما الزمان فهو الامتداد المتوهم الخارج من قعر ظلمات عالم الأزل إلىٰ ظلمات عالم الأبد لا بداية له ولا نهاية ، كأنه نهر خرج من قعر جبل الأزل وامتد حتىٰ دخل في قعر جبل الأبد فلا يعرف لانفجاره مبدأ ، ولا لاستقراره منزل [1] .

والظاهر علىٰ مستوىٰ الخليفة هو ما يظهر منه من قول وفعل وعمل ، والظاهر هو الذي يمكن التوقف عنده من أجل التعرف عليه . وليس كل ظاهر واضحاً ، بل معظم الظواهر تحتاج الىٰ توضيح ، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية ، والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن ، وبما ظهر عنه من أفعال ، أو أقوال ، أو إنتاج ، فالإنسان كقيم كامن في الإنسان كشكل ، والسلوك كتصرف ظاهر من الشكل ، أي ظاهر من الظاهر ، فالانحراف السلوكي علىٰ سبيل المثال هو خروج عن الكامن بالظاهر .

وعليه ، الإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة أو الملاحظة ، وعند قيامه بسلوك وأفعال يمكن التأكد منها سلباً أو إيجاباً ، وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة

---

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 255 .

للكامن ، ووسيلة للتعرف عليه . ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف علىٰ الكامن ، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر . ولهـٰذا يتم التعرف علىٰ الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بالكامن . فالسلوك كظاهر ، قد يكون أمام المشاهد سوياً ، أو مثالاً ، ولـٰكنه في الواقع ، غير ذلك ، فالأبناء كثيراً ما يكونون أمام أسرهم ، وخاصة الوالدين ، علىٰ خلق ، والتزام ، وأدب ، ولـٰكنهم في حقيقة الآمر قد يكونون علىٰ غير ذلك ، ففي خلفهم قد يقومون بأكبر الانحرافات السلوكية ، وعندما يتم إبلاغ الوالدين ، بأن أحد أبنائهما منحرف ، فإنهما قد يفوران رافضين وبغضب ، هـٰذا الإدعاء ، مع أنه الحقيقة ، ولذلك الحكم بالظاهر (المشاهد) علىٰ الظاهر (السلوك) قد لا يؤدي الىٰ الصواب ، والظاهر قد يكون شكلًا وصورةً ، وقد يكون قولاً ، أو سلوكاً ، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعىٰ في تقصي الحقائق . في العلوم الطبية ، والتحليل النفسي ، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر ، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة ، أو التشخيص ، أو العلاج ، لأن الحكم علىٰ الظاهر بمشاهدته ووصفه ، أو تحليله ، وكأنه غاية في حد ذاته ، قد لا يؤدي الىٰ نتائج علمية موضوعية ، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها ، والظاهر قد يكون مشاهداً ، وقد يكون محسوساً (ملموس) مثل ارتفاع حرارة المريض ، التي يمكن بالمس التعرف عليها ، وعند قياسها يمكن تحديدها ، ولـٰكن الذي يود أن يعرفه الطبيب ، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي أو يبحث عنه هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها ، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي الىٰ مريض مصفر الوجه ، هل يتوجه هـٰؤلاء الأخصائيون الىٰ معالجة الاصفرار ؟ أم الىٰ البحث عما يكمن وراءه من علل وأسباب ؟ بالتأكيد سيكون الاصفرار كظاهر مؤشر الىٰ البحث عن كامن ، لأن الاصفرار مسبب ، وبما أنه مسبب ، لابد وأن تكون له أسباب ، ومسببون له ، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرىٰ ظاهرة بعد التعرف عليها ، كأن يكون سبب الاصفرار هو

مرض عضوي مثل الكبد ، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة ، وقد يكون السبب غير ظاهر ، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان ، أو من نتائج مترتبة علىٰ ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدان أو المجتمع أو نتيجة تعرضه الىٰ مواقف قد تؤدي به الىٰ الهلاك وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها ، مثل الجندي في جبهة القتال ، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك ، دون أن يكون له رأي فيها ، أو حتىٰ وجهة نظر في ذلك .

وعليه فالظاهر هو ما ليس بكامنٍ مما يجعله خاضعاً للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر . ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحلل ظواهر من بعدها ، وهـٰكذا تحليل المعلومات وفق البيانات المشاهدة ، والملاحظة والمحسوسة ، سواء كانت سلوكاً ، أو شكلاً ، أو كماً ، أو فعلاً ؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه ، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحاً ، بل معظم الظواهر تحتاج إلىٰ توضيح ، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية . والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن ، وبما ظهر عنه من أفعال ، أو أقوال ، أو إنتاج ، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل ، وهـٰكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن .

الظاهر هو الذي لم يعد مخفياً عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيّناً للمعاملة والتعامل الموضوعي ، وهو الذي من وراء ظهوره غاية ، ما يجعله قابلاً للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية . الظاهر ما ليس بكامن ، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل ، فالنية ساكنة كامنة إلىٰ حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلىٰ الظهور في الفعل والسلوك . ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرىٰ محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر .

والظاهر والباطن صفة المكان ، فالحق سبحانه وسع المكان ظاهراً

وباطناً ، ووسع الزمان أولاً وآخراً ، وإذا كان مدبر المكان والزمان هو الحق تعالىٰ كان منزهاً عن المكان والزمان ، ومحيطاً بهما وظاهراً بإرادته وظاهراً علىٰ خلقه من أهل المعصية وظاهراً في خلقه من أهل طاعته ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (1) ، يدلل ٱلله سبحانه وتعالىٰ من خلال فعل الإرادة علىٰ ظهوره في هـٰذه الآية ، ظهور قوة وظهور قهر وظهور جلاء ، فالأشقياء من الخلق ظهر ٱلله تعالىٰ عليهم قهراً ، وظهر بهم إرادة ، أي ظهرت إرادته بهم كونهم في النار بدوام السمـٰوات والأرض ، وظهر فعله جلاء ووضوحاً فهو الظاهر في كل شيء وعلىٰ كل شيء وهـٰذا دوام وتأبيد ونفي انقطاع العذاب أبداً . فالنصوص القطعية دالة علىٰ تأبيد وجودهم فيها بظهور ٱلله تعالىٰ عليهم ، وهو ظهور نقمة علىٰ أهل النار الذين كانوا يسعون في الأرض فساداً ويحلون ما حرم ٱلله ويحرمون ما أحل فنالوا جزاءهم بظهور ٱلله تعالىٰ عليهم والانتقام منهم ، فكان ظهور نقمة بما كانوا يكسبون ، وأما ظهوره تعالىٰ ظهور نعمة فواضح علىٰ المستخلفين الذين فازوا بالجنة ونعيمها ، حيث لهم ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون ، فظهور ٱلله تعالىٰ علىٰ أولئك من أهل النار يختلف في ظهوره علىٰ هـٰؤلاء من أهل الجنة ، فالله سبحانه وتعالىٰ ظاهر بنعمته ونعيمه في جنان الخلد وما فيها من جزاء ونعيم لأهل طاعته ، من جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأنهار من عسل مصفىً وأزواج مطهرة وغلمان يطوفون عليهم فهـٰذا ظهور ٱلله تعالىٰ بنعمته لأهل الطاعة والتقوىٰ ، حيث يتجلىٰ لنا هـٰذا الظهور في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ

(1) هود ، 106ـ108 .

بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [1] .

والله سبحانه وتعالىٰ ظاهر في الدنيا للذين يتفكرون في آياته وخلقه مما يدب علىٰ الأرض وينبت منها ، ومما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وظهوره في نعمته في الآخرة أشد وضوحاً وأعظم برهاناً في إسباغ نعيمه علىٰ أهل الجنة حيث ذكر ابن أبي أسامة البغية جزء من نعمة الجزاء السابقين من أهل الجنة أن لكل واحد منهم من بعض جزائه ونستشهد بقول رسول ٱلله ﷺ : « إن أهل الجنة ينظرون إلىٰ ربهم في كل جمعة علىٰ كثيب من كافور لا يرىٰ طرفاه وفيه نهر جار حافتاه المسك عليه جوار يقرأن القرآن » [2] حيث أنهم لم يعطوا شيئاً من النعم أحب إليهم من النظر إلىٰ وجهه الكريم وهو المزيد (والمزيد النظر إلىٰ وجه ٱلله تعالىٰ بلا كيف) [3] وهـٰذا الظهور لا يستقيم معه الكم وينتفي عنه الكيف ، وإنما هو يتجلىٰ سبحانه وتعالىٰ في قوله : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [4] . وأمّا القول في ظهور ٱلله تعالىٰ ظهور نقمة وظهور نعمة في الآخرة فيتفق مع فطرة العقل السليم ، لأنه من كان لديه شيء من علم الفلك فسوف يطلع علىٰ هـٰذا الكون وما فيه من مليارات من مجرات كونية تحوي كل واحدة منها مليارات من الكواكب ، والكلام في علم الفلك هو جزء من الكلام في علم الإلـٰهيات الذي يبحث إثبات وجود ٱلله تعالىٰ وظهوره وقدرته ، ومن ثَمّ إثبات صفاته جل شأنه التي تقوم علىٰ التسليم ، ومن لم يسلم فإننا والحمد لله نستطيع أن ندحض أية حُجَّة تقول بمخالفة ما نعتقد ، لا علىٰ سبيل التعصب ، وإنما بالقول الحق والحجة الدامغة التي تستند إلىٰ الدليل المقنع إما عن طريق العقل والحواس وإما عن طريق الخبر المتصل بالسند الصحيح .

---

(1) ق ، 31ـ35 .
(2) القرطبي ، 18 ـ 118 .
(3) القرطبي ، 17 ـ 21 .
(4) الأنبياء ، 23 .

والخبر المتصل بالسند الصحيح المتواتر عجزت عن دحضه العقول ، واستسلمت له الأفهام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ (1) ، وحقيقة الروح التي هي مدار البدن الإنساني ومبدأ حياته وكل منا يحملها بين جنبيه فقد حارت في كنهها العقول وهـٰذا من أدق الأمور التي لا يسع أحد إنكارها ويتطلع كل إنسان إلىٰ معرفتها فقد كلّ عن إدراكها العقلاء وتصاغرت في فهمها الأذهان وتاهت فيها البصائر فكيف يحيا الإنسان بهـٰذه الروح ، وأين مكمنها أو مظهرها يا ترىٰ ؟ وما الذي يفارق جسده فيموت ، وأين تكمن بعد مفارقة الجسد ، أو إلىٰ أين ترحل ؟ بل أين كانت قبل دخولها فيه ، فهـٰذه التساؤلات تؤشر علىٰ ظهور ٱلله تعالىٰ في خلقه وآياته قال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (2) ، فالله تعالىٰ يظهر ظهور قدرة في خلقه من بني البشر وظهور قوة في بقية المخلوقات ، وأنّه وعدٌ ، فوعده الحق وقوله الصدق بأن يطلع الناس علىٰ شيء من خفايا هـٰذا الكون ومن خفايا أنفسهم علىٰ السواء . فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها ، وعن النظام الشمسي وما فيه ، وأن هـٰذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس ، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هـٰذا الكون الفسيح ، وعرف الناس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير ، وإن كل هـٰذه المعرفة و المعلومات والاكتشافات ما هي إلا ذرة من علم ٱلله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (3) . ومن ذا

(1) الإسراء ، 85 .

(2) فصلت ، 53 .

(3) الإسراء ، 85 ـ 87 .

الذي يعلم أمر هـٰذه الروح وهـٰذه النفس إلا الذي خلقها ؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هـٰذه الإنسانية إلا الذي برأها ؟ ومن ذا الذي يرىٰ الظاهر والباطن ، ولا يخفىٰ علىٰ علمه شيء إلا العليم الخبير ؟

إن صفة الظاهر خاصة وبقية الصفات الحسنىٰ لله تعالىٰ عامة ، ذات قيمة في الحياة الإنسانية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (1) أي : أظهروا ما عندكم من حجج إن كنتم صادقين أيها الكفرة المشركون ، ومن ثم كانت هـٰذه الصفة تمنح الإنسان أفقاً واسعاً في التأمل بقدرة ٱلله الذي ظهر في نفس الإنسان وفي خلق الإنسان بحيث نجد هناك تساوقاً وتناسقاً في صفة الظاهر بين الإنسان كخلق داخلي وبين نفسه كشكل خارجي وبين ما يقول ويفعل ، وهـٰذا التناسق هو الذي يؤلف منه وحدة متناسقة متكاملة من الشعور والإحساس والإدراك . بحيث يتولد في نفسه الدين الحق ، الذي يعبر عنه علماء الاجتماع بالضمير الذي هو ميزان الحق والعدل والحلال والحرام ، وحالة من الوجدان أي شعور مصحوب بالتأمل ، ويكون مدعاة للوصول إلىٰ الحقائق ، وباجتماع الضمير والوجدان ينبثق منهما اتجاهات وأعمال ؛ وتتوحد بهما المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ؛ وتصل الإنسان بالله في سره وجهره وترتقي بالروح لتخترق حجب الغيب وصولاً إلىٰ حقيقة الظاهر قدرما يستطيع العقل إدراك هـٰذا الظاهر جل شأنه .

إن علم الإلـٰهيات الذي يبحث في الموضوعات الغيبية (المتفيزيقيا) أي ما وراء الطبيعة القائم علىٰ الأدلة العقلية من خلال وجود الوقائع المدركة بالحس أو بالحدس الذي يدل علىٰ البديهيات مثلاً كشروق الشمس وغروبها والاتجاه الذي تشرق منه والاتجاه الذي تغرب إليه ، واختلاف الليل والنهار

---

(1) البقرة ، 111 .

وتعاقبهما ، أو بوجود الروح مع الإقرار بجهل حقيقتها بما لا يختلف عليه اثنان ، أو أن هـٰذه الأدلة كامنة خلف وجود المدلول ، بمعنىٰ وجود واجد واجب الوجود لوجودها ، وهـٰذا الواجد الذي هو واجب الوجود هو ظاهر بقدرته بما أوجد ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] ، فهـٰذه الموجودات التي خلقها سبحانه بهـٰذا الخلْق العظيم ، من أزواج علىٰ سُنّة الذكورة والأنوثة ، وخلق أنواع الكـائنـات الحيـة و ممـا تنبـت الأرض ومـن الأنفـس ، وخلـق مـا نعلـم وما لا نعلم ، وفيه الدليل الكبير علىٰ عظيم قدرته تعالىٰ وظهوره فيها .

فهـٰذا الليل الذي يزيل منه النهار ويضع الليل مكانه ، فهو من آيات ٱلله وبديع صُنعه في هـٰذا التعاقب ، فالليل يُسلخ من النهار والنهار يُسلخ من الليل ، نتيجةً لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلىٰ الشرق ، فتشرق الشمس علىٰ بعض الآفاق فيكون عندهم نهار ، وتغيب عن البعض الآخر بانتظام فيكون عندهم ليل . وإنها لظاهرة فلكية عظيمة الأهمية في حياة البشر وكافة الأحياء علىٰ هـٰذه الأرض ، وكذلك فهي تسير إلىٰ مستَقَرٍّ لها بقدرة ٱلله الظاهر عليها وعلىٰ غيرها من الخلق لمكان يعلمه لسبب ولسبب نجهله .

وكذلك سير القمر وتقديره في منازله ، ينزل في كل واحد منها كل ليلة ، إذ يبدو في أول الشهر هلالاً ضئيلاً ، ثم يزداد ليلة بعد ليلة الىٰ أن يكتمل بدراً ، ثم يأخذ في النقصان حتىٰ يعود ضئيلاً مثل عُرجون النخلة . ثم يستتر ليلتين ، أو ليلة إذا نقص الشهر فهـٰذا تقدير العزيز العليم ، فهـٰذا الخلق العجيب والنظام

(1) يس ، 36 ـ 40 .

الكوني الرهيب الذي ظهر فيه سبحانه وتعالىٰ بقدرته ، وظهر عليه بقهره وبسط سيطرته وانصياعه لما أمر له بإذعانه للقاهر الظاهر ، فلا الشمسُ يمكنها أن تخرج عن هـٰذا النظام البديع فتلحقَ بالقمر وبينهما مسافة هائلة ، ولا الليل يتأتىٰ له أن يغلب النهار ويحول دون مجيئه ، بل هما متعاقبان ، وكل من الشمس والقمر والكواكب والنجوم يسبحون في هـٰذا الكون الفسيح بنظام دقيق عجيب . إن الآية الكريمة استعرضت الآيات الكونية التي يمر عليها بعض المعرضين غافلين عن هـٰذا الظهور ؛ وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم وفي تاريخهم وهي بيان لقدرته تعالىٰ الباهرة في الزمان بعدما بينها سبحانه في المكان لما استدل ٱلله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي ، الذي لا يمكن لكائن حي أن يعيش خارج هـٰذين الحيّزين .

وبعد هـٰذا فإن من تمام الاعتقاد الحق والمنهج الصدق الذي يجب علينا اعتقاده ، ويلزمنا في ظاهره وباطنه اعتماده ما دل عليه كتاب ٱلله تعالىٰ ، وسنة رسوله ﷺ وذلك أن يعتقد العبد ويقر ويعترف بقلبه ولسانه أن ٱلله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ظاهر في آياته وملكوته ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (1) فقد خلق السمـٰوات والأرض و استولىٰ وظهر علىٰ العرش بقدرته وذل وخضع كل شيء لعظمته و هو خالق الكون ومبدعه ، خلق السمـٰوات والأرض في ستة أيام ، ثم استولىٰ علىٰ السلطان الكامل فيها ، وهو الذي يجعل الليل يستر النهار بظلامه ، ويعقب الليل النهار بانتظام وتعاقب مستمر كأنه يطلبه ، وخلق ٱلله سبحانه الشمس والقمر والنجوم ، وهي خاضعة

---

(1) الأعراف ، 54 .

لله تعالىٰ مُسَيَّرات بأمره ، لا إلـٰه سواه ، ولا معبود إلا إياه ، ولا شريك له ، ولا نظير له ، ولا صاحبة له ، ولا ولد له ، دلت عليه دلائل القدرة فتعدىٰ بظهوره حدود إدراكنا .

قديم أبدي أزلي ، أول من غير بداية ، وآخر من غير نهاية لا تحيط به الأبصار ، ولا تدرك كنهه تعالىٰ ٱلله عن ذلك علواً كبيراً ، عنت له الوجوه طوعاً وكرهاً : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (1) فالجاحدون اتخذوا آلهة من دون ٱلله ، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء ، ونحن نرىٰ كل من في هـٰذا الكون يخضعون لإرادته ويعنون لعظمته ، وفي هـٰذا تعميم لكل شيء ، فالله سبحانه يخضع لإرادته وعظمته كل من في السمـٰوات والأرض من أكْوان ومخلوقات وبشر وجن وملائكة طائعين أو كارهين ، حتىٰ ظلالهم من طول وقصر حسب أوقات النهار في الظهيرة وفي الأصيل خاضعة لأمر ٱلله ونهيه وهـٰذا هو الظهور المطلق لله تعالىٰ ، فهو موصوف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والبقاء والبهاء والجمال والعظمة والجلال والمن والإفضال ، لا يعجزه شيء ، ولا يشبهه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

(1) الرعد ، 15 ـ 16 .

أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [1] فهو وحده مالك الكون ومدبّره ، وله الحمد في الآخرة علىٰ جميل إحسانه ورحمته وهو الحكيم الخبير ببواطن الأمور وجميع ما يدور في هـٰذا الكون . إنه يعلم ما يدخل في جوف الأرض وما فيها من ماء وكنوز ومعادن وغير ذلك ، وما يخرج منها كالحيوان والنبات ومياه الآبار والعيون ، وما ينزل من السماء وما يصعد فيها ويرقىٰ إليها ، كالملائكة وأعمالِ العباد والأرواح والأبخرة والدخان وكل ما يطير ويحلّق في الأجواء لا تخفىٰ عليه صغيرة ولا كبيرة مما يحصل في هـٰذا الكون الواسع العجيب . وهو مع كثرة نِعمه وفضله ، واسع الرحمة عظيم الغفران وهـٰذا من عجائب الظهور وهو أنه غني عن العالمين مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وفاسقهم وغنيهم وفقيرهم ، لأنه منزه عن كل نقص وآفة ، مقدس عن كل عيب وعاهة ، الخالق الرازق ، المحي المميت ، الباعث الوارث ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن الذي وسع كل شيء علماً وإحاطة وظهوراً ، وهو جل شأنه الطالب الغالب ، المثيب المعاقب ، الغفور الشكور ، قدر كل شيء وقضاه ، وأبرمه وأمضاه ، من خير وشر ، ونفع وضر ، وطاعة وعصيان ، وعمد ونسيان ، وعطاء وحرمان ، لا يجري في ملكه ما لا يريد ، عدل في أقضيته غير ظالم لبريته ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، رب العالمين ، إلـٰه الأولين والآخرين ، مالك يوم الدين ، فلا نصفه إلا بما وصف به نفسه في كتابه العظيم ، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ الكريم ، لا نجاوز ذلك ولا نزيد ، بل نقف عنده وننتهي إليه ، ولا ندخل فيه برأي ولا قياس ، لبعده عن الأشكال والأجناس . ذلك من فضل ٱلله علينا وعلىٰ الناس ، ولـٰكن أكثر الناس لا يشكرون ولا يفقهون ، فهو الظاهر علىٰ خلقه ببسط سلطانه علىٰ جميع مخلوقاته ، وظاهر علىٰ الناس بخلقهم ورزقهم وموتهم وبعثهم ونشورهم : ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا

---

(1) سبأ ، 1 ـ 3 .

﴿كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [1] فالخطاب لجميع المخلوقات من الإنس والجن والملائكة والحيوان وكل ما دبَّ وطار وانساب ، فخلقهم جميعاً كخلق نفس واحدة لأن الأمر لا يتعلق بالآلة والصنعة والكيفية وإنما خلقها وبعثها في سهولة التأتي بالنسبة إليه عز وجل ، لا يشغله تعالىٰ شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل متعلق بإرادته تعالىٰ الواجبة أو قوله جل وعلا : كن فيكون ، وهٰذا لا يتوقف علىٰ آلة ومباشرة تقتضي التعاقب ليختلف عنده تعالىٰ الواحد والكثير كما يختلف ذلك عند العباد الذين هم بحاجة إلىٰ الوقت والعمل والآلة لإنجاز ما يريدون من الأعمال .

وأما ظهور ٱلله تعالىٰ بخليفته أو إظهار خليفته فأكثر من أن يحصىٰ حيث يمنح السلطان الظاهر لعباده ، ولا يكون من أولياء ٱلله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وما فعلوه من الإعانة علىٰ دفع الظلم ودحر الظالمين الذين يستحقون العقاب بقدر الذنب ويمنحهم القدرة والتمكن باطناً وظاهراً ، و ليس مستلزماً لولي ٱلله تعالىٰ وخليفته أن يكون متمكناً ذا سلطان دائماً وإنما قد يدخله في امتحان الصبر فقد يكون مستضعفاً إلىٰ أن ينصره ٱلله ، وقد يكون عدو ٱلله مستضعفاً وقد يكون سلطاناً إلىٰ أن ينتقم ٱلله منه ، وأما الغلبة فإن ٱلله قد يديل الكافرين علىٰ المؤمنين تارة كما يديل المؤمنين علىٰ الكافرين ، كما كان لأصحاب النبي ﷺ مع عدوهم ، لٰكن العاقبة للمتقين ، فإن ٱلله يقول : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [2] وإذا كان في المسلمين ضعف وكان العدو مستظهراً عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً ، وإما بعدوانهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً وقد نهىٰ ٱلله تعالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟

(1) لقمان ، 28 .
(2) غافر ، 51 .

يَقْتَرِفُونَ ﴾ [1] والإثم كل ما حرمه ٱلله ، و ظاهر الإثم ما تعلق بالجوارح من الأعمال ، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب ، كالكبر والحسد وتدبير المكايد الضارة بالناس ، فهنا يبرز واجب الخليفة الظاهر في إعادة الحق إلىٰ نصابه ، بأن يأمر من كان تحت ولايته بالمعروف وينهاهم عن المنكر لإقامة الحق والعدل بما أمر به ٱلله تعالىٰ .

ولا تقتصر صفة الظاهر علىٰ الذات الإلـٰهية وإنما يجب علىٰ الإنسان أن يأخذ بحظه منها ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً ، وهو ظهور نسبي إلىٰ قوة ٱلله وقدرته في الظهور المطلق ، ولـٰكن الذين يرثون الأرض من عباد ٱلله هم خلفاؤه في أرضه ، وليس كل إنسان يستطيع أن يخلف ٱلله في الأرض فالله يختار من عباده من يشاء ويمنحه من النعم ما يؤهله لذلك فتكون له القوة والقدرة لإقامة الخلافة و إعمار الأرض ، فالإنسان بشر ، إن لم يكن من المستخلفين ستكون بنيته متهافتة وطينته منتثرة ، وله عادة طالبة ، وحاجة هاتكة ، ونفس جموح ، وعين طموح ؛ وعقل طفيف ، ورأي ضعيف ، يهفو لأول ريح ، ولـٰكن الخليفة الذي أسبغ عليه ٱلله نعمه ظاهرة وباطنة يكون قد اتصف بالصفات التي تجعل منه خليفة وأولها ظهور التقوىٰ والطاعة لمن استخلفه في أرضه ، والتقوىٰ والطاعة من رواجح العقل ، وبذلك يصبح له سلطان علىٰ نفسه ، وقهر لشهواته ، وقمع الهوائج الدافعة نحو التهور بسيطرة الحلم وإجالة الرأي ، وقبول المناصحه ، والتهيؤ للمعضلات الجسام ، وتبوّؤ المكانة العالية علىٰ الأقران بما يمتاز عنهم من الصفات التي تتم بها سعادة من ولاه ٱلله أمرهم من العباد باستبصاره في طلب ما عند ٱلله من الرضا ويكون بذلك قد استنصف من هواه لعقله المرشد ، ومن دنياه لدينه ومن نفسه لربه ، فهو لا ينظر بمنظار الآخرين علىٰ أن الإنسان صغير الحجم ، ضعيف الحول ،

(1) الأنعام ، 120 .

لا يستطيع أن يجمع بين حظوظ بدنه وإدراك إرادته ، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه ، والقيام بوظائفه ، والثبات علىٰ حدود أمره ونهيه فيكون بذلك أهلاً للخلافة التي أمر بها ٱلله تعالىٰ ونذر نفسه لله حيث باع الدنيا واشترىٰ بها الآخرة ، لا كما يفعل بعض الناس بقولهم نعمل تارة لهـٰذه الدار وتارة لتلك الدار فهـٰذا المذبذب الذي لا هو من هـٰذه ولا من تلك ، فيكون كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [1] فقد أظهر ٱلله تعالىٰ الخليفة علىٰ هـٰؤلاء بافتضاحهم ، والخليفة يعلم أنهم يعملون من أجل أن يراهم الناس لا يؤمنون وهم مترددون لا يستقرون علىٰ حال .

إن المنافقين يحسبون أنهم يخدعون ٱلله ويخفون عنه حقيقة أمرهم ، وهو يكشف خداعهم لا محالة ، فيُمهلهم يرتعون في شرهم ونفاقهم ، ثم يحاسبهم علىٰ ما يفعلون . وإذا قام هـٰؤلاء المنافقون إلىٰ الصلاة قاموا متثاقلين بدون رغبة ولا إيمان . إنهم يخشون الناس فيوهمونهم أنهم مؤمنون ، كما يعملون الأعمال الطيبة لمجرد الرياء ، حتىٰ يراهم المؤمنون فيظنون أنهم منهم . وهم لا يذكرون ٱلله إلا نادراً ، ويظلّون مذبذبين تارة مع المؤمنين وتارة مع الكافرين ، لأنهم طلاب منافع ، ومن قضت سُنته تعالىٰ أن يكون ضالاً عن الحق ، فلن تجد له سبيلاً للهداية .

لذلك فإن ٱلله تعالىٰ أظهر الخليفة عليهم وأبداهم له ، وهـٰذا الظهور ، هو ظهور علم بما أعلمه ٱلله من أمر هـٰؤلاء ، فالخليفة ظاهر علىٰ أعداء ٱلله بما أوتي من العلم الذي أظهره ٱلله له ليأمن شرهم ومكائدهم ، وظهور العلم من ٱلله لأنبيائه وأوليائه وخلفائه إنما هو تأييد بالقوة والظهور في استبانة الرأي

(1) النساء ، 142 ـ 143 .

والقول الصائب بما كشف ٱلله له من بصيرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [1] ورب قائل يقول : إن يعقوب عليه الصلاة والسلام : علىٰ الرغم من تحذيره لأبنائه ودعوته لهم بأن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفاً عليهم فقد وقع لهم ما يكرهون ، وهٰذا لا يتعارض مع ظهور الخليفة بعلمه ، إذ أنه من باب وقوع المتوقع ، ويمكن أن نقرب الفكرة بشكل أبسط من هٰذا حيث نجد الآباء والأمهات يحرضون أبناءهم ويشجعونهم علىٰ القتال والجهاد في سبيل ٱلله والدفاع عن الوطن والأرض والعرض ، فهم بهٰذا يدفعونهم إلىٰ موت يعلمون أنه محقق ، ومع ذلك يوصونهم بالانتباه والحذر وأخذ الحيطة لأنفسهم فهٰذا من باب وقوع المتوقع والقضاء الذي لا مردّ له من أمر ٱلله ، ومن هٰذا يتضح لنا أن ظهور الخليفة ظهوراً علمياً إنما هو منفعة للبلاد والعباد ، حتىٰ وإن لحق المجتمع بعض الضرر فإنما ظهور الخليفة بعلمه يكون قد اختار أقل الضررين كما فعل عمر رضي ٱلله عنه عندما عطل بعض الحدود في عام الرمادة حيث أصاب الناس قحط شديد وكان هٰذا العمل لدرء أشد الضررين عن الناس ، فكان ظاهراً بعلمه علىٰ الرغم من اعتراض البعض في البداية حتىٰ اتضح لهم صواب رأيه وسلموا بظهور علمه ورأيه علىٰ ما كانوا يعتقدون خلافه في اتخاذ هٰذا القرار .

إن ظهور الخلفاء هو أمر قضاه ٱلله في علمه ليتم أمره ، فالخلفاء بظهورهم علىٰ بقية الخلق يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم ، وهم الكرام الذين يتسعون في أحوالهم ، ويوسعون علىٰ غيرهم من سعتهم ، و يهتمون بذخائر الشكر المعجل في الدنيا ، ويحرصون علىٰ ودائع الأجر المؤجل في الآخرة ؛ ويتلذذون بالثناء ، ويهتزون للدعاء ، وتملكهم الأريحية

(1) يوسف ، 68 .

عند مسألة المحتاج ، وتعتريهم الهزة معها والابتهاج ، وذلك لعشقهم الثناء الباقي ، والصنيع الواقي ، ويرون الغنيمة في الغرامة ، والربح في البذل ، والحظ في الإيثار ، والزيادة في النقص ، أي نقص أموالهم بما ينفقون هو زيادة في أجرهم بما وعدهم ٱلله من جزيل العطاء في الدنيا والآخرة ، والله يضاعف لمن يشاء من عباده ، فالخليفة يدرك ذلك لأنه اكتسب صفة الظاهر النسبية من الظاهر مطلقاً فالله يخلف عليه ويضاعف له الأجر والثواب ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (1) ولا يقتصر ظهور الخليفة علىٰ جانب دون آخر ولـٰكنه أيضاً يصل إلىٰ صفة الكمال النسبية علىٰ مستوىٰ البشر ، وكما أنه ظاهر العلم والمعرفة ، فهو أيضاً ظاهر التقوىٰ والإيمان والورع ، فإن أنبياء ٱلله وأولياءه وخلفاءه هم أشد الناس تقوىٰ وأعظمهم إيماناً وأكثرهم ورعاً لله ومهابة منه ، لذلك كانوا أكرم الخلق علىٰ ٱلله ، إذا سألوا أعطاهم وإذا دعوا أجابهم ، فهـٰذا زكريا عليه الصلاة والسلام بعد أن بلغ من العمر عتياً وامرأته عاقر يرزقه ٱلله بالذرية الطيبة الصالحة قال تعالىٰ : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (2) ، فعندما سمع زكريا عليه الصلاة والسلام هـٰذه البشرىٰ

---

(1) البقرة ، 261 ـ 263 .

(2) آل عمران ، 38 ـ 41 .

استبعد أن يكون له ولد وهو عجوز طاعن في السن وامرأته عقيم لا تلد ، فردّ عليه ٱلله بأنه متىٰ شاء أمراً أوجَدَ له سببه . فدعا زكريا ربه أن يجعل له علامة لتحقُّق هـٰذه البشرىٰ ، وكانت علامة ذلك أن لا يقدر علىٰ كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، ومع ذلك فقد ظل يذكر ٱلله ويسبّحه أثناء تلك الأيام الثلاثة اتجه إلىٰ ٱلله ضارعاً أن يهبه من فضله وكرمه وبقدرته ولداً ، فهو يسمع دعاء الضارعين ، وهو القدير علىٰ الإجابة وإن وقفت الأسباب العادية من شيخوخة أو عقم دون تحقيقها .

فاستجاب ٱلله دعاءه « فنادته الملائكة وهو قائم في معبده متجهاً إلىٰ ربه ، بأن ٱلله يبشرك بولد اسمه يحيىٰ ، يؤمن بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي سيوجد بكلمة من ٱلله فيكون علىٰ غير السُّنَّة العامة في التوالد ، ويجعله أي يحيىٰ يسود قومه بالعلم والصلاة ، يعزف عن الشهوات والأهواء ، ويجعله من الأنبياء والصالحين . ولما سيقت إليه هـٰذه البشرىٰ ، اتجه إلىٰ ربه متشوقاً إلىٰ معرفة الكيفية التي يكون بها هـٰذا الغلام ، مع عدم توافر الأسباب العادية لكبر سنه وعقم زوجه ، ورد ٱلله عليه بأنه متىٰ شاء أمراً أوجد له سببه ، أو خلقه بغير الأسباب المعروفة . فهو يفعل ما يشاء . فدعا زكريا ربه أن يجعل له علامة لتحقق هـٰذه البشرىٰ ، فأجابه ٱلله بأن علامتك أن تعجز عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة إليهم بما تريد ، وثابر علىٰ ذكر ربك وتنزيهه في المساء والصباح » (1) .

فهـٰذه الأدلة الواضحة علىٰ تمكن الخليفة عندما يتحلىٰ بالتقوىٰ وإقامة العبادات والحدود والفرائض فيكون ظاهراً بعبادته وظاهراً علىٰ أعدائه ،لذلك فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ خاطب أولياءه وخلفاءه بخطاب رقيق فيه من التودد واللطف والرقة ما يدلل علىٰ قربه منهم وتكفله بأن يظهروا علىٰ من عاداهم وأن

(1) التحرير والتنوير ، ج1 ، ص 91 .

ينصرهم ويظهرهم ويظهر أمرهم وذلك بسبب طاعتهم وتقواهم وعبادتهم وقربهم إلىٰ ٱلله ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [1] إنما ولايتكم أيها المؤمنون لله ورسوله ومن ولاه ٱلله أمركم من خلفائه القائمين بأمره ، فلا ناصر ينصركم غيره والمؤمنون الصادقون هم الذين يقيمون الصلاة ويحسنون أداءها ، ويؤدون الزكاة وهم خاضعون لله ظاهرون علىٰ أعدائه ومن يتخذ ٱلله ورسوله والمؤمنين وأولياءه ذخراً وسنداً فإنه يكون قد استمسك بالعروة الوثقىٰ فهم المنتصرون الفائزون الغالبون ، لذلك كان من أوليات واجب الخليفة إقامة العبادات والابتعاد بالرعية عن مصارع السوء باصطناع المعروف لأن ٱلله يحب الجود ومكارم الأخلاق ، ولذا فالخليفة يعمر الأرض ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق ، وهٰكذا يستخلف الخليفة بالطاعة والهداية .

قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [2] فالله تعالىٰ لما أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يبلغ هٰذه الرسالة إلىٰ الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها ، إلا لمن خصه ٱلله تعالىٰ بوجوه التوفيق والكرامة ، بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف ، وهو أن هٰذا الرسول منكم ، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم . وأيضاً فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم ، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم ، والطبيب المشفق ربما أقدم علىٰ علاجات صعبة يعسر تحملها ، والأب الرحيم ربما أقدم علىٰ تأديبات شاقة ، إلا أنه

---

(1) المائدة ، 55 ـ 56 .

(2) التوبة ، 128 .

لما عرف أن الطبيب حاذق ، وأن الأب مشفق ، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة ، وصارت تلك التأديبات جارية مجرىٰ الإحسان . فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند ٱلله ، فاقبلوا منه هـٰذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير ، ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو القدوة والأسوة الحسنة للمسلمين فقد وجب عليهم اتباعه والتخلق بأخلاقه والسير علىٰ نهجه وإن أولىٰ الناس بهـٰذا لهو الخليفة الذي يخلف ٱلله في أرضه ويسوس عباده ويعمر أرضه ويقيم شعائره ويظهر دينه فهو بهـٰذا يكون ظاهراً بإيمانه وأخلاقه ودينه وقدوة للمؤمنين وهو رؤوف رحيم بهم يوردهم موارد الخير وينأىٰ بهم عن المهالك ويرتّعهم مراتع الأمن والطمأنينة ويعمهم بخير الدنيا والآخرة ، وصولاً إلىٰ النعمة الظاهرة عليهم ، وما أعطي أحد من نعمة مثل ما أعطي الرسل وقد خصَّ رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام بما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [(1)] ورُوِيَ عن عائشة أنها قالت هو نهر في الجنة ، وعن أنس قال بينما رسول ٱلله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفىٰ إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول ٱلله قال أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ ثم قال أتدرون ما الكوثر فقلنا ٱلله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول ما تدري ما أحدثت بعدك [(2)] .

إن نعمة الظهور التي رُزقها محمد عليه الصلاة والسلام لم تؤتَ لأحد من قبله ولا من بعده ويكفي أن حوضه الكوثر جعله ظاهراً علىٰ جميع الخلق ،

---

(1) الكوثر ، 1 .

(2) صحيح مسلم ، ج 2 ، ص 364 .

وأما في الحياة الدنيا فظهوره بالنبوة والرسالة والفتوح التي فتحها ٱلله عليه من نشر هـٰذا الدين وإسلام الناس علىٰ يديه .

وأما الخليفة فهو ظاهر بالنعمة علىٰ العباد وهو قدوتهم ، وظهوره بنعمة الهدىٰ التي يدعو بها إلىٰ الدين الحق وإقامة ما أمر به ٱلله تعالىٰ من العبادات والحدود والفرائض ، ثم إن الخليفة ظاهر النعمة في عقله الذي يسوس به الناس ، وحزمه الذي يكون الحارس الأمين ، وظاهر في نعمة الدين القويم والطريق المستقيم ، واستدامة هـٰذه النعمة ودوام ظهورها متواترة تكون أيضاً بنعمة الشكر ، أما غير الخليفة فإن هدم النعمة وزوالها عنه أيسر بكثير من بنائها والمحافظة عليها لأنه لم يصل إلىٰ درجة الخلافة ، فهو لا يعرف موجباتها ، ولم يرتقِ لأن يكون أهلاً لأن يجمع شروط الخلافة .

والخليفة ظاهر بنعمة العلم والمعرفة في وضوح البيان وطلاقة اللسان وصدق النية والعمل ، ومن ظهور النعمة علىٰ الخليفة أو أنه ظاهر بالنعمة ، أنه يعرف سبل الناس ومصالحهم ، وإن جهلوا فضل ما يقدم إليهم من الإحسان ، ويعلم مضارهم فيبتعد بهم عنها ، ويعلم منافعهم فيأخذ بأيديهم إليها ، فلذلك يحتمل ثقل تقويمهم وإرشادهم ، وإن أنكروا فضل ما يسدي إليهم من معروف ، لـٰكن الخليفة يعلم أنه مكلف بهـٰذه الخلافة وإقامتها ، فهو ظاهر بحلمه وعقله يتجاوز كل ما يصدر عن الرعية لأنه خليفة ٱلله في الأرض فهو ممتثل لأمر ٱلله عز وجل .

الظاهر جل جلاله قابل للمشاهدة والملاحظة من حيث الآتي :

أولاً : المشاهدة :

الظاهر يشاهد بآياته العظام الظاهرة من حركة وسكون وزمان ، ومن إيجاده للشيء وتوليد الأشياء منه ، فهو في الشمس ظاهر مثلما في القمر ظاهر ، ولهـٰذا فهو الظاهر بالقوة والقدرة في كل ثابت ومتحرك ، وهو الظاهر

في كل مشاهد يسبح باسمه تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [1] . والخليفة هو المؤمن الحق بالحق فلا يعصي له أمراً ، وهو الذي يتبع هداه وكما يقول يفعل ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [2] هـٰؤلاء هم الكفرة والمنافقون الذين يقولون مالا يفعلون وفي ذلك يكون للخليفة الاختلاف والخلاف معهم بالطاعة التامة والالتزام بطاعة الأمر الذي أمر به الظاهر عز وجل ، ولأبين الظاهر القابل للمشاهدة أقول : إن المشاهدة هي : الوقوف عن كثب علىٰ الشيء المراد رؤيته ، بالاقتصار علىٰ العين في مشاهدة الأشكال والأفعال والصور ، وتُمكّن الخليفة من الوصف لما يشاهده ، وتمكنه من الاستفادة منه بالتسخير والتصنيع والتطوير .

وتوجد علاقة ترابط بين المشاهدة والملاحظة تتمثل في أنَّ الملاحظة عميقة وواسعة ، وتحتوي علىٰ الاستنتاج العقلي ، أما المشاهدة فتحتوي علىٰ المعاينة بالعين للشيء ، وذلك عن طريق تفحّصه ككل وكجزء بنظرة نافذة . أي أن المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكال والصور والأجسام ، وحركتها والتعرف علىٰ مكوِّنها (الأجزاء المتكونة منها) بالتعرف علىٰ كل ما يمكن تصويره أو رسمه أو أنه في حالة حركة وامتداد .

عليه قد تكون المشاهدة وسيلة هامة للملاحظة ، فمن مشاهدة جماعة نشاط فني حر من أجل دراسة اتجاهاتهم قد نجد أن أحد الأفراد يرسم وردة أو زهرة أو غزالة ، ونجد آخر يرسم رجلاً علىٰ صدره أو علىٰ إحدىٰ ذراعيه إخطبوط ، ونجد ثالثاً يرسم فتىً وفتاة بينهما مودة ، أو يرسم قلباً في وسطه

---

(1) الإسراء ، 44 .
(2) الأعراف ، 33 .

فتاة ، أو سيارة يركبها عريس وعروس . هٰذه مشاهدات يمكن أن يلحظ من خلالها ، أن الأول يحب الجمال ويلحظ عليه أيضاً الانشراح والمرونة والحياة المبتهجة ، وهو مبتسم غير عبوس ، ويلحظ علىٰ الثاني الاتجاه الإجرامي والانحرافي وعدم احترام الآخرين ، ويلحظ علىٰ الثالث أن له حبيبة وقد يكون راغباً في زواجها وهي مركز اهتمامه . هٰذه الاتجاهات الثلاث قد يتم التعرف عليها من الملاحظة وبواسطة المشاهدة . ويلحظ أيضاً العمق في كل حالة من الحالات الفردية السابقة ، والتي ظهرت أمامنا من البداية كمشاهدات محدودة ، وإذا شاهدنا مباراة لكرة القدم ، نشاهد أمامنا جماعتين في وسط الملعب بنوعين من الملابس الرياضية ، ومرميين للتهديف ، بوسطهما حارسين وجمهوراً متحمساً ، ونشاهد حركة اللاعبين وحركة تسجيل الأهداف . هٰذه المشاهدات التي تترتب عليها الملاحظات ، والتي تُمكّن الخليفة الملاحظ من معرفة درجة التعاون بين اللاعبين ، والمهارات الفنية لهم ولياقاتهم وقدرات تحمّلهم ، وعلاقتهم بالجمهور وإصرارهم علىٰ الفوز ، ويلحظ أيضاً علامات الهزيمة ، والفوز أو الإحباط في نهاية المباراة علىٰ أفراد الفريقين والمشجعين والمدربين حسب النتيجة لكل فريق .

تعتمد المشاهدة علىٰ ما تراه العين ، ولٰكن ليس كل ما تراه العين هو حقيقة ، وذلك لأن الظاهر قد لا يكون الباطن ، وبالنسبة للظاهر المطلق فلا يُرىٰ مباشرة ولٰكنه يُرىٰ في آياته العظام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) . ولهٰذا فالاعتماد علىٰ المشاهدة في القضايا العلمية ، مسألة غير يقينية فيصعب التسليم بمصداقيتها

(1) الأعراف ، 143 .

قال تعالىٰ : ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ (1) . فمن مشاهدة سلوكهم قد تعتقد أنهم في حالة سكر ، ولـٰكن بملاحظتهم عن قرب ، قد لا يكونون سكارىٰ مع أن حركتهم فيها شبه من هـٰذا الأمر . ولذا فإن الاعتماد علىٰ العين في المقارنات العلمية غير كافٍ ، وليس دقيقاً ، لأن إجماع الناس علىٰ حكم معين بمثل هـٰذه الوسيلة غير ممكن . مما يستوجب استعمال وسيلة الملاحظة والمقابلة في عمليات الدراسة ، سواء في جمع المعلومات أو التحليل أو التشخيص أو العلاج الذي يُمكّن الأفراد والجماعات من أداء واجباتهم الاجتماعية وفق ما لهم من حقوق ، وما عليهم من مسؤوليات تفادياً لعيوب المشاهدات ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (2) . وأيضاً قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (3) . فمن خلال المشاهدة كان يعتقد القمر هو الرب ولما غاب لاحظ أنه يفتقد لصفة الرب الواحد (الله عزَّ وجل) وهي خاصيّة البقاء دون غياب بوحدانية الثبات ، واعتقد مرة أخرىٰ بأن الشمس هي الرب فلما غابت عن المشاهدة في الليل ، لاحظ أنها تغيب وهـٰذه الصفة لم تكن من صفات ٱلله عز وجل وذلك لانعدام خاصية البقاء ، لأنه الحي الذي لا يغيب ، ويرىٰ الناس وأفعالهم ، وما تخفيه وتظهره صدورهم .

لذلك ترتبط الملاحظة بالموضوع ولا تنفصل عنه ، لأنها إذا انفصلت عنه تصبح غير علمية وبدون معنىً محدد لها . فإذا افترضنا أن الموضوع هو : مدىٰ تمسك سكان مدينة من المدن العربية بارتداء الزي (الملبس) الوطني ، فإن ذلك يستوجب علىٰ المشاهد الموضوعي ملاحظة ومشاهدة سكان المدينة في

---

(1) الحج ، 2 .
(2) الأنعام ، 77 .
(3) الأنعام ، 78 .

أمـاكـن مختلفـة وأوقـات مختلفـة ، وقـت العمـل وأمـاكنـه وفـي المـدارس والجامعات والمناسبات الدينية والأعياد الوطنية والأعراس وحفلات الختان والمآتم وفي الشوارع العامة وأيام العطلات وأماكن الترفيه . فإذا ذهب الخليفة إلىٰ المصيف البلدي وشاهد المصطافين بدون زيهم الوطني فهـٰذا لا يعني عدم تمسكهم به ، ولـٰكنه يعني أن طبيعة المكان لا تستوجب لبس أو ارتداء الزي الوطني ، بل إنه لو شاهد أحد المواطنين يرتديه وهو مع المصطافين علىٰ الشاطئ يلحظ عليه إخلالاً بالذوق العام ، وعدم احترام الزي الوطني ، وإذا شاهد أحد أساتذة الجامعة يرتدي ملابس البحر القصيرة وهو في الفصل الدراسي أو المدرجات الجامعية في البلدان الإسلامية ، فإنه يلحظ عدم احترام الأستاذ للمكان الجامعي ولطلبة الجامعة والذوق العام ، وتختلف المشاهدة عن الملاحظة في المثالين السابقين ، الملابس تشاهد وتميّز ، أما الاحترام والتقيد بالذوق العام يلحظ ولا يشاهد . وإذا ذهب أحد إلىٰ مأتم وشاهد امرأة ترتدي ملابس عروس ، يلحظ أنها خارجة عن الموضوع ، لأنها لم تتقيد بالظرف الزماني والمكاني للزي الذي ترتديه ، ولم تحترم المناسبة وشعور الآخرين ، وإذا شاهد بعض الأفراد يسبحون بالزي الوطني بالمصيف العام يلحظ عليهم عدم احترامهم للزي الوطني الذي يجب ألا تقدم له الإهانات .

ولا تقتصر الملاحظة علىٰ الصور والأشكال بل تتعداها إلىٰ المعاني والألفاظ ، وما يحاول أن يخفيه أو يظهره البعض ، إن التناقض في الحديث والتلعثم والخجل والتظاهر بالبراءة والتظاهر بالخوف والخوف الحقيقي والمحبة والتظاهر بالمحبة والانطواء والاكتئاب والتشاؤم ومحاولة إنكار الانفعال والغضب ، وإظهار الفرح والمرح كل هـٰذا لا يمكن مشاهدته ، ولـٰكن من الممكن ملاحظته . المشاهدة تقتصر علىٰ رؤية المنبسط فرحة ، أو الباكي حزناً ، ولهـٰذا فالباكي يشاهد ، والبكاء يلحظ ، وكذلك الفرحان يشاهد ، والمفرح يلحظ .

وعليه ليس كل ما يلحظ يشاهد ، ولٰكن كل ما يشاهد يمكن أن يلحظ . إن قوة العلاقات بين أفراد الأسرة أو الأمة لا يمكن مشاهدتها ، ولٰكن بالإمكان ملاحظتها ، ممارسة الحرية لا يمكن مشاهدتها ، ولٰكن من الممكن ملاحظتها من خلال مشاهدة سلوك وأفعال الممارسين لها ، ولذا مع أن للحرية أساليب لممارستها في سلوك عن طريق اللجان والمؤتمرات والبرلمانات والجمعيات ، والتنظيم الاقتصادي من خلال الملكية العامة والخاصة ، وديناميكية الإنتاج التي يمكن مشاهدتها كتعابير عن الحرية ؛ إلا أن التعابير المعلن عنها من قبل الحكومات من خلال المشاهدة قد لا تعبر عن مصادق ، ومن خلال الملاحظة قد يثبت عكس ما يقال أو يكتب ، فعن طريقها قد تكون الحقيقة أن الدولة التي تدعي ممارسة الحرية عن طريق جلسات المجالس والبرلمانات التي يمكن مشاهدتها بالنقل المباشر من خلال شاشات الإذاعة المرئية وشبكات الانترنيت ، يلحظ أنها نظام كبحي أو سلفي أو طبقي أو قبلي .

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لإثبات الحقائق والمصادق ، وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة إلىٰ جانب توليد المشاهدات ، فالعمليات العقلية هي : تلك التساؤلات والافتراضات أو الانتقادات والتوقعات ، وكيفية تفادي المواقف ، وكيفية اختيار الأساليب ومراعاة الظروف المناسبة . أي أنها الحوار الذي يتم بين الفرد ونفسه ، والمبادئ العلمية حول الموضوع والأهداف مع مراعاة الفرد أو الجماعة أو المجتمع قيد المشاهدة والملاحظة ، والأساليب الدفاعية التي قد تحول دون الملاحظة أو تعرقلها ، أما توليد المشاهدات فهو : الانتقال من المشاهد إلىٰ الأسرار التي وراءه والعلاقات المكونة لعناصره ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ (1) . إنه أمر لمشاهدة

(1) يونس ، 101 .

آياته في السماء وهي الظاهر من النجوم والكواكب من خلال النظر إليها ، ويمكن مشاهدة حركتها وضوئها الجميل ، وبالمشاهدة يلحظ أن هناك علاقة ، وأن هناك قدرة وراءها ، وأنها علامات يمكن الاهتداء بها في تحديد الاتجاهات ليلاً ونهاراً وفي البر والبحر ، وهـٰذه مشاهدات تولَّدت من خلال الملاحظة والمشاهدة ، وهـٰكذا تتولد المشاهدة من المشاهدة ، وتتولد الملاحظة من الملاحظة ، فمن مشاهدة الشمس يشاهد الشروق والغروب ، ومن مشاهدة القمر يشاهد الشمال والجنوب ، ومن مشاهدة الجبال والمخلوقات يلحظ أن من ورائها خالق ، وهـٰكذا تتولد الفكرة من الفكرة لنلحظ أو نشاهد ما يترتب علىٰ الفكرة وتوليدها .

تعتبر الملاحظة والمشاهدة أحياناً أداتين هامتين لوسيلة المقابلة . لأنه من خلال المقابلة يمكن مشاهدة المشاهد وتصرفاته ، ويمكن ملاحظة ردود أفعاله علىٰ الأسئلة المطروحة عليه من قبل طارح الأسئلة .

وفي كثير من الأحيان تضع المشاهدة المشاهد في حالة شك ، حيث خدعة الحواس ، مما يجعل الشك في بعض المسموع ، وبعض المشاهد ، فسلامة البصر وقوته ليست واحدة ، وبالتالي يجب أن لا يثق المشاهِد في كل ما يقوله المشاهَد سواء كان فرداً أو جماعة . ولأن المشاهدة ترتبط بالظاهر سلوكاً وحركة ومتحركاً ، فلا ينبغي أن يعتمد عليها في إصدار الأحكام . خاصة أثناء إجراء المقابلات مع أصحاب الحالات الشاذة أو الانحرافية . فعلىٰ سبيل المثال مشاهدة الأخصائي الاجتماعي للمبحوث وهو يبكي أثناء المقابلة ، فمن خلال الملاحظة يمكن إثبات أن هـٰذا البكاء ليس علىٰ صدقٍ ، ولـٰكنه لاستدرار عطف الأخصائي الاجتماعي ، نتيجة الحيل الدفاعية للمبحوث وذكائه في التأثير علىٰ الأخصائي الاجتماعي وتمييع الموضوع . كما أن مشاهدة المتسولين وهم في ثياب رثة بالية قد تظهر للوهلة الأولىٰ ظروفهم المعوزَّة ، ولـٰكن إذا أخضعوا للملاحظة ، قد يكونون عكس

ما يشاهد تماماً لأنهم اختاروا أقصر الطرق للعيش بدون مقابل ، ومع ذلك ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (1) . وهـٰكذا تكون الملاحظة اختبارية للمشاهدة ، وتكون المقابلة اختبارية للملاحظة ، فكل ما يلحظه المُلحِظ يمكن أن تختبر مصداقيته أو عدمه بالمقابلة . وتختلف الملاحظات والمشاهدات العلمية عن الملاحظة والمشاهدة العابرة التي تواجه الإنسان كل يوم ، والتي قد تثيره في وقتها لاحتوائها عنصر المفاجأة أو التي تعرَّف عليها في الماضي وتتكرر من حين لآخر مثل مشاهدته السحب والأمطار ، ومعرفته لها كما هي مشاهدة ، ولا يعرف العلاقة بين السحب ومكوناتها والقوة التي تذيبها فتسقط مطراً ، وأنه يشاهد البرق ولـٰكنه لا يعرف القوة المولدة له ، أما الملاحظات والمشاهدات العلمية المقصودة فهي تحدث وفق خطة وانتباه واع وتتبُّع دقيق ، وتنطلق من موضوع وتحقق أهدافاً .

إذاً لا مشاهدة إلا لظاهر ، والظاهر قد يكون ظاهراً في ذاته وقد يكون ظاهراً في قوله أو يكون ظاهراً في فعله أو يكون ظاهراً في أكثر من آية ، ولأننا نتحدث عن الظاهر المطلق فالظاهر المطلق واحد أحد لا تراه الأبصار التي تراه في آياته التي لا تعد ولا تحصىٰ سبحانه لا إلـٰه إلا هو واحد أحد لا شريك له ، له الملك وله الأمر .

ثانياً : الملاحظة :

الملاحظة إدراكية يتم بلوغها عن طريق العقل الذي يصوغ ما يصل إليه من الحواس جميعاً ، ولذا تعتبر الملاحظة من الأدوات المهمة في عمليات البحث العلمي ، عندما تكون قابلة للتحقق منها . وتبين الملاحظة مدىٰ سعة تفكير الباحث ، وإدراكه ووعيه لما يحدث معه ومن حوله ، وذلك بما يُمكّنه من فهم سلوك الفرد أو الجماعة وظروفهم المحيطة مع استقراء ما يحدث من ردود

---

(1) الضحىٰ ، 10 .

أفعـال ، وذلـك مـن خـلال الـربـط بيـن المشـاهـد والمسمـوع والمحسـوس والمدرك) . وتشتمل الملاحظة علىٰ لحظة حدوث الشيء فيُلحظ في حينه (وقت حدوث الفعل) وهـٰذه قد تكون عن رؤية ، وقد تكون عن استماع مباشر واعٍ ومقصود ، وقد تكون عن استقراء واستنباط ، وترتكز الملاحظة علىٰ أهمية الحضور لكي تتم عملية المقابلة المباشرة للمصدر ذي العلاقة بالموضوع . كما ترتكز علىٰ المعاينة لما هو محسوس بشكل مباشر أو غير مباشر ، فكل ما يتم عن طريق الحواس الخمس هو مباشر ، أما الذي يتم عن طريق الاستنباط والاستقراء فقد يكون غير مباشر ، ولهـٰذا يجب أن لا يغفل الباحث عن استقراء ما بين الأسطر ، واستنباط المحمول في المضمون . ولهـٰذا تعتبر الملاحظة الأداة المُمكِّنة من التمييز بين الصدق واللغو ، وبين ما يجب وما لا يجب . فعن طريق المعاينة السماعية يتمكّن الباحث من التعرف علىٰ العلاقات السالبة والموجبة بين المواضيع . فالعين لا تشاهد الكلمات المنطوقة مع أنها تشاهد المكتوبة منها . والأذن قادرة علىٰ ملاحظة المسموع وغير قادرة علىٰ التمكن من المكتوب ، وبمشاهدة المكتوب يُمكن أن تًلحظ مضامينه إدراكاً واعياً . وبالاستماع يمكن أن يتعرف الباحث علىٰ اتجاهات أو نوايا الطرف أو الأطراف المستمع إليها ، وحتىٰ فاقد حاسة البصر يُمكن أن يكون شاهداً مع أنه لم يكن قادراً علىٰ أن يشاهد شيئاً بعينيه ، فإذا أُنصِت إلىٰ حديث جماعة تتحدث عن فلسفة التغير الاجتماعي ، فيمكنه أن يُلحظ اتجاهاتهم حول هـٰذا الموضوع ، ويلحظ الوحدة التي بينهم ، أو الاختلاف والتباين في وجهات نظرهم .

ولأنها الأداة المعتمدة علىٰ الحواس ودرجة سلامتها ، فهي تتطلب من الباحث كفاءات وقدرات يمكن قياسها ، هي :

أ ـ القدرة علىٰ الإنصات الواعي للآخرين وتفهّم وجهات نظرهم .

ب ـ القدرة علىٰ التذكر والتصّور والتخيل ، والتفكر وفقاً لما هو متوقع وغير متوقع .

ج ـ القدرة علىٰ التمييز بين المعايير التي يحتكم الأفراد والجماعات والمجتمعات إليها .

د ـ القدرة علىٰ تحديد الرؤية لما يجب أن يحدث ، ومتابعة ما يحدث بالفعل .

هـ ـ الاهتمام بجميع المتغيرات التي يمكن أن تؤثر علىٰ الموضوع المدروس ، وتبني التفكير في المتغيرات الجديدة ووضع معايير لها .

وعليه فالظاهر هو ما يظهر للمعرفة سواء بالمشاهدة أو الملاحظة ، ولأن ٱلله هو الظاهر الذي أظهر بقوته وقدرته ما خلق لمن خلق ، فهو الظاهر المطلق الذي لا يخفىٰ عما خلق ، ولذا كل ما خلق يسبح له طاعة حتىٰ وإن كنا لا نفقه تسبيحه ، قال تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤٤ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ۝٤٦ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٤٧ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾ (1) . ولذا أتساءل :

هل يمكن أن يتم التسبيح لو لم يكن هناك ظاهر يستوجب حمده وذكره ؟

وهل يمكن لنا أن نعرف التسبيح لو لم يكن ظاهراً للمعرفة ؟

وهل يمكن أن نعرف العلاقة بين الظاهر والظاهر لو لم تكن العلاقة بينهما ظاهرة ؟

---

(1) الإسراء ، 44 ـ 48 .

ولذا فالظاهر هو المثبت بوجوده للإدراك الواعي وليس لمن تقتصر الرؤية عليه .

وعليه فالظاهر المطلق هو الذي لا تخفيه خافية ، ولا تحده حدود ، ولا يطويه الزمن والحركة ، وهو الغالب والقاهر فوق خلقه ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، وهو السميع المجيب ، وإذا أراد أمراً يقول له كن فيكون . إنه ٱلله الظاهر جل جلاله . ٱلله الذي يشاهد في آياته العظام ، ويلحظ في وجوده غير المحدود في الزمان والحركة ، ولأنه خالق فهو موجود بالقوة والقدرة ، وإلا هل يمكن أن يتم الخلق بدون وجود خالق سابق عليه ؟ . إنه الحق الذي لا يخفىٰ عن الأسماع والأبصار والعقول سبحانه لا إلـه إلا هو .

ظاهر بقوله : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ (1) .

ظاهر بفعله : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (2) .

ظاهر بسمعه : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ

---

(1) العلق ، 1 ـ 19 .

(2) البقرة ، 115 ـ 117 .

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [2] .

ظاهر ببصره : قال تعالىٰ : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [4] .

ظاهر بكرمه : قال تعالىٰ : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [6] .

ظاهر بوحدانيته : قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [7] ، وقال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ

(1) الأعراف ، 200 .
(2) آل عمران ، 38 ـ 41 .
(3) يونس ، 65 .
(4) الفرقان ، 20 .
(5) الحديد ، 11 .
(6) الحديد ، 18 .
(7) الإخلاص ، 1 ـ 4 .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) .

ظاهر بقهره : قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (3) .

ظاهر بكيده : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ (4) .

ظاهر بمكره : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (6) .

ظاهر بقوته : قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (7) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (8) .

---

(1) الحشر ، 22 ـ 24 .
(2) ص ، 65 .
(3) غافر ، 16 .
(4) الطارق ، 13 ـ 17 .
(5) آل عمران ، 54 .
(6) الأنفال ، 30 .
(7) هود ، 66 ـ 68 .
(8) الشورىٰ ، 19 .

ظاهر بقدرته : قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (2) .

ظاهر بملكه : قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (3) .

ظاهر بمغفرته : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (5) .

ظاهر برحمته : قال تعالىٰ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

---

(1) الأنعام ، 65 ـ 66 .
(2) الإسراء ، 99 .
(3) آل عمران ، 26 ـ 27 .
(4) الحجر ، 49 .
(5) القصص ، 16 .
(6) الفاتحة ، 1 ـ 7 .

وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

ظاهر بسلامه : قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (3) .

ظاهر بعزته : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (5) .

ظاهر بهيمنته : قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (6) .

ظاهر بقهره : قال تعالىٰ : ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (7) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (8) .

(1) الحشر ، 22 .
(2) الحشر ، 23 .
(3) يونس ، 25 .
(4) النساء ، 139 .
(5) المنافقون ، 8 .
(6) الحشر ، 23 .
(7) الزمر ، 4 .
(8) ص ، 65 .

الظاهر بإهلاكه : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [2] .

الظاهر بالحق : قال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾ [4] .

آيات ظاهرة بعظمة الظاهر الذي أظهر الحياة والممات والبعث والبقاء بعد حساب عادل لا مكان للظلم فيه ، وبعد فرصة كبيرة للمغفرة والرحمة وبعد أن بين الرشد من الغي ، وبعد أن جعل من صفاته خليفة ليهدي للتي هي أحسن

---

(1) الإسراء ، 16 .

(2) القصص ، 88 .

(3) البقرة ، 26 ـ 29 .

(4) الأنعام ، 62 ـ 66 .

وأقوم بقول الحق وفعل الحق وذلك باتباع اليقين . ولأن ٱلله هو الظاهر لذا فهو الذي لا يخفىٰ عن كفيف وبصير وأصم وأبكم ، وجماد ونبات وطائر ودابة وكل متحرك وساكن أي أنه بالمطلق لا يخفىٰ عمن خلق ، ومع ذلك آمن من آمن وكفر من كفر والله الواحد القهار الظاهر الذي لا تخفىٰ عليه خافية سبحانه لا إلـه إلا هو جل جلاله !

اللهُمَّ يا الظاهر علىٰ كل شيء وفي كل شيء ومظهراً لكل شيء أردته اجعل الحق ظاهراً فينا علىٰ الباطل والعدل علىٰ الظلم وعبادتك علىٰ الشرك بك وطاعتك فينا ظاهرة علىٰ معصيتك حتىٰ نكون بذلك ظاهرين بخلافتك في أرضك مظهرين لشرعك وحكمك وكل صفاتك في أنفسنا !

اللهُمَّ يا الظاهر أظهرنا علىٰ آياتك العظام في الظاهر والباطن ، واجعلنا من الناظرين إليها حتىٰ نراك فيها ، ومن المفكرين فيها حتىٰ اليقين ، ومن المتذكرين حتىٰ تكون لنا العبر !

اللهُمَّ يا الظاهر اجعلنا في كل مواقيت الصلاة ظاهرين ، وبالمعروف آمرين ، وعن المنكر ناهين ومنتهين ، واجعلنا بالصبر ظاهرين ، ولك طائعين عابدين !

✍ ✍ ✍

الْبَاطِنُ جلّ جلاله

الْبَاطِنُ « الَّذِي لا يُحَسُّ ، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِآثَارِهِ وَأَفْعَالِهِ » (1) .

« الباطن الذي احتجب عن أبصار الناظرين لجلاله وحكمته وكمال عزته وعظمته » (2) .

الحمد لله الذي يعلم البواطن والظواهر ، المحتجب عن خلقه فلا تراه العيون ولا تدركه الظنون ، المتواري في حجب عزته ، الظاهر في جلال قدرته' فقد بطن حتىٰ تفرد في وحدانيته ، عنت له الوجوه ظاهراً وباطناً ، وذلت له الرقاب قاهراً وقادراً ، فهو الظاهر بنعمته ، الباطن برحمته ، والظاهر بقدرته علىٰ كل شيء ، والباطن العالم بحقيقة كل شيء ، وهو الظاهر الذي لا يقهر ، والباطن في كونه الأول ، قد أظهر كل شيء ، ورفع السمـٰوات بغير عمد نراها ، وبسط الأرض علىٰ الماء حيث كان عرشه جل جلاله ، فسبحان الذي لا تحوم حوله العقول ، فهو ظاهر فيما بطن ، وباطن فيما نرىٰ من آياته التي هو ظاهر فيها ، والتي نستدل منها علىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ باطن ليس دونه شيء .

الباطن : هو « المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر

(1) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 98 .

(2) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 32 ، ص 43 .

ولا يحيط به وهم ، وهو العالم بكل ما بطن » [1] .

ولأنه جل جلاله واحد أحد فهو الباطن والظاهر ، ولـٰكن قد يتساءل البعض : كيف يكون سبحانه جل جلاله ظاهراً وباطناً في آنٍ معاً .

الباطن في أمره (كن) الذي به تظهر الآيات من مصادر باطنة كقوله للشيء (كن) فيكون ، قال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [2] .

إنه الباطن في قلوب المؤمنين معرفة تامة والظاهر خشية في أعمالهم وأقوالهم وسلوكياتهم وأفعالهم وحسناتهم وصلاتهم وزكاتهم وصدقاتهم .

وعليه لا ظاهر إلا من باطن ولا باطن إلا من ظاهر ، وعلاقة قوية في دائرة الممكن تربط بين الطاقة الكامنة والساكنة وبين القوة الدافعة لخروجها ، ولذا ترتبط الحواس بعضها ببعض كما ترتبط الأفكار في تحليلها للمواضيع وتفسيرها للنتائج ، والعلاقة قد تكون قوية وقد تكون ضعيفة بين الأفكار كما هو الحال بين الحواس ، وذلك كل حسب درجة سلامته ، والحواس هي التي تنقل الأفكار وتترجمها وتحللها وتفسرها ، وتنتقل الأفكار والمعلومات من الداخل (الباطن) إلىٰ الخارج (الظاهر) أو من الخارج إلىٰ الداخل ، فالظاهر للحواس الخارجية ينتقل إلىٰ الحواس الداخلية (إلىٰ العقل والأحاسيس والمشاعر) وهـٰكذا المتخيل بالعقل ينتقل إلىٰ الحواس الخارجية فيحدث التبادل من أجل استكمال المعلومة أو الفكرة ويرتبط المشاهد والمحسوس بالمجرد كما يرتبط الجوهر بالصورة ، ولذلك الموضوع مادة

---

(1) لسان العرب المحيط ، ج 1 ، ص 228 .

(2) البقرة ، 117 ـ 118 .

للعقل ومجال للخيال المبدع عندما يثرىٰ بالتفكير الذي يظهر الإبداع من الداخل إلىٰ الخارج (من العقل إلىٰ الحواس) لتشاهد أو تمارس كأفعال من خلال العلاقات الاجتماعية والأدوار التي يمكن القيام بها ، ولهٰذا يتم تحليل المحتوىٰ والمضمون بطريقة التبادل في حالتي الانتقال من المشاهد إلىٰ المجرد ، أو من المجرد إلىٰ المشاهد ، فإذا نظرنا إلىٰ القمر علىٰ سبيل المثال بانتباه ، وفكرنا في حركته ، وجماله ، وعلاقته بغيره من الكواكب الأخرىٰ ، فإن أفكارنا ستنقلنا إلىٰ طرح السؤالين الآتيين :

كيف وجد ؟ ومن الذي أوجده ؟ ولا تتم الإجابة علىٰ هٰذين السؤالين إلا بمعرفة القوة التي تكمن وراء وجوده ، وإذا بحثنا فيما وراء وجوده ، فإن تفكيرنا يدفعنا إلىٰ التعرف علىٰ الواجد الذي من ورائه ، حيث وراء كل موجود واجد بالضرورة .

وعليه ، لا ظاهر إلا من ورائه باطن أو علة وسبب ، ولا علة وسبب إلا من ورائهما باطن أو ظاهر . فالإيمان علىٰ سبيل المثال في بدايته الكمون (البطون) إلىٰ أن يصبح قناعة ، وفي نهايته الظهور عندما يصبح سلوكاً وفعلاً .

وعليه لا أقول علاقة قوية بين الظاهر والباطن بل أقول : وراء كل ظاهر باطن ووراء كل باطن ظاهر ، وعلىٰ المستخلفين فيها التبيُّن قبل إصدارهم للأحكام ، فالظاهر ظاهر في آياته العظام التي لا تكون إن لم يكن هو من ورائها ، وباطن في قدرته وقوته وتسييره بالحركة والزمان .

فالظاهر هو الذي لا يحجب قدرته حاجب ولا يواجه قوته قوة ، إنه الظاهر بإحيائه والظاهر بإماتته والظاهر ببعثه والظاهر بحسابه وجزائه وعقابه . وهو الباطن في ذاته التي لا تبصرها الأبصار ، أي أنه الظاهر من حيث انه يدرك الأبصار ، وباطن من حيث أنه لا تدركه الأبصار ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

فلا يكون الشيء ظاهراً لشيء آخر وباطناً له في الوقت نفسه ، فهو إن كان كذلك فإن هـٰذا الشيء أو ذاك لا يخرج عن حالين لا ثالث لهما :

الأول : إما أن يكون ظاهراً أبداً وإن اختفىٰ لِعلة طرأت عليه ، وهـٰذه العلة إما أن تكون من جوهره أو من عرضه أو من مؤثرٍ خارجي ، فإن كانت العلة المؤثرة عليه من جوهره فهو فاسد بالطبع لأن هـٰذه العلة أدت إلىٰ تغيير ماهيته ، فهـٰذا لا يصلح أن يكون إلـٰهاً ، وإن كانت العلة المؤثرة فيه من أعراضه فكيف يطغىٰ العرض علىٰ الجوهر الذي هو صادر عنه والعرض جزء منه ، وهـٰذا لا يصلح أن يكون إلـٰهاً أيضاً ، وإن كانت العلة مؤثراً خارجياً ، وهـٰذا المؤثر مخلوق بإرادة الشيء فكيف يؤثر المخلوق في الخالق وهـٰذا لا يستقيم لعاقل ، وعلىٰ هـٰذا فالظاهر الذي يختفي لعلة طارئة هو مخلوق لخالقه بفعل قدرة الخالق لأمر أراده هو .

الثاني : إما أن يكون باطناً أبداً وإن ظهر فلِعلة طرأت عليه ، وإذا طرأت عليه فظهر فإنه ينسحب عليه ما انسحب علىٰ الأول من التغيير والتبديل والتحول بفعل الجوهر أو العرض أو المؤثر الخارجي ، ولهـٰذا نحكم عليه بما حكمنا علىٰ الأول لتبدل جوهره وأعراضه وصفاته ، وهـٰذا التبدل الذي يطرأ علىٰ ماهية الأشياء هو الدليل علىٰ أنها خلقت بفعل خالق وبحكمته لأمر أراده فيجري عليها ما يجري علىٰ بقية المخلوقات الخاضعة لنظام الخلق في هـٰذا الكون صغيرها وكبيرها وظاهرها وباطنها وجليلها ودقيقها وعظيمها وصغيرها علىٰ حدٍّ سواء ، فالأشياء جميعها لا تكون ظاهرة من وجه وباطنة من

(1) الأنعام ، 102 ـ 105 .

وجه آخر ، فهي إما أن تكون ظاهرة حقيقة ذات جواهر وأعراض وأبعاد ، وإما أن تكون باطنة حقيقة ذات جواهر وأعراض وأبعاد ، وهـٰذه هي المخلوقات المعلومة التي وجدت بقول الكينونة ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] . لما أراد ٱلله تعالىٰ ذلك ، ولـٰكن ٱلله سبحانه ظاهر لنا بالاستدلال ، فإذا قام الدليل وظهرت الحجة انقطع الظن والاحتمال ، واستدلالات الخلق والآيات قطعت الظن والشك بالبرهان واليقين لوجود البرهان الدامغ واليقين الثابت في هـٰذا الكون وفي الآفاق وفي أنفسنا ما ظهر منها وما بطن .

ولـٰكن كونه باطناً جل شأنه فإن دليله يختلف عن دليل ظهوره الذي يعلم بالعقل ، ودليل كونه باطناً فإنما بعيد كل البعد عن الحواس ، وإنما يعلم من إدراكات الحواس لا من الحواس نفسها وهو في جميعها ظاهر وباطن ، جامع للظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس ، وهو الظاهر العالي علىٰ كل شيء الغالب له ، والباطن الذي بطن كل شيء ، أي علم باطنه فظهر له الباطن وليس ذلك عدولاً عن صفة الظاهر وإنما هي من تمام الكمال للذات الإلـٰهية التي لا تنفصل عنها ، وهو الباطن غير مدرك ، فإن بطونه تعالىٰ عن إدراك العقول كبطونه عن إدراك الحواس لأن حقيقة الذات غير مدركة لا عقلاً ولا حساً ، وإنما يعلم عن طريق العقل باستدلالات خارجية تؤدي إلىٰ إدراك الباطن ، كما يعلم بإدراكات الحواس لا عن طريق الحواس نفسها ، لذلك فإن أدلة إثبات الصفات لا تخضع لقوانين المادة المشاهدة لا حساً ولا عقلاً ، فالله هو الباطن فما اختفىٰ في شيء ولا تغيره الدهور ولا تعجزه الأمور ولا يدركه الزمان ولا يحويه المكان ولا يشغله شأن عن شأن ، ذلكم ٱلله الذي لا إلـٰه إلا هو له الأسماء الحسنىٰ والمثل الأعلىٰ والكلمة العليا أنزل الكتب بالحق

(1) يس ، 82 .

وأرسل الرسل بالصدق ظاهر علىٰ كل شيء باطن في كل شيء ، وبطونه يدل علىٰ القرب والمصاحبة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [1] .

فالله سبحانه وتعالىٰ بكونه الباطن العليم فهو لا يخفىٰ عليه شيء من أحوال الإنسان من خفياته حتىٰ وإن استتر عن الأعين سواء أكانت تلك الخفيات من صالح الأعمال أم من غير ذلك ، فهو سبحانه باطن بقربه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وما يحدّث الإنسان به قلبه ونفسه ولا يخفىٰ عليه مكنونات السرائر أو الضمائر فالله تعالىٰ أقرب إلىٰ الإنسان من نفسه في الباطن وضرب حبل الوريد مثلاً « لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضًا ، ولا يحجب علم ٱلله شيء ، وحبل الوريد عرق العنق ، وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين ، يتفرق في البدن » [2] ، وهـٰذا التعبير يحمل علىٰ باب العلم بكل صغيرة وكبيرة ، قريبة كانت أم بعيدة لأنه محيط بكل شيء ما ظهر وما بطن والعالم بما ظهر وما بطن ، وهو ظاهر بحججه الساطعة وبراهينه الواضحة وشواهده الدالة علىٰ وحدانيته والباطن الذي احتجب عن أبصار الخلق فلا يدرك ولا تستوي عليه الكيفية وهو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، الأول والآخر ، إنه الظاهر الحكيم والباطن العليم ، وهو الأول ببره بالعباد إذ عرفهم توحيده والآخر بجوده إذ عرفهم طريق التوبة عما جنت أيديهم والظاهر بتوفيقه إذ وفقهم للسجود له والباطن بستره إذا عصوا يستر عليهم ، وهو الأول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب ، وهو الباطن الذي احتجب عن الأبصار عزة وجلالة ومهابة ، وهو الباطن العليم الذي لا يخفىٰ عليه شيء في السمـٰوات والأرض ، قال تعالىٰ :

---

(1) ق ، 16 .

(2) تفسير البغوي ، ج 7 ، ص 358 .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (1) . عظمة ٱلله الظاهرة لا يمكن أن تدركها الأبصار القاصرة ، فالكمال يرىٰ كل شيء ولا يراه شيء ، والقصور يراه كل كمال ، ولذا فالقاصر لا يصلح حاله فهو في حاجة للكمال الذي يمتلك القوة والقدرة الإصلاحية ، سبحانه ٱلله الظاهر في كل حين والباطن في كل شيء صغير أو كبير ، فلا تظهر الأشياء إلا به ولا تبطن إلا به سبحانه ما أعظم شأنه .

إنه الباطن بما يستر الخلق حتىٰ أن الكافر ينال هـٰذا الستر للدلالة علىٰ أنه باطن يستر خلقه مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وعاصيهم إلا من أبىٰ ، أي من أبىٰ ورفض أن يستر نفسه كما قال رسول ٱلله ﷺ « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَىٰ . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَىٰ ؟ قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ » (2) . فالله باطن ستّير يستر خلقه عندما يرتكبون المعاصي ليفسح لهم المجال في التوبة ويكفر عنهم سيئاتهم ، وهو باطن ستّير يستر خلقه باللطف بهم عندما تنزل بهم النوازل ولـٰكنه ينفذ أمراً قضاه بعالم غيبه ويخفف من المصيبة بالستر واللطف فينجيهم إلا من جرىٰ عليه القلم بالقضاء والقدر ، فهو الحكم العدل والقضاء الحق ، وما هـٰذا إلا صفة الباطن العليم والعالم الحليم ، ومن أخذ من هـٰذه الصفات نصيبه نسبياً إلىٰ المطلق فهو الخليفة لا محالة .

فحقيقة الباطن لا تحوم العقول حول إدراك كنهه ، وليس يعرف ٱلله إلا ٱلله وتلك الباطنية سواء في الدنيا أو الآخرة وذلك فإن كونه باطناً بكنه حقيقته

---

(1) الأعراف ، 143 .

(2) صحيح البخاري ، ج 22 ، ص 248 .

لا ينافي كونه مرئياً في الآخرة من حيث صفاته ، وهو الباطن الذي لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر أو الخفي كامل العلم بكل شيء جليه وخفيه وجليله ودقيقه وفي هـٰذا المقام معان أخرىٰ لأن صفات ٱلله تعالىٰ لا ينفصل بعضها عن بعض ، وبعضها يفسر بعضاً ، وعندما نتكلم عن صفة من صفاته جل شأنه لا بد أن نعرج علىٰ بعض من الصفات الأخرىٰ لنوضح بها تلك الصفة التي نحن بصدد معرفتها ، فإن كان كلام ٱلله يفسر بعضه بعضاً ، فكذلك صفات ٱلله تفسر بعضها بعضاً ، وعندما نتكلم عن صفة الباطن إذاً هو الأول الذي ابتدأت منه الأسباب بإرادته والآخر الذي تنتهي إليه المسببات بأمره ، فإذا كانت موجودات الكون المتكونة بعضها من بعض مبدؤها من ٱلله بفعل الكينونة والقوة والقدرة والإرادة ، فلا شك أن منتهاها إلىٰ حيث ابتدأت بالفعل نفسه ومن هنا نستطيع القول أن بعض صفة الباطن تكمن في هـٰذه الصفات ، وهـٰذا يعني أن ٱلله تعالت صفاته وتقدست أسماؤه منه ابتدأت الأسباب وإليه تنتهي المسبَّبات هو منزه عن أن تدركه الأبصار ، وأن صفته الظاهر فهو الغالب علىٰ كل شيء والباطن أي العالم بباطن كل شيء و الظاهر من ظهر وغلب والباطن من بطنه إذا علم باطنه ، قال تعالىٰ : ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [1] . فقوله تعالىٰ : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بناء علىٰ هـٰذه الآية الكريمة أتساءل :

من الذي يملك السمـٰوات والأرض .

بطبيعة الحال يملكهما من خلقهما من لا شيء .

ولأن السمـٰوات والأرض ظاهرات للمشاهدة ، فهل يمكن أن يكونا لو لم يكن من ورائهما ظاهر أعظم منهما .

ثم جاء في قوله (يحيي ويميت) وهنا ينبغي أن نستوقف قليلاً ونتساءل :

هل الحياة والموت ظاهران أم باطنان ، وهل الإحياء والإماتة يشاهدان أم يلحظان .

الحياة والموت ظاهران بالقوة إثباتاً ، أي أننا نعيشهما ونحن من الشاهدين (مؤمنين أو كفرة) (مهتدين أو ضالين) فالكل يؤمن بذلك إثباتاً . ولـٰكن لا الحياة ولا الموت يشاهدان بالرغم من وجودهما وهما في حالة تزايد كل يوم ، أي الزيادة في عدد المواليد والزيادة في عدد الأموات . وذلك لأن المشاهدة بالعينين ، والعينان لا يمكن أن تريا الحياة ولا الموت إنهما باطنان ، فقط إنهما يريان الحي والميت ، ولذا فالفرق كبير بين الحياة التي لا يمكن مشاهدتها والحي الذي يمكن مشاهدته وملامسته حسيًّا علىٰ المستوىٰ الخلقي ، وفي ذلك يكون الاستثناء للحي الباقي الذي يرانا ولا نراه فهو الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

(1) الحديد ، 2 ـ 11 .

وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] .

وللإجابة علىٰ الجزء الثاني من السؤال : هل الإحياء والإماتة يشاهدان أم يلحظان ؟

أقول : الإحياء والإماتة لا يشاهدان وذلك لتجردهما من المادة ، ولٰكن لتجسدهما في الشيئين فإن كلاًّ منهما يلحظ ولا يشاهد ، فالإحياء والإماتة فعلان يحدثان بقوة الفاعل المطلق ، الذي يلحظ ولا يشاهد ، ولٰكن بأفعاله يدرك وبآياته يدرك ، حتىٰ يتم التبين بالمفعول فيه إحياء أو إماتة .

وعليه مع أن الحياة والموت ظاهران إثباتاً إلا إنهما لا يشاهدان ولهٰذا ليس كل ظاهر قابلاً للمشاهدة ولنا في ما سبق دليل وبرهان بالحجة . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [2] ، فإذا تساءل البعض :

كيف يمكن أن يكون الدين ظاهراً وهو لا يشاهد ؟ أقول : أي شيء يشاهد يكون في دائرة البصر بالعينين ، ولأن الدين لا يُرىٰ بالعينين لأنه دين ، والدين عبادة ، فالعبادة لا تُرىٰ في دائرة النسبية البشرية ، التي فيها يُرىٰ المتعبد ولا تُرىٰ عبادته ، ولٰكن بمشاهدته وهو يتعبد قولاً وسلوكاً تلحظ أفعاله حتىٰ يتم الحكم عليه بأنه مسلم علىٰ رسالة موسىٰ أو عيسىٰ عليهما الصلاة والسلام أو أنه علىٰ الرسالة الخاتمة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ : أن رسول ٱلله ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه يقول : « اللهُمَّ رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان فالق الحب والنوىٰ أعوذ بك من شر

---

(1) الأنعام ، 102 ـ 103 .

(2) التوبة ، 33 .

كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر » [1] . وفيه دليل علىٰ أن ٱلله سبحانه باطن بعلمه قريب من عباده ، وهو بهـٰذا البطون ليس شيء أقرب إلىٰ مخلوقاته منه عز وجل فليس شيء دونه في القرب والعلم وهو يحول بين المرء وقلبه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [2] . فالذين صدَّقوا بالحق وأذعنوا له يعلمون أن ٱلله تعالىٰ قريب منهم رقيب عليهم فهو باطن منهم بعلمه وقربه وقدرته ، لذلك جاء الأمر بإجابة ٱلله من القلب لما يأمرهم به ، وهـٰذه الإجابة لله سبحانه تكون بالأجساد عبادة ، وبالأرواح تعلقاً به ، وبالعقول تأملاً في آياته وبالقلوب إذعاناً وخضوعاً له ، ومن هـٰذا نعلم علم اليقين أن ٱلله تعالىٰ قائم علىٰ قلوب البشر كونه يقلبها كيف يشاء فيحول بين الإنسان وقلبه ، فإذا أقبل الإنسان علىٰ التردي والهوىٰ ، فهو ينقذه من المهالك والفتن ، فالله تعالىٰ باطن في آثار قدرته ، وباطن فيما يتعلق بحياة البشر وشؤونهم المختلفة ، ويعرّف الخلق بربهم الحق الذي عليهم أن يعبدوه ، فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه ، وهو الرزاق الذي لا يترك أحداً من رزقه . وهو الذي يطلعهم علىٰ آثار قدرته وحكمته في خلق السمـٰوات والأرض بنظام خاص في أطوار وآماد محكمة تدلل علىٰ ظهور ٱلله تعالىٰ عليها وأنه باطن بإرادته عليها ماض حكمه الغالب فيها ، والباطن العالم ببواطن الأشياء وأنه الغالب الذي يغلب كل شيء ولا يغلب عليه فيتصرف في المكونات علىٰ سبيل الغلبة والاستيلاء إذ ليس فوقه أحد يمنعه وليس دونه أحد يفوته ، والعالم ببواطن الأشياء فهو الملجأ والمنجىٰ يلتجئ إليه كل ملتجئ لا ملجأ ولا منجىٰ

(1) مسند أحمد ، ج 18 ، ص 145 .
(2) الأنفال ، 24 .

منه دونه ، فهو الباطن الذي لا يدرك بالحواس وإنما بالنوايا والاعتقاد والأفكار مما لم يعبر عنها بقول أو فعل أو شكل أو صورة أو تشبيه أو تمثيل ، ويتبين ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [1] . فالله سبحانه يضرب مثلاً بقربه ولولا قربه لم يكن باطناً ، وكونه باطناً في ابتدائه خلق البشر بعناية إلاهية فلا بد أن يكون خفياً ، وكونه خفياً فهو ظاهر القدرة بإرادة مطلقة ، وهـٰذه الإرادة توضح لنا معنىٰ كونه باطناً ، فمن الذي يرعىٰ الإنسان مذ كان نطفة ثم يتدرج طوراً بعد طور ثم يكتمل في بطن أمه ، فلا بدّ أن يكون هناك راعٍ يرعاه ويتعهده في أطواره هـٰذه حتىٰ يكون في أحسن تقويم إلىٰ أجل مسمىً ، فالله المحيط بكل شيء هو محيط أيضاً بهـٰذه النطفة التي قدر خلقها ورعاها حماية وحناناً وعطفاً ورحمة ، ومحيط أيضاً بمن يحيط بها ، ومحيط بالمحيط الذي يحيط بها إلىٰ ما لا نهاية من الإحاطة بكل ما خلق ، وهـٰذا الأمر ينسحب علىٰ كل شيء من أصغر ما هو مخلوق في هـٰذا الكون من الذرة والنواة والإلكترون والنيترون ، إلىٰ أعظم الكواكب والنجوم والأجرام السماوية ، وهـٰذا أوضح دليل فيما نرىٰ من الرأي علىٰ أنه باطن في كل شيء و محيط به ، ومحفوظ برعايته و مقهور بإرادته وموجود بحكمته جلّ شأنه .

---

(1) الواقعة ، 57 ـ 76 .

الباطن هو الكامن ما يجعله غير خاضع للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر . ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل وتفسير ظواهر من بعدها ، وهٰكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة ، والملاحظة والمحسوسة ، سواء كانت سلوكاً ، أو شكلاً ، أو كماً ، أو فعلاً ؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه ، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحاً ، بل معظم الظواهر تحتاج إلىٰ توضيح ، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية . والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الباطن ، وبما ظهر عنه من أفعال ، أو أقوال ، أو إنتاج ، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل ، وهٰكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن .

الباطن يعد مخفياً عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله غير بيّن للمعاملة والتعامل الموضوعي ، وهو الذي من وراء ظهوره غاية ، ما يجعله قابلاً للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية .

العلاقة بين ما هو باطن وما هو ظاهر كالعلاقة بين النية والفعل ، فالنية ساكنة كامنة إلىٰ حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلىٰ الظهور في الفعل والسلوك . ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرىٰ محمولة (كامنة) في النخلة عندما تتمر .

وعليه ، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة . وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة للكامن ، ووسيلة للتعرف عليه . ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف علىٰ الكامن ، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر . ولهٰذا يتم التعرف علىٰ الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن . فالسلوك كظاهر ، قد يكون أمام المشاهد سوياً ، أو مثالاً أو فيه

القدوة ، ولـٰكنه في الواقع ، قد يكون غير ذلك ، فالابن ، أو الابنة كثيراً ما يكونان أمام أسرتهما ، وخاصة الوالدين ، علىٰ خلق والتزام وأدب ، ولـٰكنهما في حقيقة الآمر قد يكونان غير ذلك من ورائهما ، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية ، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية ، فإنهما قد يفوران رافضين وبغضب هـٰذا الادعاء ، مع أنه الحقيقة ، ولذلك الحكم بالظاهر علىٰ الظاهر قد لا يؤدي إلىٰ الصواب ، والظاهر قد يكون شكلاً وصورة ، وقد يكون قولاً أو سلوكاً ، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعىٰ في تقصي الحقائق . في العلوم الطبية ، والتحليل النفسي ، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر ، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة ، أو التشخيص ، أو العلاج ، لأن الحكم علىٰ الظاهر بمشاهدته ووصفه ، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته ، قد لا يؤدي إلىٰ نتائج علمية ، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها ، والظاهر قد يكون مشاهداً ، وقد يكون محسوساً (ملموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض ، التي بالمس يتم التعرف عليها ، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة ، ولـٰكن الذي يود أن يعرفه الطبيب ، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها ، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلىٰ مريض مصفر الوجه ، هل يتوجه هـٰؤلاء الأخصائيون إلىٰ معالجة الاصفرار الظاهر . أم إلىٰ البحث عما يكمن وراءه من علل ، وأسباب . لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشراً إلىٰ البحث عن كامن ، لأن الاصفرار مسبب ، وبما أنه مسبب ، إذاً لابد وأن تكون له أسباب ، ومسببون له ، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرىٰ ظاهرة بعد التعرف عليها ، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر ٱلله في الكبد ، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة ، وقد يكون السبب غير ظاهر ، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان ، أو من نتائج مترتبة علىٰ ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدان والقانون

أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلىٰ الهلاك ، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها ، مثل الجندي في جبهة القتال ، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك ، دون أن يكون له رأي ، أو حتىٰ وجهة نظر في ذلك .

وعود علىٰ بدءٍ للآيات التي وردت ، فنحن نحرث ونبذر وهو بذاته يصير زرعاً كلما توفرت له اشتراطات النمو ، فنقول نبت الزرع تجوّزاً ونلقي بالفاعلية علىٰ الزرع في حد ذاته ، وفي الآيات مفارقة عجيبة للمتفكرين والمتأملين كيف أن ٱلله سبحانه ذكر خلق الإنسان وإنبات الزرع ومع هـٰذا فلا نجد أحداً ينسب فعل إنبات الولد إلىٰ المولود نفسه قياساً علىٰ إنبات الزرع ، ولو قال قائل إن ٱلله تعالىٰ استعمل هـٰذه الصيغة كثيراً في القرآن الكريم مثل قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ [1] ، فأخرج وآزر واستغلظ كل هـٰذه الأفعال فاعلها الزرع ، فنقول له هـٰذا من باب إسناد الفعل للمفعول لغير العاقل ، وأما مع العاقل فلم ترد هـٰذه الصيغة علىٰ الإطلاق ، وإنما كانت الصيغة (وهبنا) بإسناد الفعل إلىٰ الفاعل الحقيقي وليس إلىٰ الفاعل مجازاً لغير العاقلين ، فقد أخبرنا تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [2] ، وعن موسىٰ عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [3] ، وعن زكريا عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [4] ، وعن داوود عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [5] ، وعن أيوب

---

(1) الفتح ، 29 .
(2) الأنعام ، 84 .
(3) مريم ، 53 .
(4) الأنبياء ، 90 .
(5) ص ، 30 .

عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] . فأنت ترىٰ أنه في هـٰذه المواضع جميعها قد أسند الفعل إلىٰ فاعله الحقيقي وهو الباطن جل شأنه واستخدم لفظة فيها من اللطف والوداعة والرقة والرحمة والكرم ما لا يخطر علىٰ قلب بشر ، ومهما اجتهد مجتهد علىٰ أن يأتي بلفظة تحل محلها وتؤدي المعنىٰ المقصود لكان من المقصرين ، فإنبات الزرع لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا ولا بفعل نفسه ، ولو قال غير المؤمنين هو ينبت بنفسه (وهو باطل) فما قولهم في سلامته عن الآفات التي تصيبه ، فيفسد قبل اشتداد الحب وقبل انعقاده ، أو قبل اشتداده وقبل ظهور الحب فيه ، فهل يحفظونه منها أو يدفعونها عنه ، أو هـٰذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات إن قالوا إنه ينبت لوحده ، ولا يشك أحد أن دفع هـٰذه الآفات لا يكون إلا بإذن ٱلله تعالىٰ ، وحفظه عنها لا يكون إلا بقدرته . فهو إذاً باطن حقيقة ظاهر قدرة ، فلا يدرك العقل سر تلك الحقيقة الباطنة إلا من خلال التفكر والتأمل في آيات الخلق وتدبرها ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [2] ، فهي التي تظهر حقيقة وجود باطن تولىٰ شأنها وأكمل خلقها ويدخل في ذلك الزمان والمكان وما بينهما .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ

(1) ص ، 43 .
(2) النساء ، 82 .

﴿ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) . إن البصائر النافذة التي تتأمل فيما أقام ٱلله من الأدلة والبراهين الواضحة علىٰ توحيده وكمال قدرته وعلمه وإحاطته بجميع مخلوقاته ، تقر دون أدنىٰ شك بما نقول من صفة الباطن عز وجل فقد جاءت هـٰذه الآيات البيّنات دلائل يتبصر فيها البشرُ الحججَ الكونية والبراهين العقلية ، فهي تثبت عقائد الحق اليقينية والباطنية الغيبية التي عليها مدار الدنيا والآخرة ، وهـٰذه البراهين والأدلة العقلية واليقينية هي جامعة مانعة تثبت حقيقة كونه باطناً سبحانه لما فيها من الشمول . فهي جامعة من حيث تحوي الزمان والمكان ، ومانعة لعدم وجود غيرهما في الوجود ولا يخرج الخلق عن هـٰذين الحيزين وقد ذكر جميع آياته العظمىٰ في هـٰذا الكون العجيب من أدنىٰ مخلوقاته المتناهية في صغر حجمها مع دقة صنعها ، في فلق الحب والنوىٰ وما هو دونه وإخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي وهـٰذا ينسحب علىٰ الأحياء الدقيقة من البكتريا والجراثيم والميكروبات والفيروسات والخلايا الشعرية وما دون ذلك دقة في الخلق إعجازاً ، إلىٰ الشمس والقمر والنجوم والكواكب التي لا يحيط بحجمها عقل ، وحتىٰ هـٰذه الأفلاك السيارة إنما تشغل مكاناً هـٰذا الذي نسميه الفضاء فهو حيز مكاني وهـٰذا هو الحيز الأول الذي يشغل المكان ، وأما الإصباح والليل وإفراد الشمس والقمر وتخصيصهما بالحسبان فقد شغل الحيز الزماني ولا خلق خارج هـٰذين الحيزين ، فهـٰذان الشرطان لوجوب وجود الخلق ، وقد تنزه الخالق عن المخلوق ، فهو جل شأنه لا مكان يحده ولا زمان يعده .

فهو باطن في آيات خلقه وقدرته ، وبطونه بمعنىٰ القرب المجازي ونقصد به الرعاية والعناية الإلـٰهية ، ولو لم يكن باطناً كما وصف نفسه تعالىٰ لاختلت موازن الكون ، وهـٰذا معنىٰ أن صفات ٱلله تعالىٰ هي صفات لازمة بالضرورة .

---

(1) الأنعام ، 95 ـ 99 .

إن دلائل القدرة علىٰ الخلق والبعث والنشور ، متوافرة متنوعة في آيات ٱلله العظام ، فهو وحده الذي يشق الحب ويخرج منه النبات ، ويشق النوىٰ ويخرج منه الشجر ، إنه هو الذي يخرج الحي من الميت ، كالإنسان من التراب ، والميتَ من الحي ، كاللبن من الحيوان ، ولقد اقترنت جملة فالق الحب والنوىٰ بفالق الإصباح اقتراناً يدل علىٰ دورة الحياة ووجود الضوء والظلام ، حيث أن الضوء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو النبات ، فالحب والنوىٰ بعد أن يفلق نباتاً إنما يحتاج إلىٰ غذاء وهـٰذا الغذاء يتكون من عناصر الأرض ، ومن ضوء الشمس ، فجذور النبات تتغذىٰ من الأرض ، وأغصانه وأوراقه تتغذىٰ مما يتم امتصاصه من الأرض ومن حرارة الشمس التي يؤذن بها فلق الإصباح وهـٰذه تحتاج إلىٰ قدرة ، فلا يقدر إلا الحي مطلقاً أن يجهّز الكائن الحي نسبياً بالقدرة علىٰ إحالة البذور الميتة إلىٰ خلايا حية ، أو تحويل الخلايا الحية مرة أخرىٰ إلىٰ ذرات ميتة ، وهـٰذا مظهر من مظاهر قدرته ومن مظاهر قربه ورعايته وعنايته وإحاطته و بطونه جل جلاله .

إن جميع العلوم لا تستطيع أن تقدم لنا تفسيراً مقنعاً لما يحدث في هـٰذا الوجود من حياة الأحياء دون استثناء ، سواء علىٰ المستوىٰ الإنساني الذي أقر العلماء بأن جسم الإنسان هو أصغر مختبر من حيث الحجم والتكوين وأعظمها علىٰ الإطلاق من حيث الدقة والإنتاج والنوعية ، ذلك أن علم الصيدلة مثلاً يحاول أن يقلد في الصناعات الدوائية ما ينتجه جسم الإنسان من مضادات حيوية تقضي علىٰ الجراثيم والبكتريا الضارة دون البكتريا النافعة وهـٰذا مما يذهل العقل ، وأما بقية الأحياء كالنبات والأحياء الدقيقة والأحياء البحرية ، فكلما وقف العلم علىٰ نوع جديد منها يخرج بمصطلح التطور (تطور النبات ، وتطور البكتريا ، وتطور الجراثيم) ، وأما حقيقة الأمر فما هي إلا أنواع اكتشفت مؤخراً أو آخر ما تمّ اكتشافه فيدعونه تطوراً لهـٰذا النوع من الأحياء أو ذاك ، وما خطر ببالهم أن ٱلله سبحانه كل يوم هو في شأن ،

ولو كان ثمة تطور لهـٰذه الأحياء ، لكان الإنسان أولىٰ الأحياء بهـٰذا التطور لأنه العاقل الوحيد منها ، وإن قال (دارون) بمثل هـٰذا فإن هـٰذه النظرية دُحضت وثبت بطلانها علمياً وتم رفضها إنسانياً كما سبق وأن بينا سابقاً ، إذ كيف يقبل إنسان عاقل أن ينتمي إلىٰ فصيلة القرود والخنازير والله خلقه في أحسن تقويم ، ولـٰكن الذي نعتقده ونقر به أن تفكير بعض البشر قد ينحط إلىٰ مستوىٰ التفكير القردي والخنزيري كما هو حال الذين لم يؤمنوا من بني إسرائيل بما جاء به من الأنبياء والمرسلين ، الذين جاءوهم بالمعجزات التي طلبوها شريطة لإيمانهم ، ثم بعد أن رأوها بأمهات أعينهم كفروا فهـٰؤلاء ومن علىٰ شاكلتهم هم قردة وخنازير تشبيهاً بأسباب انحطاط تفكيرهم في أسفل السافلين ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (1) . فاختلط الأمر علىٰ (دارون) وعلىٰ أتباعه وقالوا كلمة الكفر ، وأما القول في هـٰذه المخلوقات الدقيقة الصغيرة المتناهية في الحجم مثل الذرة وأجزائها والتي تتكون منها جميع المواد ، فلا نستطيع أن نفسر حركتها بأنها حركة تلقائية ذاتية ، فإذا كانت الشمس تجري لمستقر لها وهو تعبير بالجزء عن الكل أي أن الشمس هي واحد من هـٰذه الكواكب السابحة في الفضاء وهي تتكون من كتل عظيمة وكل كتلة تتكون من أجزاء إلىٰ أن تصغر في حجمها إلىٰ الذرة فما دون ذلك ومن ثمَّ حدوث هـٰذه الانفجارات الشمسية بفعل هـٰذه الأجزاء الدقيقة التي لا تكاد تُرىٰ حتىٰ بالمجهر وتمتلك هـٰذه القوة الهائلة وهي تتحرك ضمن أفلاك ومدارات لها عملها الدقيق في مكانها المحدد والوقت المعلوم الذي يؤذن لها فيه أن تتحول إلىٰ طاقة حفاظاً علىٰ حرارة الشمس الثابتة وهي ستة آلاف درجة مئوية لا تزيد ولا تنقص منذ أن خلقها ٱلله ، فإذا انفجرت هـٰذه الذّرات وتحولت إلىٰ طاقة من الحرارة والضوء فما الذي يحل محلها ومن أين يأتي

---

(1) المائدة ، 60 .

لاستمرار حياة الشمس إن جاز لنا التعبير ، والذي نذهب إليه ونعتقده لا بالتجربة ولا بالبرهان ، وإنما بالقياس علىٰ أنواع الحياة الأخرىٰ للمخلوقات أن هـٰذه الذّرات تنمو وتتكاثر كما تنمو البكتريا بأعداد مذهلة وبوقت سريع مع تغير الصفات الفيزيائية لتلك الحياة بما يناسب جوهرها ، وخواصها الفيزيائية وطبيعة الخلق والتكوين تجعلها تعيش وتنمو وتتكاثر في هـٰذه البيئة الطبيعية بالنسبة لها ، لتؤدي العمل الذي وجدت من أجله ، وربما يقول قائل : كيف يستقيم هـٰذا لعاقل . فنقول إنما أبواب الحكم في الشريعة أربعة ، الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ويكفي واحد منها لإصدار الحكم إذا قام الدليل ، فأنواع الحياة للأحياء المختلفة الأنواع المعروفة لنا ، واختلافها بالصفات الفيزيائية قائم ، وإلىٰ حدّ ما بالصفات الكيميائية كالإنسان والنبات والأسماك وبعض الزواحف علىٰ الأقل في عملية التنفس ، فإن قال هـٰذه أحياء فالإجابة تأتي من قوله تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (1) . فالذي يسبح لا بدَّ أنه حي ولـٰكن ليس بالضرورة أن تكون حياة كالحياة التي نألفها ، ومع أنها تسبح ظاهراً بالنسبة لخالقها ، إلا أن تسبيحها بالنسبة للمخلوق باطن حيث لا ظاهر منها مشاهد أو ملاحظ ، وقوله تعالىٰ(وإن من شيء) فمن في اللغة تشمل العاقل وغير العقل ، وعلىٰ هـٰذا نعتقد صحة ما نقول نظرياً بالقياس إلىٰ أن يأتي الوقت الذي تتوفر فيه الوسائل والأدوات المادية لإثبات ذلك بالتجربة العلمية . أما الاعتماد علىٰ فكرة المصادفة في هـٰذا المجال فهي لا تكفي لأن تقوم دليلاً علىٰ سر الحياة ، فكيف تتجمع هـٰذه الدقائق الصغيرة لكي تكوّن الحياة . فمما لاشك فيه أن النظرية التي تدّعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلىٰ حالتها الراهنة من الرقي ، بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات أو الصدف ، فهي نظريةٌ لا يمكن

---

(1) الإسراء ، 44 .

الأخذ بها ، لأنها لا تقوم علىٰ أساس من منطق يقنع العقل ، ولـٰكن الذي نقول به أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ باطن القدرة والإرادة والمشيئة ، نتحقق من صفاته بتدبير خلقه وكلٌّ مسخرٌ لما خلق له ، وهـٰذه المخلوقات تثبت أن ٱلله حق ظاهر ، فهو ظاهر بحسب النظر إلىٰ وجود الحق ، وهو باطن بحسب النظر إلىٰ وجود الخلق ، فظاهر الحق باطن الخلق وباطن الخلق ظاهر الحق ، ومهما تضاءلت الأمثلة التي نضربها من المخلوقات الهينة البسيطة التي لا تكاد تقع العين عليها إما لضعفها أو لصغر حجمها للدلالة علىٰ كون ٱلله باطناً في هـٰذه الآيات من الخلق فإننا لا ننظر إلىٰ أنفسها وأشكالها ومناظرها ومحلها ولا إلىٰ أقدارها وقيمها ولا إلىٰ وقعها في نفوس وعقول الناس ، وإنما ننظر لما وضع ٱلله عز وجل فيها من دقة الخلق وقدرة التكوين للدلالة علىٰ أنه باطن ، وعلىٰ إتقان صنعه ، وعلىٰ عجيب تدبيره ، وعلىٰ لطيف حكمته ، وفيما استخزنها من عجائب المعارف ، وأودعها من غوامض الإحساس ، وسخر لها من عظام المنافع والمرافق ، ودل بها علىٰ أن الذي ألبسها ذلك التدبير ، وأودعها تلك الحكم ، التي يجب أن نفكر فيها ؛ ونعتبر بها إنما هو البارئ المصور الذي برأها وصورها وكونها ، فإذا نظرنا إلىٰ هـٰذه العجائب التي تتجلىٰ في الخلق علمنا أن ٱلله عز وجل عندها وفيها ومعها وفوقها ومحيط بها خارج المادة والزمان والمكان ، فقد غشىٰ ظاهرها بالبرهان ، وعم باطنها بالحكمة ، وشوَّق للنظر فيها والاعتبار بها ؛ ليعلم كل ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سدىٰ ؛ ولم يترك الصور هملاً ؛ وليعلموا أن ٱلله عز وجل لم يدع شيئاً غفلاً غير موسوم ، ونثراً غير منظوم ، وسدىً غير محفوظ ؛ وأنه لا يخطئه من عجيب تقديره ، ولا يعطله من جمال تدبيره ، ولا من زينة الحكمة وجلال قدرة البرهان ، ثم كان هـٰذا الإعجاز متساوياً بين كبيرها وصغيرها وجليلها ودقيقها وعظيمها وهيّنها من البعوضة فما دونها إلىٰ الكواكب فما فوقها ، وهو دليل علىٰ أنه باطن بقدرته يتجلىٰ في آياته ومخلوقاته التي نعلمها ومخلوقات

لا نعلمها فهو سبحانه يخلق ما لا نعلم ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . وهنا يتجه الكلام إلىٰ وجوه مختلفة للدلالة علىٰ قدرته تعالىٰ بأنه باطن ، أحدها أن تكون هناك ضروب من الخلق لا يعلم مكانها كثير من الناس ، ولابد أن يعرف ذلك الخلق معنىٰ نفسه ومعنىٰ وجوده ولماذا خلق ، أو يعلمه صفوة جنود ٱلله وملائكته ، أو تعرفه الأنبياء ، أو يعرفه بعض الناس لتخصصهم في مجال معين ، وقد يكون ٱلله عز وجل إنما عنىٰ بذلك أنه خلق أسباباً ، ووهب عللاً ، وجعل ذلك رافداً لما يظهر لنا من نظام الخلق العجيب ، وكل ما نسوق من أدلة سواء أكانت من النصوص أم من الاستنتاج أم التحليل فكلها تدل أن ٱلله باطن في جميع صفاته ، ومن حكمته أنه باطن ولولا كونه باطناً فكيف نفهم أن ٱلله تعالىٰ واحد لا شريك له و فرد لا مثل له و صمد لا ند له وأزلي قائم ، أبدي دائم ، لا أول لوجوده ، ولا آخر لأبديته ، قيوم لا يفنيه الأبد ، ولا يغيره الأمد ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، منزه عن الجسمية ليس كمثله شيء ، وهو فوق كل شيء ، وفوقيته لا تزيده بعداً عن عباده ، وهو أقرب إلىٰ العبيد من حبل الوريد ، وهو علىٰ كل شيء شهيد ، وهو معنا أينما كنا ، لا يشابه قربه قرب الأجسام ، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام ، منزه عن أن يحده زمان ، مقدس عن أن يحيط به مكان ، حي قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، له الملكوت والعزة والجبروت ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا تحصىٰ مقدوراته ، ولا تتناهىٰ معلوماته ، عالم بكل شيء ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السمٰوات ، يعلم السر وأخفىٰ ، ويطلع علىٰ هواجس الضمائر وخفيات السرائر ، مريد للكائنات ، و مدبر للحوادث ، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير ، ولا جليل ولا حقير ، من خير أو شر ونفع أو ضر ، إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فهو

---

(1) النحل ، 8 .

المبدئ المعيد الفعَّال لما يريد ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له علىٰ طاعته إلا بمحبته وإرادته . لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين علىٰ أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا ، ولو اجتمعوا لصنع ذبابة لفشلوا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (1) . سبحانه إنه هو السميع البصير المتكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه ، وكل ما سواه سبحانه وتعالىٰ ، فهو حادث أوجده بقدرته ، وما من حركة ولا سكون إلا وله في ذلك حكمة دالة علىٰ صفة من صفاته وقد تضمنتها صفة الباطن حكمة وإرادة ومشيئة وقدرة ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (2) ، وهـٰذا التقدير الذي قدره ٱلله تعالىٰ في هـٰذا الكون الذي هو باطن ظاهر فيه ، قدّر أيضاً للإنسان عقلاً يدرك هـٰذا التقدير ، والعقل جوهر مضيء في ذات الإنسان خلقه ٱلله عز وجل في الدماغ ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة . وهـٰذا العقل ينقسم إلىٰ قسمين :

قسم لا يقبل الزيادة والنقصان ، وقسم يقبلهما .

فأما الأول : فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء .

---

(1) الحج ، 73 ـ 76 .
(2) الفرقان ، 1ـ2 .

وأما الثاني : فهو العقل التجريبي وهو مكتسب ، وبعبارة أخرىٰ هو ما يتمثل بالذكاء الفطري والذكاء المكتسب ، فالذكاء الفطري أو العقل الفطري يكاد يكون متساوياً لدىٰ جميع العقلاء إلا ما ندر كالأنبياء المكلفين ومن دونهم الذين يمثلون أعلىٰ درجات العبقرية ، ومن هـٰؤلاء يكون الخليفة الذي يدرك بواطن الأمور وخفاياها ومكامنها التي غابت عن أمثاله من الخلق ، وبهـٰذا يكون قد اتصف بصفة الباطن النسبية ، وأما الذكاء المكتسب فهو الذي تحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع والخبرة ، وباعتبار هـٰذه الحالة فإن الإنسان الطاعن في السن يكون أكمل عقلاً وأتم دراية ولهـٰذا نقول أصبح فلان شيخاً ، لأن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة بتجاربه وتعلمه من ميادين الحياة ، ولهـٰذا قيل : من بيضت الحوادث سواد لمته ، وأبلت التجارب لباس جدته ، وأراه ٱلله تعالىٰ بكثرة ممارسته ، تصاريف أقداره وأقضيته كان جديراً برزانة العقل ورجاحة الدراية . وقد يخص ٱلله تعالىٰ بألطافه الخفية من يشاء من عباده ، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً علىٰ ذوي التجارب والآداب ، وبهـٰذا يكون بالنسبة لغيره عليماً ببواطن الأمور أو توقع ما يمكن أن يحدث في قضية معينة قبل حدوثها ، ووفق هـٰذه الصفات الباطنة يختار ٱلله سبحانه وتعالىٰ خليفته في الأرض ، فتدركه من ٱلله عناية ، ويحفه رعاية ، فمن سبقت له سابقة من ٱلله تعالىٰ في قسم السعادة أشرقت علىٰ باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية ، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه ، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه ، وإن كان حديث السن قليل التجربة ، فما بالك عندما يكون مكتمل العقل والسن والتجربة ، ثم يمنحه ٱلله تعالىٰ هـٰذه الصفات فلا شك أنه هو خليفة ٱلله في أرضه ، وإليه أوكل إعمار الأرض وإقامة العدل وإحقاق الحق وجميع ما أمر ٱلله به من خير ، فالخليفة يدرك ذلك بباطنه ويعلم أنه مكلف مأمور .

إن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر

وإيمان وكفر وطاعة ومعصية ، فكله بقضاء ٱلله وقدره وقربه وإحاطته وظهوره وبطونه ، فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب علىٰ بطنه ورجليه ، ولا تطن بعوضة ولا تسقط من ورقة إلا وهو يعلمها ، وهي بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته ، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به . و أن كل ما قضاه ٱلله تعالىٰ وقدره ، فهو كائن لا محالة ، كما أن ما في علم ٱلله تعالىٰ يكون فهو كائن قريب ، وما قدر ٱلله من خير لأحد فلا يحصل إلا بسبب ، وهـٰذا السبب إما أن يكون عن طريق الدعاء ، وإما أن يسخر ٱلله تعالىٰ أحداً من خلقه يجعله سبباً في هـٰذا الخير بما كان في قدر ٱلله وقضائه ، وهـٰذا واضح جلي في أن ٱلله تعالىٰ قريب من أنبيائه وأوليائه وخلفائه خاصة ، ومن عباده عامة ، فعندما نقف علىٰ قصة مريم ورعايته لها وإحاطته بها ، يدل علىٰ أنه باطن ، فقد أمرها أن تأخذ بالأسباب فقال تعالىٰ : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ۝٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [(1)] ، لقد ذهبت بحملها إلىٰ مكان بعيد عن الناس لأنه المكان الذي أُمرت أن تذهب إليه ويوجد فيه النخل وهو المكان الشرقي البعيد وكان مأهولاً من بعض المتعبدين ، فألجأها ألم الولادة والطلق إلىٰ جذع النخلة لتستند إليه وتستتر به ، وتمنت لو أنها كانت ماتت قبل هـٰذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت ، حياء من الناس وخوفاً من لومهم ، وكان شيئاً منسياً ، لأن الناس لا يعرفون الحقائق ولا يعذرون ، فناداها عيسىٰ عليه الصلاة والسلام من تحتها ، حيث أنطقه ٱلله ، لا تحزني بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومن الألم ، ومما يقوله الناس ، فقد جعل ربك تحتك إنساناً شريفاً رفيع القدر والشأن وهزي النخلة يتساقط عليك الرطب الطيب ، والرطب فيه الغذاء الكافي الذي لا يحتاج الإنسان معه إلىٰ أي مادة غذائية أخرىٰ لاستمرار حياته حيث يحتوي الرطب علىٰ جميع العناصر الغذائية التي يتطلبها الجسم من السكريات والنشويات

(1) مريم ، 24 ـ 25 .

والبروتين والحديد والكلس والفيتامينات وكل مغذٍّ مفيد ونافع ، وهـٰذا لا يجتمع في أي ثمرة علىٰ الإطلاق لذلك يعيش عليه خلق كثير ، فكلي من ذلك الرطب ، واشربي من الماء عندك وطيبي نفساً ، فإن رأيت أحداً من البشر ينكر عليك أمرك ، فأفهميه بأنك نذرت لله الصوم عن الكلام وأنك لا تكلمين اليوم أحداً ، ومن هـٰذا نتيقن أننا عندما نرىٰ الظاهر فإننا نستدل عليه بالباطن ، فهـٰذا البطون في جانب الخير ، غير أن ٱلله سبحانه سبب الأسباب وأمر بالأخذ بها حتىٰ لا يعمد الخلق إلىٰ التواكل ، والتواكل غير التوكل الذي أُمرنا به ، وأما نقيض الخير الذي يصيب الناس فبما كسبت أيديهم ، فما كان من مصيبة تصيب أحداً إلا بعلم ٱلله وقضائه وقدره ، فهو باطن في علمه بما قدره علىٰ العباد ، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (1) ما أصابك من خير ونعمة فمن ٱلله تفضلاً منه فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافئ نعمة الوجود فكيف يقتضي غيره ، وما أصابك من بلية وشيء تكرهه فمن نفسك لأنها السبب فيها لاستجلابها المعاصي وهو لا ينافي قوله تعالىٰ : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فإن الكل منه إيجاداً وإيصالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام ، وما من مسلم يصيبه أذىً أو مكروه إلا بذنب اقترفه ، فيكون ذلك كفارة عن ذنبه وما يغفر ٱلله أكثر ، وأمّا ما يصدر من الإنسان من عمل فهو مخير فيه إذ لا علاقة للخالق بما تجني يد المخلوقين ، وأما الذين يقولون هو قضاء ٱلله وقدره علىٰ هـٰذا الإنسان أو ذاك بأن يفعل ويعمل من الخير أو الشر ما كتبه ٱلله له أو عليه ، فنقول إن القضاء والقدر هو علم ٱلله المسبق لما سيحدث قبل حدوثه فهو بعلمه الباطن قضاه وقدره ، وهو من عمل الإنسان بإرادته ذلك أن

---

(1) النساء ، 78 ـ 79 .

مراتب الأعمال أربع مراتب : مرتبتان منها لله تعالىٰ وليس للعبد فيهما مدخل وهما التقدير والخلق ، ومرتبتان منها للعبد هما الكسب والفعل ، فإن ٱلله تعالىٰ منزه عن الكسب وفعل السيئة فهما يتعلقان بالعبد ولـٰكن العبد وكسبه مخلوق خلقه ٱلله تعالىٰ كما قال : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (1) . أي خلقاً وتقديراً لا كسباً وفعلاً ، لذلك فإن بين الخليفة وبين غيره من الناس بون شاسع وفرق كبير في إدراك التمييز بين الفعل والخلق ، فالله تعالىٰ هو الذي يخلق الأفعال ولـٰكن الإنسان هو الذي يفعل الفعل ، فالخير والشر موجودان مخلوقان ، والإنسان بعقله يختار بإرادته ووعيه هـٰذا أو ذاك ، غير أن الخليفة كونه مكلفاً فبالضرورة أنه أعطي من ٱلله حكمة وفطنة وعلماً وبلغ إلىٰ ما لم يبلغه غيره وهـٰذا هو حق اليقين الذي يظهر من علامات الخليفة ، فقد أدرك ذلك بمشاهدة من الباطن التي هي أقوىٰ وأجلىٰ من مشاهدة الأبصار وترقىٰ فيها عن حد التقليد لمجرد السماع ، وحاله حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق ، وحال غيره حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة إلا بعد أن ظهر له البرهان .

فالنسبة للخليفة يكون علم الباطن بمثابة علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك هو سياسة الرعية وسلامة الحكم بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلىٰ الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالخليفة وقانونه في ضبط الناس علىٰ منهج العدل والسياسة في ناصية الحق . وهـٰذا بفضل ما أوتي من العلم الباطن ، والعلم الذي يحمله الخليفة علمان :

1 ـ **علم الدنيا** : هو من العلوم الظاهرة الشائعة .

---

(1) الصافات ، 96 .

2 ـ **وعلم الآخرة** : هو من العلوم الباطنة لأن الساعي إلىٰ ٱلله تعالىٰ لينال قربه يترفع عما هو عليه بقية الناس ، لأنه أوتي علماً باطنياً هو من أسرار ٱلله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة ، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولىٰ لذلك السر وبواسطته ملك الخليفة تلك اللطيفة ، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون به بل لا رخصة في ذكره ، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودر عزيز أشرف من هـٰذه الأجرام المرئية وإنما هو أمر إلـٰهي ، ومع أن كل المخلوقات منسوبة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ولـٰكن نسبته أشرف من نسبة سائر المخلوقات لحمله الأمانة وتأديتها علىٰ الوجه الذي أمر به ٱلله تعالىٰ ، والخلق والأمر جميعاً من ٱلله ، والأمر أعلىٰ من الخلق ، وطالما أن تأدية الأمانة أمر من ٱلله فهي أعلىٰ رتبة من الخلق ، والذي يحمل هـٰذا الأمر إنما هو جوهرة نفيسة حاملة لأمانة ٱلله تعالىٰ المتقدمة بهـٰذه الرتبة علىٰ السمـٰوات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها من عالم الأمر ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (1) ، فالخليفة أكثر ما يكون اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تفضي إلىٰ المشاهدة ، ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تتفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع ٱلله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة والانقطاع إلىٰ ٱلله تعالىٰ عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر علىٰ مجاوزة ما سمع

---

(1) الأحزاب ، 72 .

بكلمة غير أن الخليفة القائم بأمر ٱلله نفسه وعقله وقلبه يفتح ٱلله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب ، وذلك أن له صدراً منشرحاً وقلباً منفتحاً مدركاً ، ولولا إدراك قلبه للنور الباطن لما حكم علىٰ علم الظاهر ، فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر علىٰ قلب المتجردين للذكر والفكر وأن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وألطاف ٱلله تعالىٰ بالهمم العالية المتوجهة إليه ، فقد أدركوا كون ٱلله باطناً في كل شيء من خلال آيات الخلق التي تدل عليها هـٰذه الصفات ، فالله تعالىٰ دل بوجود آثاره علىٰ وجود أسمائه وبوجود أسمائه علىٰ ثبوت أوصافه وبوجود أوصافه علىٰ وجود ذاته ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ، فوجود الأثر يدل علىٰ وجود الباطن والظاهر والقادر والمريد والعليم والحق ، فالقادر يدل علىٰ قيام القدرة والمريد يدل علىٰ مشيئة القدرة وإرادتها والعليم يدل علىٰ معرفة منتهىٰ القدرة والمشيئة ، والحق يدل علىٰ عدالة هـٰذه الصفات والظاهر يدل علىٰ ظهورها والباطن يدل وجوده وإحاطته بها بحيث لا تفارقه ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ، فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر وثبت من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات ، والذين أدركوا حقيقة صفات ٱلله وتمثلوها من الأنبياء والأولياء والخلفاء فقد فتح ٱلله عين بصيرتهم وأطلعهم علىٰ مكنون سره فأفردوا الحق بالوجود وتجلىٰ أمام بصيرتهم كل موجود برؤية ٱلله من خلال صفاته وأثر تلك الصفات في مخلوقاته ، إذ محال أن تفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها ، فلزم من وجود الصفات وجود الذات وهـٰذا هو سر الخصوصية الذي خص ٱلله بها أنبياءه وأولياءه وخلفاءه ولم يشاركهم في ذلك غيرهم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [1] . الفاحشة هي

---

(1) الأنعام ، 151 .

نتاج ارتكاب الأعمال المحرَّمة والمنهي عنها ، والظاهر منها هو الظاهر من القول والفعل ، والباطن منها ما تكنه الصدور حيالها وهو باطن في غير محله ، ولذا كل ظاهر وكل باطن في غير محله هو محرم أو منهي عنه ولهٰذا قال ولا تقربوا : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

وأما الباطن فهو المدرك للأمر قبل وقوعه فمن حقيقة هٰذه الصفة كامنة في كل حركة وسكون أي أنها القوة التي تحرك الممتد والقوة الموقفة له ، ولذا فهو جل جلاله هو الظاهر في السلوك والعمل وهو الباطن من وراء كل سلوك وكل عمل ، ولأنه الباطن فهو يعلم ما في أنفسنا وما تكنه الصدور .

ومما تقدم نستطيع القول أن معنىٰ الباطن أيضاً هو علم السرائر والخفايا وهو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم ، فلا يدركه البصر ولا يحيط به وهم ، فهو العالم بكل ما بطن واختفىٰ بعد ظهوره في كل شيء من آيات خلقه ، فهو مبدأ الأشياء وإليه تنتهي فهو باطن القدرة فيها ، فنحن نقف علىٰ وجود مخلوقات دائمة الحركة من قوة الرياح وسيرها وشدة سرعتها أو بطئها وحركة الأمواج في البحار والمحيطات ، وهٰذه الكواكب السيارة وجميع هٰذه المخلوقات ذات قوة باطنة ندرك من خلالها صفة الباطن ، أو المحرك الأول إذا استخدمنا المصطلح الفلسفي ، ولٰكننا نقول بالمحرك الخالق الذي هو باطن بهٰذه القدرة ، وهو باطن علماً بكل شيء ، وظاهر بصفة القدرة علىٰ كل شيء ، إذاً فهو باطن ظاهر ، باطن العلم ببواطن الأشياء ، وظاهر عليها قدرة ومشيئة ، فله تلتجيء وإليه تنتهي بما خلق وقدر .

فإن قال قائل كيف يكون ظاهراً وباطناً في آنٍ معاً ، فأول حجة نسوقها من الأدلة علىٰ أنه ظاهر باطن هو وجود الروح التي لا ينكرها أحد ولا يدرك

(1) الأعراف ، 33 .

وجودها أحد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (1) . فالروح أعظم من تدركها العقول مع الإقرار بوجودها وهو دليل علىٰ أن الذات الإلـٰهية أعظم من تدرك بالحواس ، وإلا هل هناك من يرىٰ الروح بأم عينيه حتىٰ يقول نقول إنها ظاهرة وقابلة للمشاهدة . واعلم أن الكل (مسلم وكافر ومن هو بدون هوية) جميعهم يعلمون بالروح ولـٰكنهم لا يعلمون أمرها ، وذلك لأن أمرها باطن . فإن كان آية من آيات خلق ٱلله تعالىٰ لا تدرك بالحواس ، فإن جميع صفات الذات الإلـٰهية أعظم وأجل من أن تدرك بهـٰذه الحواس ، وإنما تدرك بآثار تلك الصفات ، وهـٰذا يعني أنه تعالىٰ ظاهر بأدلة الخفاء الباطنة التي تدرك بذات الحواس ، وهـٰذه الأدلة هي آياته في مخلوقاته ، فإن قال لماذا ؟ فنقول لأن كنه وحقيقة الخالق لا تتساوىٰ مع مادة وجوهر المخلوقين ، فكيف يستويان مثلاً لعاقل ، فهو باطن بدلائل قدرته في إيجاد الدليل(الخلق) .

ومن صفة العلم أنه باطن يؤتيه ٱلله لمن اصطفاهم من الأنبياء والأولياء والخلفاء وهو سر من أسرار ٱلله تعالىٰ يقذفه في قلوب من ألقىٰ عليهم محبته ولم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً ، ولأن العلم في معظمه باطن قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (2) ، أي : لم يكن منه إلا قليل ظاهر ، ولـٰكن هـٰذا القليل دائماً في حالة ازدياد وفقاً لقدرات الإنسان العقلية المحدودة ، ومع أنه في حالة ازدياد إلا أنه دائماً سيكون قليلاً إذا ما قورن بالعلم الكامل الذي لا يعلمه إلا العليم الحكيم . وهـٰكذا أمر الروح باطن أي لم يكن ظاهراً وذلك لانعدام خروجه عن أمر ٱلله عز وجل ، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ولأنها بأمر ربي

(1) الإسراء ، 85 .

(2) الإسراء ، 85 .

فهي باطنة في علمه لا يظهرها إلا هو ولا يعلم أمرها إلا هو سبحانه إنه علىٰ كل شيء قدير .

ولهـٰذا ليس بالضرورة أن من ملك ملكاً من الدنيا أن يكون له علم من الباطن ، ذلك أن علم الباطن هو هبة من ٱلله تعالىٰ وإلـهام منه للخليفة وفرق كبير بين الملك وبين الخليفة حيث نقف علىٰ ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (1) ، أراد هـٰؤلاء القوم من بني إسرائيل أن يكون لهم حاكم يجمع شملهم بعد تفرق ويقودهم تحت لوائه إعلاء لكلمة ٱلله واسترداداً لعزتهم ، ولما كان داوود عليه الصلاة والسلام في شك من صدق ادعائهم بما أوتي من علم الباطن سألهم ليستوثق من جدهم في الأمر ألن تجبنوا عن القتال إذا فرض عليكم ، فأنكروا أن يقع ذلك منهم قائلين كيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا وقد طردنا العدو من أوطاننا ، فلما أجاب ٱلله رغبتهم وفرض عليهم القتال أحجموا إلا جماعة قليلة منهم ، وكان إحجامهم ظلماً لأنفسهم ولنبيهم ولدينهم ، والله يعلم ذلك منهم ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : إن ٱلله استجاب لكم فاختار طالوت

---

(1) البقرة ، 246 ـ 248 .

حاكماً عليكم . فاعترض كبراؤهم علىٰ اختيار ٱلله قائلين كيف يكون ملكاً علينا ونحن أولىٰ منه ، لأنه ليس بذي نسب ولا مال ، فرد عليهم نبيهم ، إن ٱلله اختاره حاكماً عليكم لتوافر صفات القيادة فيه ، وهي سعة الخبرة بشؤون الحرب ، وسياسة الحكم مع قوة الجسم ، والسلطان بيد ٱلله يعطيه من يشاء من عباده ولا يعتمد علىٰ وراثة أو مال ، فبعلم ٱلله الباطن الشامل ، اختار ما فيه مصالحكم ، وهٰذا هو الإلهام والعلم الباطن الذي انكشف له في قلبه بهٰذا النوع من العلم ، لا من جهة المحسوسات الخارجية ، وإنما هو العلم الباطن الرباني الذي يأتي إلٰهاماً للمتقين ، وقد صرح القرآن بأن التقوىٰ مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم ، وخص ٱلله به خلقاً دون خلق فقال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) ، فليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً ، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس ، وهٰذا هو العلم الرباني وإليه أشار بقوله تعالىٰ : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (2) ، ومع أن كل علم من لدنه ولٰكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمىٰ ذلك علماً لدنياً بل العلم اللدني أو علم الباطن هو الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف ، غير أن قلب هٰؤلاء ممن ذكرنا والذين هم أهل للخلافة مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءىٰ فيها صورة بعد صورة ولا تحيد عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه بما أوتوا من العلم الموقوف عليهم وحدهم دون غيرهم ، وبهٰذا امتازوا عن باقي الخلق بذكاء القلب وسرعة البديهة ورجاحة العقل وإصابة الرأي والحزم في الأمور ، وأما غير هٰؤلاء ممن لا تتوافر فيه صفات الخليفة فإنما مداخل هٰذه الآثار المتجددة في قلوبهم فمختلفة تماماً ، إما من الظاهر حيث الحواس

---

(1) آل عمران ، 138 .

(2) الكهف ، 65 .

الخمس ، وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من المزاج الإنساني ؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر ، وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقىٰ وينتقل الخيال من شيء إلىٰ شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلىٰ حال آخر . والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً خاضع لهـٰذه الأسباب ، وأخَص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر ؛ ونعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار ، وما ينتج عنها من إدراكات علوم إما علىٰ سبيل التجدد وإما علىٰ سبيل التذكر فإنها تسمىٰ خواطر من حيث أنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها ، والخواطر هي المحركات للإرادات فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد أن خطر بنية الفعل بالبال لا محالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلىٰ ما يدعو إلىٰ الشر أي ما يضر في العاقبة ، وإلىٰ ما يدعو إلىٰ ما ينفع في الدار الآخرة ، فهما خاطران مختلفان فافترقا إلىٰ اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمىٰ إلـهاماً ، والخاطر المذموم الداعي إلىٰ الشر يسمىٰ وسواساً ، ثم إننا نعلم أن هـٰذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك علىٰ اختلاف الأسباب ، وهـٰذا ما عرف من سنة ٱلله تعالىٰ في ترتيب المسببات علىٰ الأسباب .

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلىٰ الخير يسمىٰ ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلىٰ الشر يسمىٰ شيطاناً ، واللطيف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلـهام الخير يسمىٰ توفيقاً والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمىٰ إغواء وخذلاناً ، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلىٰ أسامي مختلفة ، فالخليفة هو خلق خلقه ٱلله تعالىٰ وأسدىٰ عليه من النعم

والخير الظاهر والباطن ما لم يؤته لغيره من الخلق ، لذلك فهو مكلف بإفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك ، وأما الشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء ؛ والتخويف عند الهم بالخير بالفقر ، فالوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملَك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان أشار تعالىٰ بقوله : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [1] . إن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا ٱلله تعالىٰ فإنه واحد أحد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها ، وهـٰذا ليس مقصوراً علىٰ الذكر والأنثىٰ وإنما كل شيء وضده أو نقيضه أو ما يقابله ، فالإيمان والكفر والتقوىٰ والمعصية والخير والشر والإصلاح والإفساد وما إلىٰ ذلك من الأزواج التي خلقها ٱلله تعالىٰ من كل شيء خلق صنفين مزدوجين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثىٰ ، والسماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والصيف والشتاء ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والإنس والجن ، والنور والظلمة ، والأبيض والأسود ، والدنيا والآخرة ، والإيمان والكفر ، والسعادة والشقاء ، والحق والباطل ، والحلو والمر ، والموت والحياة ، والرطب واليابس ، والجامد والنامي ، والناطق والصامت ، والحلم والقهر ، والجود والبخل ، والعزة والذلة ، والقدرة والعجز ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والصحة والسقم ، والغنىٰ والفقر ، والضحك والبكاء ، والفرج والغم ، والفوق والتحت ، واليمين والشمال ، والأمام والخلف ، والحرارة والبرودة ، فيقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثىٰ في الحيوان المتزاوج زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج ، ولكل ما يقترن بالآخر مماثلاً له أو مضادا زوج ، وهو تنبيه علىٰ أن الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض ومادة وصورة وأن لاشيء يتعرىٰ منها إذ الأشياء كلها مركبة من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً وأنه

---

(1) الذاريات ، 49 .

لابد له من صانع تنبيهاً علىٰ أنه تعالىٰ هو الفرد الصمد لكل شيء والظاهر الباطن في كل شيء ، فبين أن كل ما في العالم هو زوج من حيث أن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً يخضع لقانون المادة من جوهر وأعراض وصورة وأبعاد ، والإنسان هو خلق مثله كبقية المخلوقات من حيث هـٰذا الذي ذكرناه في صفات ومواصفات الخلق ، إلا أنه يمتاز عنها من ناحيتين هما الخلْق والخُلُق ، فالأول هو الظاهر والثاني هو الباطن ، والإنسان هو خلق مثله كبقية المخلوقات من حيث هـٰذا الذي ذكرناه في صفات ومواصفات الخلق ، إلا أنه يمتاز عنها من ناحيتين هما الخلْق والخُلُق فالأول هو الظاهر والثاني هو الباطن فقولنا فلان حسن الخلْق والخُلُق ـ أي حسن الظاهر و الباطن ـ فيراد بالخلْق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلُق الصورة الباطنة ، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ، ولذلك عظم ٱلله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالىٰ : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (1) ، فنبه علىٰ أن الجسد منسوب إلىٰ الطين والروح إلىٰ رب العالمين ، والمراد بالروح والنفس في هـٰذا المقام واحد ؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلىٰ فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً وهـٰذه صفة الخليفة الذي أضفىٰ عليه ٱلله تبارك وتعالىٰ من العلم الباطن والحكمة ما يمكنه من إعمار الأرض وسياسة الناس ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً وإن صدر عنها بعض الحسنات ، لأن من يصدر عنه بذل المال اليسير في النَّزْر القليل لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء والكرم ما لم

---

(1) ص ، 71 ـ 72 .

يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإنما الشرط أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم ، وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة ، لأن نسبة القوة إلىٰ الإمساك والإعطاء في الضدين واحد ، وكل إنسان خلق بالفطرة قادر علىٰ الإعطاء والإمساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة ، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً علىٰ وجه واحد ، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل ، فالخُلُق إذاً عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك في الباطن هناك أركان لا بد من الحسن في جميعها حتىٰ يتم حسن الخُلق ، فإذا استوت الأركان والشروط واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل .

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هٰذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحميدة التي يؤتيها ٱلله تعالىٰ من يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (1) ، وأما قوة الغضب ، فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها علىٰ حد ما تقتضيه الحكمة ، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في

(1) البقرة ، 269 .

أن تكون تحت إشارة الحكمة ، بمعنىٰ إشارة العقل والشرع فيما أحل ٱلله ، فالعقل هو الناصح المشير ، وقوة العدل هي القدرة علىٰ الاختيار بين الحق والباطل ، فهي الأداة المنفذة لإشارة العقل ، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة ، فهو كالطفل الذي يحتاج إلىٰ أن يؤدب حتىٰ تسهل تربيته ويوجه بحسب الإشارة لا بحسب الرغبة وشهوة النفس ، والشهوة كالخيل فإنها تارة تكون مروضة وتارة تكون جموحة فتحتاج إلىٰ تقييدها بالحكمة ، فمن استوت فيه هـٰذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً واتصف بصفات الخليفة أو هو الخليفة نفسه ، ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق فقط ، بالإضافة إلىٰ ذلك المعنىٰ خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض . وحسن ضبط قوة الغضب واعتدالها يعبر عنها بالشجاعة ، وحسن ضبط قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنها بالعفة ، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلىٰ طرف الزيادة تسمىٰ تهوراً ، وإن مالت إلىٰ الضعف والنقصان تسمىٰ جبناً وخوراً ، وإن مالت قوة الشهوة إلىٰ طرف الزيادة تسمىٰ شرهاً ، وإن مالت إلىٰ النقصان تسمىٰ جموداً ، وهـٰذا لا ينطبق علىٰ الخليفة الذي ترفَّع عن شهوات النفس وجموح العقل بامتلاكه الحكمة التي هي أعلىٰ درجات حسن الخلق وأرفعها علىٰ الإطلاق وأكرمها خصالاً بما أوتي من العلم الباطن .

إن مظاهر الباطن جل شأنه تتجلىٰ في كل ما خلق من حيث أنه أبطن باطن قدرته في ظاهر خلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (1) ، فجميع ما ذكر في هـٰذه الآيات هو من الحوادث التي لها محدث وجوباً ، فالتأمل لهـٰذه المحدثات لابد أن يدرك أن وراء حدوثها قوة وقدرة ومشيئة وإرادة وهي التي تجعلنا ندرك أنه

(1) النازعات ، 27 ـ 33 .

باطن في هٰذه الآيات الكونية ، وإذا استغرقنا في هٰذا التأمل نقف مذهولين عندما نتيقّن من القدرة الخفية الباطنة فيها ، وسياق هٰذه الآيات ليس في مجال التحدي بين الخالق والمخلوق ، ولا في مجال المقارنة بين الشدة والرخاوة والقوة والضعف والصلابة واللين ، وإنما هو في مجال إظهار القدرة الباطنة للمنكرين ، فهل البعث والنشور أعظم من إيجاد هٰذه المخلوقات ، فالسماء خلقها وضم أجزاءها المتفرقة بعضها إلىٰ بعض ، ورفع أجرامها فوقكم ، فجعلها مستوية لا تفاوت فيها ولا خلل ، وزينها بالمصابيح التي ترونها والشموس والأقمار فأظلم ليلها وأظهر نهارها لتعلموا عدد السنين والحساب ومنافع أخرىٰ ، والأرض بعد ذلك بسطها ومهدها لسكنىٰ أهلها وأخرج منها ماءها بتفجير عيونها ، وإجراء أنهارها ونباتها ليقتات به الناس والدواب وثبت الجبال أوتاداً تمنع الأرض من أن تميد بكم ، فهل هٰذا يكون من الصدف أم من عجائب الخلق الذي أظهره الباطن لأمر يريد نفاذه ، وهو علىٰ ما نعتقد إظهار قدرة الباطن في ظواهره ، فشدة بناء السماء مثلاً بمعنىٰ الصعوبة لا بمعنىٰ الصلابة قياساً للخلق وليس قياساً للقدرة الباطنة لدىٰ الخالق ، لأن السياق في الآيات لا يلائم مقام التفاضل إذ ليس في القدرة الباطنة مجال مقارنة بين السهولة والصعوبة فالأمران بالنسبة إلىٰ قدرة ٱلله واحد فقد خلق السماء بلا مادة علىٰ عظمها وقوة تأليفها وانطوائها علىٰ البدائع التي تحار فيها العقول ، وذلك آية من آياته لأمر أراده ، ألا وهو التفكر وصولاً إلىٰ الإيمان الباطن الذي يكشف قدرة الباطن ، فالإيمان الباطن هو المؤدي إلىٰ الآخرة الموصل بأهله إلىٰ حميد العاقبة فقال فالإيمان بالله إيمان ظاهر وقع به الستر الظاهر وإيمان باطن وقعت به الخشية الباطنة ، والإيمان الظاهر إقرار اللسان بالتوحيد وموافقة جوارح الأبدان فرائض التوحيد ، هٰذا هو الإيمان الظاهر الذي يقع الستر الظاهر به ، وأما الإيمان الباطن الذي وقعت به الخشية الباطنة فهو إيمان القلب وهو علىٰ ثلاثة :

فالأول منها : التصديق لله فيما وقع به وعده ووعيده .

والثاني : حسن الظن بالله تعالىٰ من غير المعرفة والكيفية .

والثالث : هو الوثوق من عقد ٱلله وعهده مطلق الثقة .

وعليه التصديق إذا صح في القلوب وتمكن من عقائدها انفتق من هـٰذا نور فيه دلالة النفس علىٰ مكوّنها ، فإذا صح العلم فيها بأنها مكونة لا من شيء كوّنت ، دلها وجود ما علمته من خلقها علىٰ الشيء المغيب عنها أنها أعجب مما قد شاهدته بنظر ، فها هنا سكن القلب إلىٰ تصديق الباطن عز وجل بالباطن من العلم فيما وقعت به المعرفة ، وينصرف الهم إلىٰ تجريد العناية إلىٰ ما وقع به أمر الباطن ونهيه جل شأنه ، ومن علم المعرفة بالله أن ٱلله عز وجل أحسن إليه في خلقه تفضلاً منه عليه لا باستحقاق عمل متقدم كان منه إليه فيكون مبتدؤه به من نعمة الخلقة أنها تفضل من ٱلله عليه أقام النظر من العقل الباطن في الأشياء فينظر إلىٰ كل ما قعد به الجهل ، عن معرفته من العلم الذي يحتاج إلىٰ تقوية معرفته وإلىٰ طلب الازدياد في تصديق الباطن وحسن ظنه بما يجري به تدبيره فيه ، علم أن وهن تصديقه وضعف حسن ظنه من جهله به ، وفي هـٰذه المرحلة من الإيمان الباطن تنهتك أستار الجهل وتقع البصيرة في النظر الذي كشف عن ضرر الجهل ، والإيمان الباطن الذي لا يرقىٰ إليه إلا من اختاره ٱلله تعالىٰ ليكون خليفة ، فهو يعلم تحقيق القلوب بالتيقن من إثبات الباطن بكمال أسمائه وصفاته ووجوب توحيده بأحديته السرمدية أبداً وأزلاً ، والإيمان تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب ، ومواهب الإيمان بوادي أنواره والملبس لأسراره ، وظاهر الإيمان النطق بألوهيته علىٰ تعظيم أحديته ، وأفعال الإيمان التزام عبوديته والانقياد لقوله ، والإنابة التزام الخدمة وبذل المهجة ، والرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم الموجد ، وحقيقة الرجاء الاستبشار لوجود فضله وصدق وعده ووعيده ، والزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي عن الأملاك إلا المُلك الواجب الذي أمر به ٱلله تعالىٰ من الخلافة ، وحقيقة

الزهد التبرم بالدنيا ووجود الراحة في الخروج منها ، والقناعة و الاكتفاء بما يكفي ، لأن ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ ، وحقيقة القناعة ترك التشوق إلىٰ المفقود والاستغناء بما هو موجود ، وأن يعلم أن المذكور واحد والذكر مختلف ، ومحل قلوب الذاكرين متفاوتة ، وأصل الذكر إجابة الحق من حيث اللوازم فمن أطاع ٱلله فقد ذكر ٱلله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته ، ثم ينقسم الذكر قسمين ظاهر وباطن ، فأما الظاهر فالتهليل والتحميد والتمجيد وتلاوة القرآن ، وأما الباطن فتنبيه القلوب علىٰ شرائط التيقظ علىٰ معرفة ٱلله وأسمائه وصفاته ، وعلىٰ أفعاله ونشر إحسانه وإمضاء تدبيره ونفاذ تقديره علىٰ جميع خلقه ، ثم يقع ترتيب الأذكار علىٰ مقدار الذاكرين ، فيكون ذكر الخائفين علىٰ مقدار قوارع الوعيد ، وذكر الراجين علىٰ ما استبان لهم من وعده ووعيده ، وذكر الخليفة علىٰ قدر ما انكشف له من كفاية الكافي له ، فذكر ٱلله منفرد وهو ذكر المذكور بانفراد أحديته علىٰ كل مذكور سواه ، وإفراد النطق بألوهيته لأن أفضل الذكر لا إلـٰه إلا ٱلله .

فعلم الباطن هو سر من أسرار الله تعالىٰ يقذفه في قلوب أصفيائه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً ، وطلب علم الباطن فريضة علىٰ أهله الذين يختارهم ٱلله لحمل أمانة وتأدية وديعة أودعها ٱلله في يقين هـٰؤلاء الذين هم أهل لهـٰذا العلم ، وهم الذين اختارهم ٱلله بعلمه الباطن ليكونوا قوامين بما أوتوا من العلم الباطن ، وهو مخصوص لأصحاب اليقين الثابت ممن صفت نيته ونقيت سريرته واستنار قلبه واتقد ذهنه فانكشف له من العلم الباطن ما لم ينكشف لغيره وهـٰؤلاء هم صفوة الصفوة من الخلق بعد الأنبياء صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، ومن هـٰؤلاء يكون الخليفة بما فضله ٱلله تعالىٰ علىٰ غيره وبما أوتي من علم الباطن وهو العلم اليقيني فكان أرفع درجة وأعلىٰ منزلة وأعظم قدراً وأكثر مهابة واشد طاعة وأخلص نية وأنفذ بصيرة وأفضل حزماً وأمضىٰ عزماً وأصوب رأياً بما خصه ٱلله من علم حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (1) . فالله تعالىٰ يرفع العلماء درجات خاصة بسبب العلم للدلالة علىٰ علو شأنهم وسمو مكانهم حتىٰ كأنهم جنس آخر وهم طبقات عالية ومراتب مرتفعة بسبب ما جمعوا من العلم والعمل لعلو درجة علمهم فعلت منزلتهم بعلو علمهم لذلك يقتضي جزاء العمل المقرون بهـٰذا العلم مزيد رفعة لا يدرك شأنها ومكانتها من كان عمله بالعلم الظاهر العادي وإن كان في غاية الصلاح ، ولذا كان من الواجب الاقتداء بعلم هـٰؤلاء وأفعالهم وأعمالهم ولا يُقتدىٰ بغيرهم ، وذلك بسبب أنهم أصحاب العلم الباطن اليقيني الواجب اتباعه ، لأنهم أوتوا علم اليقين ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين بعلم الباطن المخصوص في قلوب أهل المعرفة ، وهو علم باطن في القلب ، وهو العلم النافع الذي رفع ٱلله به هـٰؤلاء لترفّعهم عن العلم الظاهر المباح ، وهو العلم الذي ينال منه القاصي والداني ، أما علم الباطن فهو خاص بالصفوة من الخلق ، لذلك فإن علم الظاهر من علوم المُلك وعلم الباطن من علوم الملكوت ، ونعني به أن ذلك من علم الدنيا لأننا نحتاج إليه في أمور الدنيا ، وعلم الباطن من علوم الدنيا والآخرة ، وكونه من علوم الدنيا ، لأن الخليفة يصلح به البلاد والعباد ، وهو من علوم الآخرة لأنه من زادها وهو المفتاح إلىٰ باب الرضوان ، وعلم الظاهر يظهر في اللسان ، وعلم الباطن يكمن في القلب ويرسخ في الجنان ، ولأن اللسان ظاهر فهو من المُلك وهو خزانة العلم الظاهر ، والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن ، فقد صار فضل العلم الباطن علىٰ الظاهر كفضل الملكوت علىٰ المُلك وهو الملكوت الباطن الخفي ، وكفضل القلب علىٰ اللسان وهو الظاهر الجلي ، وبفضل ما أوتي هـٰؤلاء من العلم الباطن فقد جعل ٱلله تعالىٰ لهم نورين : أحدهما ظاهر ، والآخر باطن ، فظاهره آلةٌ لباطنه ، وباطنه عدّةٌ لآخرته ومعاده ، فمن نور العلم الظاهر طلب المعاش

(1) المجادلة ، 11 .

وإصلاح الشأن ، واستصلاح الأمور ، ودفع المضارّ عمّن هم في ولايته ورعايته ، والتحفّظ من الموارد المهلكة في العاجلة ، ومن نور العلم الباطن طهارة القلب ، وإخلاص النيّة لله ، واستحضار ما وعد ٱلله علىٰ طاعته من ثوابه والخوف مما أوعد من العقاب ، واختيار العفو في الانتقام ، والأناة علىٰ الإقدام ، ونفي الأحقاد ، وإطفاء نار الحسد ، وإيثار الصّدق الذي هو منجاة الدارين ، والوفاء لأصحاب العقود وأهل الثقة ، والحياء لأن ٱلله حييٌّ يحب الحياء ، وخلع طاعة الشّهوات لأنها من المهلكات ، وقمع شهوة النفس لأن النفس أمّارة بالسوء ، واستشعار القناعة لأن القناعة تبعد عن الدنيا وتقرب من الآخرة ، وإجلال العلماء فهم ورثة الأنبياء ، وتفضيل العلم ، وأخذ النّفس بوظائف الترويض علىٰ طاعة ٱلله ، وهـٰذا هو النّور الرّوحانيّ الذي يشعه العلم الباطن في النفس وتتجلىٰ به الروح ، فتجعل صاحبه يتمسّك بسلامة العقيدة وعمق الإيمان وإقامة الدين وحسن السيرة ونقاء السريرة ومحاسن الخصال وكرم الأخلاق ، وكلما استحكم العلم من الإنسان ، دقّت رويّته ، وصفىٰ ذهنه وانشرح صدره وأنور قلبه فتضيء له الدنيا لتريه طريق الآخرة وهـٰذا جُلّ مراده ومنتهىٰ مبتغاه وأقصىٰ ما يرجوه من الذي منحه هـٰذا العلم الذي بزَّ به أقرانه فحق له أن يكون خليفة . وهنا يكون جلّ سعيه فيما يحرز من إعمار الأرض وإصلاح الناس والدعوة إلىٰ الحق الذي لا نهاية له ، لأنه ماضٍ إلىٰ يوم القيامة ، ليبلغ ما يقيم به العدل ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً ، فهـٰذا همه وشغله ومبتغاه ولذلك وجب عليه وعلىٰ أمثاله من أُولي الألباب والمعرفة رفض الدّنيا ، والأخذ منها بالنصيب الطيب ، والانشغال بما هو مكلف به في إحراز حظّه الذي يستريح بالوصول إليه من ألم الدنيا إلىٰ نعيم الآخرة ، ووجب عليه كذلك الصبر علىٰ مكابدة النّوائب النازلة ، والفواجع الواردة ، إذ علم بعلمه الباطن أنّ لها انقطاعاً لا محالة ، وأنّ دوائر الأيام تسلبها ، والليالي تزيلها وتغيّبها ، فإذا صحّح هـٰذا عنده باليقين استخفّ بالمكاره ، واستحقر عظيم المصائب ، ولم يطمع من الدنيا إلا بما يوصله للآخرة ، وبهـٰذا يكون قد أعطىٰ

هـٰذا العلم حقه ، وأخذ منه نصيبه الذي نذر نفسه لأجله ، فيصل إلىٰ مطلبه وينال مبتغاه من رضوان ٱلله تعالىٰ في حق هـٰذا العلم ، الذي هو أصلاً أدّىٰ حقه بنشره وإقامته ، لأنه يعلم بما أوتي من العلم أن زكاة العلم نشره .

إن صفة الباطن عز وجل كما ذكرنا شاملة محيطة ، فهي شاملة لكل شيء من حيث العدد والإحصاء ، ومحيطة بكل شيء من حيث الحجم والزمان والمكان غير داخلة بأيٍ منها احترزاً ، إذ لا يغيب عنه مثقال ذرة في السمـٰوات ولا في الأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر إلا في كتاب مبين ، فمن حيث العدد والإحصاء المتضمن علم ٱلله الباطن جاء قوله تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [1] . إن كل ما في السمـٰوات والأرض من مخلوقات هم عبيد ٱلله عدهم وأحصاهم وهو أهون عليه ، فإذا قال المنكرون كيف يكون ذلك فنقول : بما أن الصانع يعلم أعداد صناعته فمن باب أولىٰ وأقرب لفطرة العقل السليم أن الخالق عز وجل أعلم بعدد خلقه هـٰذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ طالما أنه هو خالقهم فبالضرورة طوعاً أو كرهاً أن ينقادوا لحكمته ، ويخضعوا لإرادته ، فقد أحاط بهم جميعاً وبأعمالهم ، وعدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم ، فلا يخفىٰ عليه أحد منهم ولا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم وهم جميعاً يجيئون إليه يوم القيامة مجتمعين و منفردين ، فاجتماعهم دلالة علىٰ البعث والنشور ، وانفراد كل واحد منهم علىٰ حدة دلالة علىٰ الحساب ، فكل من في السمـٰوات والأرض خاضع لألوهيته منصاع لإرادته ، فالخلائق كلهم عبيده ، عدّ عليهم أنفاسهم وأحصىٰ أيامهم وعلم آثارهم فلا يخفىٰ عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته مجتمعين ، وهـٰذا هو النوع الأول من الإحصاء ، وهو الإحصاء الجماعي للخلق وبالتالي

---

(1) مريم ، 93 ـ 95 .

فهو الاستحضار الجماعي الذي يدلل علىٰ عظمة الباطن ، ثم بعد ذلك يأتي كل واحد عبداً ذليلاً خاضعاً ، ليس معه من أحوال الدنيا شيء وهٰذا هو الإحصاء الفردي الذي يدلل علىٰ علم الباطن ، فقد علم تفصيلاً بما عندهم ، فعلم عدد الموجودات كلها ، لا يغيب عنه شيء منها ولا من أعمالها فهو إحصاء لا يغيب منه شيء ، وإحاطة لا يفرط بأحد منهم في شيء . والأصل في أنه أحصىٰ عدد كل شيء علىٰ ما نرىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [1] . إن فائدته في بيان أن علم ٱلله تعالىٰ بالأشياء ليس المقصود منه في هٰذا المقام علماً كلياً إجمالياً ، بل المقصود هنا العلم الجزئي التفصيلي لأن الإحصاء يراد به العدد الكلي مجتمعاً والإحاطة الإجمالية التامة ، ولتوضيح المسألة نأخذ مثلاً بسيطاً وهو الدائرة المعروفة في علم الهندسة ، وهي عبارة عن خطٍّ منحنٍ يلتقي طرفاه بأبعاد متساوية عن مركز هٰذه الدائرة ، وهٰذا الخط المنحني الذي يحصر المساحة التي تتوزع من مركز الدائرة بأبعاد متساوية إلىٰ أن تتداخل مع ذلك الخط المنحني الذي نسميه محيط الدائرة ، بمعنىٰ أنه ليس هناك نقطة واحدة من مساحة الدائرة إلا وقد أحاط بها ذلك الخط ، لذلك يسمىٰ هٰذا الخط محيطاً ، فإذا كانت هٰذه المساحة مجموعة من النقاط ـ وهو كذلك ـ ونبدأ نعدُّ هٰذه النقاط وكلما اجتمعت لدينا مجموعة منها وضعناها علىٰ حدة ، فهٰذا هو الحساب ، فإذا جمعنا عدد المجموعات نكون قد أحصيناها ، فإذا وضعناها ضمن هٰذا الخط المنحني نكون قد أحطنا بها ، أي لم يبقَ شيء خارج هٰذا المحيط من هٰذه النقاط إلا وأحصيناه إحاطة ، فإذا غادرنا هٰذه الدائرة ومحيطها إلىٰ العالم الخارجي وما فيه من مخلوقات يصل حجم بعضها إلىٰ أصغر من الذرة ، وحجم البعض الآخر إلىٰ أكبر من الشمس نستطيع أن نقف علىٰ علم ٱلله الباطن الذي قد أحاط بكل شيء علماً حيث قال تعالىٰ :

---

(1) مريم ، 93 ـ 95 .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ (1) ، فهو الذي أوجدها فأحصاها عدداً وأحصىٰ كل ما خلق ، وعرف عدد ما خلق وأفعال من خلق كبيرها وصغيرها وجليلها ودقيقها ولم يفته علم شيء لا من ظاهرها ولا من باطنها إلا في كتاب مبين أحصاه ٱلله ونسوه ، فما فرط سبحانه وتعالىٰ في شيء . فبالإضافة إلىٰ ما تشير إليه الآية الكريمة من علم ٱلله الباطن وإحاطته بكل شيء ، فإنها تأمر بتعلم العلم من أجل الوصول إلىٰ بعض العلم الباطن لبعض الخلق من البشر وهو أمر من ٱلله تعالىٰ بقوله : لتعلموا ، حيث نستدل من السياق علىٰ أن هناك أشخاصاً مأمورين ومكلفين بتعلم هـٰذا العلم واستنباطه ، وهـٰؤلاء نعرفهم من أوصافهم وسماتهم وأعمالهم ، ومن هـٰؤلاء يكون الخليفة لما تتوفر به من سمات هـٰذا العلم الموهوب هبة وليس كسباً ، فعلمهم الباطن يكون للّه خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة من ٱلله ، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة ودليلهم علىٰ السرّاء ومنجاتهم من الضرّاء والحسن عند الأخلاء والأعداء ، والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفعهم اللّه تعالىٰ به فيجعلهم في الخير قادة وهداة يقتدىٰ بهم وأدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أعمالهم ، وتكون أفعالهم مناراً لغيرهم ، وينتهي كل رأي إلىٰ رأيهم وترغب الملائكة في مجالستهم وتحفهم بأجنحتها حتىٰ كل رطب ويابس يستغفر لهم وحتىٰ حيتان البحر وهوامه وما يدب علىٰ البر غير الثقلين ، والسماء ونجومها ، كل ذلك لما يحمل من العلم الباطن ، لأن هـٰذا العلم حياة القلوب من العمىٰ ونور الأبصار من الظلم وقوّة الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلىٰ ، فبه يطاع اللّه تعالىٰ وبه يعبد وبه يوحد وبه يتورع ، فهـٰذا هو العلم الباطن الذي يناله صفوة خلق ٱلله الذين منهم الخلفاء ، إذ أن الخليفة

---

(1) الطلاق ، 12 .

أوتي من العلم علىٰ قدر ما هو مكلف به ، ولما كان الخليفة هو القائم بأمر ٱلله تعالىٰ في أرضه إصلاحاً وإعماراً كان حقيقاً علىٰ ٱلله أن يكرمه بهٰذه الدرجة من علمه الباطن ليعلم ما لا يعلمه غيره من الخلق ، إذ أن هٰذا العلم هو نوع مخصوص لأناس مخصوصين بما أوتوا من الحكمة والصبر ، فهم أهل الذكر للّه تعالىٰ وأهل التوحيد والعقل والحكمة والطاعة والتقوىٰ بما أوتوا من اللّه جل جلاله ، فلم يكونوا يتلقون هٰذا العلم دراسة لا من الكتب ولا يتلقاه بعضهم من بعض بالألسنة إنما كانوا أهل عمل وحسن معاملات فكان أحدهم إذا انقطع إلىٰ اللّه تعالىٰ واشتغل به واستعمله المولىٰ بخدمته بأعمال القلوب ، وكانوا عنده في الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه ولا يشتغلون بغيره ، فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم اللّه تعالىٰ رشدهم ووفقهم لسديد قولهم وآتاهم الحكمة ميراثاً لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهممهم العالية فآثرهم بحسن توفيقه أن ألهمهم حقيقة العلم وأطلعهم علىٰ مكنون السر حين آثروه بالخدمة وانقطعوا إليه بحسن المعاملة ومداراة الخلق وسياستهم ، فكانوا يجيبون عما يُسألون عنه بحسن أثرة اللّه تعالىٰ لهم وبجميل أثره عندهم ، فتكلموا بعلم القدرة وأظهروا وصف الحكمة ونطقوا بعلوم الإيمان وكشفوا بواطن الخفايا ، وهٰذا هو العلم النافع بين العبد وبين الله تعالىٰ وهٰذا العبد هو الخليفة الذي يلقاه ٱلله تعالىٰ به ويسأله عنه ويثيبه عليه وهو ميزان جميع الأعمال ، ولهٰذا لا تخلو الأرض من خليفة قائم لله تعالىٰ بحجة ، إمّا ظاهرة مكشوفة وإما باطنة مكتومة لئلا تبطل حجج الله تعالىٰ وبيّناته ، ولذلك يكون من الأقلين عدداً والأعظمين قدراً أعوانه قليلون يظهره ٱلله بهم و يحفظ اللّه تعالىٰ به حججه حتىٰ يودعها نظراءه وأمثاله من أهل الثقة حتىٰ يقضي ٱلله أمراً كان مفعولاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ

وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [1] . ولهـٰذا أوقفه العلم علىٰ حقيقة الأمر فباشر روح اليقين فاستلان الصعب وأنس بما استوحش منه الغافلون عن حقيقة الأمر ، فصحب الدنيا بروح معلقة بالملأ الأعلىٰ لأنه من أولياء الله ومن خلقه وعماله في أرضه والداعي إلىٰ دينه ، فهـٰذه كلها أوصاف علماء الآخرة وأوصاف الخليفة الذي يحمل علم الباطن وهو علم القلوب لا علم الألسنة .

ومن مظاهر صفة الباطن أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يبدي باطن النعم من ظاهر النقم ، ولا يدرك هـٰذا الأمر إلا ذو حظ عظيم ممن أوتوا العلم الباطن حيث يدركون أن ٱلله تعالىٰ اختارهم علىٰ علم ليقينهم وهم يعلمون أن الأجر علىٰ قدر المصيبة وهو الابتلاء الذي لا يدرك حقيقته والغرض منه إلا الراسخون في العلم ، فنحن بني البشر إذا أراد أحدنا أن يكلف شخصاً ما بأمر عظيم أو مهمة خطيرة فيحاول بداية أن يختبره بعمل بسيط ،فإن نجح في ذلك زاد له من صعوبة المهمة حتىٰ يعلم أنه أصبح أهلاً لما يريد أن يكلفه به من جسام الأمور وعظائم المهمات ، والذين لم يصلوا إلىٰ العلم الباطن ينظرون إلىٰ الأمر علىٰ أنه مصيبة تخلف مصيبة ، وما علموا أن هـٰذا الابتلاء هو إعداد للشخصية والنفسية من أجل التهيئة للتعامل مع ما سوف يواجهه مستقبلاً بالمهمة التي يكلف بها ، هـٰذا علىٰ مستوىٰ الإنسان العادي من البشر ، أما إذا كان المكلف من الذين اختارهم ٱلله لأمر يريد نفاذه فإن الابتلاء يكون أعظم وطأة وأشد ثقلاً ، فهـٰذا نبي ٱلله أيوب عليه الصلاة والسلام أرسل ٱلله عليه من جنوده الباطنة ما لا يحتمله غيره ، فأهلك ماله وولده وجسده ، ولم يبق من جسده

---

(1) الأنفال ، 42 ـ 45 .

سليماً غير الهيكل الفارغ من اللحم وبقي القلب واللسان والآذان والعينان علىٰ طاعة ٱلله التامة مع ذلك الهيكل الذي من نعيم ابتلائه شفي وتعافىٰ فضل من ٱلله ورضوانه ، ولهٰذا لما قصد المرض قلبه الذي هو منبع المعرفة ومعدن النبوة والخلافة ولسانه هو مصدر الذكر والتوحيد خاف أن ينقطع عن طاعة ٱلله وتسبيحه بالكلية فإنه كان من ضعف الحال بحيث لا يستطيع القيام للصلاة فلما انتهىٰ وقت الابتلاء وحصل الفناء التام في مقام الابتلاء ألهمه ٱلله الدعاء ليوصله إلىٰ أعلىٰ مرتبة فيتجلىٰ له في الباطن لصبره علىٰ ما كان أصابه من البلاء ، في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل فارهة ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده ولم يبق منه سليماً سوىٰ قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل ، حتىٰ عافه الجليس ، وأُفردَ في ناحية من البلد ، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوىٰ زوجته التي كانت تقوم بأمره ، وإن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم من الخلفاء والصالحين ، أي الأمثل فالأمثل ، يبتلىٰ الرجل علىٰ قدر دينه وعلىٰ قدر علمه وعلىٰ قدر صبره ، ومع ذلك ليس لنا بدٌّ إلا أن ندعوه ونحن نقول : لا يكلف ٱلله نفساً إلا وسعها ثم ندعوه بعدم المؤاخذة إن نسينا أو أخطأنا وأن لا يحمل علينا إصراً كما حمله علىٰ الذين من قبلنا وأن لا يحملنا مالا طاقة لنا به ويعفو عنا ويغفر لنا ويرحمنا إنه مولانا فنعم المولىٰ ونعم الوكيل ! قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [1] . ونحن

(1) البقرة ، 285 ـ 286 .

نرىٰ أيوب عليه الصلاة والسلام لما أوتي من العلم الباطن ومعرفته بأن ظاهر النقم يكمن فيها باطن النعم لم يشكُ وكان يستبشر بكل ما أصابه ، حتىٰ أنه عندما دعا ٱلله كان في دعوته حياء شديد من ٱلله حيث كانت دعوته بصيغة النداء وليست بصيغة الدعاء تأدباً مع ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ (1) ، فقد كان عليه الصلاة والسلام ، غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك ، فعلىٰ الرغم مما أصابه لم يزدْ أن قال : أحمدك رب الأرباب ، الذي أحسنت إلي ، أعطيتني المال والولد ، فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كله مني ، وفرَّغت قلبي ، ليس يحول بيني وبينك شيء ، فقد أدرك بما يحمل من العلم الباطن أن هـٰذه النقم تحمل باطن النعم .

ومن هـٰذا الباب أيضاً قصة يونس عليه الصلاة والسلام التي تظهر أن عظم المصيبة من باب قرب الفرج ، أي أن النقمة تحمل بين طياتها وفي باطنها جزيل النعم حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) . لقد بُعث عليه الصلاة والسلام لقوم أشداء فتمادوا في إصرارهم مع طول دعوته إياهم ، وبذهابه عنهم دون إذن من ٱلله تعالىٰ ، فقد ألقاه في الظلمات وهي بطن الحوت والبحر والليل فنادىٰ في تلك الظلمات بأنه (لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ، وهنا تظهر صفة الباطن لا علىٰ وجه الحصر والتخصيص للصفوة الذين يختارهم ٱلله ، وإنما هي عامة للبشر بواسطة هـٰؤلاء الصفوة ، لذلك

(1) الأنبياء ، 83 ـ 84 .
(2) الأنبياء ، 87 ـ 88 .

كانت دعوة يونس عليه الصلاة والسلام من خصوص العموم ، وليست من عموم الخصوص ، بمعنىٰ أنها لا تعم الخاصة وإنما تخص العامة ، لذلك كانت هـٰذه الدعوة ، دعوة أي مسلم أصابه الكرب ، فإن دعا بها جلا ٱلله بها كربه ، وهـٰذا يعني أنه تعالىٰ تفضل علىٰ جميع خلقه بأن أطلعهم علىٰ شيء من الباطن ليس لأنهم أهل لذلك ، ولـٰكن رحمة فيهم وتفضلاً عليهم . وتتجلىٰ هـٰذه الصفة في الإشارات التي تصل إلىٰ الأنبياء والأولياء والخلفاء بنوع من الرحمة والعناية والحفظ لتدلل علىٰ أنه باطن قريب ، كما تتجلىٰ هـٰذه الاختبارات بأنها خير علىٰ ما تحمل من الضر ، غير أن أهل الباطن يعرفون كيف يجتازون الابتلاء والمحن بما أوتوا من هـٰذا العلم ، وكذلك تتجلىٰ صفة ٱلله الباطن في وحدة المبدأ و العقيدة والطريق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (1) . فهـٰؤلاء الصفوة من الأنبياء والأولياء والخلفاء تكون صفة الباطن قريبة منهم ملازمة لهم علىٰ مدار الأيام حتىٰ لكأنهم أمة واحدة علىٰ تباعد الزمان والمكان ، وهـٰذه إحدىٰ دلائل وحدانية صفة الباطن ، ووحدانية الإرادة المدبرة ، ووحدانية الناموس الذي يربط سنن ٱلله في الكون ، ويؤلف بينها ، ويوجهها جميعاً وجهة واحدة ، إلىٰ معبود واحد : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (2) ، فهاهو ذا يكشف لنا أننا علىٰ السنة المطردة التي سنها ٱلله تعالىٰ ، فالباطن جل شأنه بما يسدي من نعمة العلم الباطن يجلو ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل ، وهي ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير ، وإن القلب البشري ليظل مظلماً حتىٰ تشرق فيه شعلة الإيمان ، فتنير جوانبه ، وتكشف له منهجه ، ويستقيم له اتجاهه ، ولا تختلط عليه القيم والمعاني

---

(1) آل عمران ، 19 .

(2) الأنبياء ، 92 .

والتقديرات فيعلم أنه ينتفع بالضياء ، ويسير علىٰ هداه .

إن المنهج العلمي الحديث القائم ومن اشتغل به في العلوم الطبيعية علىٰ اختلاف أنواعها من الطب والصيدلة والتشريح وعلم النبات والفلك وعلوم البحار وما إلىٰ ذلك ، يقرون بشكل غير مباشر بأن ٱلله تعالىٰ باطن في كل ما وقفوا عليه من نتائج بحوثهم ، حيث تتوافق هـٰذه النتائج حدّ الانطباق مع الفطرة التي فطر ٱلله تعالىٰ بها الخلق في أن ٱلله باطن في جميع مخلوقاته لا مادة ولا جوهراً ولا عرضاً ، إنه ٱلله الذي خلق كل شيء وأحسن خلقه وهو الباطن في كل سبب وعلة وهو الباطن في كل ظاهر ومشاهد ، قال تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ (1) . فالعلم في بحثه يتجه أولاً إلىٰ المشاهدة ووضع الفرضيات ، ثم ينتقل إلىٰ ملاحظة التجربة العملية التي تظهر النتائج ، ثم يضع نظرية من تلك النتائج تكون أساساً للعاملين في هـٰذا المجال أو ذاك ، لأن هـٰذه النظرية فسرت تلك الفرضيات من حيث انطباقها علىٰ الواقع الذي أيد صحة الفرضيات ، الأمر الذي يجعلها حقيقة يقينية تصل حدّ البديهية ، ومن ثم تكون قانوناً عاماً مؤيداً للفطرة ، بمعنىٰ كشف سنن ٱلله الكونية في خلقه ، هـٰذا إذا تماثلت التجربة مع الواقع فتكون قد انطبقت علىٰ القانون الطبيعي لمنطق الأشياء في قضايا الخلق التي يسلم بها العقلاء من الناس ، أما إذا تنافرت مع الواقع فلا تكون حقيقة ثابتة ، إذ أننا لا يمكن أن نغير الواقع لينطبق علىٰ خطأ الفرضية التي نضعها ، وإنما وجب إعادة التجربة وفق فرضيات أخرىٰ ، ففي قوله تعالىٰ : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (2) ، فمرج البحرين هو اضطرابهما وهيجانهما وتلاطمهما

(1) الغاشية ، 17 ـ 21 .

(2) الرحمـٰن ، 19 ـ 20 .

ومع ذلك فلا يبغي أحدهما علىٰ الآخر ولـٰكن كيف يكون ذلك علماً أن الماء هو أكثر السوائل سيلاناً وأشدها امتزاجاً ، ولذلك يجب أن يكون أكثرها اختلاطاً ، والأمر ليس كذلك .

إن وجود هـٰذا البرزخ أو الحاجز بين المائين يمنع اختلاط احدهما بالآخر ، سواء المالح بالمالح أم العذب بالعذب أم المالح بالعذب ، فالخلق وما فيه لا يقوم علىٰ الفوضوية ، وإنما هو خاضع لقانون الباطن الذي لا يعلمه كثير من الناس ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (2) ، فهو القانون الإلـٰهي الذي جعل كل شيء بحسبان ، فهـٰذا البرزخ الذي يكون بين أي مائين إنما هو مختبر ومعمل كيميائي لمعادلة النسب بين هـٰذه المياه من الكثافة والوزن النوعي والمعادن والأملاح ، فهـٰذا الماء القادم لا يمكن أن يدخل في ماء آخر قبل أن يأخذ المواصفات والخواص التي تؤهله للعيش في المكان الجديد أو الاندماج فيه ، والذي يثبت صحة ما نقول أن الأحياء المائية من حيوان ونبات

(1) الفرقان ، 1 ـ 2 .
(2) الرعد ، 8 ـ 13 .

تختلف من بحر إلىٰ بحر ومن بحر إلىٰ نهر لاختلاف خواص الماء الكيميائية في كل منها ، وهـٰكذا لكل بيئة معطياتها ومعطيات العيش أو الاندماج فيها ، ولكل نقيض ما يخالفه بالرفض والاستقلالية أو الحيادية ، وكذلك هـٰذا البرزخ أو المختبر فأحياؤه أيضاً مختلفة عما يجاوره من أنواع المياه كونه حاجزاً منيعاً لا يسمح بأن يطغىٰ أحدهما علىٰ الآخر ، وفي هـٰذا الأمر سر باطن لا يعلمه يقيناً إلا الباطن جل جلاله ، وهـٰذا يفسر لنا وجود الينابيع العذبة في وسط المحيطات وأعماق البحار ، ومن هـٰذا ندرك أن ٱلله تعالىٰ يتجلىٰ باطناً في كل شيء قدرة وإرادة ومشيئة .

إن وجود الباطن يتجلىٰ من خلال التفكير والتأمل والتدبر لآيات ٱلله وخلقه ، فيتبين الحق وتنكشف الظلمة بظهور الدلائل التي تحمل في طياتها صفة الباطن ، ومع ذلك فإننا لا نسلم بأن كل شيء خاضع للتجربة العلمية الواقعية في مجال القياس بين النتائج التي هي أحكام ذهنية . فالتي يجري عليها القياس هي موجودات مادية مشخصة ، فمن هنا غالباً ما يكون التباين بالمقارنة بين المادة ونقيضها ، لذلك يكون التطابق بين الأحكام الذهنية والموجودات المادية غير يقيني ، لأن المادة تحول دونه إلا ما دل عليه دليل يشهد به الحس ، وذلك فالبراهين المنطقية في علم الإلـٰهيات لا تكفي أن تقوم نصوصاً قطعية الدلالة .

فصفة الباطن جل شأنه لا يمكن أن تدرك لا بوجود خارجي في الواقع ، ولا بتصور داخلي في الذهن ، وإنما هو تسليم في القلب ووقور في الجنان وتصديق في اللسان ، والوقوف علىٰ ذلك باليقين من خلال آيات ٱلله في خلقه وتدبير شؤون هـٰذا الخلق الذي قدره تقديراً .

الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة ، والكامن من ورائه ساكنٌ :

كل خاضع للمشاهدة أو الملاحظة هو ظاهر ، قولاً كان أم فعلاً أم سلوكاً أم أثراً . وكل ما خُفي عن ذلك في حيز الوجود هو كامن . فعندما تكون

الفرحة ظاهرة علىٰ السطح ، يكون الحزن فينا كامناً ، وعندما تتوفر اشتراطاته أو معطياته يفور من حينه ليعلن أنه قوة قادرة علىٰ مداهمة واختراق كل الحواجز التي سترته قبل الظهور .

الحواس هي المُمكِّنة من الإدراك العقلي لكل ما هو ظاهر وما هو باطن ، وحيث ما يكون الظاهر في الصدارة متحركاً يكون الباطن من ورائه ساكناً ، وقد يتماثل الظاهر مع الباطن وقد لا يتماثل ، فعندما يكون القول كاذباً بطبيعة الحال يكون مخالفاً للحقيقة . وعندما يكون صادقاً يصبح مماثلاً لها ، وهٰكذا في كل أمر . وعليه ، عندما تُترجم الأقوال الظاهرة في سلوكيات وأفعال تمر شخصية الإنسان حسب مواقفها من الحقيقة بخمسة مستويات قيمية هي :

1 ـ الاتزان الانفعالي لا سالب ولا موجب (ذاتية حيث التمركز علىٰ قيم المجتمع) .

2 ـ الميل لأخذ المواقف السالبة (الميل إلىٰ ما لا يُرضي الآخرين ، حيث الانسحاب من بعض القيم الاجتماعية) .

3 ـ بلوغ قمة المواقف السالبة (الشخصانية حيث ظهور السلوك الأناني والتفكير في الأنا فقط) .

4 ـ الميل لأخذ المواقف الموجبة (التطلّع لكل مرضٍ حيث المنطق والحُجة) .

5 ـ بلوغ قمة المواقف الموجبة (الموضوعية حيث العقل سيد الميدان مع الرقي في حُسن التصرف) .

وبناء علىٰ ما سبق فإن القاعدة هي :

1 ـ الظاهر يُشاهد .

2 ـ الظاهر يُلحظ .

3 ـ الكامن ساكن .

4 ـ وراء كل ظاهر كامنٌ .

والاستثناء هو :

1 ـ انعدام مشاهدة الظاهر .

2 ـ انعدام ملاحظة الظاهر .

3 ـ انعدام سكون الكامن .

4 ـ أن لا يكون وراء الظاهر كامنٌ .

الظاهر مُثبت بالقول والفعل والسلوك والأثر :

بما أن الظاهر قابل للمشادة والملاحظة ، ومثبت بالفعل والسلوك ويترك أثراً .

إذاً فهو قابل للنفي والإثبات .

ولذا فالقاعدة هي :

1 ـ الظاهر مُثبت بالقول .

2 ـ الظاهر مُثبت بالفعل .

3 ـ الظاهر مُثبت بالسلوك .

4 ـ الظاهر مُثبت بالأثر .

والاستثناء هو :

1 ـ الظاهر لا يُثبته القول .

2 ـ الظاهر لا يُثبته الفعل .

3 ـ الظاهر لا يُثبته السلوك .

4 ـ الظاهر لا يُثبته الأثر .

ولذا ، فالقواعد تُثبت وجود قضايا ، والاستثناءات تنفي وجودها . ومع ذلك تخضع أدلة الإثبات إلىٰ التقويم في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) .

ولهٰذا ليس كل فعل أو سلوك يُحّث أو يُحّرض عليه . فهناك البعض السلوكي يُنهىٰ عن ارتكابه ، حيث لا يُحرِّض عاقل علىٰ فعل مُشين .

وبما أنه لا يتم التحريض من قبل عاقل علىٰ كل فعل أو سلوك .

إذاً الانتباه إلىٰ القواعد هو الأساس في التمييز بين ما يجب وما لا يجب . فالقاعدة تتمركز علىٰ التبيّن . والاستثناء يتمركز علىٰ الغموض .

وعليه :

- تبيّن قبل أن تقدم .
- تبيّن قبل أن تَنسحب .
- تبيّن قبل أن تَفعل .
- تبيّن قبل أن تَسلُك .
- تبيّن قبل أن تحكُم .
- تبيّن لتقف علىٰ اليقين .

الأفعال ظاهرة والغموض يحفها :

بما أن الأفعال الظاهرة بيّنة ، إذاً كيف تُحَف بالغموض .

بطبيعة الحال ليس كل ما يُقال حقيقة ، فبعض ما يقال يَحفهُ الخطأ أو يتعرض له ، والبعض يحفه الصواب أو يتوحّد معه ، ففي الوقت الذي يميل فيه البعض عن قول الحق ، في الوقت ذاته يميل البعض إلىٰ التمسك به ، ولهٰذا

دائماً بعض القضايا صادقة وبعضها دائماً كاذبة .

ولهٰذا فالقول بعد الاستماع إليه تترتب عليه استجابة ، قد تكون مُعلنة ، وقد تكون غير مُعلنة . في كلتا الحالتين ، تقع الاستجابة في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) ما يجعلها في أربعة احتمالات :

1 ـ أن تكون متوقعة صادقة .

2 ـ أن تكون متوقعة كاذبة .

3 ـ أن تكون غير متوقعة صادقة .

4 ـ أن تكون غير متوقعة كاذبة .

وفي مقابل ذلك يمكن أن تكون :

ـ ظاهرة صادقة .

ـ ظاهرة كاذبة .

ـ باطنة صادقة .

ـ باطنة كاذبة .

وعليه :

ـ لا تسلم بكل ما يقال .

ـ لا تسلم بكل ما يفعل .

ـ تبين الظاهر من الكامن .

ـ لا تستعجل بغرس الثقة .

ـ أظهر حسن النية .

ـ اعمل علىٰ تأكيد حسن النية .

ـ تقبل العباد كما هم .

ـ اعمل علىٰ نقلهم إلىٰ ما يجب .

لذا يُعد التبيّن ضرورة لأجل التأكد من سلامة ما يُقال . ولأنَّ ما يُقال في كثير من الأحيان يرتبط بالأفعال والسلوكيات ، ولأن كل ما يُقال في بعض الأحيان ليس بحقيقة ، إذاً قد لا ينطبق الفعل مع القول . فإذا حدث ذلك تصبح الأفعال مُحفّة بالغموض (أصبح القول أو الفعل الظاهر لا علاقة له بما هو باطن) .

ولذا ، الفاقد للمصادق والحقيقة ، يعكس أفعالاً فاقدة هي الأخرىٰ للمصادق والحقيقة .

ولهـٰذا تُحف الأفعال الظاهرة بالغموض . ما يجعل دور الخليفة وتقصيه ، في اتجاه إزالة اللبس والغموض .

ولهـٰذا القاعدة هي :

تماثل الظاهر مع الكامن .

والاستثناء هو :

عدم تماثل الظاهر مع الكامن .

الكامن ، غير متيسر للمشاهدة مع أنه يشغل حيّزاً وقابل للظهور :

مع أن الباطن غير متيسر للمشاهدة برغم أنه يشغل حيزاً ، إلا أنه السابق علىٰ القول والفعل . فلو لم يكن الباطن ما كان الظاهر ، ولهـٰذا القاعدة الفكرة أولاً وإظهارها والعمل بها ثانياً . وبذلك يعد الكمون هو الأصل ، حيث تكمن النخلة في النواة ، مثلما يكمن الزيت في ثمرة الزيتون .

لذا : الظاهر هو النواة ، والكامن هو النخلة . مثلما الزيت هو الكامن وثمرة الزيتون هي الظاهرة .

وعليه كل كامن قابل للظهور كلما توفرت اشتراطاته . وقابل للاستقراء والاستنباط كلما لوحظت ردود أفعاله ، وقابل للإثبات والمقارنة كلما تلمسنا الأثر وشاهدناه ، وهٰكذا تكمن الحقائق في العلل والأسباب التي من خلفها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [1] .

ولهٰذا فالقاعدة هي :

1 ـ الباطن غير متيسر للمشاهدة .

2 ـ الباطن يشغل حيزاً .

3 ـ الباطن قابل للظهور كلما توفرت معطياته .

والاستثناء هو :

1 ـ تيسر الباطن للمشاهدة .

2 ـ أن لا يشغل الباطن حيزاً .

3 ـ انعدام قابلية الباطن للظهور .

وعليه :

1 ـ يسِّر الأمر تُيسَّر لك الأمور .

2 ـ يسِّر يتم تقبلك .

3 ـ يسِّر تُغرس الثقة فيك .

---

(1) الغاشية ، 17 ـ 26 .

4 ـ يسِّر يتم الاعتراف بك .

ولهٰذا فالتيسير يُمكِّن من الآتي :

ـ التيسير يُمكِّن من نيل الاعتراف .

ـ التيسير يُمكِّن من غرس الثقة .

ـ التيسير يُمكِّن من إنجاز الأهداف .

ـ التيسير يُمكِّن من المشاركة والتفاعل .

ـ التيسير يُمكِّن من التقبل المتبادل .

ـ التيسير يُمكِّن من بلوغ الأغراض والغايات .

ـ التيسر يُمكِّن من إحداث النقلة .

اعرف الباطن تعرف الحقيقة :

وبما أنه لا يمكن أن تعرف الحقيقة إذا لم يُعرف الباطن من أمرها .

وبما أن الفعل والسلوك ظاهران والحقيقة موضوع احتمال (في حالة شك) إذاً قد تُرتكب الأفعال والسلوكيات وهي لا تحمل أو تُجسِّد حقائق (بلا مصادق) ولهٰذا فلا يغرّك الظاهر إن لم يكن هو الحق .

إذاً الظاهر قد يُغرر بمن يضع الثقة فيه إن لم يكن الظاهر هو الحق .

وعليه :

ـ تأكد قبل أن تقدِم .

ـ تبّين قبل أن تتخذ قراراً .

ـ خطط قبل أن تعمل .

ـ فكر حتىٰ تعرف .

ـ لا تتسرع فالتسرع مصيدة .

ـ تأنَّ فكل شيء ممكن .

ـ تحقق بمقارنة .

ـ دقق بملاحظة .

ـ استنبط بفطنة .

ـ حلل بمنهج .

ـ ابحث بطريقة ووسيلة وأسلوب .

ـ شك حتىٰ ترىٰ الحقيقة بين يديك .

ولأجل أن يُسهم الخليفة في غرس الثقة ، ويُسهم في إحداث النقلة ، وفي صناعة المستقبل المفيد والنافع ، عليه بمراعاة الآتي :

ـ التقصي والتتبع الدقيقين .

ـ الوقوف عند كل ردة فعل .

ـ تقييم السالب وتقويمه .

ـ اعتماد الموجب وعرضه .

ـ تحديد الأهداف بكل وضوح .

ـ الإصرار وإن واجهته الصعاب .

ـ تنفيذ الأهم قبل المهم .

ـ تجنب المنهي عنه .

ـ رفض المحرم .

ـ ممارسة الحقوق .

ـ أداء الواجبات .

ـ حمْل المسؤوليات .

بناءً علىٰ ما سبق لا ظاهر إلا والباطن من ورائه ولا علاقة سالبة أو موجبة إلا وهي نتاج قيم الترابط بين الباطن والظاهر في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) .

يتداخل الظاهر مع الكامن في علائق قيمية وترابط متين مثلما يتداخل المتوقع وغير المتوقع في دائرة الممكن . وعليه يكون الإيمان سابقاً علىٰ السلوك والفعل المترتب عليه ، كما تسبق الخيانة أو الردة السلوك أو الفعل الذي يرتكبه الخائن أو المرتد .

ولأن علاقة قوية تربط دائرة الظاهر والباطن ، بدائرة المتوقع وغير المتوقع ، لذا فبالضرورة أن يكون في دائرتيهما ما هو محتمل بالسالب وما هو محتمل بالموجب .

وعليه :

ـ في حالة التماثل العلائقي ، يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب .

ـ في حالة عدم التماثل العلائقي ، يختلف الفعل السالب مع الكامن الموجب .

ـ في حالة عدم التماثل العلائقي ، يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب .

الثقة في حالة اهتزاز بين باطن وظاهر :

الثقة قيمة أخلاقية تُغرس في من يستطيع حملها ، وتُنزع ممن لا يستطيع . ومع أنها لا تُغرس بقرار ، إلا أنها قد تنزع به . غرسها يحتاج إلىٰ

زمن ومعطيات مرضية وقبول إرادي ، أما نزعها فمترتب علىٰ فعل أو سلوك سالب أو مجموعة أفعال سلبية ، مرتكبة عن وعي وقصد .

ولهـٰذا يتضح اهتزاز الثقة وثباتها في الآتي :

قول موجب + فعل سالب . لا يؤدي إلىٰ غرس الثقة .

قول سالب + فعل موجب . لا يؤدي إلىٰ غرس الثقة .

نية صادقة + قول صادق + فعل صادق = حقيقة نافعة . تؤدي إلىٰ غرس الثقة .

نية كاذبة + قول صادق (ظاهرياً) لا يساوي حقيقة .

بلا شك هناك علاقة موجبة أو سالبة تربط الظاهر بالباطن .

في حالة التماثل العلائقي يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي لا يتماثل الفعل السالب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب .

وعليه أينما يكمن السالب يكمن الضعف فيه .

وأينما يكمن الموجب أو يظهر تكمن القوة فيه .

يستقرأ الباطن من الفعل الظاهر :

اللسان ينطق يتكلم وقد يقسم لك بما يعتقد أنه مُمَكِّن لك من تصديقه ، ومع ذلك قد لا يكون صادقاً .

المزوّر أو الخائف قد يُظهر لك الوثوق وعدم الخوف في نفسه ، ومع ذلك بالملاحظة ينكشف سره أو أمره .

وعليه لحن القول علامة تستوجب أخذ الحيطة من الذي يُلحِن في قوله .

عدم الثبات أثناء الحديث الموضوعي يستوجب وضع علامة الشك علىٰ صاحبه .

جفاف الحلق ، واصفرار الوجه ، وتصبب العرق ، وعدم السيطرة علىٰ حركة اليدين (ارتعاشهما) أثناء المواجهة التقييمية أو الاختبارية لما هو كائن ، هي علامات دالة علىٰ الخوف والارتباك في اتخاذ المواقف والتردد عنها . ولذا فهي تتأرجح بين المتوقع حيناً وبين غير المتوقع حيناً آخر .

الباطن ما ليس بظاهر ، والبطون هو استتار الشيء عن الحس . ولذا فإن الكمون هو بطون كل حقيقة ، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة ، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزاً لا تراه العينان ولـٰكن يدركه كل عقل ناضج سليم . وهـٰكذا تبطن الأسرار أو تكمن في الصدور حتىٰ يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة .

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف علىٰ جوهره ، علىٰ أسراره وخفاياه ، فالإنسان يبطن في جوهره كما يبطن أو يكمن في بصماته . ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف علىٰ البصمة ، بل الغاية معرفة صاحبها أولاً ، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانياً ، وثالثاً معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلىٰ ارتكابه ، وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ ، يكون كامناً في الشيء ذاته . وليس معنىٰ ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد ، فكثير من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها ، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها ، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة ، ولم يتم القبض عليه ، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة ، وكأنه لم يكن

سارقاً ، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية ، تم القبض عليه فكان هو السارق .

وبناء علىٰ ذلك قد يكون الكامن مشاهداً ، وقد لا يكون كذلك . وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها ، والمجتمع في حشوده . ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع ، لا يمكن أن تشاهد ، ولـٰكنها تُلحظ ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يرىٰ (يشاهد) الزواج . لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة ، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) علىٰ موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعىٰ الناس إليه . إذاً الذي تتم مشاهدته ، هو الزوجان الذكر والأنثىٰ ، والعقد المكتوب بينهما علىٰ ورق ، والناس الذين حضروا لأجل ذلك ، وهـٰذا كله لم يكن الزواج ، بل هـٰذه مراسم الزواج . الزواج توادد ، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلىٰ التباس بعضهما ، حباً واشتياقاً وفق اتفاق علىٰ مستقبل مشترك ، يجعل الآخرين شاهدين علىٰ ذلك بأنه الحق ، ومحرضين عليه . إذاً الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة ، وذكر وأنثىٰ ، وهـٰذه تُلحظ ، ولا تشاهد بالعينين . والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ ، ولا يشاهد ، وهـٰكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما ، ولا يخضعان للمشاهدة ، لأن الذي يشاهد هم الأفراد ، كبار وصغار ، ذكور وإناث ، وحشود من البشر ، وهـٰؤلاء لم يكونوا هم الأسرة ، ولا المجتمع ، مع أنهم عناصر تكوينهما ، فبدون علاقات مشتركة ذات معنىً لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنىً للأسرة ، أو المجتمع ، ولهـٰذا تتكون معارفنا من ظاهر وباطن وتوحُّد بينهما . فنحن نعرف الأبوة ، والأمومة ، والأخوة ، ونعرف الخال والجد ، ونعرف أيضاً أن هـٰذه المفاهيم جميعها لا تشاهد ، لأنها كامنة ومترتبة علىٰ علاقات يمكن ملاحظتها .

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية ، بل قد يكون الكامن هو

المعرفة الوافية . ولـٰكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أثناء تحليل البيانات والمعلومات ، أن لا يغفل الخليفة عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتىٰ لا تكون المعرفة قاصرة .

وللمزيد من التوضيح هل العبادات كدلائل كامنة ، هي بالتمام العبادات كسلوك مشاهد . فالحج علىٰ سبيل المثال ، هل هو ما نشاهده من سلوك ، أم أنه أكثر من ذلك . إن المشاهد أثناء أداء فريضة الحج هو حشود من البشر ، ترتدي زياً موحداً (الإحرام) وتقوم بحركات واحدة في مواقيت معينة ، ويلحظ عليها التعاون ، والانضباط ، والمساواة في أداء الفرائض ، وأنه لا رئيس لهـٰذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم . فهل هـٰذا السلوك المشاهد ، والملاحظ هو الحج . في اعتقادنا السلوك الظاهر ، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج ، ولم يكن الحج في ذاته . فالحج عقيدة وإيمان بوحدانية ٱلله ، واعتراف بقدسية ذلك المكان ، الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان ، ويقين بأن ما قام به محمد ﷺ من سلوك ، هو الحق الذي يستوجب الإتباع . ولهـٰذا لو لم يكن هناك مدلول باطن لفريضة الحج ، ما كان هناك ظاهر سلوكي له .

قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) ، فقوله تعالىٰ : ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ ﴾ إثبات أنه الباطن ، وإلا كيف علم ما يخفون لو لم يكن باطناً ؟ إنه يعلم السر وأخفىٰ ،

---

(1) آل عمران ، 154 .

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (1) . ولهٰذا يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، تثبت حقيقة أن الباطن غير الظاهر ، فظاهر القول شيء وباطنه شيء آخر ، والباطن وحده يعم ما يخفون وما يسرون .

قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (2) ، خائنة الأعين تدل علىٰ أن حاسة البصر ومحيطها الحسي يظهر علامات الصدق والكذب وعلامات الخوف والفرحة أو الحزن ، فمن يكون متفرساً في مشاهدته وملاحظته يستطيع استقراء المكتوب علىٰ الجبين بأفعال الحواس وردود أفعالها ذات العلاقة بما هو مخفي ، وإذا كان الحال هٰكذا علىٰ المستوىٰ البشري فما بالك بمن يعلم ما تخفي الصدور إنه الباطن جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (3) . يلحظ توضيح بيّن بأن المنافقين هم دائماً يظهرون ما لا يبطنون ، فهم في الظاهر يقولون بألسنتهم أنهم مؤمنون ، وإذا خلوا ، إذا انفردوا بحالهم يظهرون ما كانوا يبطنون وهو الكره والحقد علىٰ من آمن ، ولأنه جل جلاله باطن فهو يعلم كل علم الباطن سواء كان في خائنة الأعين أو في الصدور ومهما كانت الأسرار فهو يعلمها وهي باطنة ، ولهٰذا قال للمنافقين عز وجل وهو ينبه رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام بباطنهم بقوله : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ .

---

(1) طه ، 6 ـ 8 .
(2) غافر ، 19 .
(3) ال عمران ، 119 ـ 120 .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) ، ولأن الخليفة لا يعلم إلا ما وقع في الماضي وما يقع في الحاضر ويتوقع ما سيحدث في المستقبل استقراء واستنباطاً ، فهو يعلم أيضاً أن علماً كاملاً في دائرة المطلق وهو لا يعلمه ، أي أنه يعلم أن الساعة آتية وهو يعلم أن أمرها علم غيب ، أي لم يكن ممكناً معرفته في دائرة الزمان والمكان علىٰ مستوىٰ العقل البشري .

وأقتبس من روايتنا التي نشرت ٢٠٠١م بعنوان (البستان الحُلُم) ما يفيد التبين بين علم الغيب وعلم المستقبل « قصة لطيفة يا جدي ، والحوار فيها ليس غريباً عن تفكير بعض من يتماثل تفكيره مع تفكير كتكوت ، فأنا بعد أن تيقنت بأن اليوم الآخر أوسع وأعظم من يومنا هـٰذا تيقنت أننا بني البشر في وسط هـٰذا العالم مثل الكتكوت في وسط البيضة .

ها أنت يا بني قد عرفت الشيء بالشيء ذاته ، وما عليك الآن إلا أن تتعرف علىٰ فلسفة هـٰذه العلوم لكي تتمكن من معرفة الفرق بين علم الغيب وعلم المستقبل .

أعرف جيداً أنه لا فرق بين علم الغيب وعلم المستقبل .

لا يا ولدي ، الفرق كبير ، علم الغيب لا يعلمه إلا ٱلله تعالىٰ ، أما علم المستقبل فكلنا نعلمه وفقاً لافتراضاتنا وخططنا .

استغفر ٱلله يا جدي ما علم المستقبل إلا من علم الغيب وهـٰذا لا يعلمه إلا الخالق سبحانه وتعالىٰ .

يا بني لو سألتك : من أجل ماذا تأكل وتشرب وتتنفس . ألا تُجيبني من أجل المستقبل .

---

(1) فاطر ، 38 .

نعم لو لم أتنفس وأشرب وآكل الطعام لا مستقبل لي علىٰ الإطلاق .

وإذا سألك غيري يا ولدي بقوله : لو تحكَّم أحد في مشربك ومأكلك وحاول أن يمنعك من استنشاق الأكسجين فماذا تفعل ؟

أقتله يا جدي قبل أن يقتلني .

لماذا ؟

لكي أعيش المستقبل .

ولماذا أنت راغب في حياة المستقبل .

أولاً : أنا نفس بريئة وقتل النفس البريئة مُحرَّم .

ثانياً : أريد أن أفعل خيراً في هـٰذه الحياة الدنيا لعله يفيدني في تلك الحياة الآخرة .

وثالثاً : أريد أن أتعلم وأعمل وأبني مسكناً وأتزوج ليكون لي أبناء أعلمهم وأزوجهم من بعدي ، وأنا أهديهم إلىٰ الطريق المستقيم في مرضاة ٱلله الباطن والظاهر .

من أجل ماذا يا بني تريد أن تعمل كل هـٰذا .

من أجل المستقبل .

إذاً لديك خطة تستهدف بها كل ما ذكرت وأكثر .

نعم وهـٰذا ما آمل أن أحققه في المستقبل .

ولـٰكن هل يمكنك أن تضع خطة علمية وأنت لا علم لك بمبرراتها أو أنك لا تعلم الأهداف التي من ورائها .

بالطبع لا .

إذاً لا أهداف إلا في المستقبل ، وإلاّ فمن أجل ماذا تصلي وتصوم وتزكي وتؤمِّن علىٰ ممتلكاتك .

كل ذلك من أجل المستقبل .

إذاً لو لم تعلم بأن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر وفي الزكاة طهارة للنفس وما تملك وفي الصوم سلامة للروح والبدن ما نويت القيام بها قبل أن تفعلها ، وعندما تؤديها لا جزاء لك عليها إلا في المستقبل .

يبدو أن كل حياتنا هي من أجل المستقبل ، ولهـٰذا يمكننا التعرف علىٰ علم المستقبل من أوسع ميادينه إذا سعينا ، وهو مثل الفرض الذي يستنبط من الموضوع ليربط العلاقة بين متغيراته ، ويمكن إثباته أو بطلانه بالنتائج المتوقعة له ، فالبحوث العلمية تنطلق من فرضيات في الزمن الآن وتسعىٰ إلىٰ تحقيقها في الزمن المستقبل .

هـٰذا صحيح ولذا نؤمن بأن اليوم الآخر يقع في المستقبل بما فيه من عقاب وثواب وجنة ونار ونؤمن أن علم الغيب وقع ويقع وسيقع إن شاء ٱلله .

والله هـٰذا صحيح ، وبما أن الأمر هـٰكذا إذاً ما هو علم الغيب .

علم الغيب إنه في الباطن فلا يعلمه إلا ٱلله ، فنحن نعلم بأن الساعة آتية في المستقبل لا محالة ، ولـٰكن متىٰ وكيف هـٰذا علم غيب ، وعندما يكون اليوم الجمعة نعلم أن غداً سيأتي السبت بالقوة مادامت الحركة الفلكية مستمرة ، ومع ذلك قد لا يأتي غد السبت بالإرادة ، فأنت يا بني عندما تفكر في المستقبل تعلمه وعندما تفكر في الغيب لا تعلمه مع أنك تعلم بوجوده ، وعندما ترسم خطة لمستقبلك القريب أو البعيد فإنك ستوفر لها الإمكانات التي تمكنك من تحقيقها وفقاً لعلم المستقبل ولـٰكنك قد لا تحققها وفقاً لعلم الغيب .

جزاك ٱلله خيراً يا جدي الآن فهمت الفرق بين العلمين ، فأنا علىٰ سبيل

المثال سأكتب كتاباً في المستقبل بعنوان (تواصل الحضارات) والآن أكتب كتاباً عن (الخليفة في أسماء ٱلله اللطيفة) ، ولٰكن قد لا أتمكن من تأليفهما أو إتمام ما أنا أكتب وفقاً لعلم الغيب ، وهٰكذا حال الطبيب الذي قرر إجراء عملية إشعاعية بعد غد لمريض لإنقاذ حياته من الموت فقد لا يتمكن هو كذلك بسبب موت المريض قبل الموعد المحدد لإجراء العملية أو بموت الطبيب المخطط لذلك .

ها نحن علىٰ اتفاق مع علماء الأرصاد بأن غداً سيكون الطقس معتدلاً وعلىٰ اتفاق بأن غداً قد لا تشرق فيه الشمس علينا من جديد .

جدي ، بما أن للشمس خالقاً عظيماً فلابد أن تشرق من جديد .

معك حق ، بما أنها موجودة قد تشرق علىٰ غيرنا ولا تشرق علينا ، وبالضرورة لن تشرق عندما لا يُراد لها أن تشرق .

إذا انتهت الشمس من الوجود فلابد وأن تنتهي القمر الجميلة هي الأخرىٰ من الوجود والتي لا أظن أن هناك أجمل منها .

خالقها أجمل .

نحن في عصرنا نحكم علىٰ ما يشاهد ولا نحكم علىٰ مالا يشاهد . هٰذا غير صحيح . هل شاهدت علم الغيب وعلم المستقبل عندما استطعت أن تقارن بينهما وتؤمن بهما .

بالطبع لا .

إذاً بماذا حكمت عليها .

بالعقل .

إذاً لا تنس أن العقل الذي تحكم به بين الأشياء أو عليها لا يشاهد ، وعليك أن تعرف القاعدة العلمية التي تنص علىٰ أن (المخلوق دائماً لا يرىٰ

خالقه والخالق دائماً يرىٰ ما خلق) [1] .

وعليه فالباطن هو ٱلله والظاهر هو ٱلله ، ومنه جل جلاله ظهرت الأشياء والمخلوقات وبطنت في الأسرار التي من ورائها .

اللهُمَّ أظهرني علىٰ علم من علمك الظاهر والباطن ، ومكنِّي باسمك الأعظم من إدراك ما نستطيع إدراكه من علمك الظاهر والباطن ، أنت ٱلله الذي به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وأسرتي إليه إنك مجيب الدعاء فارحمنا أنت مولانا سبحانك لا مولىً لنا غيرك وأنت الرحمـٰن الرحيم !

اللهُمَّ يا الباطن يا رب العرش العظيم ، يا من لا تراه العيون ولا تدركه الظنون ، نسألك بأن تُطهِّر قلوبنا وما يكن في الصدور ، ونسألك أن تصلح لنا فساد أنفسنا ليكون في باطنها ما تطمئن به !

اللهُمَّ يا الباطن اجعل قلوبنا تنير بنور اسمك الذي لا يخالفه الظاهر فننجو من النفاق في الاعتقاد والرياء في العمل ، ونسألك يا ٱلله أن تكون باطناً في قلوبنا بمعرفتك وخشيتك ، وظاهراً في أعمالنا بمراقبتك والإخلاص لك ، فيكون كل عمل لنا ظاهر أنت يا ربنا من ورائه الباطن !

اللهُمَّ إنك الباطن الذي يعلم ما نسر ونجهر فلا تجعل شيئًا مما نسر ونجهر في غير طاعتك ! اللهُمَّ إنك الباطن الذي يعلم الغيب فاجعل لنا في علم غيبك المكارم والفضائل وما تطمئن به الأنفس إنك أنت الباطن سبحانك جل جلالك !

---

(1) عقيل حسين عقيل ، البستان الحلم ، فاليتا ، 2001م ، ص 177 ، 181 .

الوَالِي جلّ جلاله

الْوَالِي « هُوَ الْمَالِكُ لِلأَشْيَاءِ وَالْمُتَوَلِّي لَهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا ، يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ يُنَفِّذُ فِيهَا أَمْرَهُ ، وَيُجْرِي عَلَيْهَا حُكْمَهُ » [1] .

الوالي « الذي يلي أمر الخلق ويتولىٰ مصالحهم » [2] .

الوالي المطلق هو ٱلله جل جلاله فهو والي من له والٍ ، ووالي من لا والي له ، فالأب والي ابنه ، والله تعالىٰ والي الأب والابن ومن سبقهم ومن سيلحق بهم .

أما الوالي بالإضافة فهو والي من لا والي له من العباد غيره بالرعاية والعناية الصحية والتعليمية والتربوية والخدمية المتعددة والمتنوعة .

الوالي المطلق هو والي العباد وولاتهم وأرزاقهم وسلامتهم وأمنهم وكل أحوالهم ، فهو الوالي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، أي أنه الوالي الشهيد الذي له الكمال والجلال فلا يغفل ، وهو الباقي الذي لا يزول ، ولهٰذا جميع الولاة يزولون إلا الوالي المطلق فهو باق سبحانه نعم الوالي ونعم الباقي جل جلاله .

الوالي يعلم الأمر والنهي ويرزق من يشاء بغير حساب ولا ينتظر طلباً لذلك فهو المجيب بعلمه للحاجة والمحتاج ، ويعطي بدون مقابل ، ومن

---

(1) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 174 .

(2) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 61 .

يحمده علىٰ عطائه ويشكره علىٰ خلقه له في أحسن تقويم يكون من المستخلفين في الأرض .

الوالي هو الراعي الذي يعلم الأحوال والظروف ويعلم مستقبلها قبل أن يعلمها من هو في حاجة للولاية والرعاية والعناية فيتولاه تعالىٰ كفيلاً بها ، فنعم المولىٰ ونعم النصير .

الوالي هو النافع بقوته وقدرته وملكه ورزقه وهيمنته وعلمه وحكمته وهو الضار لكل ضرر ، والماكر بكل مكر ، والكائد لكل كيد ، سبحانه لا إلـه إلا هو .

الوالي هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وهو اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ عز وجل ، وهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها ، وكأن الولاية تُشعر بالتدبير والقدرة والفعل .

والوالي هو ٱلله تعالىٰ وهو الذي ولي الأمور وملك الملك والخلق ، والولاية تنفيذ القبول علىٰ الغير شاء الغير أو أبىٰ ، وفيه دليل علىٰ أن خلاف مراد ٱلله محال ، فإنه المتفرد بتدبير الأشياء المنفذ للتدبير ولا معقب لحكمه ، وما لم يجتمع ذلك فيه لم ينطبق عليه اسم الوالي ، وذلك أن ٱلله هو الوالي لكل مخلوق علىٰ وجه العموم ، ولكل مخلوق من الملائكة والجن والإنس علىٰ وجه الخصوص ، وهو واضح من قوله تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (1) . إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يحفظكم ، فكل واحد من الناس له ملائكة تحفظه بأمر ٱلله وتتناوب علىٰ حفظه من أمامه ومن خلفه ، وأن ٱلله سبحانه لا يغير حال قوم من شدة إلىٰ رخاء ، ومن قوة إلىٰ ضعف ، حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم بما يتناسب مع الحال

(1) الرعد ، 11 .

التي يصيرون إليها ، وإذا أراد ٱلله أن ينزل بقوم ما يسوؤهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره ، ولا من يتولىٰ أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم سوىٰ واليهم الذي يتولاهم في كل شيء .

هٰذه المعقبات من الملائكة تبين مدىٰ ولاية الوالي سبحانه وتعالىٰ لعباده ، فهم معقبات من بين يديه ومن خلفه ، والمعقبات ملائكة الليل والنهار . ويقال للملائكة الحفظة معقبات لكثرة تعاقب بعضهم بعضاً في النزول إلىٰ الأرض بعضهم بالليل وبعضهم بالنهار إذا مضىٰ فريق خلفه فريق ، « أي يعقب ملائكة الليل ملائكة النهار ، وملائكة النهار ملائكة الليل ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر . والمعنىٰ له ملائكة يتعاقب بعضهم بعضاً كائنين من أمام الإنسان ووراء ظهره أي يحيطون من جوانبه و يحفظونه من أمر ٱلله ، ومن بأسه ونقمته إذا أذنب ، وبدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب من ذنبه وينيب أو يحفظونه من المضار التي أمر ٱلله بالحفظ منها » (1) .

فالله هو الوالي يتولىٰ خلقه في كل شيء من أمرهم ، فإذا غيروا ما بهم إلىٰ الطاعات غير ٱلله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما بهم من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك ، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا في التضرع ، وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل إلىٰ الفرج بعد الشّدة ، فالله تعالىٰ هو الوالي المطلق الذي يتولىٰ كل شيء من خلقه .

أما الوالي بالإضافة فهو الذي يلي الأمور بنفسه لما يتصف من صفات الوالي المطلق ، وبذلك يكون خليفة في الأرض ، فإن وليها غيره بأمره فليس

---

(1) تفسير حقي ، ج 6 ، ص 233 .

بوال ولا خليفة ، وإنما الوالي والخليفة هو المنصوب للولاية ، وإنما سمي والياً لأنه يوالي الأمر من غير إهمال لأمر ما ، مما له عليه ولاية ، وإن لم يفعل فليس بوال ، وإنما هو حاكم هوىٰ ، وقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (1) ، فالله تعالىٰ يخاطب الوالي بالإضافة بأنه جعله خليفة عنه في الأرض ، ليحكم بين الناس بما شرع لهم ، فلا يمشي في الحكم وراء الهوىٰ ، فيحيد به عن سبيل ٱلله ، إن الذين يحيدون عن سبيل ٱلله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عن يوم الجزاء .

فالوالي عز وجل عندما يخاطب الإنسان : إنا جعلناك خليفة في الأرض ، أي استخلف ٱلله أولياءه في الأرض ، فالخليفة هو من استمد صفاته من صفات خالقه جل جلاله ، أي أنه قائل الحق ومتبعه الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، فإن قلت آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد نص ٱلله علىٰ خلافته فليس داود مخصوصاً بالتنصيص علىٰ خلافته ، قلنا ما نص علىٰ خلافة آدم مثل التنصيص علىٰ خلافة داود ، وإنما قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة فيحتمل أن يكون الخليفة الذي أراده ٱلله غير آدم بأن يكون بعض أولاده ، ولو قال أيضاً إني جاعل آدم لم يكن مثل قوله إنا جعلناك خليفة بضمير الخطاب في حق داود فإن هـٰذا محقق ليس فيه احتمال غير المقصود ، قال بعضهم تجبرت الملائكة علىٰ آدم فجعله ٱلله خليفة ، وتجبر طالوت علىٰ داود فجعله خليفة ، فلذا جعل ٱلله الخلفاء آدم وداود . وكان مدة ملك داود أربعين سنة مما وهبه الخليفة الأول من عمره ، فإن آدم وهب لداود من عمره ستين سنة ، فلذا كان خليفة في الأرض كما كان آدم خليفة فيها (2) .

(1) ص ، 26 .

(2) تفسير حقي ، ج12 ، ص 143 .

فالخلافة والولاية الحقيقية ليست بمكتسبة للإنسان ، وإنما هي عطاء وفضل من ٱلله يؤتيه من يشاء كما قال تعالىٰ (إنا جعلناك خليفة) أي أعطيناك الخلافة ، وإنا جعلناك خليفة في الأرض أي استخلفناك علىٰ الملك فيها والحكم فيما بين أهلها ، أو جعلناك خليفة وواليًا ممن قبلك من القائمين بالحق ، فاستعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [1] . وهٰذا يعني أن الإنسان وإن خلق مستعداً للولاية ولٰكن بالقوة فلا يبلغ درجاتها بالفعل إلا القليل النادر ، فالولاية هنا ، هي الخلافة بعينها ، فهو الذي جعل من الخلق ولاة وخلفاء للأمم في عمارة الكون ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لأخذهم في أسبابه ، ليختبرهم فيما أعطاهم من النعم كيف يشكرونها ، وفيما آتاهم من الشرائع كيف يعملون بها ، فقد جعل ٱلله كل واحد من بني آدم ، آدم وقته وخليفة ربنه في الأرض ، ووالیا يتولىٰ شؤون نفسه بما أمر به الوالي المطلق ، ويتولىٰ شؤون غير من اتصف بصفات الوالي عز وجل ، وسر الخلافة والولاية ، أن صوّره علىٰ صورة صفات نفسه حياً قيوماً سميعًا بصيراً عالماً قادراً متكلماً مريداً ، فمن قام بهٰذه الصفات بما يرضي ٱلله تعالىٰ فهو والٍ وخليفة ، فأنفاس الوالي وحركاته وتصرّفاته عليه معدودة ، والوالي لا يكون أبداً إلا في الخير الذي لا بد منه ، فإنه موجد علىٰ الدوام فلا تراه أبداً إلا في فضل وإنعام وإقامة حد لتطهير ، والتطهير خير ، فإن الوالي علىٰ الحقيقة هو ٱلله ، وإن المنصوب للولاية بحكم ٱلله ، يحكم بما أراه ٱلله وهو الحق الذي أمر به ، وقد أخبر الرسول ﷺ في دعائه معلماً إيانا فقال : « لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت

(1) الأنعام ، 165 .

وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك » (1) ، فالوالي لا يوالي إلا الخير ولا يأمر إلا بالخير ، ولا يكون عنه في العقوبة والمثوبة إلا الخير ، ثم قال والشرّ ليس إليك ، فالوالي لا يوالي الشرّ بل لا يفعله أصلاً ، لأنه ليس إليه ، فالوالي إذا كان من نصّب الحق فالشر ليس إليه إلا إذا ترك ولاية الحق وحكم بالهوىٰ فضلّ عن سبيل ٱلله فله عذاب شديد بما نسي يوم الحساب ، فيكون ديوان الحكم الإلـٰهي يأخذه إذا حاسبه ، فالشقي من تأخر تطهيره إلىٰ ذلك المقام الأخروي ، والسعيد من تقدم تطهيره في الدنيا إما بتوبة يتوبها وإما بإنصاف ، وأخذ منه في الدنيا حتىٰ ينقلب إلىٰ الآخرة وليس عليه حق ، وربما يكون ممن يمشي في الدار الدنيا وما عليه خطيئة لكثرة ما يبتليه ٱلله به مما يقع له به من الكفارات ، وعلىٰ الوالي أن يأخذ بالنصيحة ، فلا يغل في الدين ولا يقول علىٰ ٱلله إلا الحق ولا علىٰ الخلق إلا الحق فإنه المطلوب بما هو والٍ عليه وعنه .

والوالي الذي يتولىٰ أمور الناس ويحكم بالعدل والإنصاف بما أمر به الوالي المطلق فقد كان جزاؤه أجراً عظيماً حيث قال رسول ٱلله ﷺ : « سبعة يظلهم ٱلله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة ٱلله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتىٰ يعود إليه ، ورجلان تحابا في ٱلله اجتمعا علىٰ ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر ٱلله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف ٱلله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله » (2) من أئمة العدل والحاكمين بالعدل الذين يمكن لكل واحد منهم أن يكون الوالي والخليفة ، وهـٰؤلاء السبعة علىٰ الحقيقة يمثلون الوالي ، وإن اختلفت الصور ، هـٰذه السبعة اختلفت أعمالهم في الصورة ، وجمعها

(1) سنن النسائي ، ج3 ، ص 447 .

(2) موطأ مالك ، ج 6 ، ص 22 .

معنىً واحد ، وهو مجاهدتهم لأنفسهم ، ومخالفتهم لأهوائها ، وذلك يحتاج أولاً إلىٰ رياضة شديدة ، وصبر علىٰ الامتناع مما يدعو إليه داعي الشهوة أو الغضب أو الطمع ، وفي تجشم ذلك مشقة شديدة علىٰ النفس ، ويحصل لها به تألم عظيم ، فإن القلب يكاد يحترق من حر نار الشهوة أو الغضب عند هيجانها إذا لم يطفأ ببلوغ الغرض من ذلك ، فلهـٰذا كان ثواب الصبر علىٰ ذلك أنه إذا اشتد الحر في الموقف يوم القيامة ، ولم يكن للناس ظل ، يظلهم واليهم ومولاهم ويقيهم حر الشمس يومئذ ، وكان هـٰؤلاء السبعة في ظل ٱلله عز وجل ، فلم يجدوا لحر الموقف ألماً جزاء لصبرهم علىٰ حر نار الشهوة أو الغضب في الدنيا ، وتتجسد صورة هـٰؤلاء السبعة في شخص الوالي العادل ، ومن جرىٰ مجراه وسار علىٰ خطاه .

إن الوالي الذي يعطيه ٱلله الولاية مما يجب أن يحمل من الصفات فيصونها ويؤدي حقها ، فقد خصهم الوالي عز وجل بنوع خاص من الثواب يوم القيامة ، فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « إن المقسطين عند ٱلله علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمـٰن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »[1] فالذين ما ولوا أي كانت لهم عليه ولاية ، والمقسطون هم العادلون .

وأما المنابر فإما أن يكونوا علىٰ منابر حقيقية ، وإما أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة ، والوالي العادل الذي يتبع أمر ٱلله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط هو صاحب هـٰذه المنابر ، بما كان يقي نفسه ويأمر غيره باتقاء أنفسهم من المهلكات و المعاصي .

والوالي المطلق هو متولي إدارة الكون والخلق وفق نظم لكل خصوصية ووفقاً للنظام العام الذي ارتضاه لخلقه ولما خلق ، والوالي بالإضافة هو من

---

(1) صحيح مسلم ، ج 9 ، ص 350 .

يتولىٰ إدارة نفسه ويتولىٰ أمر من له علاقة به وتستوجب رعايته عناية وحفظ ، فالأب والٍ لأبنائه حتىٰ يغرس روح الولاية والأبوة فيهم ، والأم والٍ علىٰ أبنائها حتىٰ تغرس روح الأمومة فيهم ، والأخ الكبير والٍ علىٰ الأخوة الصغار حتىٰ يغرس روح الأخوة فيهم ، والعالم والي للجاهل حتىٰ يجعل منه عالماً ، والمصلح والٍ للمفسد حتىٰ يجعله علىٰ الصلاح ، والقوي والٍ للضعيف حتىٰ يُمكِّنه من القوة ، والعادل والٍ للظالم حتىٰ يرده للحق ، والأستاذ القدوة والٍ علىٰ التلاميذ والطلبة حتىٰ يجعلهم علىٰ القدوة الحسنة ، وهـٰكذا من يولىٰ علىٰ أمرٍ يكون والياً علىٰ ما ولي به ، وتكون طاعته في الأمر واجبة في غير معصية ٱلله تعالىٰ .

لذا فالوالي بالإضافة يرعىٰ رعيّته ويسوسهم ويحفظهم ، فهو يعلم أن الطريق إلىٰ خير الإنسان وما فيه من صلاح الدنيا والدين هي ولاية النشء الصغير من أهم الأمور وأوكدها لأنهم أمانة عند والديهم اللذين هما ولاة علىٰ التربية والإصلاح للأبناء ، فالابن وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة يميل إلىٰ كل ما يمال به إليه ، فإن تعود الخير وتعلمه ونشأ عليه سعد في الدنيا والآخرة وتأدب ، وإن عُود الشر وأهمل ، شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له . وقد قال ٱلله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [1] ، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولىٰ ، وصيانته بأن يؤدبه ويهـذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب عليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره . ومهما رأىٰ فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور

---

(1) التحريم ، 6 .

أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتىٰ يرىٰ بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء ، وهـٰذه هدية من ٱلله تعالىٰ إليه وبشارة تدل علىٰ اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان علىٰ تأديبه بحيائه أو تمييزه ، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم ٱلله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلىٰ الطعام قبل غيره ، ولا يحدق النظر إليه ولا إلىٰ من يأكل ، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان ، وأن يحبب إليه الإيمان حتىٰ يستنير قلبه به ، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ، ويُحفظ من مخالطة الأشرار والمفسدين .

إن الأمر بالوقاية من قبل الوالي هي بمعنىٰ الحفظ والحماية والصيانة للنفس ، والمراد بالنفس هنا ذات الإنسان لا النفس الأمّارة ، والمعنىٰ حفظ النفس وإبعادها عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات وكذلك أهليكم بالنصح والتأديب والتعليم ، وقد وجب علىٰ الوالي هنا ، وكل والٍ وجب عليه الأمر بالمعروف للأقرب فالأقرب ، ورحم ٱلله رجلاً قال : يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل ٱلله يجمعكم معهم في الجنة ، وفي الحديث أن رسول ٱلله ﷺ قال : « كلكم راع ومسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته ، قال فسمعت هـٰؤلاء من رسول ٱلله ﷺ وأحسب النبي ﷺ

قال والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[1] فكلكم راع ، فعلىٰ من كان والياً إقامة الأحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للناس كافة ، و عليه أن يراعي حقوقهم ، وأن يقوم عادلاً بمصالحهم ، ويعم بذلك جميع الناس فيدخل فيه المرعي أيضاً ، فالجواب أنه مرعي باعتبار ، راع باعتبار آخر ، حتىٰ ولو لم يكن له أحد كان راعياً لجوارحه وحواسه فهو والٍ عليها ، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق ٱلله وحق عباده ، والرعاية من الوالي بمعنىٰ الحفظ ، يعني كلكم ملتزم بحفظ ما يطالب به من العدل إن كان والياً ، ومن عدم الخيانة إن كان مولياً عليه ، وكلكم مسؤول عما التزم حفظه يوم القيامة ، فالوالي علىٰ الناس راع والرجل راع علىٰ أهل بيته والمرأة راعية علىٰ بيت زوجها وولده ، والعبد راع علىٰ مال سيده ، والكل مسؤول والكل والٍ ، و أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهّل أهله وخص غيرهم بالنصيحة ، مع أن حكم الأجانب من الوالي كحكمهم في ذلك لأن الأقارب أولىٰ بالنصيحة لقربهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2] ، وأنذر العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي للأهل والأقارب ، وإنما أمر بإنذار الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أهم ، وهٰكذا لو الكل أنذر أهله الأقربين للحق الأمر الأباعد أيضاً ، ولٰكن البداية بهم في الإنذار أولىٰ ، كما أن البداية بهم في البر والصلة وغيرها أولىٰ ، وهنا شروط الأمر والنهي واجبة من الوالي في حق الأجانب والأقارب وخاصة الأهل .

والوالي ليس فقط من دخل الناس في ولايته من أهله أو من كان مسؤولاً عنهم ، وإنما أيضاً ، إضافة إلىٰ ذلك فإن الإنسان نفسه هو والٍ علىٰ نفسه من الغرائز والجوارح والشهوات .

---

(1) صحيح البخاري ، ج 8 ، ص 253 .

(2) الشعراء ، 214 .

الخليفة هو الوالي ، وهو ظل ٱلله في الأرض ، إذا حكم بين الناس عدل ، والناس يستريحون إلىٰ ظل عدله من حر الظلم ، فإن عدل كان له الأجر وكان علىٰ الرعية الشكر ، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليهم التقويم ، وإذا كفر خرجوا عن طاعته .

فيترتب علىٰ الوالي العدل والإنصاف حتىٰ ينطبق عليه الوصف بأنه ظل ٱلله في أرضه وخليفته فيها ، فإذا جارت الولاة قحطت السماء ، أي إذا ذهب العدل انقطع القطر فلم تنبت الأرض فحصل القحط لأن الوالي فاصل بين الحق والباطل فإذا ذهب الفاصل انقطعت الرحمة ، وإذا منعت الزكاة هلكت العلاقات بين الناس ، الزكاة رحمة من منعها منع رحمة ٱلله في أرضه ، ومن آتاها اتبع عدله المطلق في أرضه ، وإذا منعت الزكاة بقي المال بدنسه ولا بقاء للبركة مع الدنس ، وإذا ارتحلت البركة عن شيء هلك لأن نسله ينقطع ، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة لأن الغنىٰ من فضل ٱلله ، والفضل لأهل الفرح بالله وبعطائه وبالمناكحة الشرعية يلتقي الزوجان علىٰ الفرح بما أعطاهم ٱلله ، فمن زنا فقد آثر الفرح الذي من قبل الفحش ، علىٰ الفرح الذي بفضل ٱلله فأورثه الضلال .

لذلك وجب علىٰ الكافة إطاعة الوالي لأن طاعته من طاعة ٱلله حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [1] ، فيا أيها الذين صدَّقوا بما جاء به محمد أطيعوا ٱلله ، وأطيعوا الرسول ، وأطيعوا الذين يلون أمركم من المسلمين القائمين بالحق والعدل والمنفذين الشرع ، فإن تنازعتم في شيء فيما بينكم فاعرضوه علىٰ كتاب ٱلله وعلىٰ سنة رسوله لتعلموا حكمه ، فإنه أنزل عليكم كتابه وبينه رسوله ، وفيه الحكم فيما اختلفتم فيه ،

---

(1) النساء ، 59 .

وهٰذا مقتضىٰ إيمانكم بالله واليوم الآخر ، وهو خير لكم ، لأنكم تهتدون به إلىٰ العدل فيما اختلفتم فيه ، وهو أحسن عاقبة ، لأنه يمنع الخلاف المؤدِّي إلىٰ التنازع والضلال ، وهنا وجوب طاعة الولاة ، وهم أمراء الحق وولاة العدل ، ومن يقتدي بهم من المهتدين ، وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف علىٰ ٱلله والرسول في وجوب الطاعة ، حيث نهىٰ الوالي عز وجل عن اتخاذ أهل الباطل أولياء لأنهم بعيدون عن الحق قريبون من الظلم والضلال فقال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [1] ، فلا يحل لكم أن تتخذوا اليهود ولا النصارىٰ نصراء توالونهم ، فهم سواء في معاداتكم . ومن جعل لهم الولاية عليه فإنه من جملتهم ، وإن ٱلله لا يهدي الذين يظلمون أنفسهم بجعل ولايتهم للكافرين . فهو خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين ، أي لا تتخذوا أحداً منهم ولياً ، بمعنىٰ لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ولا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فإنه أمر ممتنع ، لأن بعض كل فريق من ذلك الفريقين أولياء البعض الآخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر ، لأنه لا موالاة بين فريقي اليهود والنصارىٰ رأساً ، والكل متفقون علىٰ الكفر مجمعون علىٰ أذاكم ومضاركم فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة ، ومن يتخذهم أولياء فإنه منهم ومعهم في النار وهٰذا إذا تولاهم لدينهم ، وأما الصحبة لمعاملة شراء شيء منهم أو طلب عمل منهم مع المخالفة في الاعتقاد والأمور الدينية فليس فيه هٰذا الوعيد ، وفيه زجر شديد عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة ، لكون من يتولاهم منهم لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بترك إخوانهم المؤمنين وبموالاة أعداء ٱلله ، وإنما وجبت الموالاة للوالي الحق العادل الذي خوله من يتعلق الأمر به فرداً أو جماعة أو مجتمعاً ، ولهٰذا جاء قوله : (أولي الأمر منكم) أي

---

(1) المائدة ، 51 .

الذين أوليتموهم أمر التصرف فيما أوليتموهم فيه ، وهنا تستوجب الطاعة ، أما إذا خان الوالي ما ولي عليه فلا طاعة له بعد خيانة الأمانة . ولذلك علىٰ المستوىٰ البشري لا إطلاق في أمر الولاية ، والوالي علىٰ الحقيقة المطلقة هو ٱلله تعالىٰ فمن ثبت له هـٰذا الاسم بالوجه الأعم فالأعم فهو أولىٰ بالناس من أنفسهم ، لذلك علىٰ المستوىٰ البشري وجبت طاعة الوالي ما أن يأمر بمعصية ، فعن النبي ﷺ أنه قال : « علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » [1] .

وأما الولاية وهي الخلافة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص ، « فخير البلاد الذي يصيبها من الوالي العادل هو إعمارها بما أراد ٱلله تعالىٰ من خليفته في أرضه ، وأما خير العباد فبما يأخذ بأيديهم إلىٰ الهدىٰ والصلاح وسبيل الرشاد حتىٰ ينجو مما هو حامل أمانته ، وينجيهم بأن أوصلهم إلىٰ طريق الأمان والسلامة بدعوة الحق وإقامة العدل ، فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « إن أحب الناس إلىٰ ٱلله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلىٰ ٱلله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » [2] ، فالمقسطون عند ٱلله علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمـٰن ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا . والعادل لأنه الذي يتبع أمر ٱلله بوضع كل شيء في موضعه من الحق ، فهـٰذا الوالي العادل أقربهم من محل كرامته وأرفعهم منزلة لامتثال قول ربه تعالىٰ (إن ٱلله يأمر بالعدل والإحسان) ، وأبغض الناس إلىٰ ٱلله وأبعدهم منه إمام جائر في حكمه علىٰ رعيته ، فإن ٱلله يبغض الظلم ويبغض الظالمين ويعاقبهم .

(1) صحيح مسلم ، ج 9 ، ص 370 .
(2) سنن الترمذي ، ج 5 ، ص 164 .

فالولاية والخلافة من أعظم العبادات ، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا ، فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقاً ، ويقدم علىٰ ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً . ولهـٰذا الخطر العظيم كان الأتقياء يخشون تقلد الولاية . ولعل القليل البصيرة يرىٰ ما ورد من فضل الإمارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا ، ونعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في ٱلله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم ، فهـٰؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل في الولاية والخلافة ، ومن علم أنه ليس بهـٰذه الصفة فلا يخوض في الولايات ، ومن جرب نفسه فرآها صابرة علىٰ الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات ، ولـٰكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل ، فيداهن خيفة من العزل ، فهـٰذا قد يختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية أم لا ؟ ونحن نقول : إنه يجب أن لا يكون خوف أمر في المستقبل ، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس ، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية ، فكيف إذا أظهرت التردد ، والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم وهو كما قيل : العزل طلاق الرجال ، فإذا شرع

لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلىٰ المداهنة وإهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم ، ولا يستطيع النزوع منه إلىٰ الموت إلا أن يعزل قهراً ، وكان فيه عذاب عاجل علىٰ كل محب للولاية . ومهما مالت النفس إلىٰ طلب الولاية وحملت علىٰ السؤال والطلب فهو أمارة الشر .

ومن واجب الوالي بالإضافة مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الناس والصبر علىٰ أخلاقهم واحتمال ما يصدر عنهم من تقصير والسعي في إصلاحهم وإرشادهم إلىٰ طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم والعمل علىٰ تقويمهم إلىٰ ما يجب الاتباع وتجنب ما يجب الاجتناب ، فكل هٰذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها ، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، فمعاناة الولاية بمنزلة الجهاد في سبيل ٱلله . والوالي من يتولىٰ ٱلله سبحانه أمره ، فلا يكله إلىٰ نفسه لحظة ، بل يتولىٰ الحق سبحانه رعايته ، وهو الذي يتولىٰ عبادة ٱلله وطاعته ، فعبادته تجري علىٰ التوالي ، من غير أن يتخللها عصيان ، والوالي يجب عليه القيام بحقوق ٱلله تعالىٰ علىٰ الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ ٱلله تعالىٰ إياه في السراء والضراء حتىٰ يكون والياً بصدق .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ (1) . ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الوالي الذي يتولىٰ أموركم جميعاً ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) ، فهو أمر بتحديد الولاية وحصرها في ٱلله تعالىٰ ورسوله

(1) المائدة ، 55 .

(2) هود ، 6 .

عليه الصلاة والسلام وفي المؤمنين الذين يأتمرون بأوامر ٱلله في الطاعة والعبادة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وما دون ذلك فليسوا أولياءكم لأن بعضهم أولياء بعض ، إنما أولياؤكم ٱلله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تخطئوهم إلىٰ الآخرين .

لقد بين ٱلله تعالىٰ من له الولاية علىٰ الخلق والقيام بأمرهم ، ويجب طاعته عليهم ، بقوله : (إنما وليكم ٱلله ورسوله) فالذي يتولىٰ مصالحكم ويحقق تدبير أموركم هو ٱلله تعالىٰ ، ورسوله يفعل ذلك بأمره ، وكذلك المؤمنون بالحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، طاعة لله تعالىٰ ، فقد بينت الآية الوالي المطلق والولاة بالإضافة ، فهٰؤلاء أولىٰ بتدبير أموركم ويجب عليكم طاعتهم في غير معصية الوالي المطلق الذي بيده الأمر والنهي وبيده الرزق والحياة والممات والبعث ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو نحمده ونشكره ونستغفره ونتوب إليه .

فموالاة ٱلله تكون في معاداة من خالفه فيما أمر وشرع وانتهك حرماته بارتكاب المعاصي ، فقد خص ٱلله تعالىٰ المؤمنين بالموالاة تحديداً وفرق بين الإيمان والإسلام ، لأن الإيمان أعلىٰ درجة من الإسلام حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فالإيمان هو التصديق بالله وبرسوله المقرون بالثقة وحقيقة الصدق وطمأنينة القلب قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) . فالإسلام انقياد ودخول في السلم وإظهار الشهادة .

---

(1) الحجرات ، 14 .

(2) الحجرات ، 14 .

وموالاة الرسول في معاداة النفس ومخالفة الهوىٰ كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به » [1] .

فالموالاة هي الإيمان الكامل ، الذي وعد ٱلله أهله بدخول الجنة ، والنجاة من النار ، ولا يكون ذلك إلا بالقصر عما تحبه وتميل نفسه إليه ، وتبعاً لما جاءت به هـٰذه الشريعة المطهرة الكاملة ، بأن يميل قلبه وطبعه إلىٰ الوالي الذي والاه وهو ٱلله ورسوله ، ويكون ذلك أكبر مما يحب من الأشياء الدنيوية التي جبل علىٰ الميل إليها من النفس والمال والولد والوالد ، ومن كان هواه تابعاً لجميع ما جاء به النبي ﷺ كان مؤمناً كاملاً يعرف حق الوالي .

إن الوالي عز وجل إذا أراد أن ينزل بقوم ما يسوءهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره ، ولا من يتولىٰ أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم ، وهو سبحانه يحفظهم ، فكل واحد من الناس له ملائكة تحفظه بأمر ٱلله وتتناوب علىٰ حفظه من أمامه ومن خلفه ، وأن ٱلله سبحانه لا يغيّر حال قوم من شدة إلىٰ رخاء ، ومن قوة إلىٰ ضعف ، حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم بما يتناسب مع الحالة التي يصيرون إليها ، وإذا أراد ٱلله أن ينزل بقوم ما يسوؤهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره ، ولا من يتولىٰ أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم .

فإذا غيّروا ما بهم إلىٰ الطاعات غيّر ٱلله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا في نعمة فغيّروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما بهم من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك ، وإذا كانوا في شدة لا يغيّر ما بهم من البلاء حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا في التضرع وأظهروا العجز غيّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل .

و إذا غيّروا ما بألسنتهم من الذكر غيّر ٱلله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم

(1) الإبانة الكبرىٰ ، ج 1 ، ص 298 .

به النسيان والغفلة ، وإذا كان العبد في بسطة وتقريب ، وكشف بالقلب وترقب فالله لا يغيّر ما بأنفسهم بترك أدب ، أو إخلال بحق ، أو إلمام بذنب .

والوالي سبحانه وتعالىٰ لا يكفّ ما أتاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتىٰ يترك ويغيّر ما هو به من الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يطيح به من العصيان ، أبدل ٱلله تعالىٰ ما به من النعمة بالحرمان والخذلان ، وسلبه ما كان يعطيه من الإحسان . و إذا توالت المحن وأراد العبد زوالها فلا يصل إليه النقيض منها إلا بأن يغيّر ما هو به ، فيأخذ في السؤال بعد السكوت ، وفي إظهار الجزع بعد السكون ، فإذا أخذ في التضرع غيّر الوالي ما به من الصبر .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الوالي ، وهو الذي يتولىٰ عباده المؤمنين الصالحين ، ويتولىٰ الصالحين لأن ٱلله ورسوله أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم فقد قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) ، فالله سبحانه وتعالىٰ هو الذي ينصر عباده وهو اللَّه الذي يتولاهم بكل أمورهم في تسييرها وتدبيرها ، والوالي هو الناصر والحافظ الذي يتولىٰ نصر عباده وحفظهم ، فالله تعالىٰ يتولىٰ الصالحين من عباده وينصرهم لا يخذلهم ، فلا تضرهم عداوة من عاداه .

فالوالي جل شأنه سبق في مشيئته ووعده أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم ، وإنما خص اسم الذات بتنزيل الكتاب وجعلت الآية تعليلاً للدلالة علىٰ تفخيم أمر المنزل وأنه الفارق بين الحق والباطل وأنه المجلي لظلمات الشرك والمفحم لألسن أرباب البيان والمعجز الباقي في كل أوان وهو النور المبين والحبل المتين ، وبه أصلح ٱلله تعالىٰ شؤون رسوله ﷺ لأن ٱلله تعالىٰ تولاه حيث كمل به خلقه وأقام به أوده وأفسد به الأباطيل المعطلة ،

---

(1) الأعراف ، 196 .

لذلك فإن ولي رسول ٱلله ﷺ هو الذي نزل الكتاب الذي تعرفون حقيقته ومثله يتولىٰ الصالحين ويخذل غيرهم ، والصالحون يتولاهم ٱلله بفضله ويمنحهم مغفرته ويورثهم أرضه ، فمن أعظم ما يضفي السعادة علىٰ العبد ركونه إلىٰ ربه ، وتوكله عليه ، واكتفاؤه بولايته ورعايته وحراسته ، فهـٰؤلاء الذين صلحت نياتهم ، وأقوالهم ، فهم لمَّا تولوا ربهم بالإيمان والتقوىٰ ، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر تولاهم ٱلله ولطف بهم ، وأعانهم علىٰ ما فيه الخير ، والمصلحة في دينهم ودنياهم ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه ، فهـٰذا التولي لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه فلا يكون متقدماً عليه وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه ، وكونهم متقين وصالحين فدل علىٰ أن هـٰذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين ، وهـٰكذا الرحمة قال الراحمون يرحمهم الرحمـٰن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

فالله سبحانه وتعالىٰ يتولىٰ الصالحين ، وهم الذين لا يعدلون بالله شيئاً فيتولاهم وينصرهم ، ولا تضرهم عداوة من عاداهم كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [1] ، فالوالي جل جلاله ينصر من تولاه بالحجة والظفر والانتقام له من عدوه بالاستئصال وغير ذلك من العقوبات العادلة ، وأن ٱلله تعالىٰ ينتقم لوليه من الأعداء ولو بعد حين كما بعد الموت ، « ألا ترىٰ أن ٱلله تعالىٰ انتقم ليحيىٰ عليه الصلاة والسلام بعد استشهاده من بني إسرائيل بتسليط بختنصر حتىٰ قتل به سبعون ألفا » [2] وكمال النصرة في الظفر علىٰ أعدىٰ عدوك وهي نفسك التي بين جنبيك وهو الجهاد

(1) غافر ، 51 .
(2) تفسير حقي ، ج 12 ، ص 411 .

الأكبر ، ولا يمكن الظفر علىٰ النفس إلا بنصرة الحق تعالىٰ للقلب ، ولا يصل هـٰذه الدرجة من التغلب علىٰ النفس وشهواتها إلا الوالي بالإضافة الذي وصل إلىٰ درجة الخليفة الذي أراده ٱلله تعالىٰ أن يكون مستخلفاً في الأرض لما يتصف به من صفات الوالي النسبية التي تؤهله لأن يكون خليفة . وأول من يتولىٰ الوالي المطلق من خلقه ليكون والياً بالإضافة هم الصالحون ، فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [1] ، فهـٰذا الجدار الذي أقامه العبد الصالح ـ دون أجر ـ كان لغلامين يتيمين من أهل المدينة ، وكان تحته كنز تركه أبوهما لهما ، وكان رجلاً صالحاً ، فتولاه الوالي عز وجل وتولىٰ ذريته من بعده بأن حفظ لهما الكنز حتىٰ يبلغا رشدهما ، ويستخرجاه رحمة بهما ، وتكريماً لأبيهما في ذريته . وما فعل ذلك العبد الصالح باجتهاد منه أو علم ، وإنما فعله بتوجيه من الوالي الذي تولىٰ ذرية ذلك الرجل بعد موته إكراماً لصلاحه ، فمن أراد أن يحفظه ٱلله في أبنائه فليخف من ٱلله سبحانه وتعالىٰ صلاحاً وتقوىٰ ، وليحفظ ٱلله في نفسه في السر والعلن ، وفي السراء والضراء ، وفي الصحة والمرض ، فإن أهل الكنز الذين في سورة الكهف حفظ ٱلله عليهم كنزهم ، فلما كان ذلك الرجل صالحاً حفظ ٱلله عليه أبناءه وكنزه ، فكل من يتولىٰ ٱلله يتولاه ٱلله في أهله وزوجه وأولاده ورزقه وفي مدخله ومخرجه حتىٰ يلقىٰ ٱلله ربه .

إن الذين يتولاهم ٱلله هم الفائزون بالدنيا والآخرة ، ذلك أنهم اتصفوا بالصفات النسبية للوالي المطلق ، فالتزموا أوامره وامتنعوا عن نواهيه ، فأمنوا الخوف والحزن والجزع كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ

---

(1) الكهف ، 82 .

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[1] ، إن الموالين لله بالإيمان والطاعة يحبهم ويحبونه ، فلا خوف عليهم من الخزي في الدنيا ، ولا من العذاب في الآخرة ، وهم لا يحزنون علىٰ ما فاتهم من عرض الدنيا ، لأن لهم عند ٱلله ما هو أعظم من ذلك وأكثر وهم الذين صدَّقوا بكل ما جاء من عند ٱلله ، وأذعنوا للحق ، واجتنبوا المعاصي ، وخافوا ٱلله في كل أعمالهم . لهـٰؤلاء الأولياء البشرىٰ بالخير في الدنيا ، وما وعدهم ٱلله به من نصر وعزة ، وفي الآخرة يتحقق لهم وعد ٱلله ، ولا خلف لما وعد ٱلله به ، وهـٰذا الذي بشروا به في الدنيا ، وظفروا به في الآخرة هو الفوز العظيم .

من المعلوم أن أولياء ٱلله هم أحباء ٱلله وأعداء نفوسهم ، لأن الولاية هي معرفة ٱلله ومعرفة نفوسهم ، فمعرفة ٱلله رؤيته بنظر المحبة والخوف منه والتقوىٰ والصلاح ، ومعرفة النفس رؤيتها بنظر العداوة ومنعها الشهوات وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، فإذا عرف الإنسان نفسه حق المعرفة وعلم أنها عدوة ٱلله له وعالجها بالمعاندة والممانعة الحق وكسر الشهوات ، أمن مكرها وكيدها ، وهـٰكذا يفعل أولياء ٱلله حتىٰ يتصفوا بالصفات الحسان النسبية للوالي .

وأولياء ٱلله هم المؤمنون تمام الإيمان لقربهم الروحاني من الوالي سبحانه وتعالىٰ ، لأنهم يتولونه بالطاعات و يتقربون إليه بالتقوىٰ والاستغراق في معرفته بحيث رأوا دلائل قدرته ، وسمعوا آياته ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، فاجتهدوا في ذلك حق لذلك لا خوف عليهم في الدارين من أن يلحق بهم مكروه ، والخوف إنما يكون من حدوث شيء من المكاره في المستقبل ، فهم أمنوا بطاعتهم وتقواهم ذلك الخوف لأنهم أصبحوا أولياء ٱلله ، ولا هم يحزنون أيضاً من فوات مطلوب ، لأن الحزن إنما يكون من تحقق شيء

(1) يونس ، 62 .

مما كرهه في الماضي أو من فوات شيء أحبه يندم عليه ، فهم لا يعتريهم ما يوجب ذلك ، فلا يخافون ولا يحزنون ، بل يستمرون علىٰ النشاط والسرور والخشية استعظاماً لجلال ٱلله وهيبته ، والسعي والجد في إقامة حقوق العبودية للوالي تعالىٰ ليكونوا من الخواص والمقربين .

الأولياء هم الأقلون عدداً ، والأعظمون قدراً ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ، يحفظ ٱلله تعالىٰ بهم حججه حتىٰ يودعوها من وراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، فالوالي بالإضافة الذي اتصف بصفات الوالي المطلق من خلال علمه بقدرة الوالي وحقه واتباع أمره ، وهو لم يكن من الذين ركنوا إلىٰ هوىٰ النفوس وملذاتها ، إلا أن الوالي الذي يتولاه ٱلله تعالىٰ يأنس بما استوحش منه الغافلون ، لأنه يصحب الدنيا بجسد روحه معلقة بالمحل الأعلىٰ ، أولئك أولياء ٱلله عز وجل من خلقه وأمناؤه وعماله في أرضه والدعاة إلىٰ دينه الذين يرثون الأرض بما وعدهم ٱلله من صالح أعمالهم ، وضبط حركاتهم بموازين المعاني ، وتصرفاتهم بالحسبان ، فهـٰذه سجية أولياء ٱلله تعالىٰ . وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلىٰ الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه مدىٰ أبعد ، كانت مرتبته إلىٰ رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من ٱلله عز وجل أظهر ، والتخلق بالأخلاق التي أمر بها أقرب إليه تعالىٰ ، وهو اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام وقرب منه ، إذ القريب من النبي ﷺ هو القريب من ٱلله عز وجل والقريب من ٱلله لابد أن يكون قريباً ، فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلىٰ غيره .

إن الذين يتخلقون بأخلاق الوالي النسبية ويتمكن الإيمان في قلوبهم ، فهـٰؤلاء الذين يتولاهم ٱلله تعالىٰ ، ويحفهم بعنايته ويحفظهم برعايته لأنهم خلفاؤه في أرضه بما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فقد هدوا إلىٰ الطيّب من القول وهدوا إلىٰ صراط الحميد الذي يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾ [1] ، ٱللَّه تعالىٰ يتولىٰ شؤون المؤمنين وهو ناصرهم ، يخرجهم من ظلمات الشك والحيرة إلىٰ نور الحق والاطمئنان ، والكافرون بالله تستولي عليهم الشياطين ودعاة الشر والضلال ، فهم يخرجونهم من نور الإيمان الذي فطروا عليه والذي وضح بالأدلة والآيات إلىٰ ظلمات الكفر والفساد ، هٰؤلاء الكافرون هم أهل النار مخلدون فيها .

وأما من والىٰ ٱللَّه تعالىٰ فقد غمره بفضله ومحبته وإعانته له ، وهو الذي يتولىٰ أمور أوليائه ولا يكلهم إلىٰ غيره . فالوالي يكون باعتبار المحبة والنصرة فيقال للمحب والٍ لأنه يقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة لا يفارقه وقد يكون باعتبار التدبير والأمر والنهي فيقال لأصحاب الولاية أولياء لأنهم يقربون القوم بأن يدبروا أمروهم ويراعوا مصالحهم ومهماتهم ، فالله تعالىٰ يتولىٰ الذين عظُم إيمانهم وثبت في علمه أنهم يؤمنون حق الإيمان ، لذلك تولاهم ٱللَّه وأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور ، لأن إخراج المؤمن بالفعل من الظلمات تحصيل الحاصل ، وهي أعم من ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه والشكوك ، بل مما في بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلىٰ مراتبها القوية الجلية بل مما في جميع مراتبها بالنظر إلىٰ مرتبة العيان الذي يعم نور الإيمان ونور اليقين بمراتبه ، ونور العيان يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التي وقع فيها إلىٰ ما يقابلها من النور . وجمع الظلمات لأن فنون الضلالة متعددة والكفر أنواع وملل متنوعة ، وأما النور فقد أفرده فهو واحد ، لأن الإسلام دين واحد ، ويسمىٰ الكفر ظلمة لالتباس طريقه ويسمىٰ الإسلام نوراً لوضوح طريقه .

ومراتب المؤمنين في الإيمان متفاوتة وهم ثلاث طوائف ، عوام المؤمنين

---

(1) البقرة ، 257 .

وهم السواد الأعظم من المسلمين ، وخواصهم وهم أعلىٰ مرتبة ، وخواص الخواص وهم أهل الذكر ، فالعوام يخرجهم ٱلله من ظلمات الكفر والضلالة إلىٰ نور الإيمان والهداية ، والخواص الذين هم أهل الذكر والعلم ، وخواص الخواص الذين وصلوا إلىٰ أعلىٰ درجات الإيمان واتصفوا بالصفات النسبية للوالي فتولاهم ٱلله تعالىٰ وكانوا أولياءه فهم الخلفاء في الأرض .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (1) ، ومن يتخذ ٱلله ورسوله والمؤمنين أولياءه ونصراءه فإنه يكون من حزب ٱلله الذين تولاهم بعنايته ورعايته ، وحزب ٱلله هم المنتصرون الفائزون ، ومن يتخذهم أولياء فإنهم الغالبون ، ومن يتول هـٰؤلاء فهم حزب ٱلله وحزب ٱلله هم الغالبون . وتشريفاً لهم بإضافتهم إليه تعالىٰ وتعريضاً بمن يوالي غير هـٰؤلاء بأنه حزب الشيطان .

والغلبة علىٰ أعداء ٱلله الظاهرة والباطنة ، كالهوىٰ والنفس والشيطان إنما تحصل بنصرة ٱلله تعالىٰ ، وليست النصرة والغلبة إلا بقوة ٱلله تعالىٰ وهو المعز وكل العزة منه تعالىٰ ، ولذا ترىٰ الأنبياء والأولياء منصورين مظفرين علىٰ كل حال وهـٰذه النصرة والولاية من آثار عناية ٱلله ، وذلك لما منحهم من مواهب الرضا بمواقع القضاء والصبر عند نزول البلاء والتوكل علىٰ ٱلله عند الشدائد والرجوع إلىٰ ٱلله عند النوائب ، لهـٰذا فأولياء ٱلله تجب موالاتهم ، وتحرم معاداتهم ، كما أن أعداءه تجب معاداتهم ، وتحرم موالاتهم . وأولياء ٱلله تعالىٰ هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما ذكر ٱلله ذلك في كتابه وهم قسمان : المقتصدون أصحاب اليمين والمقربون السابقون ، فولي ٱلله ضد عدو ٱلله ، فأولياء ٱلله من والاهم بالموافقة له في محبوباته ومرضياته وتقربوا إليه بما أمر به من طاعاته ، وهـٰؤلاء هم المقتصدون أصحاب اليمين وهم

---

(1) المائدة ، 56 .

المتقربون إلىٰ ٱلله تعالىٰ بالواجبات والسابقون المقربون وهم المتقربون بالنوافل بعد الواجبات .

إن من صفات المؤمنين موالاة بعضهم بعضاً فدخل في ذلك رسل ٱلله الذين هم أكمل المؤمنين إيمانًا ، وعليه فإن موالاتهم ومحبتهم في قلوب المؤمنين هي أعظم من موالاة غيرهم من الخلق لعلو مكانتهم في الدين ورفعة درجاتهم في الإيمان . ولذا حذر ٱلله من معاداة رسله وعطفها في الذكر علىٰ معاداة ٱلله وملائكته وقرن بينهما في العقوبة والجزاء ، فقال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [(1)] ، فمن كان عدواً لجبريل أو ميكائيل أو لأي ملك أو رسول من ملائكة ٱلله ورسله الذين لا يفعلون ولا يبلغون إلا ما يأمرهم به ٱلله ، وكان مخالفاً لأمر ٱلله عناداً وخارجاً عن طاعته مكابرة فإنه بذلك يكون عدواً وكافراً به ، والله عدو الكافرين ، وإن من كان عدواً لجبريل لأجل أنه نزل بالقرآن علىٰ قلب محمد ﷺ وجب أن يكون عدواً لله ، لأن ٱلله تعالىٰ هو الذي نزله علىٰ محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد بين أن كل من كان عدواً لأحد من هٰؤلاء ، فإنه عدو لجميعهم ، وبين أن ٱلله عدوه بقوله (فإن ٱلله عدو للكافرين) فأما عدواتهم لله فإنها لا تضره ولا تؤثر وعداوته لهم تؤديهم إلىٰ العذاب الدائم ، الذي لا ضرر أعظم منه ، المراد من عداوتهم لله وعداوتهم لأوليائه وأهل طاعته فهو كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [(2)] أي : يحاربون أولياء ٱلله أهل طاعته . ومعادة أحد من ملائكته ورسله ، فهو عداء لهم جميعاً ، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم ، وجبريل وميكائيل إنما خصهما بالذكر وإن كانا داخلين في جملة الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما

(1) البقرة ، 98 .
(2) المائدة ، 33 .

وعلو منزلتهما ، وقدّم جبريل علىٰ ميكائيل لفضله عليه لأن جبريل ينزل بالوحي علىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم الأولياء والخلفاء .

والموالاة أن تتخذ ولياً ، وأصلها من الوَلاية ، والوَلاية هي المحبة ، قال جل وعلا : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (1) يعني هنالك المحبة والمودة والنُّصرة لله الحق ، فأصل الموالاة المحبة والمودة ،و أن أصل الموالاة في القلب ، فأصل الدين أن من دخل في (لا إلـٰه إلا ٱلله) فإنه يحب هـٰذه الكلمة وما دلت عليه من التوحيد ، ويحب أهلها ، ويُبغض الشرك المناقض لهـٰذه الكلمة ، ويبغض أهله . فكلمة الولاء والبراء هي معنىٰ الموالاة والمعاداة ، وهي بمعنىٰ الحب والبغض ، فإذا قيل الولاء والبراء في ٱلله هو بمعنىٰ الحب والبُغض في ٱلله ، وهو بمعنىٰ الموالاة والمعاداة في ٱلله ، ثلاثة بمعنىً واحد ، فأصله في محبة القلب ، إذا أحبَّ القلبُ الشرك صار موالياً للشرك ، وإذا أحب القلبُ أهل الشرك صار موالياً لأهل الشرك ، كذلك إذا أحب القلبُ الإيمان صار موالياً للإيمان ، وإذا أحب القلبُ الله صار موالياً لله ، وإذا أحب القلبُ الرسول صار ولياً وموالياً للرسول ﷺ ، وإذا أحب القلبُ المؤمنين صار موالياً وولياً للمؤمنين .

فلكل مؤمن وَلاية بحسبه ، لـٰكن اسم الوالي هـٰذا خاص بمن كمّل الإيمان والتقوىٰ ، و سعىٰ في تكميل إيمانه وتقواه ، والإيمان إيمان بالأركان الستة التي جاءت في القرآن الكريم وفي حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبي هريرة قال : كان رسول ٱلله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : « يا رسول ٱلله ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ، قال يا رسول ٱلله ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ، قال يا

---

(1) الكهف ، 44 .

رسول ٱلله ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك ، قال يا رسول ٱلله متىٰ الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ثم تلا ﷺ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [1] . قال ثم أدبر الرجل . فقال رسول ٱلله ﷺ : ردوا عليّ الرجل ، فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً . فقال رسول ٱلله ﷺ : هـٰذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » [2] وغيرها ، ومنها الإيمان بالرسل ، والإيمان بالكتب ، ومن الإيمان بالرسل والإيمان بالكتب بل هو أخصها الإيمان بأنّ محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنّ القرآن خاتم الكتب ، وأنّ طاعة محمد بن عبد الله فرض وليس لأحد أن يخرج عن طاعته ، فمن أخذ بهـٰذا وأيقن به واستمسك بما جاء من ٱلله فهم من الأولياء الذين يخلفون ٱلله تعالىٰ في أرضه التي أورثها لهم لأنهم من العباد الصالحين .

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [3] . النبي عليه الصلاة والسلام هو الوالي الذي اجتمعت به جميع الصفات النسبية للوالي المطلق ، ولذلك فهو أحق الخلق بولاية المؤمنين ، فقد كان أرحم بهم من نفوسهم ، فعليهم أن يحبوه ويطيعوه ويقتدوا به ، وأزواجه أمهاتهم في التوقير وحرمة التزوج بهن بعده ، وذوو القرابات بعضهم أولياء بعض فيما أمر به ٱلله تعالىٰ ، فالله تعالىٰ يُعلم المؤمنين بمكانة الرسول ﷺ ومرتبته لذلك وجب عليهم الالتزام بما أمر به الوالي المطلق بمقتضىٰ تلك الحالة فقال : النبي أولىٰ بالمؤمنين من

---

(1) لقمان ، 34 .

(2) صحيح مسلم ، ج1 ، ص30 .

(3) الأحزاب ، 6 .

أنفسهم ، فهو عليه الصلاة والسلام أقرب ما للمؤمنين ، وأولىٰ منهم بأنفسهم ، لأنه بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ، ما كان به أرحم الخلق بهم وأرأفهم ، فرسول الله أعظم الخلق مِنَّةً عليهم من كل أحد ، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا علىٰ يديه وبسببه ، فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس ، أو مراد أحد من الناس ، مع مراد الرسول ، أن يقدم مراد الرسول ، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائنًا من كان ، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ويقدموا محبته علىٰ الخلق كلهم ، وألا يقولوا حتىٰ يقول ، ولا يتقدموا بين يديه .

إن الوالي الذي جعله ٱلله خليفة في الأرض وجب اتباعه لأنه أحرىٰ وأجدر بالمؤمنين من أنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا ، لأنه لو دعاهم إلىٰ شيء ودعتهم نفوسهم إلىٰ شيء آخر كان الوالي أولىٰ بالإجابة إلىٰ ما يدعوهم إليه من إجابة ما تدعوهم إليه نفوسهم ، لأن الوالي بالإضافة لا يدعوهم إلا إلىٰ ما فيه نجاتهم وفوزهم ، وأما نفوسهم فربما تدعوهم إلىٰ ما فيه هلاكهم وبوارهم كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] ، ومن هنا وجب أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام وهو والي المؤمنين ومولاهم أحب إليهم من أنفسهم ، وأمره أنفذ عليهم من أمرها وآثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه في الخطوب ، ويتبعوه في كل ما دعاهم إليه .

إن الوالي جل جلاله جعل الولاة بالإضافة خلفاء في الأرض من أجل إعمارها وإصلاحها خدمة للإنسان ، لذلك أمر سبحانه وتعالىٰ اتباع الوالي بالإضافة لما خصه ٱلله تعالىٰ من تفضيل علىٰ بقية الخلق لأنه اتصف نسبياً

(1) يوسف ، 53 .

بصفات ٱلله وتخلّق بالأخلاق التي أمر بها ٱلله سبحانه ، ولذا وجب اتباعه وموالاته فقد قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) . إن أحق الناس بالانتساب إلىٰ إبراهيم ودينه وموالاته هم الذين أجابوا دعوته واهتدوا بهديه وتخلقوا بأخلاقه ، وكذلك محمد عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه ، فإنهم أهل التوحيد الخالص وهو دين إبراهيم ، والله يحب المؤمنين وينصرهم لأنهم أولياؤه ، ويجازيهم بالحسنىٰ وزيادة ، فأولىٰ الناس بموالاة الوالي هم الذين آمنوا به واتبعوا ملته وتخلقوا بأخلاقه ، والتزموا ما أمر به من الأوامر ، وانتهوا عما نهىٰ عنه من النواهي ، و محمد ﷺ ومن آمن معه ، فهم الذين اتبعوه وهم أولىٰ به من غيرهم ، فالله تعالىٰ وليهم وناصرهم ومؤيدهم ، لموافقتهم في ما شرعه لهم وما أمرهم به ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :« إن لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليي أبي وخليل ربي إبراهيم ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ » (2) .

ومما استدل به علىٰ استواء الولاية من ٱلله عز وجل من خلقه ، و من يتولىٰ ٱلله عز وجل من خلقه أن ٱلله عز وجل قال : (إنما وليكم ٱلله ورسوله والذين آمنوا) وقال : (إن وليي ٱلله الذي نزل الكتاب وهو يتولىٰ الصالحين) وقال : (أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) وقال : (ألا إن أولياء ٱلله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) في آيات كثيرة قد ذكرنا بعضها ، وكانت الولاية فيها من ٱلله عز وجل لمن يتولاه من عباده كالولاية التي يتولىٰ ٱلله عز وجل من يتولاه . إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يتولىٰ من يشاء ويستخلف من يشاء من عباده لتدبير شؤون خلقه حيث قال تعالىٰ :

---

(1) آل عمران ، 68 .

(2) مسند أحمد ، ج8 ، ص 401 .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[1] ، عسىٰ ٱلله أن يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاء في الأرض ، فيعلم سبحانه ما أنتم عاملون بعد هـٰذا التمكين ، أتشكرون النعمة أم تكفرون ؟ وتصلحون في الأرض أم تفسدون ؟ ليجزيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون .

فهو جاعلكم خلفاء في الدنيا في أموالكم ومتاعكم وأنعامكم التي هي في الحقيقة ليست لكم ، وإنما هي لله تعالىٰ جعلكم في التصرف فيها بمنزلة الوكلاء فناظر كيف تتصرفون ، و جاعلكم خلفاء لمن كان قبلكم ومعطي ما في أيديهم لكم ، فناظر هل تعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم ، فالله تعالىٰ هو الخالق لكل شيء ، المالك له ، ولم يغب عن خلقه وملكه حتىٰ يتخذ خليفة عنه في أرضه ، وإنما يجعل ٱلله بعض الناس خلفاء لبعض في الأرض ، فكلما هلك فرد أو جماعة أو أمة جعل غيرها خليفة منها يخلفها في عمارة الأرض ، فمن توكل علىٰ ٱلله فهو حسبه ومولاه فنعم المولىٰ ونعم النصير ، والذي يعتصم بالله هو مولاه لأنه توكل عليه ، فالتوكل علىٰ ٱلله والالتجاء إليه يكون من الاقتداء بسنة ٱلله تعالىٰ في أوليائه ، لأنه هو حسب من توكل عليه ، وكافي من لجأ إليه ، وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير وهو نعم المولىٰ ونعم النصير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج من المنافع ، لذلك وجب علىٰ الإنسان أن يكون والياً علىٰ نفسه ، فلا يخرج عما أمر به الوالي المطلق عز وجل ، ولا يبتعد عمّا يرضي ربه بحال من الأحوال أو وجه من الوجوه حتىٰ يصلح أن يكون والياً .

فالوالي من يتولاه ٱلله تعالىٰ ويجعله خليفته وخليفةً يقتدي به الآخرون ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ

(1) الأعراف ، 129 .

ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (1) ، وهو الذي جعلكم خلفاء للأمم السابقة في عمارة الكون ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لأخذكم في أسبابه ، ليختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونها ؟ وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها ، فكان من سنته تعالىٰ أن يخلف بعضكم بعضاً ، فاستخلفكم ٱللهُ في الأرض ، وسخَّر لكم جميع ما فيها ، وابتلاكم لينظر كيف تعملون . فالله تعالىٰ رفع بعضكم درجات في القوة والعافية والرزق والخَلْق والخُلُق فتفاوتت أعمالكم ، وقد جعل كل واحد من بني آدم ، آدم وقته وعصره وزمانه ، وخليفة ربه في الأرض . وسر الخلافة أنه صوره علىٰ صورة صفاته حياً قيوماً سميعاً بصيراً عالماً قادراً متكلماً مريداً ليعاملكم معاملة من يبتليكم ويمتحنكم لينظر ماذا تعملون من الشكر أو غير ذلك .

فالله تعالىٰ خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل ، فجعل منهم الحسن والقبيح ، والغني والفقير ، والشريف والوضيع ، والعالم والجاهل ، والقوي والضعيف ، وهـٰذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل ، فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ منزه عن صفات النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان ، وعلىٰ هـٰذا يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر ، وهو أعلم بأحوال عباده . فيبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب ، لأن العبد إما أن يكون مقصراً فيما كلف به ، وإما أن يكون موفياً ما أمره به ، فإن كان مقصراً كان نصيبه التخويف والترغيب ، فالله تعالىٰ سريع العقاب للعُصاة المذنبين ، وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت فهو قريب ، فإن كان العبد موفياً حقوق ٱلله تعالىٰ

---

(1) الأنعام ، 165 .

فيما أمره به أو نهاه عنه ، كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم ، لأن ٱلله تعالىٰ الذي تولىٰ الصالحين يعفو عن ذنوب أوليائه وأهل طاعته ، ويتولاهم ويستخلفهم كما قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (1) ، لقد وعد ٱلله الذين صدَّقوا بالحق وأذعنوا له منكم ، وعملوا الأعمال الصالحة وعداً مؤكداً أن يجعلهم خلفاء لمن سبقوهم وارثين لهم في الحكم والولاية في الأرض ، كما كان الشأن فيمن سبقوهم . وأن يمكن لهم الإسلام الذي ارتضاه ديناً لهم ، فتكون لهم المهابة والسلطان ، وأن يبدل حالهم من خوف إلىٰ أمن ، فالذين آمنوا وأتوا بالأعمال الصالحات فقد وعدهم ٱلله تعالىٰ أن يتولاهم وأن يستخلفهم في الأرض ، يكونون هم الخلفاء فيها ، المتصرفون في تدبيرها ، وأن يمكّن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم ، وهو دين الإسلام ، الذي فاق الأديان كلها ، وارتضاه لهٰذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها ، بأن يتمكنوا من إقامته ، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة ، في أنفسهم وفي غيرهم ، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم بالأمن والطمأنينة .

اللهُمَّ إنك الوالي الذي ليس لنا من دونه والٍ ، تنعم بالعطاء وتدفع للبلاء فأنعم علينا بواسع نعيمك وادفع عنا كل بلاء وكل عناء وكل شقاء وارزقنا من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب يا ٱلله !

اللهُمَّ تولنا بالرعاية والعناية والهداية والحفظ من الدس والحسد والحقد والظلم والكيد والمكر فأنت ولينا وأنت خير الماكرين !

اللهُمَّ إنك الوالي الذي لا والي سواه فحل بيننا وبين كل سوء واجعل بيننا وبينه سداً ! اللهُمَّ إنك الوالي القوي ونحن عبادك نحب القوة ونحب النصر

---

(1) النور ، 55 .

فمدنا بالقوة التي بها ننتصر علىٰ الظالمين والكافرين والمشركين ، اللهُمَّ يا الوالي إننا عبادك نكره الضعف فلا تجعله لنا رفيقاً ، واجعل لنا بالحق مع القوة صحبة !

اللهُمَّ إنك الوالي الراعي للصادقين المصدقين بالحق فاجعلنا علىٰ الصدق ولا تجعلنا وأولادنا وأزواجنا من الكاذبين والمكذبين بالحق ولا تجعلنا من المنافقين !

اللهُمَّ إنك الوالي الذي يخرج من يشاء من الظلمات إلىٰ النور اجعلنا علىٰ نور من نورك به نهتدي إلىٰ سبل الصلاح ولا تجعلنا في ظلمة بها تغم الأنفس .

اللهُمَّ اجعلنا مع الذين قالوا : ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [1] .

---

(1) فصلت ، 30 ـ 34 .

المُتَعَالِي جلّ جلاله

المتعـالـي : « هـو المتفـاعـل مـن العلـو ، والله تعـالـىٰ عـال ومتعـال وعلي » [1] .

المتعالي : اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ الحسنىٰ وصفته التعالي ، يوحي بالعلو والكبرياء والعظمة ، وإذا تتبعنا ما ورد في اللغة نجد أن ابن منظور يقول : عُلْو كلّ شيء وعِلْوه وعَلْوُه وعُلاوَتُه وعالِيه وعالِيَتُه أَرْفَعُه ، والله عز وجل هو العَليّ المُتعالي العالي الأَعْلَىٰ ذُو العُلا والعَلاء والمَعالي ، تَعالىٰ عَمَّا يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً هو الأَعْلىٰ سبحانه بمعنىٰ العالي وتفسير تَعالَىٰ جلَّ ونَبَا عن كلِّ ثناءٍ فهو أَعظم وأَجلُّ وأَعْلىٰ مما يُثنىٰ عليه لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، قال الأزهري : وتفسير هـٰذه الصفات سبحانه يَقْرُب بعضُها من بعض فالعَلِيُّ الشريف فَعِيل من عَلا يَعْلُو وهو بمعنىٰ العالِي وهو الذي ليس فوقه شيء ويقال هو الذي عَلا الخلقَ فَقَهَرهم بقدرته ، وأَما المُتعالي فهو الذي جَلَّ عن إفْكِ المُفْتَرِين وتَنَزَّه عن وَساوس المتحيِّرين ، وقد يكون المُتعالي بمعنىٰ العالي والأَعْلىٰ هو ٱلله الذي هو أَعْلىٰ من كل عالٍ واسمه الأَعْلىٰ أَي صفته أَعْلىٰ الصفات والعَلاءُ الشرفُ وذو العُلا صاحب الصفات العُلا والعُلا جمع العُلْيا أَي جمع الصفة العُليا والكلمة العلْيا ويكون العُلىٰ جمع الاسم الأَعْلىٰ ، وصفةُ ٱلله العُلْيا شهادةُ أَنْ لا إلـٰه إلا ٱلله فهـٰذه أَعلىٰ الصفات ولا يوصف بها غير ٱلله

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 61 .

وحده لا شريك له ولم يزل ٱلله عَلِيّاً عالياً متعالياً تعالىٰ اللهُ عن إلحاد المُلْحِدِين وهو العَليُّ العظيم [1] .

المتعالي : هو الذي يتعالىٰ عن كل وصف لا يتصف به ، إنه المتصف بالصفات الحسان وبالأسماء الحسان الكاملة سبحانه لا إلـٰه إلا هو ليس له مثيل ولا شبه .

والمتعالي جل جلاله هو الذي يعلم حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله ، فيثبت لنفسه وصفه الحقيقي ، وهو : أنه العلي . وهـٰذا المعنىٰ هو معنىٰ التعالي بالنسبة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، وأما التعالي بالنسبة إلىٰ غيره : فهو ادعاء كاذب ، وتكلف ممقوت ، وخلق ذميم ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [2] .

ويدخل اسم ٱلله تعالىٰ (المتعالي) مع مجموعة من أسماء ٱلله الحسنىٰ مكوناً وحدة دلالية واحدة ، وهـٰذه الوحدة الدلالية يمكن تسميتها ب(صفات الحمد والتمجيد لله تعالىٰ) وهـٰذه الأسماء هي (الكبير ، المتكبر ، العلي ، المتعالي ، الجليل ، العظيم ، الكريم ، الماجد ، المجيد ، الحسيب ، ذو الجلال والإكرام ، الصمد ، الحميد) . وهـٰذه الصفات لها مطلق المجد والعظمة ، والعلو والكبرياء ، السيادة والكرم . والله تعالىٰ هو الذي يستحق وحده منتهىٰ الحمد والثناء عليه ، بالعظمة والجلال ، والعلو والكبرياء ، وهو الذي يستحق التمجيد بمنتهىٰ السؤدد والشرف الحقيقي .

واسم ٱلله تعالىٰ (المتعالي) يفتح ملفاً معرفياً يتشكل من عدة محاور ،

---

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص 83 .

(2) الرعد ، 8 ـ 10 .

وهـٰذه المحاور تأخذ أبعاداً مترامية الأطراف وتحيلنا إلىٰ قراءات مختلفة ، منها نستمد المعارف والأفكار التي تدخلنا حيزاً جديداً يزيد إيماننا وثقتنا بالله تعالىٰ .

المتعالي هو المنزه عن صفات الخلق وهـٰذه صفة يستحقها بذاته وقد يكون بمعنىٰ العالي فوق خلقه بالقهر [1] . والمتعالي جل جلاله متعالٍ عن الأشباه والأنداد والأمثال والأضداد وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث ، وقيل : هو من العلو الذي هو بمعنىٰ القدرة والسلطان والملك وعلو الشأن والقهر والاعتلاء والجلال والكبرياء [2] .

ويدخل اسم المتعالي مع اسم المتكبر مكوناً تشكلاً معرفياً يجمع صورتين كل واحدة تحيل علىٰ الأخرىٰ ، فترسمها بشكل يتفاعل فيه التعالي مع الكبر مما يخلق صورة واحدة تحيل إلىٰ عظمة وتعالي وتكبر لله جل جلاله . « فالْمُتَكَبِّرُ هُوَ الْمُتَعَالِي عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ ، وَيُقَالُ : هُوَ الَّذِي يَتَكَبَّرُ عَلَىٰ عُتَاةِ خَلْقِهِ إِذَا نَازَعُوهُ الْعَظَمَةَ فَيَقْصِمُهُمْ ، وَالتَّاءُ فِي الْمُتَكَبِّرِ تَاءُ التَّفَرُّدِ وَالتَّخْصِيصِ بِالْكِبْرِ لا تَاءُ التَّعَاطِي وَالتَّكَلُّفِ ، وَالْكِبْرُ لا يَلِيقُ بِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَإِنَّمَا سِمَةُ الْعَبِيدِ الْخُشُوعُ وَالتَّذَلل وَقَدْ رُوِيَ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَمَنْ نَازَعَهُ رِدَاءَهُ قَصَمَهُ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمُتَكَبِّرَ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ الَّذِي هُوَ عَظَمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ لا مِنَ الْكِبْرِ الَّذِي هُوَ مَذْمُومٌ عِنْدَ الْخَلْقِ » [3] . وهنا ندخل في سياق التكبر ، إذ لابد من الإحالة إلىٰ قول رسول ٱلله ﷺ ، عن أبي هريرة قال : قال رسول ٱلله صلىٰ ٱلله عليه و سلم : « قال ٱلله عز وجل الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار » [4] .

(1) الاعتقاد ، ج 1 ، ص 64 .

(2) تفسير الآلوسي ، ج 2 ، ص 319 .

(3) الأسماء والصفات ، ج 1 ، ص 183 .

(4) سنن أبي داود ، ج 2 ، ص 456 .

وفي حديثنا عن اسم ٱلله تعالىٰ (المتعالي) لابد من التفريق بينه وبين اسم (العلي) وذلك لأن الاسمين الكريمين يدلان علىٰ العلو ، بمعنىٰ أن دلالتهما واحدة لـٰكن هناك في الوقت نفسه فرق بينهما ، فالعلي : الذي رتبته أعلىٰ المراتب العقلية ، وهي المرتبة العلية ، فإن ذاته المقدسة هي مبدأ كل موجود حسي وعقلي ، وعلته التامة المطلقة التي لا يتصور فيها النقصان بوجه ما .

والمتعالي هو المستعلي علىٰ كل شيء بقدرته ، أو المتنزه عن نعوت المخلوقات وعن كل شيء لا يجوز عليه في ذاته وصفاته وأفعاله [1] .

إن توضيح الفرق بين اسم العلي والأعلىٰ والمتعالي ، يأتي وفق التصور الآتي : إن كل اسم كما سبق دل علىٰ معنىً من معاني العلو ، فاسم ٱلله العلي دل علىٰ علو الفوقية وأن ٱلله عال عرشه وهو أعلم بالكيفية ، واسمه المتعالي دل علىٰ علو القهر والغلبة ، واسمه الأعلىٰ دل علىٰ علو الشأن والعظمة ، تنسجم في ذلك الأدلة اللغوية مع الأصول القرآنية والنبوية [2] .

واسم ٱلله تعالىٰ (المتعالي) ضمن تشكل صوتي يحيل إلىٰ الكبر والعلو والسمو ففيه حرفان من حروف المد هما الألف والياء ، مما يحتاج نفساً طويلاً عند قراءته مما يخلق جواً معرفياً طول مدة نطقه للتبصر به والتعمق والوصول إلىٰ سبر أغواره ، فيثير في النفس الرهبة والرغبة ، فالرهبة تحيل إلىٰ الخوف منه جل جلاله ، فالتعالي صورة موحية بالخوف الشديد الذي يهز الأبدان فترتعش الأطراف وتخرج القلوب من الصدور إلىٰ الحناجر ، صورة مرعبة مضطربة تتبعها أزمة نفسية واهنة ، و هـٰذا التشكل النفسي المضطرب يدعمه صورة من صور القيامة التي رسمها لنا القرآن الكريم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿رَفِيعُ

(1) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 375 .

(2) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 32 ، ص 204 .

ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [1] ، هـٰذه الآية الكريمة رسمت صورتي الرحمة بالاصطفاء ، والخوف المتحقق في النفس الإنسانية ضمن سياق بدأ بالإنذار قبل يوم التلاق . فالسياق هنا يتمثل في عرض مشاهد القيامة ، وهـٰذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله ، مشتركة في طبع هـٰذا الجو بطابع العنف والشدة [2] .

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال : ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي : العلي الأعلىٰ ، الذي استوىٰ علىٰ العرش واختص به ، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته ، وارتفع به قدره ، وجلَّت أوصافه ، وتعالت ذاته ، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر ، وهو الإخلاص ، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه ، ثم ذكر نعمته علىٰ عباده بالرسالة والوحي ، فقال : ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي : الوحي الذي هو للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد ، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش ، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح ، فهو تعالىٰ ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم . ﴿يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم ٱلله واختصهم ٱلله لوحيه ودعوة عباده .

والفائدة من إرسال الرسل ، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم ، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم ، ولهـٰذا قال : ﴿لِيُنذِرَ﴾ من ألقىٰ ٱلله إليه الوحي ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي : يخوف العباد بذلك ،

---

(1) غافر ، 15 ـ 16 .

(2) في ظلال القرآن ، ج6 ، ص 243 .

ويحثهم علىٰ الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه . وسماه ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض ، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم .

﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ ﴾ أي : ظاهرون علىٰ الأرض ، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر . ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم ، ولا من جزاء تلك الأعمال . ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ أي : من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين ، أهل السمٰوات وأهل الأرض ، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك ، وتقطعت الأسباب ، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة ؟ الملك ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ أي : المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه . ﴿ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ لجميع المخلوقات ، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت ، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم ، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه (1) .

أما الرغبة فهي لا تكون إلا للمؤمنين بالله تعالىٰ ، فهٰذه الصفة يتحقق فيها الإيمان الحقيقي ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (2) . والمحبة : انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية ، أو إحسان ، أو اعتقاد أنّه يُحِب المستحسِنَ ويَجُر إليه الخير . فإذا حصل ذلك الانفعال عقِبَهُ ميل وانجذاب إلىٰ الشيء المشعور بمحاسنه ، فيكون المنفعِل محبّاً ، ويكون المشعور بمحاسنه محبوباً ، وتُعدّ الصفات التي أوجبت هٰذا الانفعال جمالاً عند المحبّ ، فإذا قويَ هٰذا الانفعال صار تهيّجاً نفسانياً ، فسُمي عشقاً للذوات ، وافتناناً بغيرها .

---

(1) السعدي ، ج 1 ، ص 734 .

(2) ال عمران ، 31 .

والشعور بالحسن الموجبُ للمحبة يُستمدّ من الحواسّ في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال ، ويُستمد أيضاً من التفكّر في الكمالات المستدلّ عليها بالعقل وهي المدعوة بالفضيلة ، ولذلك يحبّ المؤمنون ٱلله تعالىٰ ، ويحبّون النبي ﷺ تعظيماً للكمالات ، واعتقاداً بأنّهما يدعوانهم إلىٰ الخير ، ويحبّ الناس أهل الفضل الأوّلين كالأنبياء والحكماء والفاضلين ، ويحبون سُعاة الخير من الحاضرين وهم لم يَلْقوهم ولا رَأوْهم [1] . وقد عبّر رسول ٱلله ﷺ عن المحبة المتحققة ، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ نَبِي اللَّهِ ﷺ قَالَ « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » [2] . وهنا نعود إلىٰ يوم التلاق لنستعرض فيه من هم المحبون ؟ و المحبون هم من يتشكلون من القرآن الكريم وسنة النبي محمد ﷺ ، ونقصد بالتشكل هنا أتباع ما جاء في القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام ، والمحبة وردت في النص القرآني في خطاب ٱلله سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، فإن محبة ٱلله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه ، وأفضل فضيلة ، تفضل ٱلله بها عليه ، وإذا أحب ٱلله عبداً يسر له الأسباب ، وهون عليه كل عسير ، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات ، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد . وفي هـٰذا السياق ورد قول الرسول عليه الصلاة والسلام : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ ـ قَالَ ـ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي في السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ .

---

(1) التحرير والتنوير ، ج 3 ، ص 84 .

(2) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 65 .

(3) المائدة ، 54 .

فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ـ قَالَ ـ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ في الأَرْضِ . وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ ـ قَالَ ـ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ ـ قَالَ ـ فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ في الأَرْضِ » (1) ، المتعالي جل جلاله هنا يرسم للخلق أجمعين صورة عظيمة ، فهو المتعالي تبارك وتعالىٰ يحب مخلوقاً ضعيفاً ، وهـٰذا الحب يأخذ منحىً أخر ، إذ يتشكل مع العبد ويجعل منه قوة كبيرة مستمدة من حب ٱلله تعالىٰ له ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ : ـ « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَىٰ لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عبدي بشيء أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سألني لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شيء أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » (2) . فضلاً عن ذلك تنال محبة ٱلله بطاعة رسوله ﷺ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، فمن اتّبع الرسول ﷺ أحبه ٱلله ، ومن عصىٰ الرسول ﷺ أبغضه ٱلله .

ولا بد أيضاً من المحبة المنافية لضدها ، فلا يحصل لقائلها معرفة إلا بقبول ما دلت عليه من الإخلاص ، ونفي الشرك ؛ فمن أحب ٱلله أحب دينه ، ومن لا فلا ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ (4) ، فصارت محبتهم لله ولدينه ،

(1) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 40 .
(2) صحيح البخاري ، ج 21 ، ص 392 .
(3) آل عمران ، 31 .
(4) البقرة ، 165 .

فأحبوا من أحبه ٱلله ، وأبغضوا من أبغضه ٱلله ، وفي الحديث : « وهل الدين إلا الحب والبغض » [1] هـٰذه صورة الحب التي يجب أن يكون عليها الخليفة ولهـٰذا وجب أن يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

حب ٱلله يستلزم الانقياد لأوامره ونواهيه ، ومن علامات محبته ﷺ : بُغض من أبغض ٱلله ورسوله ومعاداة من عاداه ، ومجانبة من خالف سنته ، وابتداع في دينه ، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

ومن الحب أيضاً أن يحب القرآن الذي أُنزل عليه ﷺ ويحب سنته ويقف عند حدودها ، قال سهل بن عبد الله : « علامة حب ٱلله حب القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بُغض الدنيا ، وعلامة بُغض الدنيا ألاَّ يدَّخر منها إلا زاداً وبلغة إلىٰ الآخرة » [3] .

الله سبحانه وتعالىٰ متعالٍ عن الوصف والإدراك والإحاطة ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ

(1) تفسير ابن أبي حاتم ، ج 12 ، ص 27 .
(2) المجادلة ، 22 .
(3) البدع الحولية ، ج 1 ، ص 131 .

ٱلۡعَظِيمُ ﴾[1] ، هـٰذه الآية هي إخبار من ٱلله تعالىٰ بأنه هو المتفرد بالألوهية لجميع خلقه ، وهو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه ، فالآية الكريمة ترتسم ضمن صفات متعددة متتابعة فتبدأ بالحي القيوم ، الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً . والقيم علىٰ غيره ، وهو القائم بتدبير أمر عباده ، يكلؤهم ويحفظهم ويرعاهم ويرزقهم ، ولا قوام للمخلوقات بدون أمره .

لا تأخذه سنة ولا نوم ، لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، ومن تمام القيومة أن لا يعتريه سنة ولا نوم ، لأن اعتراء النعاس والوسن دليل علىٰ العجز والضعف . له ما في السمـٰوات وما في الأرض ، وهو إخبار بأن جميع من في الكون عبيد له وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه ، وهو المتصرف بشؤونهم ، الحافظ لوجودهم .

من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، ومن عظمته ، جل شأنه وعلا ، لا يجرؤ أحد علىٰ أن يشفع لأحد عنده إلا إذا أذن له بالشفاعة ، ولا يتكلم أحد بدون إذنه .

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وهـٰذا دليل علىٰ إحاطته علماً بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل ، وهو يعلم أمور الدنيا التي خلفوها ، وأمور الآخرة التي يستقبلونها .

ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ـ ولا يطلع أحد من خلقه علىٰ شيء من علم ٱلله إلا ما علمه ٱلله ، وأطلعه عليه ، وأذن له به . ولا يعرف إذنه تعالىٰ إلا بوحي منه .

وسع كرسيه السمـٰوات والأرض ، والكرسي غير العرش ، وهو أصغر

(1) البقرة ، 255 .

منه . وقال رسول ٱلله ﷺ : ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة في الأرض .

ولا يـــؤوده حفظهمـــا ، ولا يعجـــزه حفـــظ السمٰـــوات والأرض وما فيهما وما بينهما بل هو سهل عليه يسير ؛ فلا يعزب عن علمه شيء ، ولا يغيب عنه شيء .

وهو العلي العظيم ، وهو الكبير المتعالي عن النقص ، العظيم بجلاله وسلطانه [1] . وهـٰذا يقين بأنه تعالىٰ الكبير المتعالي عن النقص ، فهو سبحانه منزه عن أي نقص فهو العظيم بجلاله وسلطانه . هـٰذه الآية الكريمة تشكلت مع اسم ٱلله تعالىٰ (المتعالي) فجاءت بأنساق مختلفة كل واحدة تفضي إلىٰ الأخرىٰ لتشكل لنا حزمة معرفية تفتح لنا أفاقاً رحبة في التعرف علىٰ ربنا جل جلاله .

وفي هـٰذا السياق نتذكر قول الرسول الكريم ﷺ في هـٰذه الآية العظيمة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَقَصَّ الْحَدِيثَ فَقَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ . وَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ « صَدَقَكَ وَهْوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ » [2] .

والتعالي صفة لا يختص بها إلا ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذه الصفة عند التحلي بها إنسانياً لها وجهان :

1 ـ **محمود** ، وهو تعالٍ مطلوب في حق الخليفة ويتجسد في التعالي عن الرذائل والنقائص ، فيجب علىٰ الخليفة التعالي بالطاعة عن المعصية

---

(1) أسعد حومد ، ج 1 ، ص 262 .

(2) صحيح البخاري ، ج 16 ، ص 499 .

وبالإيمان عن الكفر وبالعدل عن الظلم ، وبالمطلق بالحق عن الباطل .

2 ـ مذموم ، ليعلم الخليفة أن أول من تعالىٰ عليه عدوه إبليس لعنة ٱلله عليه ، يقول المتعالي جل في علاه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (1) ، من هنا يجب علىٰ الخليفة أن يستشعر التعالي المذموم الذي هو من أسباب دخول جهنم والعياذ بالله ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » . قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً . قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » (2) . هنا الحديث النبوي يقطع صورة التكبر الإنساني ، ويرسمها ضمن شكل دقيق لا يرىٰ بالعين المجردة في بعض الأحيان مما يجعلها خاصة بالمتعالي جل جلاله ، فلا تكون إلا له .

وحظ الخليفة من اسم (المتعالي) جل جلاله ، أن يتخلق به فلا يتعالىٰ علىٰ الخلق ، إنما يتعالىٰ علىٰ كل شيء يبدد تشكل الخليفة الذي أراده ٱلله تعالىٰ ، ويمتثل لقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (3) ، هٰذا الإتيان والنهي يمثل دائرة مغلقة يكون الخليفة بداخلها فتكسبه حصانة وأماناً وقوة ، فضلاً عن ذلك تعالياً يتماشىٰ مع تشكله مما يمنحه صفة الإصلاح في

(1) ص ، 71ـ76 .
(2) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 65 .
(3) الحشر ، 7 .

الأرض ، فيكون قادراً علىٰ هـٰذا الإصلاح لأنه امتلك أدواته التي يتحقق من خلالها التغيير المطلوب من ٱلله تعالىٰ ، من ذلك جاء قول ٱلله تعالىٰ مخاطباً داود عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (1) .

المتعالي جل جلاله يسقط أمامه كل كبير ، والكبير وفق تشكلنا الإنساني يحيلنا إلىٰ صورة كل متكبر وطاغية ومتجبر علا في الأرض واستحكم عليها وملك المال والأنفس ، وبطبيعة الحال إن ملك المال والنفس هو من باب المجاز ، فالله سبحانه وتعالىٰ هو مالك الملك وبيده كل شيء ، ولنبدأ من فرعون تلك الشخصية التي أصبحت مضرباً للمثل ، فضلاً عن ذلك صارت معياراً للتجبر والتكبر ، فهـٰذه الشخصية رُسمت صورتها وفق إطار التملك والقوة والجبر ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (2) جمع فرعون قومه ونادىٰ فيهم متبجحاً متفاخراً بملك مصر ، وتصرفه فيها ، وفي أنهارها الجارية في أرضها ،وسياق الخطاب هنا تشكل من مفردات مختلفة كلها تحيل إلىٰ القوة وعظم المكانة التي عليها هو ، فضلاً عن ذلك أراد تثبيتهم في طاعته ، وصرفهم عن التأثر بموسىٰ وما جاء به من آيات .

فإذا تتبعنا النص القرآني وجدناه قد رسم فرعون في صورة لم ترسم لغيره ، ألا وهي صورة العلو التي شغلت حيزاً واضحاً في سرد قصته ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ

(1) ص ، 26 .
(2) الزخرف ، 51 .
(3) يونس ، 83 .

عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (2) ، هـٰذه الآيات الكريمة في كل سياقاتها بينت لنا صورة فرعون صاحب القهر والغلبة ، وفي الوقت نفسه هو عاتٍ متكبر ، هـٰذه الصفات عند قراءتها والتمعن فيها تحيلنا إلىٰ مخلوق قوي متمكن متسلط جبروت يفعل بالخلق ما يريد لا أحد يقف أمامه ، لـٰكن هـٰذه الصورة تتهاوىٰ أمامنا حين نقرأ قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (3) ، هنا تهاوىٰ كل شيء ، أين الجنود ؟ أين المدافعون ؟ أين الحماة ؟ أين العلو الذي زعمته ؟ ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (4) ، الكل تفرق عنه وذهب كل يريد النجاة بنفسه ، نُفي عنه الإيمان لأنه لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت . وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (5) تحقق أمر ٱلله تعالىٰ بغرقه في البحر ، إلا أن الغرق تبعه أمر مهم بقي خالداً في الذاكرة يتشكل معها

---

(1) القصص ، 4 ـ 5 .

(2) الدخان ، 30 ـ 31 .

(3) يونس ، 90 ـ 92 .

(4) النازعات ، 24 .

(5) النساء ، 18 .

ويوقظها عند سماع اسم فرعون ، يقول تعالىٰ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (1) ، الإنجاء بالبدن صورة تبقىٰ علىٰ طول الزمن واضحة معبرة لكل الخلق ، فعندما تقع أعينهم علىٰ البدن يذكرون المتعالي جل جلاله ، الذي يسقط أمامه كل من أراد العلو والتكبر والجبروت في الأرض ، سبحانك ربنا لا إلـه إلا أنت ، أنت المتعالي .

ولننتقل إلىٰ شخصية أخرىٰ وهي شخصية قارون ، فقد قص علينا النص القرآني قصته ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (2) ، قصة قارون تعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر ، والاستكبار علىٰ الخلق وجحود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلىٰ جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد .

---

(1) يونس ، 92 .
(2) القصص ، 76 ـ 82 .

تبدأ القصة فتعين اسم بطلها (قارون) وتحدد قومه (قوم موسىٰ) وتقرر مسلكه مع قومه ، وهو مسلك البغي (فبغىٰ عليهم) وتشير إلىٰ سبب هـٰذا البغي وهو الثراء :

(وآتيناه من الـكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) .

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس .

لقد كان قارون من قوم موسىٰ ، فآتاه ٱلله مالاً كثيراً ، يصور كثرته بأنه كنوز والـكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول وبأن مفاتح هـٰذه الـكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال . من أجل هـٰذا بغىٰ قارون علىٰ قومه . ولا يذكر فيم كان البغي ، ليدعه مجهولاً يشمل شتىٰ الصور . فربما بغىٰ عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان وربما بغىٰ عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال [1] . ثم يأتي الخطاب القرآني بعد سرد قصة قارون ليبين صفات المستحقين للآخرة ، يقول تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] ، ومن بين هـٰذه الصفات صفة العلو التي تشكل محوراً مهماً في حياة المؤمنين فهم لا يريدونها لأنهم متواضعون وعارفون أنها لا تكون إلا للواحد الأحد المتعالي جل جلاله .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [3] هـٰذه الآية الكريمة فيها إطلاق معرفي ، فالله تعالىٰ يعلم كل شيء مما يشاهده

---

(1) في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص 442 .
(2) القصص ، 83 .
(3) الرعد ، 8 ـ 9 .

العباد ، ومما يغيب عنهم من عوالم لانهاية لها ، ولا يخفىٰ عليه شيء منه . و(الكبير) العظيم الشأن الذي كل شيء دونه و(المتعالي) المستعلي علىٰ كل شيء في ذاته وعلمه وسائر صفاته سبحانه ، وجوز أن يكون المعنىٰ الكبير الذي يجل عما نعته به الخلق من صفات المخلوقين ويتعالىٰ عنه ، فعلىٰ الأول المراد تنزيهه سبحانه في ذاته وصفاته عن مداناة شيء منه ؛ وعلىٰ هـٰذا المراد تنزيهه تعالىٰ عما وصفه الكفرة به فهو رد لهم كقوله جل شأنه : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1] قال العلامة الطيبي : إن معنىٰ (الكبير المتعال) بالنسبة إلىٰ مردوفه وهو (عالم الغيب والشهادة) هو العظيم الشأن الذي يكبر عن صفات المخلوقين ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلىٰ ما سبق من قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [2] إلىٰ آخر ما يفيد التنزيه عما يزعمه النصارىٰ والمشركون [3] .

التوازن الاجتماعي قضية مهمة تكتسب أهميتها في أنها ترسم للحياة جوانب الاستقرار التي إن تحقق تصبح الحياة تسير وفق تشكل خاص ورؤية خاصة تلملم الفكر المتشتت ، وتبصره إلىٰ الصورة المثلىٰ التي يجب أن تتحقق ، وهـٰذه الصورة المثلىٰ التي تتحقق ترتكز علىٰ صورتين مهمتين تستندان إلىٰ مرجعيات سابقة ، ونقصد بالمرجعيات السابقة أن هناك أحداثاً وقعت ، وعند استدعاء هـٰذه الأحداث وتوظيفها تتشكل صورتان تنطقان بالتوازن الاجتماعي الذي يحصل حين التفكر بهما ، الصورة الأولىٰ تقول إن أي متعالٍ أو جبارٍ من البشر حين يتفكر بما حصل لقارون يندك جبروته وتعاليه ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

(1) الصافات ، 159 .

(2) الرعد ، 8 .

(3) تفسير الآلوسي ، ج 9 ، ص 210 .

وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (2) . هاتان الصورتان تنطقان أن كل متكبر وكل عال في الأرض يكون هـٰذا مصيره ، فعند التفكر بهاتين الصورتين ينسج عقل المتكبر صورة جديدة واعية ترتكز علىٰ الخضوع والخشوع والطاعة لله تعالىٰ ، فيبني لنفسه حياة جديدة يشكلها وفق الوعي الذي تشكل معه نتيجة التفكر المتحقق بعد طول تأمل وتبصر واستدعاء ، هـٰذا الأمر لا يقتصر علىٰ فرد واحد بل يستمر ليتشكل مع الأسرة أيضاً ، ولا يقف عند الأسرة الواحدة بل يستمر أيضاً ليشمل المجتمع والأمة جميعها ، وبهـٰذا يتحقق للمجتمع صورة جديدة مُشَبَّعَةٌ برضا ٱلله تعالىٰ ، فضلاً عن ذلك حتىٰ لا يتخلف أحد من الوصف الذي ذكره ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (3) .

أما الصورة الثانية : فهي صورة الإنسان الضعيف الذي يعلم أن له سنداً أعلىٰ لا ينال منه أحد فيطمئن ويعيش آمناً ، هـٰذه الصورة تحيلنا إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ

(1) الدخان ، 25 ـ 29 .
(2) القصص ، 79 ـ 81 .
(3) آل عمران ، 110 .

﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [1] ، هـٰذه الآيات الكريمة نسجت صورة عظيمة ارتكزت علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ مما يفتح لنا هنا ملفاً معرفياً يتشكل فيه ثبات المؤمن ، فضلاً عن ذلك الجانب النفسي الذي يكسب المؤمن الثقة العالية في مواجهة كل ما هو متوقع وغير متوقع . وغير المتوقع هو ما حصل للنبي يونس عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [2] وهـٰذا ثناء منه تعالىٰ ، علىٰ عبده ورسوله ، يونس بن متىٰ ، كما أثنىٰ علىٰ إخوانه المرسلين ، بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلىٰ الله ، وذكر تعالىٰ عنه ، أنه عاقبه عقوبة دنيوية ، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة ، فقال : ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي : من ربه مغاضباً له ، ظاناً أنه لا يقدر عليه ، ويحبسه في بطن الحوت ، ولم يذكر اللّه ما أغضبه عليه ، ولا ذنبه الذي ارتكبه ، تكريماً لنبي ٱللّه يونس ، وإنما ذُكِّرنا عنه أنه أذنب ، وعاقبه اللّه مع كونه من الرسل الكرام ، وأنه نجاه بعد ذلك ، وأزال عنه الملام ، وقيض له ما هو سبب صلاحه .

فلما أبق لجأ ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ بالركاب والأمتعة ، فلما ركب مع غيره ، والفلك شاحن ، ثقلت السفينة ، فاحتاجوا إلىٰ إلقاء بعض الركبان ، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك ، فاقترعوا علىٰ أن من قرع وغلب ، ألقي في البحر عدلاً من أهل السفينة ، وإذا أراد اللّه أمراً هيأ أسبابه . فلما (اقترعوا) أصابت القرعة يونس ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي : المغلوبين .

---

(1) طه ، 43 ـ 47 .

(2) الصافات ، 139 ـ 148 .

فألقي في البحر﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ ﴾ وقت التقامه ﴿ مُلِيمٌ ﴾ أي : فاعل ما يلام عليه ، وهو مغاضبته لربه . ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي : في وقته السابق بكثرة عبادته لربه ، وتسبيحه ، وتحميده ، فضلاً عن ذلك قوله في بطن الحوت حيث قال : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : لكانت مقبرته ، ولـٰكن بسبب تسبيحه وعبادته للّه ، نجاه الله تعالىٰ ، وكذلك ينجي اللّه المؤمنين ، عند وقوعهم في الشدائد [1] . فكان هنا مقابلة غير المتوقع بأمرين ، الأمر هو عبادة ٱلله تعالىٰ والإيمان به في كل الأوقات وبخاصة في أوقات الرخاء ، أما الأمر الثاني فهو مواجهة الأمور الصعاب والعظام بالدعاء ، ذلك لأن الدعاء هو مخ العبادة أو هو العبادة ، وبذلك يكتسب المؤمن قوة تحصنه وتعينه في حياته ، فضلاً عن ذلك أن كل الأمور التي يتعرض لها هي خير ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » [2] .

المتعالي جل جلاله هو المقصود في الحوائج ، فإذا توجه العبد إلىٰ ٱلله تعالىٰ أصبح في علو . فالعبد يقصد ٱلله تعالىٰ في كل الأمور سواء أكانت الأمور دنيوية أم أخروية ، ولهـٰذا جاء الخطاب القرآني وفق نص مفتوح لا يتقيد بأي شيء ، مما يرسم صورة عظيمة للرحمة التي يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ لعباده ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ

---

(1) السعدي ، ج 1 ، ص 707 .
(2) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 227 .
(3) البقرة ، 186 .

جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (1) . فالعبد حين يطلب حاجته من ٱلله تعالىٰ يكون في علو ، لأنه يطلب الحاجة من المتعالي جل جلاله ، فالتشكل هنا يكون وفق تحقق صورة عظيمة ، العبد يطلب من المتعالي العظيم جل جلاله مما يجعله في حالة نفسية قوية ، تفيض روحه بالتعالي المستمد من المتعالي جل جلاله .

والمتعالي جل جلاله متعالٍ في كل شيء وفي أي شيء نفكر فيه ، مما يجعلنا ندور في حلقة مفرغة لا نصل إلىٰ نتيجة تتفق مع علم ٱلله تعالىٰ بنفسه ، ومن خلال النص القرآني تتضح لنا صفة المتعالي في عدة تشكلات منها :

1 ـ المتعالي جل جلاله خارج قياس الحيز :

ورد في النص القرآني الكثير من النصوص التي تبين أن ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن الحيز والجهة ، ومن بين ما ورد قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (2) . إن الوجهة المتحققة هنا ليست توجيه وجه القلب إليه ، لأنه متعال عن الحيز والجهة ، بل توجيه وجه القلب إلىٰ طاعته لأجل عبوديته ، فترك كلمة « إلىٰ » هنا والاكتفاء بحرف اللام دليل ظاهر علىٰ كون المعبود متعالياً عن الحيز والجهة (3) .

والحيز يتحدد و له أبعاد ، ويكتسب اتجاهات أربعة شمال ، جنوب ،

---

(1) غافر ، 60 .

(2) الأنعام ، 76 ـ 79 .

(3) تفسير الرازي ، ج 6 ص 354 .

شرق ، غرب ، وهـٰذا كله لا يمد لله تعالىٰ بأي صلة ، فهو متعالٍ عن أي حيز أو جهة سبحانه .

2 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن العقوبة :

والعقوبة إنما هي لإحقاق حق وإبطال باطل . والعقوبة وردت في الدين الإسلامي من أجل إعطاء كل ذي حق حقه ، فضلاً عن ذلك تكون حياة لكل الخلق ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1] ، كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده ، وعرّف القصاص ونكر الحياة ، ليدل علىٰ أن في هـٰذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً ، فالحياة لابد أن يسودها الأمن والأمان من أجل أن يعيش الناس حياة طبيعية يأمنون فيها علىٰ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ،وهـٰذه الأمور لا تتحقق إلا إذا نفذ القصاص بالخارجين عن القانون ، ففي القصاص ارتداع للناس عن قتل النفوس ، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس ؛ لأن أشدَّ ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت ، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل ، فيكون سبب حياة نفسين . ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل ، والجماعة بالواحد ، فتثور الفتنة بينهم . فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم . وعلىٰ الأول فيه إضمار وعلىٰ الثاني تخصيص . وقيل : المراد بها الحياة الأخروية ، فإن القاتل إذا اقتص منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة [2] . فكل العقوبات التي وردت في النص القرآني والحديث النبوي تدل علىٰ أن ٱلله سبحانه متعالٍ عنها ، إنما وضعها تبارك وتعالىٰ من أجل تنظيم أمور الحياة في كل تفاصيلها ، وجعلها تسير ضمن نسق محدد واضح ، فلا يحدث أي تجاوز أو خروج عن

---

(1) البقرة ، 179 .

(2) البيضاوي ، ج 1 ، ص 214 .

الحدود التي وضعها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، يقول جل شأنه : ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ (1) .

3 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن الحاجة :

الله سبحانه وتعالىٰ ليس في حاجة إلىٰ أحد ، بل الكل في حاجة له تبارك وتعالىٰ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ (2) ، الآيات الكريمة هنا تتشكل ضمن سياقين ، السياق الأول : يبين ٱلله تعالىٰ فيه أن خلقه للجن والإنس هو من أجل العبادة ، وهـٰذا السياق يفتح ملفاً مهماً يكون علىٰ أساسه الحساب الأخروي المتحقق في الآخرة ، والعبادة لم تتحقق عند جميع الخلق ، لأن ٱلله تعالىٰ أراد منهم أن يعبدوه مختارين لا مضطرين إليها ، ولو أرادها علىٰ القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم . والعبادة المطلوبة هي عبادة ٱلله تعالىٰ ، المتضمنة لمعرفته ومحبته ، والإنابة إليه والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ، وذلك يتضمن معرفة ٱلله تعالىٰ ، فإن تمام العبادة ، متوقف علىٰ المعرفة بالله ، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه ، كانت عبادته أكمل ، فهـٰذا الذي خلق ٱلله المكلفين لأجله ، فما خلقهم لحاجة منه إليهم .

أما السياق الثاني وهو محور كلامنا في سياق الحاجة ، فقوله تعالىٰ : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ

(1) النساء ، 13 ـ 14 .

(2) الذاريات ، 56 ـ 59 .

لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (1) فالله تعالىٰ لا يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه ، تعالىٰ ٱلله الغني المغني عن الحاجة إلىٰ أحد بوجه من الوجوه ، وإنما جميع الخلق ، فقراء إليه ، في جميع حوائجهم ومطالبهم ، الضرورية وغيرها ، ولهٰذا قال : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) أي : كثير الرزق ، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا علىٰ ٱلله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) أي : الذي له القوة والقدرة كلها ، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة ، السفلية والعلوية ، و بها تصرف في الظواهر والبواطن ، ونفذت مشيئته في جميع البريات ، فما شاء ٱلله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يعجزه هارب ، ولا يخرج عن سلطانه أحد ، ومن قوته ، أنه أوصل رزقه إلىٰ جميع العالم ، ومن قدرته وقوته ، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلىٰ ، وعصفت بترابهم الرياح ، وابتلعتهم الطيور والسباع ، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار ، ولجج البحار ، فلا يفوته منهم أحد ، ويعلم ما تنقص الأرض منهم ، فسبحان القوي المتين (2) .

ولننتقل إلىٰ الحديث القدسي الذي يرسم صورة للمتعالي جل جلاله ، إذ يتمحور علىٰ تشكلات مختلفة كلها تنطق بقدرة وجلال المتعالي تبارك وتعالىٰ ، عَن أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا

(1) الذاريات ، 57 ـ 59 .

(2) السعدي ، ج 1 ، ص 813 .

عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ . قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ » [1] . الحديث القدسي يفتح أمامنا الحاجة ضمن وجهين ، الوجه الأول وقد مر ذكره أن ٱلله تعالىٰ ليس في حاجة إلىٰ أحد ، حتىٰ العبادة تبارك وتعالىٰ ليس في حاجة إليها ، فتحققها وعدم تحققها يعود إلىٰ المخلوق ، أي أن مصيره مرتبط بالعبادة ، فمن كفر يكون مصيره من الداخلين إلىٰ نار جهنم والعياذ بالله ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [2] .

أما من آمن فيكون مصيره من الخالدين في جنات النعيم ورضوان ٱلله تعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [3] .

---

(1) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 16 .

(2) الزمر ، 71 ـ 72 .

(3) الزمر ، 73 ـ 74 .

أما الوجه الثاني : أن الخلق أجمعين لو سألوا ٱلله تعالىٰ وأعطاهم ما يريدون لا ينقص من ملكه جل جلاله شيء ، يقول تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) وهٰذا الوجه يدخل في سياق الحديث عن ملك ٱلله تعالىٰ ، فقد ورد في النص القرآني وفي كثير من المناسبات ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (2) هٰذه الآيات الكريمة تبدأ بأمر الملك ، ففيه عرض لملك ٱلله تعالىٰ بما يحاكي العقل البشري ، فضلاً عن ذلك أن هٰذا الكون بذاته كتاب مفتوح ، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته ؛ ويشي وراءه من يد تدبره بحكمة ، ويوحي بأن وراء هٰذه الحياة الدنيا آخرة وحساباً وجزاء إنما يدرك هٰذه الدلائل ، ويقرأ هٰذه الآيات ، ويرىٰ هٰذه الحكمة ، ويسمع هٰذه الإيحاءات (أولو الألباب) من الناس الذين لا يمرون بهٰذا الكتاب المفتوح وبهٰذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين !

وهٰذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هٰذا « الكون » والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان ، ودلالة هٰذا الكون بذاته علىٰ خالقه من جهة ، وعلىٰ الناموس

(1) النحل ، 96 .

(2) آل عمران ، 189 ـ 194 .

الذي يصرّفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرىٰ . وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من الكون و (إلـٰه) الكون سبحانه وتعالىٰ ، فهي ركيزة من ركائز التصور الإسلامي للوجود .

يلي هـٰذه الحقيقة في سياق الدرس استجابة ٱلله (لأولي الألباب) وقد توجهوا إليه سبحانه بدعاء خاشع منيب ؛ وهم يتدبرون كتاب الكون المفتوح ، ويتأملون ما ينطق به من الآيات ، وما يوحي به من الغايات . استجابته لهم استجابة توجيهية إلىٰ العمل والجهاد والتضحية والصبر ، والنهوض بتكاليف هـٰذا الإيمان ، الذي ثابوا به من جولتهم الخاشعة في كتاب الكون المفتوح . . مع التهوين من شأن الذين كفروا وما قد يستمتعون به من أعراض هـٰذه الحياة . وإبراز القيم الباقية في الجزاء الأخروي ، التي ينبغي أن يحفل بها المؤمنون الأبرار [1] .

4 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن النقص :

النقص مفردة تتردد في سياق الحديث عن المخلوقين ، أما الله تبارك وتعالىٰ فله الكمال المطلق جل جلاله ، وقد بين ٱلله تعالىٰ أنه أحق بالكمال من غيره وأن غيره لا يساويه في الكمال ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] فالخلق صفة كمال وهي من الدلائل الدالة علىٰ وجود القادر الحكيم علىٰ الترتيب الأحسن والنظم الأكمل ، وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل ، فكذلك أيضاً كانت شرحاً وتفصيلاً لأنواع نعم ٱلله تعالىٰ وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير ٱلله تعالىٰ ، والمقصود أنه لما دلت هـٰذه الدلائل الباهرة ، والبينات الزاهرة القاهرة علىٰ وجود إلـٰه قادر حكيم ، وثبت أنه هو المولي لجميع هـٰذه النعم والمعطي لكل هـٰذه الخيرات فكيف

(1) في ظلال القرآن ، ج 2 ، ص 27 .
(2) النحل ، 17 .

يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جماداً لا يفهم ولا يقدر ، فلهـٰذا الوجه قال بعد تلك الآيات : (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) والمعنىٰ : أفمن يخلق هـٰذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة علىٰ شيء أفلا تذكرون فإن هـٰذا القدر لا يحتاج إلىٰ تدبر وتفكر ونظر . ويكفي فيه أن تتنبهوا علىٰ ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم ، وأنتم ترون في الشاهد إنساناً عاقلاً فاهماً ينعم بالنعمة العظيمة ، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهـٰذه الأصنام جمادات محضة ، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون علىٰ عبادتها ، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها [1] .

والخلق صفة كمال ، وأن الذي يخلق أفضل من الذي لا يخلق ، وأن من عدل هـٰذا بهـٰذا فقد ظلم . يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًا هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [2] هـٰذا مثل ضربه ٱلله تعالىٰ للكافرين في إشراكهم بالله الأوثان والأصنام ، والمثل بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين رجل حر يملك مالاً ينفق منه كيف يشاء ، ويتصرف فيه كيف يريد ، هـٰذا المثل يحمل تبعات معرفية مترتب عليها تشكل ثنائي يحيل إلىٰ كمال ٱلله تعالىٰ مقابل النقص المتحقق الذي مثله العبد المملوك العاجز عن التصرف ، وهـٰذه الثنائية ألغت التسوية بين الإلـٰه القادر وبين الأصنام التي لا تملك شيئاً ، ولا تقدر علىٰ شيء . فبين أن كونه مملوكاً عاجزاً صفة نقص ، وأن القدرة والملك والإحسان صفة كمال .

وقوله تعالىٰ : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ

---

(1) الرازي ، ج 9 ، ص 368 .
(2) النحل ، 75 .

يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [1] هٰذه هي سورة الإخلاص ، سورة تعدل ثلث القرآن الكريم ، وفيها جميع صفات الكمال لله تعالىٰ ، وفي الوقت نفسه فيها نفي لجميع صفات النقائص والعيوب . وهٰذه السورة الكريمة انحصرت فيها الصفات الكاملة العليا ، والأفعال المقدسة التي لا نظير لها ولا مثيل . فالله تعالىٰ هو الكامل في أوصافه ، العليم الذي قد كمل في علمه ، الحليم الذي قد كمل في حلمه ، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، وهٰكذا سائر أوصافه ، ومن كماله أنه ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ لكمال غناه ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه ، ولا في أفعاله ، تبارك وتعالىٰ ، فهٰذه السورة مشتملة علىٰ توحيد الأسماء والصفات .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [2] ، هٰذه أعظم آية في كتاب ٱلله تعالىٰ ، إذ اشتملت علىٰ جانبين مهمين يتشكل منهما إثبات الكمال لله تبارك وتعالىٰ ، وهما النفي والإثبات ، نفي النقائص عن ٱلله تعالىٰ ، وإثبات الكمال لله عزّ وجلّ ، ويتشكل النفي في قوله تعالىٰ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ فالشفاعة أمر مهم جعله ٱلله تبارك وتعالىٰ خاصاً لا يتحقق لأحد وإن كان من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء أو الصالحين ، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن من ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وهنا تتشكل لنا صورة الكمال المتحققة لله تعالىٰ ، وفي الوقت نفسه السياق هنا في باب الرد علىٰ المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه سبحانه وتعالىٰ في ذلك ، وزعموا أن هٰؤلاء الشفعاء يقومون بما يريدون منهم عند ٱلله

---

(1) الإخلاص ، 1 ـ 4 .
(2) البقرة ، 255 .

عزّ وجلّ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

5 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن الظلم :

الظلم من المفردات التي تشكلت مع النسق المعرفي للبشر من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ أن تقوم الساعة ، فهي سمة بشرية متحققة بين البشر ، وورد الظلم في النص القرآني في مواضع كثيرة وبمعاني مختلفة ، ومن بين هٰذه المعاني إضافة الظلم إلىٰ الكافرين ونفيه عن ٱلله عز و جل ، وكان ذلك في عشرة مواضع شكل منها الخطاب القرآني سمة نفي الظلم عن ٱلله تعالىٰ وإضافته إلىٰ الكافرين ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (4) ، هنا السياق القرآني عمد إلىٰ خلق صورة معرفية للظلم المتحقق ، وكل الذين ذكرهم ٱلله تعالىٰ تتحقق ظلمهم علىٰ أنفسهم ، فقد جاءتهم رسل ٱلله بالبينات والدلائل والبراهين ، فصدوا عنها ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ

---

(1) يونس ، 18 .
(2) التوبة ، 70 .
(3) الروم ، 9 .
(4) العنكبوت ، 40 .

مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾ (1) .

وقد نُفي عن ٱلله تعالىٰ ظلم هـٰؤلاء لأن إيلامهم كان جزاء علىٰ أعمالهم وكل ما كان من نوع الجزاء يوصف بالعدل ، وقد نفىٰ ٱلله عن نفسه الوصف بالظلم فوجب الإيمان به سمعاً لا عقلاً في مقام الجزاء ، وأما في مقام التكوين فلا . وظلمهم أنفسهم هو تسببهم في عذاب أنفسهم فجرُّوا إليها العقاب لأن النفس أولىٰ الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها .

والاستدراك ناشئ عن نفي الظلم عن ٱلله في عقابهم لأنه يتوهم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هـٰذا التوهم (2) .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ في أكثر من آية نفىٰ الظلم عن نفسه ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (4) ، وقوله تعالىٰ :

---

(1) الكهف ، 54 ـ 59 .
(2) التحرير والتنوير ، ج 10 ، ص 499 .
(3) آل عمران ، 182 .
(4) الحج ، 10 .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [1] . وصيغة الخطاب هنا تأخذ أبعاداً كثيرة يرتسم في كلها أن ٱلله تعالىٰ يريد الرحمة والغفران لكل البشرية ، لٰكن تصرف البشرية يسعىٰ نحو الظلم الذي يكون الطريق الموصل نحو الهلاك المتحقق المرسوم قبل تحقق الظلم .

6 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن الكيد بغير حق :

الكيد ورد في القرآن الكريم ضمن سياقات عدة ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [2] . هٰذه الآيات الكريمة رسمت صورة المشركين المكذبين ، فبُين للسامع أن عملهم ذلك كيد مقصود ، فهم يتظاهرون بأنهم ما يصرفهم عن التصديق بالقرآن إلا ما تحققوه من عدم صدقه ، وهم إنما يصرفهم عن الإيمان به الحفاظ علىٰ سيادتهم فيضللون عامتهم بتلك التعليلات الملفقة والكيد ، إخفاء قَصد الضر وإظهار خلافه ، فكيدهم مستعمل في حقيقته ، وأما الكيد المسند إلىٰ ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية ، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريده وحسَّنها محسن المشاكلة [3] .

7 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن الانتقام بغير حق :

وردت لفظة الانتقام في النص القرآني في مواضع خاصة ، أراد ٱلله تعالىٰ أن يبين أن الانتقام يتحقق وفق معايير خاصة ، ضمن تشكل خاص ، ضمن

(1) فصلت ، 46 .
(2) الطارق ، 15 ـ 17 .
(3) التحرير والتنوير ، ج 16 ، ص 210 .

سياق خاص ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (1) ، هـٰذه الآية الكريمة تشكلت ضمن ثلاثية متتابعة وهي الظلم ـ المجرمون ـ المنتقمون ، فالسياق التتابعي يدل علىٰ تدرج في المخاطبة ، فقد بدأ بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ) فالمخاطبون أصبحوا من أهل الظلم لأنهم ذُكِّروا بآيات ٱلله تعالىٰ ولم يؤمنوا بها ، ثم دخل المخاطب في مرحلة جديدة وهي الإعراض عن آيات ٱلله تعالىٰ ، مما تبع هـٰذا الإعراض اكتسابه صفة جديدة تجاوزت صفة الظالم ألا وهي صفة المجرم ، وهي صفة تفوق الظلم مما يتحقق له الحصول علىٰ درجة جديدة في الابتعاد عن ٱلله تعالىٰ ، وبعد كل ذلك لابد من نهاية تتحدد لهم ، وهـٰذه النهاية تكون من جنس عملهم لتحقق العدالة الإلـٰهية وفق معايير خاصة أرادها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فكان الانتقام منهم جزاء ما عملوه رغم التذكير المستمر لهم .

وفي سياق الانتقام ورد قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (3) .

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب علىٰ الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب

(1) السجدة ، 22 .
(2) الزخرف ، 39 ـ 43 .
(3) الدخان ، 15 ـ 16 .

غاية النكال في العقوبة ، والمحمود من انتقام العبد أن ينتقم من أعداء ٱلله تعالىٰ وأعدىٰ الأعداء [1] .

8 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ عن المكر بغير حق :

المكر : تبييت فعل السوء بالغير وإضمارُهُ . وقد ورد في النص القرآني ضمن سياقات عدة منها قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [2] ، هـٰذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة المكر المتحققة من الكفار لرسول ٱلله ﷺ ، وسنوردها كما ذكرها الزمخشري لنرىٰ أبعاد المكر المتحقق من الكافرين ، فضلاً عن ذلك لنرىٰ مكر ٱلله تعالىٰ المتحقق الذي يكون فيه العدل والحق . « لما فتح ٱلله علىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام ، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ، ليشكر نعمة ٱلله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح ٱلله له من حسن العاقبة ، والمعنىٰ : واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشاً ـ لما أسلمت الأنصار وبايعوه ـ فرِقوا أن يتفاقم أمره ، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال : أنا شيخ من نجد ، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا غير كوّة تلقون إليه طعامه وشرابه منها ؛ وتتربصوا به ريب المنون . فقال إبليس : بئس الرأي ؛ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم . فقال هشام بن عمرو : رأيي أن تحملوه علىٰ جمل وتخرجوه من بين أظهركم ؛ فلا يضركم ما صنع واسترحتم . فقال إبليس : بئس الرأي يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل : أنا أرىٰ أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 139 .

(2) الأنفال ، 30 .

القبائل ، فلا يقوىٰ بنو هاشم علىٰ حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناهم واسترحنا . فقال الشيخ ـ لعنه ٱلله ـ : صدق هـٰذا الفتىٰ ، هو أجودكم رأياً . فتفرقوا علىٰ رأي أبي جهل مجتمعين علىٰ قتله . فأخبر جبريل عليه السلام رسول ٱلله ﷺ وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن ٱلله له في الهجرة ، فأمر علياً رضي ٱلله عنه فنام في مضجعه ، وقال له : اتّشح ببردتي ، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، وباتوا مترصدين ، فلما أصبحوا ثاروا إلىٰ مضجعه ، فأبصروا علياً فبهتوا وخيب ٱلله عز وجل سعيهم ، واقتصوا أثره فأبطل ٱلله مكرهم . ﴿ لِيُثۡبِتُوكَ ﴾ ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح ، من قولهم : ضربوه حتىٰ أثبتوه لا حراك به ولا براح ، وفلان مثبت وجعاً . وقرىء : ﴿ لِيُثَبِّتُوكَ ﴾ ، بالتشديد . وقرأ النخعي : (ليبيتوك) ، من البيات . وعن ابن عباس : (ليقيدوك) ، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق ﴿ وَيَمۡكُرُونَ ﴾ ويخفون المكايد له ﴿ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ ﴾ ويخفي ٱلله ما أعد لهم حتىٰ يأتيهم بغتة ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً ، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب »[1] . وهنا تتضح صورة المكر التي اكتسبت درجة عالية جعلتها تذكر دائماً ، وتدخل سياق المكر من أوسع الأبواب ، لـٰكن في الوقت نفسه تحقق مكر ٱلله الذي فيه الخير العظيم بحفظ رسوله عليه الصلاة والسلام . وفي سياق المكر أيضاً ورد قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾[2] .

9 ـ ٱلله تعالىٰ متعالٍ ببسطه للرزق :

الرزق مفردة يشترك فيها خلق ٱلله تعالىٰ جميعاً ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلًّا

(1) الزمخشري ، ج 2 ، ص 357 .
(2) إبراهيم ، 46 ـ 47 .

نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [1] ، هـٰذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة الرحمة المتحققة للخلق فمن أثر رحمة ٱلله تعالىٰ حتىٰ الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا علىٰ حسب ما قدر لهم وأعطىٰ المؤمنين خيري الدنيا والآخرة ، يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، هـٰذه الآية طرحت دعاء المؤمنين ضمن نسق معرفي تابع إلىٰ معرفتهم برحمة ٱلله تعالىٰ المتحققة لهم في الدنيا والآخرة ، فكان الدعاء وفق الآتي ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا ﴾ حياة طيبة في هـٰذه الدنيا ، من عافية وبسطة في الرزق ، وتوفيق لطاعة ، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول الجنة ، ونيل رضوانك ، إننا تبنا إليك ﴿ هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ مما فرط من سفهائنا من عبادة العجل ، ومن تقصير العقلاء منا في نهيهم والإنكار عليهم .

ورد ٱلله تعالىٰ علىٰ دعاء موسىٰ قائلاً : « لقد أوجبت أن يكون عذابي خاصاً أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة ، الذين لم يتوبوا ، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء ، وسأثبت رحمتي بمشيئتي للذين يتقون الكفر والمعاصي ، ويؤدون الزكاة المفروضة ، ويؤتون الصدقات التي تتزكىٰ بها نفوسهم ، وللذين يؤمنون ويصدقون بجميع آياتي الدالة علىٰ الوحدانية ، ويصدقون رسلي ، وما جاؤوهم به » [3] .

والرزق مرتبط بمشيئة ٱلله تعالىٰ ، فكل شيء يسير وفق مشيئته ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ

---

(1) الإسراء ، 20 .
(2) الأعراف ، 156 .
(3) أسعد حومد ، ج 1 ، ص 1111 .

لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [1] ، هنا المشيئة تتشكل مع الرزق لرسم صورة متعددة أهم هـٰذه الصور هي قدرة ٱلله تعالىٰ وعلمه الواسع ، فالقدرة متحققة لله تعالىٰ وهو قادر أن يعطي الجميع نفس الشيء دون زيادة أو نقصان ، أو اختلاف في الجنس وغيره ، والعلم والقدرة لا أحد يتدخل بهما إلا هو تعالىٰ ، فهو جل شأنه عليم بمن يستحق كل نوع من هـٰذه الأنواع ، قدير علىٰ ما يريد أن يخلق ، يقول تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، ويعطي ٱلله من يريد من خلقه عطاء جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا ، لأن الرزق لا يقدر علىٰ حساب الإيمان والكفر ، بل يجري تبعاً لمشيئة ٱلله ، فمن الناس من يزاد له الرزق استدراجاً ، ومنهم من يقتر عليه اختباراً .

اللهُمَّ إنك المتعالي رفيع الدرجات تعلو فوق كل علو فتمتد الأيدي إليك سبحانك لا إلـٰه إلا أنت ، نسألك أن تجعلنا علىٰ الدرجات الحسان نعلو ولا تجعلنا في أسفل سافلين في ظلمة وغمة وكدر وهم !

اللهُمَّ إنك المتعالي بعظمتك وكبريائك فاجعلنا من المتعالين عن اتباع ما نهيت عنه واجتناب ما أمرتنا اجتنابه واجعلنا من الطائعين إحقاقاً للحق

(1) الشورىٰ ، 49 ـ 50 .
(2) البقرة ، 212 .
(3) البقرة ، 247 .

وإزهاقاً للباطل والآخذين بما آتانا الرسول الكريم محمد صلواتك وسلامك عليه والمنتهين عما نهانا عنه إنك السميع المجيب !

اللهُمَّ إنك خلقتنا أزواجاً وتعاليت عن الصاحبة والولد فاجعل بيننا وبين أزواجنا تعالياً عن الشرك بك واجعل بيننا مودة ورحمة !

اللهُمَّ إنك تعاليت عن الصورة وخلقتنا في أحسن صورة وتقويم ورزقتنا من الطيبات واستخلفتنا في الأرض فتبارك ٱلله أحسن الخالقين !

اللهُمَّ إنك المتعالي عن الشبيه والصورة والمثال نسألك أن ترحمنا بالعلو بالحق لا العلو عليه ، إننا نتقيك ونستغفرك ونتوب إليك !

البَرُّ جَلَّ جَلَالُهُ

البر من الأسماء الحسنىٰ لله تعالىٰ ، ولا نملك إلا أن نقف أمام الاسم الذي يفيض بكل معاني الجمال التي يمكن أن ترد علىٰ الخاطر أو تخرج حروفاً علىٰ لسان أكثر أهل الأرض ليناً ورأفة ورحمة فكل هـٰذا وغيره مشمول في حرفين يسبقهما (أل) التعريف اللذان يحويان لذي القلب الرقيق أن كل رحمة وعطف ولين ومحبة قد جمعت في (بر) ، و(أل) السابقة التي هي للتعريف تفيد الاستغراق والتخصيص فلا (بارّ) ينتهي ببره إلي بِرّ (البر) .

هـو المحسـن والبـر المطلـق هـو الـذي منـه كـل مبـرة وإحسـان والعبد إنما يكون براً بقدر ما يتعاطاه من البر ولا سيما بوالديه وأساتذته وشيوخه [1] .

البر فاعل البر والإحسان [2] .

البَرُّ من أسماء ٱلله تعالىٰ وتقدس« العَطُوفُ الرحيم اللطيف الكريم » قال ابن الأَثير : في أَسماء ٱلله تعالىٰ البَرُّ دون البارِّ وهو العَطُوف علىٰ عباده بِبِرِّهِ ولطفه ، والبَرُّ والبارُّ بمعنًىٰ وإِنما جاء في أَسماء ٱلله تعالىٰ البَرُّ دون البارّ [3] .

البر : هو الذي يلتجأ إليه عند كل حاجة أو شدة ، وهو الذي يمد بالعون

---

(1) الغزالي المقصد الأسنىٰ ، ص 139 .

(2) الإيجي كتاب المواقف ، ج 3 ، 323 .

(3) لسان العرب ، ج 4 ، ص 54 .

والمنفعة ، فيكرم ويغني ويرحم ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

والبر هو المتسع بملكه وهيمنته وبواسع رحمته ، وهو الذي يملك الملك بالمطلق فلا ينقص من بره شيء ، وهو الرحمـٰن الرحيم .

البر الرحيم : هو الذي يرحم كلما تم الالتجاء إليه ، ولذا كلما التجأ إليه أحد حفظه من كل سوء وعطش وجوع وفاقة . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) .

البر الرحيم هو الذي يستوعب الكل دون أن يستثني أحداً من بره ، ولذا فهو البر الكامل بالحسنات ولا نقيصة فيه .

البر مصدر وليس مشتقاً ، أي إنه مصدر للاشتقاق ، ولذا تستمد الحسنات منه .

فالطائر الذي يحمل الطعام في منقاره الصغير لأفراخ له أعجزها البرد والصغر والضعف ، ممن استمد هـٰذا الحنان ؟

استمده من ٱلله البر .

والحيوان الذي يحنو علىٰ صغيره بالرغم من كونه وحشاً غير أليف ، من

---

(1) الشعراء ، 69 ـ 83 .

الذي دفعه لتلك الرحمة الحانية علىٰ صغير مجهول المستقبل في علاقته بأبويه ؟

دفعه لهٰذه الرحمة ٱلله البر الرحيم .

والأم التي تتحمل ويلات ألم الحمل والوضع والسهر لتنشئة صغير ضعيف ولا تعلم هل سيكافئها بما فعلت بالإحسان أم بالجحود والنكران ، وهي مع هٰذا تشعر بكل متعة وسعادة ؟ فكيف جمعت في نفسها بين نقيضين ألم وسعادة !

جمعت بين النقيضين بفيض من البر الرحيم جعلها تستعذب العذاب وتسعد بالآلام وتستمتع بالوهن ، لهٰذا أمر ٱلله الإنسان أن يحسن إلىٰ الوالدين ولاسيما الأم لما أعطت من بر ورحمة ممزوجين بالوهن وهٰذا مما قاله ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (2) .

والحقيقة التي لا جدال فيها أن كل مظهر من مظاهر البر سره يكمن في سريان نور الاسم البر في هٰؤلاء الرحماء وغيرهم من مخلوقات لا يحصيها إلا ٱلله البر الرحيم .

وما وصلنا إليه بعد تعمق في مصادر العلم من كتاب وسنة وكتب لغة وكتب تفسير وشرح للحديث أن الاسم البر« كمادة لغوية » لها علاقة بها

(1) لقمان ، 14 .
(2) الإسراء ، 23 ـ 24 .

بالشكل المرسوم هٰكذا (الْبَرُّ) (بالباء المفتوحة) فهٰذا المظهر لا ينطبق إلا علىٰ ٱلله البر الرحيم .

و(الْبِرُّ) بكسر الباء ، هو مجموع الخلق الحسن والخير والإحسان في صوره وأفعاله ، وهٰذا هو المظهر العملي للبر أو ما يمكن أن نسميه بالنمط السلوكي المشتمل علىٰ القول والفعل والحافز الذي يحفز الفرد للفعل بدافع من الشعور الداخلي المفعم بكل أحاسيس الوفاء والرغبة في تقديم فعل مماثل لما قدّم له من خير في مراحل عمره المختلفة ، لذلك فإن البار وهو المتخلق بهٰذا الاسم يحوي الشكر والعرفان وأداء ما عليه من واجبات تجاه الآخرين ، سواء أحسنوا إليه أم أساءوا ، فيتوجه بالرحمة والبر لكل مخلوق علىٰ وجه البسيطة ، وهٰذا المتخلق الأمثل بالبر المطلق هو مدار البحث في أسماء ٱلله الحسنىٰ من حيث المدلول والعلاقة بالخليفة المتخلق بالاسم البر .

الاسم البر في أسماء ٱلله الحسنىٰ :

جاء في التنزيل العزيز قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [1] ، فقوله : (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) ورد مرة واحدة وفيها إشارة وتنبيه لنا بأن البر واحد كما أن ٱلله واحد ، وأنه لا بر إلا البر ، ولا أبر من البر المطلق لأنه الواحد فلا يبر بره أحد .

والبَرُّ من صفات ٱلله تعالىٰ وتقدس « العَطُوفُ الرحيم اللطيف الكريم » ، البَرُّ وهو العَطُوف علىٰ عباده بِبِرِّهِ ولطفه ، والبَرُّ والبارُّ بمعنًىٰ واحد وإنما جاء في أَسماء ٱلله تعالىٰ البَرُّ دون البارّ [2] . وهٰذا لأن البر مصدر من حيث اللغة والبار مشتق اسم فاعل ولا يصح أن يكون البر المطلق الذي يسع الكون ومن فيه

---

(1) الطور ، 28 ـ 29 .

(2) لسان العرب ، ج 4 ، ص 51 .

وما فيه مشتق من غيره بل الذي يصح أن يكون البار الذي يتمثل الاسم البر أن يكون مشتقاً من البر الأعظم المطلق فيتمثل أمره ويجتنب نهيه ، والذي يتمثل بالبر هو الخليفة الذي يسع غيره بجوده وإحسانه وعطفه ولطفه وكرمه .

والبر هو واسع الإحسان ، صادق الوعد ، عظيم الجود لعباده ، فهو مصدر البر يمن بعطائه علىٰ عباده في الدنيا والآخرة ولا يقطع الإحسان بسبب العصيان (1) . فهو البر بعباده ، العطوف عليهم ، ومن مظاهر بره وإحسانه بهم :

1 - برٌّ بهم قبل عالم الذَّرِّ .

وهـٰذه المرحلة هي التي يمكن أن نطلق عليها مرحلة اللاشيء لا العدم لأن العدم شيء ، فهو سبحانه قدر عباده في عباده في اللوح المحفوظ وخلق الخلق ولم يكونوا في عالم الوجود الذي نطلق عليه (شيء) والشيء وجود ، أما ما قبل الشيء فما هو . بالتأكيد ليس هو العدم لأن العدم خلق من خلق ٱلله ، ولـٰكن خلقهم بالقدرة الربانية من لا شيء قبل خلق الشيء الذي منه العدم ومنه الوجود ، بمعنىٰ قدرهم في علمه الذي هو محدث منه ولم يكن له سابق عليه ، وهو عز وجل يظهر من علمه بقدر ما يريد ، وقدرته متناهية مع عدم تعارض القدرة مع الإرادة ، فهو يقدر علىٰ كل شيء بشرط ألا تتعارض القدرة مع الإرادة وهـٰذا الذي نقول من تمام القدرة المتناغمة المتسقة مع الإرادة .

ومن هنا لما تساءل نبي ٱلله زكريا عليه الصلاة والسلام عن الكيفية التي سينجب بها الولد مع علمه بأن القدرة الإلـٰهية لا تتعارض مع الأسباب ، وإن كان هـٰذا لتعارض في الظاهر أما في حقيقة الأمر فلا تعارض ، أخبره ٱلله تعالىٰ بأن قدرته لا يحدها حد ولا يقيدها قيد من عقل يتقيد بالسبب ولا يتحرر إلىٰ

---

(1) عبد المقصود محمد سالم ، في ملكوت الله مع أسماء الله ، ص104 .

المطلق ، والله عنده المطلق ولا قيد لديه وليس عنده سبب لأنه خالق الشيء وما قبل الشيء وتقيدنا نحن بالعقل الذي تقيد بالسبب ، مع دعوته سبحانه للانفكاك من قيد القيد إلىٰ إطلاق المطلق مع اليقين بأنه لا مطلق يتأتىٰ إلا من خلال التقيد بقدرة المطلق الواحد ، وكان هـٰذا في الحوار الذي وصف لنا قدرة البر الرحيم العطوف الذي لم ينس من يتعلق ببره ورحمته فيكسر له كل القواعد الكونية المعمول بها لأن تلك القواعد والقوانين والنواميس من خلقه وهو قادر علىٰ فعل الشيء وضده مع عدم التعارض بين القدرة والإرادة كما أسلفنا فلما كانت القوانين المتعارف عليها ألا ينجب من قد بلغ من الكبر عتياً من زوجة عاقر طاعنة في السن ، فهنا لا قدرة بشرية تقدر علىٰ فعل شيء ولـٰكن إرادة البر بعباده الذي يريد أن يدخل السعادة علىٰ قلب النبي زكريا عليه الصلاة والسلام قدرت غير ذلك فخلقه شيئاً وهو لم يكن له في السبق شيءٌ ، قال تعالىٰ : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ (1) ، فمن عطاء ٱلله وقدرته ورحمته وبره أبقىٰ سيدنا زكريا عيه الصلاة والسلام وزوجه علىٰ حال الشيخوخة وأحسن إليهما وبرهما بنعمة الولد ، مع قدرته علىٰ ردهما شباباً ولا يوجد ما يمنع ذلك ، ولـٰكنه البر الذي يملك القوة والقدرة فيظهر قدرته في بره وعطفه ، فلا يمنع من عطائه وبره عقم ولا شيخوخة ولا وهن عظم ، وكيف يمنعه سبب وهو خالق السبب .

(1) مريم ، 1 ـ 9 .

وكيف يسأل عن الشيء وهو خالق الشيء من لاشيء ! لذا فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ وهـٰذا ما قلناه إنه خالق الشيء من لا شيء وهـٰذا اللاشيء هو نقطة الارتكاز في إظهار بره الشامل الواسع الذي وسع المخلوقات ، فهو قادر علىٰ بر من يشاء دون التقيد بسبب فهو قدر الشيء من لاشيء فلا يمتنع علىٰ بره شيء .

فله الحكم المطلق والإرادة المطلقة وإليه يرجع الأمر كله ولا إرادة إلا إرادته ولا ينفذ إلا أمره .

2 ـ برٌّ بهم وهم في عالم الذر .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (1) .

وعالم الذر عالم يكمن في عالم التكوين الروحي ، عالم له وجود بكيفية أخرىٰ غير مستساغة عقلاً وإنما مقبولة تعقلاً ، وهنا نسأل : أليس العلم الحديث وصل إلىٰ أن يخلّق من الخلية الحية مثيل لصاحبها .

أليس العلم الحديث قد وصل إلىٰ تقنية يحفظ بها الحيوان المنوي الذكري والبويضة الأنثوية ويستطيع أن يمزجهما ليأتي لنا بمخلوق جديد .

والسؤال الذي نتقدم به لكل ذي تبصر وتعقل هو :

أليست قدرة ٱلله مطلقة .

أليست حكمة ٱلله مطلقة .

---

(1) الأعراف ، 172 ـ 173 .

أليس ٱلله فعَّالاً لما يريد .

أليس الإنسان مدعواً لخلافة ٱلله في الأرض .

تلك الأسئلة إذا أجبت عليها إجابة صحيحة فاعلم أنك ممن يحق لهم خلافة ٱلله في أرضه . وتوضيح بر البر الرحيم بعباده في عالم الذر أن أوجد فيهم الحقيقة التي لا تقبل النقاش ولا يرقىٰ إليها شك ولا يستطيع أن يطعن فيها طاعن ولا يجادل فيها مجادل ، وهـٰذه الحقيقة تتمثل في الإقرار بالوحدانية لله وأنه سبحانه وتعالىٰ لا شريك له فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [1] .

إن ٱلله تعالىٰ اصطفىٰ الأنبياء ، ثم جعل منهم الذرية ، أي أن أول المصطفين أبونا آدم عليه الصلاة والسلام وآخرهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فأبناؤهم كهيئة الذر ، فقد منحهم عقلاً يفهم وإرادة تقرر ولساناً ينطق وعيناً تبصر وأذناً تسمع ، وهنا لنا وقفة لأن السائل من غير المصدقين بما ورد في القرآن الكريم ، أومن وقف وراء عقل العقل أو ما يمكن أن نسميه من سجن فهمه في سجن العقل فيقول هـٰذا السائل ومن حقه أن يقول : كيف تجتمع الحواس في نقطة واحدة . وهـٰذه النقطة ذر قد لا ترىٰ بالعين الجارحة . بل ترىٰ بعين الروح والدليل علىٰ رؤية عين الروح الرؤىٰ والأحلام التي يراها النائم فبأي عين يرىٰ ! .

3 ـ برٌّ بهم في أصلاب الآباء .

فالله البر لم يترك الأمر سدىً فهو نعم المقدر ، فقد أخرج الإنسان من

---

(1) الأعراف ، 172 ـ 174 .

مرحلة اللاشيء إلىٰ الشيء في عالم الذر ثم أودعهم أصلاب الآباء وفي علمه المؤمن والكافر ، فبر المؤمن بأن خلق له الجنة وعاقب الكافر بأن خلق له النار ، فالمؤمن يدخل الجنة برحمة ٱلله ثم بعمله ، والكافر يدخل النار بمعصيته لله وبعدل ٱلله في ملكه ، فهو سبحانه وتعالىٰ ببره قد خلق الجميع في أصلاب الآباء علىٰ الفطرة والفطرة هي الإقرار لله بالعبودية فلم يترك ٱلله البشر في مراحل تقلبهم من طور إلىٰ طور بل فطرهم علىٰ فطرة الإسلام وصبغهم بصبغة الإيمان .

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

فالأمر للنبي ﷺ باستمرار التوجه لوجه واحد هو وجه ٱلله المقصود دائماً ، وهٰذا التوجه هو لب الدين المستقيم ومحور الوحدانية الخالصة التي فطر ٱلله الناس عليها وخلقهم لها وأودعها في أرواحهم فلا يوجد من لا تنازعه نفسه بالتوجه إلىٰ ٱلله وقصده دون سواه ، ولٰكنها هموم الدنيا التي شغل الناس بها أنفسهم ، فطوبىٰ لمن تغلب علىٰ الهم وصار من أصحاب الهمم والعزائم التي لا تلين وفرّغت أنفسها للتوجه لله بالوجه سجوداً وبالروح تعلقاً وبالقلب ثباتاً علىٰ وجهة الحق لا تقلباً من الحق إلىٰ الباطل تمثلاً بقوله ﷺ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : « كَانَ رسول الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » (2) ، وعَنِ السيدة عَائِشَةَ أم المؤمنين أَنَّهَا قَالَتْ : « مَا رَفَعَ رسول الله ﷺ رأسهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ إلا قَالَ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ طَاعَتِكَ » (3) ، فالقلب معلق بالرب الذي يقلبه

---

(1) الروم ، 30 .
(2) سنن الترمذي ، ج 8 ، ص 29 .
(3) مسند أحمد ، ج 19 ، ص 95 .

حيث يشاء الرب بعمل العبد ومن عمل العبد التوجه لله بالدعاء باللفظ المنطلق من نية صادقة وإيمان متين بالحفظ من التقلب السيئ الذي يؤدي إلىٰ المهالك والبعد عن الفطرة السليمة والوجهة الصادقة .

لذا فالله يحفظ الإنسان من التوجه الخاطئ بتوجيه حواسه نحو الفطرة السليمة منذ التكوين ولأن علمه شامل فهو يعلم أهل النار وأهل الجنة والكل يدخل المكان الذي يستحق ، بالعدل أو بالرحمة وحتىٰ الإنسان وهو في صلب أبيه أو في رحم أمه لم يترك سدىً بل شملته عناية البر الرحيم ، فَعنِ السيدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِصَبِيٍّ مِنَ الأنْصَارِ يُصَلِّي عَلَيْهِ قَالَتْ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَىٰ لِهَذَا لَمْ يَعْمَلْ شَرًّا وَلَمْ يَدْرِ بِهِ فَقَالَ : أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِم » [(1)] .

وهـٰذه الرحمة من ٱلله البَرِّ كانت في الأصلاب كما كانت في عالم الذر ، فلما أمر ٱلله نبي ٱلله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنداء لأداء الحج بوحدة القصد ، وبثبات القلب ، وبإقامة الوجه لتنزل الرحمة ومهبط النور في بيته الأكرم في مدينته الأقدس مكة وكان النداء لمن خرج من الأصلاب ومن كان كامناً في الأصلاب ومن كان متخلقاً في الأرحام فمن لبىٰ في عالم الذر لبىٰ في الأصلاب ومن لبىٰ في الأصلاب لبّىٰ في الأرحام ومن لبّىٰ في كل ذلك لبّىٰ في عالم الأجساد .

وعليه فالله ببره لنا لم يتركنا في أي مرحلة من مراحل وجودنا في كل الأطوار ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [(2)] ، هـٰذا الخلق في مراحله المختلفة يبينه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن

(1) سنن أبي داود ، ج 12 ، ص 322 .
(2) نوح ، 13 ـ 14 .

﴿ سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴾ [1] ، وأطواراً من معانيها مراحل العمر المختلفة فالله قلَّب البشر شباباً وشيوخاً وضعفاء وأصحاء ، ومن معاني الكلمة التقلب بين أحوال الجسد بين الصحة والسقم والبصر والعمىٰ وغير ذلك ، وقد تعني الأحوال من الأخلاق والسلوك لأن خالق الجسد خالق الفعل والسلوك مع عدم المخالفة في تخيير الإنسان في فعل فعله وسلوك سلوكه ، وما يناسب المقام الذي نبحث فيه هو الخلق في مرحلة متقدمة بعد الإيجاد الأول بالخروج من علم ٱلله إلىٰ الوجود بقدرة ٱلله وهو الإيجاد الأول ، لأن ما بعد الإيجاد الأول وجود ، وفيه صفات عارضة وأحوال متحولة .

وهٰذا يدل علىٰ كمال الخلق والقدرة علىٰ الإيجاد وتوالي بر الرب بعباده في جميع أطوارهم فهو سبحانه وجلت قدرته خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين ، ثم طورها إلىٰ علقة ، ثم طور العلقة مضغة ، ثم خلق المضغة عظاماً ، ثم كسا العظام لحماً ، ثم أنشأته نشأة أخرىٰ فأقامه في الحياة بمظهر مختلف عن المظاهر السابقة ، وهنا نلحظ جمال اللفظ القرآني أطواراً أي في مراحل مختلفة وهنا يروق لنا أن نضيف المعنىٰ الحديث الذي يتراءىٰ في ذهن متلقف الكلمة فهي تأتي في سياق جديد وهو التطوير الذي بمعنىٰ التحديث ولٰكن التطوير في المعنىٰ القرآني بمعنىٰ النقل من مظهر إلىٰ مظهر فتتغير الوظيفة بتغير المظهر لأن صنعة ٱلله كاملة لا تحتاج إلىٰ تحديث بمعنىٰ تطوير ، فالتطوير بمعنىٰ التحديث يليق في حق البشر والتطوير بمعنىٰ النقل يليق في حق ٱلله وشتان بين هٰذا وذاك ، إنها قدرة باهرة بديعة عظيمة وسلطة قاهرة دامغة لا نظير لها لله القائل : ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [2] . ولأن الشيء الذي خلق ٱلله منه البشر من بر الرب الخالق فهو يسأل في عجب هل هم الذين خلقوا

---

(1) المؤمنون ، 12 ـ 14 .

(2) الواقعة ، 58 ـ 59 .

الشيء الأول الذي منه الخلق ، وهـٰذا لشيء كما سبق أن ذكرنا جاء بعد مرحلة اللاشيء فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ (1) ، وهـٰذا متعلق ببر الرب بخلقه في تطور أطوارهم وهـٰذا منذ بدء الخلق والإيجاد وهو أقوىٰ دليل علىٰ القدرة المطلقة ، وبهـٰذا المنطق يستطيع المحاور بالقرآن أن يرد علىٰ الذين يعتقدون في نظرية داروين وأمثالها كما في قوله تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ (2) ، فالبداية لاشيء لقوله تعالىٰ : (من أي شيء خلقه) فلا شيء يعرفه الإنسان لأن الشيء لم يكن قد خلق بعد ، فلا توجد إجابة ، لأن الخلق من اللاشيء بقدرة ٱلله الذي ببره أخرج الخلق من علمه إلىٰ إيجاده ، وهنا تُنْسَفُ كل النظريات الإلحادية التي تقول أن الخلق نشأ وتطور بنفسه وأن الإنسان أصله قرد ، وهنا نتحدىٰ هـٰؤلاء ومن شاكلهم ونقول لهم خذوا قرداً واعكفوا عليه أنتم ومن اعتقد في قولكم وحددوا المدة التي تكفيكم أنتم وأبنائكم وأحفادكم لتحولوا القرد إلىٰ إنسان ، ونخبر أبناءنا بأن ينتظروا ليثبتوا أن الحق أحق أن يتبع ، ذلك كله دليل علىٰ بر الرب بخلقه عباده وبره بهم في مراحلهم المختلفة ، وعليه أتساءل :

ـ كيف يكون أصل الإنسان قرداً والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (3) ؟

ـ وكيف نصدق أن أصل الإنسان قرد والله تعالىٰ يقول : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ (4) ؟

---

(1) الطور ، 35 .
(2) عبس ، 17 ـ 19 .
(3) الفرقان ، 54 .
(4) السجدة ، 7 ـ 8 .

ـ وكيف نسلم بأن أصل الإنسان قرد والله تعالىٰ يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (1) ؟

ـ وكيف نعقل كل ذلك والله تعالىٰ يقول : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (2) .

بناء علىٰ هـٰذه الأسئلة التي تحمل إجاباتها فيها أتساءل :

ـ ألا يكون من غير اللائق بنا نحن بني الإنسان أن نقبل بأن يكون أجدادنا الأبرار هم القردة ونحن نعتبر أصولنا منهم ! وهل يحق لنا أن نفتخر إذا أقرَّينا ذلك ونحن المكرَّمون في الأرض بالاستخلاف فيها ؟

ـ ألا يكون من غير المقبول القبول بقول دارون (أصل الإنسان قرد) ونحن نعلم أن أبانا آدم الذي كلمه ٱلله واصطفاه علىٰ ما خلق وميزه بالعلم حتىٰ سجد الملائكة له مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (3) .

ـ وكيف يكون ذلك بحق ومنَّا الأنبياء الكرام صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ؟

---

(1) التين ، 4 .

(2) آل عمران ، 59 ـ 60 .

(3) البقرة ، 30 ـ 34 .

ـ وكيف يكون ذلك ونحن المؤمنون به واحداً أحداً نفكر ونتذكر ونستغفر ونتوب إليه ؟

ـ وإذا كانت القردة قد تطورت وأصبحت نحن كما يدعي دارون في نظريته للنشوء والارتقاء ، فلماذا لا زالت هناك قرود في الغابات وعلىٰ خشب المسارح يلعبون بها (السيرك) الألعاب البهلوانية ، فلو افتراضاً القردة قد تطورت حتىٰ أصبحت نحن فلما كان اليوم علىٰ سطح الأرض منها شيء ، فالنوع عندما يتطور يحل محله بقانون التطور الذي انقلب حاله إليه ، ولذا لو تطورت القردة كما يدَّعون لما بقي منها بين أيدينا شيء يذكر ؟

ـ وإذا قبلنا بما ذُكر من مثل هـٰذه الادعاءات ألا نقبل بذلك التطور العام الذي يغير حال الكائنات والمخلوقات الأخرىٰ من حيوانات وطيور وأسماك وغيرها كثير أم أنها هي الأخرىٰ كانت غير التي نحن عنها نتحدث . أم أنها قد تطورت ونحن لم نعلم بما كانت عليه . وإذا كانت الإجابة بنعم قد تطورت ونحن الذين لا يعلمون بحالها السابق ، أقول : ولماذا علمنا بحال تطورنا كما يدَّعون بالتطور القردي حتىٰ أصبح من بني الإنسان ؟

ـ وكذلك إذا سلمنا افتراضاً بالتطور القردي الذي انتقل إلىٰ المستوىٰ الإنساني ، ألا نسلِّم بأن التطور لا يزال مستمراً ولا ندري بحالنا كيف نصبح من جديد ليكون التطور متنقلاً بنا إلىٰ شيء لا نعرفه .

وعليه لقد خُلق الإنسان في أحسن تقويم ليكون الخليفة البر الوارث في أرضه (البر الواسع) وفي جنته (البر الأوسع) ولهـٰذا فالإنسان أصل في بره مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (1) ، نعم لقد خلق الإنسان ولم يكن من

(1) مريم ، 66 ـ 67 .

قبل شيئاً ، وهـٰذه رد مطلق الحجة علىٰ كل من يدعي بأن الإنسان كان قرداً ثم تطور حتىٰ أصبح إنساناً .

وأنقل من روايتنا (البستان الحلم) جزءاً من حوار أبينا آدم مع زوجه أمنا حواء وأحد أبنائهما الذي يقول فيه : « يا بني ألم تعلم أني أعلم جميع الأسماء وهـٰذه أسرار لم يعلمها غيري . قلت نعم ، فقال لعن ٱلله داروں ومن اتبعه ، قلت في نفسي الحمد لله لم أكن منهم ، واستمر أبونا في الحديث يقول : وهو في حالة غضب ، أنه من الغرابة أن يصف الإنسان أمه وأباه وأجداده الأبرار بالحيوان القردي ، ويا بني اسأل أخوتك جميعهم لو كنتُ وأمك قردين كما يدعي البعض منهم فقلت حاشاكما ، قال : استمع ، لو كنا كذلك ألم تكن أنت وهم مثلنا . وقل لهم ليس لدي وقت أناقش فيه من هو أقل مني علماً وحكمة ولا يعلم ما أعلم ، ومع ذلك أوصيكم بقراءة كتاب الحكمة وقراءة علم الوراثة الذي ينص علىٰ حفظ الأنواع واستمرارها ، وإذا أجزتم بأن أصلكم قردي ، فأقول لكم إنكم لم تكونوا مني ، وإذا أجزتم ذلك أيضاً بأنكم قردة متطورة فأقول لكم إذاً لماذا قرود اليوم التي تبيعونها في الأسواق وتشترونها وتلعبون بها في (السيرك) وتجرون عليها التجارب العلمية لماذا قرود اليوم باقية بما أن أصلها قد تغير وتطور إلىٰ أن أصبح أنتم أيها السادة كما تدّعون . وكيف تقبلون ذلك ومنكم الأنبياء والرسل . وإذا قبلتم بأن أصلكم قردي متطور فعليكم أن تقبلوا باستمرارية التطور إلىٰ نوع آخر لا أدري ماذا سيكون .

اسألهم يا بني عن الأصول التي تطورت منها الأسماك والطيور والزهور والبغال العقيمة ، وإذا قبلوا بأنها حافظت علىٰ نوعها فاسألهم أيضاً عن الأسباب التي جعلتها تحافظ علىٰ نوعها ولم تجعل الإنسان يحافظ علىٰ نوعه كما يدّعون . واقرأ عليهم قوله تعالىٰ : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (1) ، وقوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا

(1) ياسين ، 36 .

زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] ، الذكر والأنثىٰ من كل نوع ، وبالتالي الذين يتساءلون منكم عن أيهما أسبق من الآخر البيضة أم الدجاجة . فإنه تساؤل غير صائب إذ لا يمكن أن تكون البيضة ما لم تكن الدجاجة ، ولا يمكن أن تكون الدجاجة ما لم تكن البيضة ، ولهٰذا خلق ٱلله من كل شيء زوجين اثنين ، فالبيضة إن وجدت بدون حيوان تذكير لا يمكن أن تنتج دجاجة أو تخرج فرخاً . الآن أتركك لتتم قصة بستانك علىٰ أمك ، ولا تنس أهمية بستان المستقبل بالنسبة إليكم . وقبل أن أودع أبي تدخلت أمي بسؤالها وروح الاحتجاج فيها قائلة : هل من يحاوركم بلسان الحكمة يكون قرداً . فتدخل أبي قائلاً : لا تعممي الأحكام ، هٰذا ابنك صاحب البستان .

أنا لست في حاجة إليه ولا إلىٰ بستانه .

أعرف يا أمي ، ولٰكن أنا في حاجة إلىٰ رضاك .

إذا أردت رضائي فاسجد لله علىٰ أديم هٰذه الأرض كما سجدت الملائكة عليها لأبيك .

قبلت رأسها وقلت : الحمد لله أنني من الساجدين » [2] .

وهنا لمحة لغوية نرد بها علىٰ القارئ الذي سيسأل الآن لماذا يلح المتأمل في أسماء ٱلله الحسنىٰ وصلة الأسماء بالخليفة علىٰ الخلط والربط بين البر والرب فنقول أيها الحبيب ذو العقل والبصر والبصيرة انظر إلىٰ مقلوب (بر) فستجد (رب) فالبر هو الرب والرب هو ٱلله عز وجل وهو البر الرحيم جل جلاله .

---

(1) الذاريات ، 49 .

(2) عقيل حسين عقيل ، البستان الحلم ، مالطا ـ منشورات الجأ ، الطبعة الثانية ، 2001 ، ص 10 ، 11 .

ومن هنا فأطوار خلق الإنسان علىٰ النحو المتقدم أقوىٰ في انتزاع الاعتراف بقدرة ٱلله من العبد الذي يفر من ٱلله لا يفر إلىٰ ٱلله ، فالله الذي يحيي الإنسان في كافة أطواره ، لأنه يحتاج الىٰ بر الرب الأعظم في كل مراحل حياته ، وكل طور منها آية مستقلة ودليل دامغ علىٰ بره بخلقه وقدرته المطلقة ، وهـٰذا التوجيه في الأطوار المختلفة موجود في الظواهر الكونية في كل ما يحيط بنا من سماء وأرض ، فالسماء كانت دخاناً وكانت رتقاً ففتقهما الله بقدرته ، والأرض كانت علىٰ غير ما هي عليه الآن ، حتىٰ أصبحت أرضاً وفيها خليفة ، ويبين ٱلله بعضاً من مظاهر بره في قوله تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (1) ، هناك تساؤل استغرابي في هـٰذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ أي هل خلقكم أقوىٰ من خلق السماء التي رفعها بغير عمد ترونها .

ومن مظاهر بره وعطفه علىٰ خلقه ولطفه بهم توجه إليهم بالنداء وهم في الأصلاب فقال ٱلله تعالىٰ في قصة بناء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام للبيت الحرام وأمر ٱلله له بالنداء له في الناس ليحجوا إليه ، وكان هـٰذا النداء لمن برزوا إلىٰ الوجود الجسدي وإلىٰ الذين كانوا في الوجود الصلبي فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (2) ، قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ فمن بر ٱلله بإبراهيم أنه أرشده إلىٰ مكان البيت ودله

---

(1) النازعات ، 27 ـ 32 .

(2) الحج ، 26 ـ 27 .

علىٰ موضع البيت ، فبناه مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ومن بنىٰ البيت ببر من ٱلله البر لا يشرك بالله فقال ٱلله تعالىٰ له : ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ أن طهر بيتي (الكعبة) من النجاسات ومن عبادة الأوثان ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ المقيمون في مكة ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ لأجل الصلاة بالأوقات المحددة من فرض ونافلة للمسلمين من كل مكان الذين يوحدون ٱلله عز وجل ، ثم قال ٱلله عز وجل : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ بأن ينادي سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الناس ، وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء الكعبة ، أمره ٱلله تعالىٰ أن ينادي فنادىٰ : يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم . إن ٱلله تعالىٰ قد بنىٰ بيتاً وأمركم بأن تحجوه ؛ فعن أبي هريرة رضي ٱلله عنه قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « لما فرغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت أمره ٱلله عز وجل أن ينادي في الحج ، فقام علىٰ المنار ، فقال : يا أيها الناس ، إن ربكم قد بنىٰ لكم بيتاً فحجوه ، وأجيبوا ٱلله عز وجل ، قال : فأجابوه في أصلاب الرجال وأرحام النساء : أجبناك أجبناك ، لبيك اللهُمَّ لبيك ، قال : فكل من حج اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم علىٰ قدر ما لبىٰ » [(1)] فلما نادىٰ يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم ، فأجابوه من أصلاب الرجال : لبيك ، فإنما يحج من أجاب سيدنا إبراهيم يومئذٍ .

فعن عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : كنت مع النبي ﷺ جالساً فقال رسول ٱلله ﷺ : « أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيماناً . قالوا يا رسول ٱلله الملائكة . قال : هم كذلك ويحق ذلك لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم ٱلله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم . قالوا : يا رسول ٱلله فالأنبياء الذين أكرمهم ٱلله تعالىٰ بالنبوة والرسالة . قال : هم كذلك ويحق لهم ذلك وما يمنعهم وقد

---

(1) أخبار مكة للفاكهي ، ج 3 ، ص 30 .

أنزلهم ٱلله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم قال : قلنا : فمن هم يا رسول ٱلله . قال : أقوام يأتون من بعدي في أصلاب الرجال فيؤمنون بي ولم يروني ويجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهـٰؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً » [1] ، وهـٰذا من بر البر بنا ونحن في الأصلاب ففضلنا ٱلله وجعلنا من أفضل أهل الإيمان إيماناً وليس الأمر كذلك بل جعلنا حاملين للواء الخلافة الربانية علىٰ الأرض .

4 ـ بر بعباده في أرحام الأمهات :

فالله سبحانه وتعالىٰ أبر بعباده وهم أجنة في بطون الأمهات بعد أن برهم في عالم الذر في الأصلاب ونماهم وغذاهم من الأرض التي خلق منها أباهم فقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [2] ، فعلمه شامل ورحمته واسعة ، والآية تأكيد لقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ ﴾ [3] ، فمن يتخيل أو يتوهم بأن يعمل عملاً في جوف الليل المظلم أو في أي مكان ما ولا يعلمه ٱلله فهو واهم لأن ٱلله يعلم أحوال الخلق وهم أجنة في بطون الأمهات ، والله عالم بتلك الأحوال فإن ٱلله عالم بأحوالهم وهم في بطون الأمهات ، فكتب علىٰ البعض أنه ضال ، والبعض أنه مهتد ، فقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ وهنا تأكيد علىٰ كمال العلم والقدرة ، فإن بطن الأم في غاية الظلمة ، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفىٰ عليه ما ظهر من حال العباد خارجها ، فمن بره أن أخرج الخلق من الأصلاب إلىٰ الأرحام ووفّر لهم سبل الحياة ، ولا يقدر علىٰ ذلك إلا البر ، فمن بره وإحسانه خلق الرحم في جوف

---

(1) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، ج 16 ، ص 314 .

(2) النجم ، 32 .

(3) النجم ، 30 .

البطن بكيفية تلائم حياة الجنين وتحافظ علىٰ حياته إلا إذا أراد ٱلله غير ذلك ، وبقدرته سبب له من أسباب الحياة وهـٰذا ما يعجز الخلق جميعاً وإن اجتمعوا له فله الحمد والمنة .

5 ـ بر بعباده وهم أطفال لا يملكون أن يدفعوا ضراً أو يجلبوا نفعاً .

فالله بر محسن بعباده بعد إخراجهم من الأصلاب إلىٰ الأرحام ومن الأرحام إلىٰ دار الاختبار ، فأجرىٰ الرحمة في قلب الأم والحنان في قلب الأب وقد سخر ٱلله الاثنين لتوفير سبل الراحة للطفل الضعيف ، فجعل ٱلله الأبوين وليين لطفل ، والولاية هي التي يقوم فيها ولي الطفل برعاية شئونه منذ ولادته ، ففي فترة الحضانة تحتضنه الأم وتسقيه من ثديها الغذاء ومن صدرها العطف والحنان حتىٰ ترىٰ فيه مظاهر القوة ، و من تمام البر بالطفل فقد حث الإسلام علىٰ استيفاء الرضاعة لعامين فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ (1) ، والولاية في هـٰذه الفترة خاصة بالأم أو امرأة أخرىٰ تقوم مقامها بالرعاية والرضاعة والحنان ، فالطفل في هـٰذه المدة يحتاج إلىٰ أمومة مستمرة حتىٰ يصبح غلاماً يألف الناس ويألفونه ، أما الوالد فإنه يشارك في هـٰذه الفترة بالإنفاق علىٰ الأم حتىٰ تقوم بواجبها ، لذا كانت النفقة واجبة عليه فلو حدث أن أم الطفل لم تستطع إرضاعه لقلة لبنها أو لمرضها وجب علىٰ الأب أن يدفع المال لامرأة أخرىٰ تقوم بإرضاعه ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ﴾ (2) ، ثم إن الأب يشارك كذلك بالولاية علىٰ الطفل بالعناية والتهـذيب والإصلاح والحماية حتىٰ إذا انقضت فترة الحضانة استقل الأب بالولاية علىٰ النفس فيكون هو الولي ، وفي هـٰذه المرحلة يكون الطفل في حال توكل علىٰ الأم لأنه في مرحلة

(1) البقرة ، 233 .
(2) البقرة ، 233 .

ضعف ، والأولىٰ من القول أن نعيد الحقيقة إلىٰ نصابها فنقول إن الطفل في حال توكل علىٰ بر البر من خلال تسخير الأبوين لراحة الطفل ، والطفل في مرحلة ضعفه لا يعرف غير أمه ولا يفزع إلىٰ سواها ولا يعتمد علىٰ غيرها ، فإن رآها تعلق بها ، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان بكاؤه لفراقها ، وأول خاطرٍ يخطر علىٰ قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكفايتها له وشفقتها عليه .

ومن نظر في ملكوت السمٰوات والأرض انكشف له تحقيقاً أن ٱلله تعالىٰ دبَّر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب . فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه ، أما ترىٰ الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتىٰ ينتهي إليه غذاء الأم مهضوماً بواسطة السرة ، ولم يكن ذلك بحيلة الجنين أو بقدرة منه ، ثم لما انفصل سلط ٱلله ببره ورحمته الحب والشفقة علىٰ الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطراراً من ٱلله تعالىٰ إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلىٰ المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله علىٰ حسب حاجته ، أفكان هـٰذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ! إذ صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ ، فإذا كبر واستقل يسَّر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت ، فإنه لم يكن قادراً علىٰ الاكتساب ، فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بإدخال ٱلله تعالىٰ الحب والشفقة علىٰ قلبه ، فكذلك قد سلط ٱلله الشفقة والمودة والرحمة والرقة علىٰ قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة ، حتىٰ إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلىٰ إزالة حاجته ، فقد كان المشفق عليه واحداً والآن المشفق

عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجاً ، ولو رأوه يتيماً لسلط ٱلله داعية الرحمة علىٰ واحد من المسلمين أو علىٰ جماعة حتىٰ يأخذوه ويكفلوه ، فما رئي في سني الخصب يتيم قد مات جوعاً مع أنه عاجز وليس له كافل خاص ، والله تعالىٰ كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحداً والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوىٰ وأحظىٰ ولـٰكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض ، فكم من يتيم قد يسر ٱلله تعالىٰ له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم ! ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرىٰ قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعىٰ لرزقٍ ويرزق في غشاوته الجنين [1]

وهـٰذه رعاية الوليد الضعيف أو اليتيم التي كان يدعو بها النبي ﷺ وهي درجة من أعلىٰ درجات التوكل علىٰ ٱلله لأنه سبحانه وتعالىٰ الذي يتولىٰ الوليد والضعيف واليتيم ببره ولا يكله إلا أحد طرفة عين أو أقل ، كل ذلك بدفع خفي من البر الرحيم فقال ﷺ : « اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ! » [2] .

6 ـ بر بعباده وهم كبار لا يملكون رزقاً بإنزال مطر أو تسيير رياح أو بسط أرض أو إنبات نبات ، فمن بره وإحسانه بالعباد ما ذكره في قوله تعالىٰ :
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ

(1) إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 369 .
(2) سنن أبي داود ، ج 13 ، ص 283 .

تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٥٤ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . فمن بره سبحانه وتعالىٰ أنه (هو الذي يرسل الرياح لواقح) لأنه ربنا البر بنا ٱلله الذي خلق السمٰوات والأرض وهو الذي يرسل الرياح اللواقح هواء يحرك المياه الساكنة لتتبخر ولتجري في الأنهار والأودية بعد سقوطها أمطاراً رحمة علىٰ العباد ، ولولا ذلك لظلت راكدة وظل بركودها ركود السفن وتعطلت سبل الحياة لا غنىً لكثير من الخلق عنها ، ولماتت حيوانات في البر والجو والبحر ولٰكن ببر البر ورحمته سخر الريح من الرحمة فقال : (بين يدي رحمته) والرحمة هنا المطر الذي هو من رحمته ، وسماه رحمة لأنه المسبب في حياة الأرض الميتة ، ولا نضيِّق الأمر في المطر ونطلق العنان في مجال الرحمة ولٰكن الحقيقة لا نستطيع عد وحساب ووزن مقدار رحمة ٱلله البر لأنه القائل سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [2] ، جاء الشيء مطلقاً وهو كل شيء وأي شيء ، والشيء المطلق هو مجال امتداد الرحمة . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ حتىٰ إذا حملت هٰذه الرياح سحباً ثقيلة بما فيه من مطر وغيره من رحمة ٱلله فيسوقه الريح بقدرة ٱلله إلىٰ البلد الذي يحتاج إليه فيبعث فيه الحياة ، ولا يملك ذلك غير ٱلله البر الرحيم .

7 ـ بر بعباده وهم عصاة لا يملكون ستراً لمعصيتهم فسترهم .

فالله بر بعباده يسترهم وقت الذنوب ويعفو عنهم إذا رجعوا ، لذا

---

(1) الأعراف ، 54 ـ 57 .

(2) الأعراف ، 156 .

فالمتخلق ببر البر يستر ويعفو وذلك انطلاقاً من خير الهدي هدي النبي ﷺ الذي يحث علىٰ الستر ولا يقدر علىٰ الستر والعفو من البشر إلا الخليفة الذي تشرّب بمعنىٰ البر والرحمة واقتدىٰ بالنبي في قوله ﷺ : « من ستر علىٰ مسلم ستره ٱلله تعالىٰ في الدنيا والآخرة » ، وقال : « لا يستر عبد عبداً إلا ستره ٱلله يوم القيامة » وقال ﷺ : « لا يرىٰ المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » ، فإذاً علىٰ المسلم أن يستر عورة نفسه فحق إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيره . قال أبو بكر رضي ٱلله عنه : لو وجدت شارباً لأحببت أن يستره ٱلله ، ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستره ٱلله [1] .

وفي الحديث : « إن ٱلله ستر علىٰ عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة ، وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرىٰ » ، وعن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي ٱلله عنه قال : خرجت مع عمر رضي ٱلله عنه ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق علىٰ قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال : أتدري من هـٰذا . قلت : لا ، فقال : هـٰذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترىٰ . قلت : أرىٰ أنا قد أتينا ما نهانا ٱلله عنه . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فرجع عمر رضي ٱلله عنه وتركهم ، وهـٰذا يدل علىٰ وجوب الستر وترك التتبع ، وقد قال رسول ٱلله ﷺ لمعاوية : « إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » ، وقال ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع ٱلله عورته ، ومن يتبع ٱلله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته » [2] .

---

(1) إحياء علوم الدين ، ج 2 ، ص 46 .

(2) إحياء علوم الدين ، ج 2 ، ص 46 .

وعن عمار بن ياسر : أنَّ رجلاً مرت به امرأة فأحدق بصره إليها فمر بجدار فمرس وجهه فأتىٰ رسول ٱلله ﷺ ووجهه يسيل دماً فقال : يا رسول ٱلله إني فعلت كذا وكذا فقال رسول ٱلله ﷺ : « إذا أراد ٱلله بعبد خيراً عجل عقوبة ذنبه في الدنيا فإذا أراد به غير ذلك أمهل عليه بذنوبه حتىٰ يوافي بها يوم القيامة كأنه عير » . والستر الأكبر في الآخرة أمام الخلائق يوم القيامة اللهُمَّ اجعلنا من المستورين في الدنيا بالبعد عن الذنوب وفي الآخرة بالنجاة من النار ، وستر الآخرة ستر عظيم لأنه يكون أمام الإنس والجن والملائكة وغير ذلك من خلق الله يعلمهم ولا يحصيهم غيره سبحانه عظيم الجود والإحسان ، وعن ابن عباس قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « شكا نبي من الأنبياء إلىٰ ربه فقال يا رب يكون العبد من عبيدك يؤمن بك ويعمل بطاعتك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد من عبيدك يكفر بك ويعمل بمعاصيك فتزوي عنه البلاء وتعرض له الدنيا فأوحىٰ ٱلله إليه أن العباد والبلاد لي وأنه ليس من شيء إلا يسبحني ويهللني ويكبرني فأما عبدي المؤمن فله سيئات فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء حتىٰ يأتيني فأجزيه بحسناته وأما عبدي الكافر فله حسنات فأزوي عنه البلاء وأعرض له الدنيا حتىٰ يأتيني فأجزيه بسيئاته »[1] .

البر : هو رحيم بعباده يداوي هفوات النفوس ويبرئ علات القلوب ويصلح نزوات الأجساد ويسمو بالروح إلىٰ نور الطاعة متعالياً بها عن ظلمة المعصية ، فبره يمهل العاصي بإمهاله ويستره بستره يعفو عنه برحمته ، ومن لم ينل العفو من البر فقد لقي الخزي الكبير لأنه عرض نفسه للتهلكة ولعذاب ٱلله وكفىٰ بالمرء عذاباً كشف ستر ٱلله له .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج 4 ، ص 437 .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (1) ، فمن بره خلق السمٰوات والأرض وما فيهما من آيات باهرات ومعجزات كبريات وخيرات حسان لا يمكن أن يعددها عاد ولا يحصيها حاص ، وهٰذه الآيات لأولي العقول السليمة الفطنة التي تفحص وتدقق وتصل إلىٰ أن ذلك الجود والبر من البر الأكرم الوهاب الأعظم وهٰؤلاء سماهم ٱلله أولي الألباب أصحاب العقول التي تصل إلىٰ مراد ٱلله في خلقه وتعمل علىٰ إصلاح الأرض وتحقيق الخلافة التي أرادها ٱلله عز وجل ، والمنادِي للإيمان سيدنا محمد ﷺ وسيلته في ندائه كتابُ اللَّهِ وسنته وهي التطبيق العملي لكتاب ٱلله ، والخليفة الذي يأخذ كتاب ٱلله وسنة النبي ﷺ طريقاً للنجاة باتباع طرق الهداية وتعمير الأرض والتفكر في سبل الإصلاح ، والذين يتبعون ذلك الهدىٰ يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ (2) . دعاء الخليفة علىٰ أَلْسِنَةِ الرسل الكرام صلوات ٱلله وسلامه عليهم الذين اصطفاهم ٱلله ليخرجوا الناس من الظلمات علىٰ النور ، أي من المعصية إلىٰ الطاعة ومن الظلم علىٰ العدل ومن الضلال إلىٰ الهداية ، والخير

(1) آل عمران ، 190 ـ 194 .

(2) آل عمران ، 194 ـ 198 .

الأكبر والبر الأعظم طلب الستر في الدنيا وفي الآخرة فيقول كل من أراد التزود من بر البر بنعمة الستر الأكبر : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ لأننا أمنا برسولك وصدقنا بكلامك ، ولذا فمن يفعل ذلك لا يخزيه ٱلله ويستره ، ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ (1) ، فهـٰذا وعده تعالىٰ وهو سبحانه لا يخلف الميعاد .

فالله يستر الذنب ويرحم عباده بالمغفرة والهداية وهـٰذا بر وإحسان من ٱلله الذي بره دائم متصل حتىٰ لا يفضح العبد يوم القيامة ، ولـٰكن هناك من يقابل البر والعفو والستر بغير ذلك فيفضح ستر ٱلله ويتكلم بالمعصية ، قال رسول ٱلله ﷺ : « كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرون قالوا يا رسول ٱلله ومن المجاهرون قال الذي يعمل العمل بالليل فيستره ربه عز وجل ثم يصبح فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا فيكشف سر ٱلله عز وجل عنه » (2) .

قال رسول ٱلله ﷺ « ما ستر ٱلله علىٰ عبد ذنباً في الدنيا إلا ستر ٱلله عليه في الآخرة » (3) .

والخليفة في حقيقة الأمر متحقق بأسماء ٱلله فيبر من حوله بأعمال الخير ومن أعمال الخير ستر الجماعة المحيطة به والعمل علىٰ ستر من يستطيع ، والستر الذي هو من أعمال البر لا يكون بحجب الحقيقة بالتستر ، والفرق كبير بين الستر ، والتستر ، فالخليفة يستر ولا يتستر ، يستر بالنصيحة والتوجيه وتقديم يد المساعدة ومن ذلك قال النبي ﷺ : « إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ قَالُوا لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِلَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَأَئِمَّةِ

---

(1) التحريم ، 8 .
(2) إحياء علوم الدين ، ج2 ، ص46 .
(3) السابق ، ص 48 .

الْمُؤْمِنِينَ وَعَامَّتِهِمْ أَوْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » [1] ، وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] فالنصيحة ستر لمن تنصحه بشرط ألا تكون بين يدي الناس أو علىٰ مسمع منهم حتىٰ لا يؤذىٰ من تقدم له النصيحة ، وهـٰذا النصح من أعمال البر الذي يقوم به المتخلق بخلق البر ، ولذا فالنصيحة تأتي من القوي الذي يملك التغيير بالمال والقوة والسلطة ، وتأتي من الضعيف الذي لا يملك من الأمر إلا الخبرة فلا يمنعه ضعفه وقلة حيلته من النصح لوجه ٱلله ورسوله .

8 ـ بر بعباده وهم تائبون فقبلهم وغفر لهم :

لأنه يحب التوابين المتطهرين من الذنوب والمعاصي بالطاعة والإنابة إلىٰ ٱلله البر الرحيم . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [3] . فالاستفهام للتقرير والتأكيد ومفاده أن ٱلله هو وحده ليس غيره يقبل التوبة عن عباده ، وفي هـٰذا إطلاق البر بعباده لأنه يقبلها عنهم وليس منهم وهـٰذا أقوىٰ وأشمل في قبول التوبة ، وكيف لا وهو الذي ستر وقبل التوبة ووعد بالمغفرة فقال : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [4] .

---

(1) سنن أبي داود ، ج 13 ، ص 107 .

(2) التوبة ، 91 .

(3) التوبة ، 104 .

(4) الزمر ، 52 ـ 55 .

ٱلله سبحانه وتعالىٰ يوضح في الآيات كمال رحمته وفضله وإحسانه في حق العباد وقد احتج البعض بهـٰذه الآية علىٰ أنه تعالىٰ يعفو عن الكبائر لأنه خصص اسم العباد للمؤمنين فقال تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (1) ، وقال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ (2) ، ولفظ العباد في مجال التوقير لذلك فهو يخص المؤمنين بالله ولأن المؤمنين هم الذين يعترفون بكونهم عباد ٱلله ، أما المشركون فإنهم لا يسمون أنفسهم بذلك ، وعليه فقوله : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين ، إذا ثبت هـٰذا فنقول إنه تعالىٰ قال : ﴿ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهـٰذا في حق جميع المسرفين ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ وهـٰذا يقتضي كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين ، لا عن غيرهم لأنهم لا يرجعون إليه بالتوبة ولذلك قال ٱلله تعالىٰ بعد هـٰذه الآية : ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالىٰ غفر جميع الذنوب لجميع العبيد لما أمر بعده بالتوبة والإنابة إليه ، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ ولو كانت الذنوب كلها مغفورة ، فأي حاجة به إلىٰ أن يقول : ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ ، وليس ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاقاً في الإقدام عليها ، لأنه لا يليق بحكمة ٱلله ، وإذا ثبت هـٰذا وجب أن يحمل علىٰ أن يقال المراد منه التنبيه علىٰ أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا خلاص له من العذاب نهائياً ، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة ٱلله ، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتىٰ تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة ، فمعنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، بالتوبة

---

(1) الفرقان ، 63 .

(2) الإنسان ،6 .

والإنابة ، فعليه كل الذنوب مغفورة قطعاً بإذن ٱلله للتائب النائب ، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع ، وهي للاستقبال والاستمرار وهٰذا من مطلق الرحمة والبر .

ومن أرأد الخلافة فهو يجد وكداً في دعوة الناس للعودة إلىٰ ٱلله والإيمان به حتىٰ يتوب ٱلله عليه ، وتلك دعوة عامة للقاصي وللداني ولسان حال العاملين علىٰ بر من لهم التمثل بقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) ، فمن الرحمة في الدعوة إلىٰ البر اللين في الدعوة لأن اللين مظهر من مظاهر الرحمة ، والاستجابة لله بالعودة إليه والإيمان به وجزاء ذلك المغفرة والرحمة والنجاة من عذاب أليم أعده ٱلله لمن يصر ويتجبر ويتكبر ولا يعود إلىٰ ربه البر به ، فمن لا يستجيب لهٰذه العودة لن يجد إلا العذاب ولا ينقذه منه أهل الأرض والسماء ، وهو بهٰذا لا محالة في ضلال مبين .

ويقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (2) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ والتوبةُ هي الرجوعُ عنِ المعاصِي بالندمِ عليها والعزمُ علىٰ أنْ لا يعاودها تكراراً . ورَوَىٰ جابرٌ رضيَ ٱلله عَنْهُ أنَّ أعرابياً دخلَ مسجدَ رسولِ ٱلله ﷺ ، وقالَ : ٱللهم إنِّي أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ وكبَّرَ فلما فرغَ من صلاتِه قالَ له عليٌّ رضيَ ٱلله عنهُ يا هَذا إنَّ سرعةَ اللسانِ بالاستغفارِ توبةُ الكذَّابينَ وتوبتُكَ هـٰذهِ تحتاجُ إلىٰ التوبةِ فقالَ يا أميرَ المؤمنينَ ، وما التوبةُ

(1) الأحقاف ، 30 ـ 32 .
(2) الشورىٰ ، 25 ـ 26 .

قالَ اسمٌ يقع علىٰ ستةِ معانٍ : علىٰ الماضِي من الذنوبِ الندامةُ ، ولتضييع الفرائضِ الإعادةُ وردُّ المظالمِ وإذابةُ النفسِ في الطاعةِ كما ربَّيتها في المعصيةِ وإذاقتُها مرارةَ الطاعةِ كما أذقتَها حلاوةَ المعصيةِ والبكاءُ بدلُ كلِّ ضحكٍ ضحكتَهُ . ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ صغيرها وكبيرِها دون أن يشرك به لمنْ يشاءُ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كائناً ما كانَ من خيرٍ وشرٍّ فيجازِي ويتجاوزُ حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنية علىٰ الحِكَمِ والمصالحِ . وقرئَ ما تفعلونَ بالتاءِ . ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أي يستجيبُ ٱلله لهم فحُذف اللامُ كما في قولِه تعالىٰ : (وَإِذَا كَالُوهُمْ) أي كالُوا لَهُم ، والمرادُ إجابةُ دعوتِهم والإثابةُ علىٰ طاعتهم فإنَّها كدعاءٍ وطلبٍ لِما يترتبُ عليها ، ومنْهُ قولُه عليهِ الصلاة والسَّلامُ : « أفضلُ الدُّعاءِ الحمدُ لله » . أو يستجيبونَ بالطاعةِ إذا دَعَاهُم إليها . وعن إبراهيمَ بنِ أدهم أنَّه قيلَ لَهُ ما بالُنَا ندعُو فلا نجابُ قالَ لأنَّه دعاكُم ولم تجيبُوه ثمَّ قرأَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ علىٰ ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ . بدلَ مَا للمؤمنينَ من الثوابِ والفضلِ المزيدِ (1) .

والتوبة من شروطها أن تكون بنية صافية ورغبة في إصلاح النفس وعدم العودة إلىٰ المعصية فهي ليست متاحة أو مباحة لكافر يصر علىٰ كفره ولا لمصر علىٰ الكبيرة يفعلها دون رادع ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (2) .

ولأن ٱلله بر رحيم يحب اللين فالخليفة يتخلق بذلك يدعو باللين ويترك الفظاظة والغلظة في الوصول إلىٰ قلوب الناس وليس أدل علىٰ ذلك من بر

(1) تفسير أبي السعود ، ج 6 ، ص 82 .
(2) النساء ، 18 .

النبي ﷺ بعد أن فتح ٱلله عليه مكة ، ولما نزل رسول ٱلله ﷺ مكة واطمأن الناس خرج حتىٰ جاء البيت فطاف به سبعاً علىٰ راحلته فلما قضىٰ طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد بها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف علىٰ باب الكعبة فقال : « لا إلـه إلا ٱلله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » وقال : « يا معشر قريش إن ٱلله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هـٰذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) ، ثم قال « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ثم جلس في المسجد فقام إليه علي ومفتاح الكعبة في يده فقال يا رسول ٱلله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلىٰ ٱلله عليك .

فقال رسول ٱلله ﷺ أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء (2) .

والشاهد أنَّ النبي ﷺ رفض أن يقسو علىٰ من آذوه وبرهم وأعطاهم ما كان لهم من فضل في الجاهلية ولم يؤثر أحداً علىٰ أحد وبر بهم وعفا عنهم .

ومن مواقف البر والرحمة ما حدث بعد أحد بعد انكسار المسلمين بسبب تخليهم عن طاعة أمر النبي ﷺ طمعاً في غنيمة المعركة ، فلم يعنفهم ﷺ بل واساهم وطمأنهم وبر بهم ، ويوضح ٱلله ذلك في كتابه فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ

(1) الحجرات ، 13 .
(2) عيون الأثر ، ج 2 ، ص 199 .

وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ أي : لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل ٱلله والضرب في الأرض في طاعة ٱلله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا : لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا ﴿ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ لقلة اليقين بربهم ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ ﴾ أي : يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من ذلك من أجابهم بقدرته . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ أي : إن الموت لكائن لا بد منه فموت في سبيل ٱلله أو قتل خير لو علموا وأيقنوا مما يجمعون من الدنيا التي لها يتأخرون عن الجهاد تخوف الموت والقتل لما جمعوا من زهرة الدنيا زهداً في الآخرة ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ ﴾ أي : ذلك كان ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي : إن إلىٰ ٱلله المرجع فلا تغرنكم الدنيا ، ولا تغتروا بها ، وليكن الجهاد وما رغبكم ٱلله فيه من ثوابه آثر عندكم منها ، والجهاد حق لإحقاق الحق ، من أجل إصلاح الأرض وإعمارها ، وهـٰذه من صفات وأعمال المستخلفين فيها .

قال تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ

(1) آل عمران ، 155ـ160 .

حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ، فقوله : ﴿ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ ﴾ أي لتركوك ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ تسامح معهم وتجاوز عما يفعلون ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ فذكر لنبيه ﷺ لينه لهم وصبره عليهم لضعفهم وقلة صبرهم علىٰ الغلظة لو كانت منه عليهم في كل ما خالفوا عنه مما افترض عليهم من طاعة نبيهم ﷺ . ثم قال تبارك وتعالىٰ : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ أي : تجاوز عنهم ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ذنوبهم ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ ﴾ أي : لتريهم أنك تسمع منهم وتستعين بهم وإن كنت غنياً عنهم تألفاً لهم بذلك علىٰ دينهم ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ أي : علىٰ أمر جاءك مني وأمر من دينك في جهاد عدوك لا يصلحك ولا يصلحهم إلا ذلك فامض علىٰ ما أمرت به علىٰ خلاف من خالفك ، وموافقة من وافقك ، ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [2] .

ولهٰذا فالبر إحسان واسع به يتم التمكن من المشاركة الواسعة واستيعاب الآخرين الذين يتعلق الأمر بهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ ﴾ هٰكذا بدأ تأسيس الشورىٰ في الإسلام لأجل ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات ، والشورىٰ تعني فيما تعني : أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ ﴾ [3] . ويقول أبن منظور : « شاورهم تعني استخرج آراءهم » [4] أما الشيخ الشعراوي فيقول : « فالمشورة هي تلقيح الرأي بآراء متعددة » [5] . وهٰذا يدل علىٰ أن الشورىٰ

---

(1) آل عمران ، 159 ـ 160 .
(2) الروض الأنف ، ج 3 ، ص 304 .
(3) آل عمران ، 159 .
(4) تفسير الجلالين . بيروت ، دار الفكر ، ص 94 .
(5) محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة ، أخبار اليوم ، المجلد الثالث ، =

في الفكر الإسلامي ممارستها حق للجميع الذكور والإناث ، ولذلك يستوجب ممارسة الشورىٰ في الأمر .

والأمر هو ، كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات ، سواء كان هـٰذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية ، أو كان هـٰذا الأمر في حالة السلم أو في حالة الحرب ، وسواء كان اقتصاداً أو علاقات اجتماعية ، ولذلك في الآية السابقة يخاطب ٱلله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر ، أي وكأنه يقول ، في وجودك يا رسول ٱلله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم ، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورىٰ معهم ، ولذلك كانت الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ موجهة إلىٰ رسول ٱلله ﷺ لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم . ثم قال له : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾ أي : إذا وصلت معهم إلىٰ قرار فاعتمده بهم للتنفيذ حتىٰ تكون لهم المشاركة في كل ما يتعلق بهم من أمر ، وحينها يتحملون معك الأعباء التي قد تترتب علىٰ ما اتخذوه من قرارات .

وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (1) . إذاً بكل وضوح إنَّ الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول ﷺ كان في حالة شورىٰ بين الرسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم . أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورىٰ يقررون ما يشاءون فيه ، وينفذونه كما يشاءون وفقاً لإمكاناتهم المتاحة والمتوفرة ، ولهـٰذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر . وكلمة أمرُهُم ، تتكون من جزأين هما : (أَمْـرُ) ، و(هُـم) ، فالأمر هو ما سبق تبيانه ، أما (هـم) فجاءت مطلقة أي كل من هم علىٰ علاقة ارتباط

= ص 1840 .

(1) الشورىٰ ، 38 .

مع الأمر ، وهـٰذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية ، بل الوجود فقط للكل دون استثناء ، وكلمة بينهم الظرفية تعني ، أن تقتصر الشورىٰ في الأمر علىٰ الذين يعنيهم الأمر فقط ، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية ، ولتأكيد هـٰذا الاقتصار قال عزّ وجل بينهم ، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين ، أو بين السادة والعبيد ، أو بين المسؤول وغير المسؤول . وقد يتساءل البعض : إذا كان الأمر هـٰكذا حاله ، فإن الديمقراطية إذاً مطبقة في المجتمعات الإسلامية ، أليس كذلك . وللأسف الإجابة بأجل ، وذلك لأن الفكر الإسلامي في الشرق والتطبيق الإسلامي في الغرب (أعني وللأسف في اتجاهين متباعدين) نأمل أن يسود العدل والبر بين الناس رحمة ومغفرة وتوبة وإصلاح في الأرض .

ولأن ٱلله بر رحيم لم يترك عبده المؤمن دون عناية ورعاية فأرسل الرسول الخاتم ﷺ ليعلم الكافة الدين الحق ، الذي يجعلهم علىٰ الحق عدلاً وإحساناً ، ويجعلهم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، ليكونوا أعزاء كراماً يوحدون ٱلله ولا يشركون به شيئاً .

ومن بره يثبت المؤمن الذي آمن به رباً براً رحيماً وبالنبي ﷺ نبياً رسولاً من رب العالمين ، وهـٰذا الثبات بقولة الحق الذي كان متمسكاً بها في الدنيا وثبت عليها ودافع عنه ليثبتهم علىٰ القول الثابت حتىٰ تطمئن قلوبهم علىٰ الحق وبه ، قال تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (1) .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ هي كلمة التوحيد ، وكلام ٱلله الذي لا يتبدل ولا يتغير وإن تغير الزمن وذلك لصلاحية القرآن الكريم لكل زمان . ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(1) إبراهيم ، 27 .

الذين ظلموا أنفسهم بجهالتهم وكفرهم وشركهم ، وبظلم الناس الذين لهم علاقة بهم ، من أبنائهم وأزواجهم الذين جعلوهم يشبون علىٰ الكفر والشرك وهـٰذه مظالم أجارنا ٱلله منها .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالىٰ يقبل توبة عبده ما لم يغرغر » .

وقال الشاعر :

أيـا فـرقـة الأحبـاب لا بـد لـي منـك ... ويــا دار دنيــا إننــي راحــل عنــك
ويــا قصــر الأيــام مــالــي وللمنــىٰ ... ويا سكرات الموت مالي وللضحك
فمــا لــي لا أبكــي لنفســي بعبــرة ... إذا كنـت لا أبكـي لنفسـي فمـن يبكـي
ألا أي حــي ليـس بـالمـوت مـوقنـاً ... وأي يقيــن أشبــه اليــوم بــالشــكِّ [1]

ولأنه البر الرحيم يلتجئ الخليفة إليه تعبداً ودعاء كل حين ويظهر ذلك في دعائه في كل صلاة وهو يحمده علىٰ رحمته وبره له في الأرض ويوم يبعثون ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [2] ، والبر من ٱلله علىٰ الصراط بنور منه يعطيه للمؤمن ليمر علىٰ الصراط دون خوف أو وجل ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ

(1) فيض القدير ، عبد الرؤوف المناوي ، ج 4 ، ص 500 .
(2) الفاتحة ، 1 ـ 7 .

وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [1] .

قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ في يوم القيامة علىٰ الصراط ، والنور في حقيقته استبشار وطمأنة نفس ورضاء بالمكارم التي وهبها لهم البر الرحيم جل جلاله ، ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ بتصديقهم في الدنيا ، أي بما قدمت أيديهم من عمل صالح في الحياة الدنيا وبما سلكوا وفعلوا فيها من خيرات حسان نالت الجزاء الأوفىٰ من البر الرحيم ، فلم تكن وجوههم مسودة كما هو حال المعذبين بما جنت أيديهم في الدار الدنيا من مظالم ومفاسد وسفك دماء بغير حق ، فهـٰؤلاء لهم الظلمة ، وللوارثين المستخلفين النور الذي به اهتدوا إلىٰ الصراط المستقيم ففازوا في الدارين ، فيكون النور بين أيديهم ، وأيمانهم الذي كان سبباً في جلب النور إليهم . وتقول لهم الملائكة : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أبشروا هـٰذا اليوم بكرم الله تعالىٰ وبره لكم . ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ الجنات متعددة ومتنوعة وغير مختلفة ، فهي كلها خيرات حسان ، ولكل حسب ما قدمت يداه من حسنات في الدار الدنيا ، أي ولكل درجات في الجنات المتنوعة والمتعددة ، وهـٰذه الجنات هي ديار البقاء الدائم » [2] ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ، الفوز الذي لا يناظره فوز من حيث العظمة وهي الدرجة الرفيعة العالية المملوءة بالخيرات الحسان ، ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ نُصِبْ من نوركم ، فنضيء معكم ، والاقتباس أخذ من أصل ثابت ، دون أن يؤثر ذلك علىٰ المأخوذ منه ، والمنافقون هم الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم في الحياة الدنيا ، فكذبوا ولم يكونوا من الصادقين فيما قالوا وعاهدوا . وروي أنه ﷺ قال : « بينما العباد يوم القيامة عند الصراط ، إذ غشيتهم ظلمة . ثم

---

(1) الحديد ، 12 ـ 15 .

(2) بحر العلوم ، ج 4 ، ص 251 .

يقسم ٱلله تعالىٰ النور بين عباده ، فيعطي ٱلله المؤمن نوراً ، ويبقىٰ الكافر والمنافق لا يعطيان نوراً ، فكما لا يستضيء الأعمىٰ بنور البصر ، كذلك لا يستضيء الكافر والمنافق بنور الإيمان ، فيقولان : انظرونا نقتبس من نوركم ، فيقال لهم : (قِيلَ ارجعوا) حيث قسم النور فيرجعون ، فلا يجدون شيئاً ، فيرجعون دون مكاسب ، وقد ضرب بينهم بسور . وعن الحسن البصري قال : إن المنافقين يخادعون ٱلله ، وهو خادعهم ، لأنه يعطي المؤمن والمنافق نوراً ، فإذا بلغوا الصِّراط ، أطفئ نور المنافق ، فيقول : المنافقون ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ انظرونا : أمهلونا إلىٰ حين . فقال لهم المؤمنون : ﴿ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ ارجعوا إلىٰ ما فاتكم ، وهم يعلمون أنهم لن يرجعوا ولـٰكن ذلك يدل علىٰ الاستحالة ، التي من بعدها لا ينفع الندم . والتماس النور لا يتم إلا من البر الرحيم ، ولهـٰذا فهم الذين لم يستجيبوا له حتىٰ يكون لهم منه نور . ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ فُصل بينهم ، فأصحاب النور هم في جنات النعيم ، وأصحاب النفاق والضالون عن الهداية هم في نار جهنم والحمد لله رب العالمين . والسور الذي ضرب بينهم ﴿ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ ﴾ باب السور داخله ﴿ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ ، والرحمة جنة واسعة ، فلا يدخلها إلا الخلفاء والوارثون في الدارين . ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ والظاهر هو المشاهد للعيان بالنسبة للكفرة والمشركين ، فهم بطبيعة الحال لا يرون إلا النار ، وذلك لأنهم لم يدخلوا مع الباب الذي باطنه الرحمة (الجنة) ، أي لم ولن يتمكنوا من بلوغ باب الجنة ليروها أو ليدخلوا منه فهـٰذا الأمر فيه حكم مطلق بعدم دخوله إلا لمن كان خليفة في الأرض فأصلح ولم يفسد فيها ولم يسفك الدماء بغير حق . والنار باب فيجاوز فيه المؤمنون ، ويبقىٰ المنافقون علىٰ الصراط في الظلمة ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ من وراء السور ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يعني : ألم نكن معكم في الدنيا ، فيجيبهم المؤمنون أي دنية . ! الدنيا دار فانية ، لم يبق منها إلا العمل الصالح وأنتم لم تفعلوه ولهـٰذا كانت الإجابة بقولهم : ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ يعني : قد

كنتم معنا في الدنيا ، أو في الظاهر . ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قد أصبتم أنفسكم حيث كفرتم في السر (1) .

ولما كان ٱلله هو البر فقد أفاض بالبر علىٰ الخلق والبِر (بكسر الباء) من الخلق تجاه ٱلله البر يعني الصِّدْق والطاعة ، وفي التنزيل : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (2) ، ولكنَّ البرَّ بِرُّ مَنْ آمن بالله ، فليس البر حركات دون نية ولـٰكن أعمال بإقرار ويقين وإيمان بالله بأنه صاحب النعمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (3) فمن نعمة ٱلله عز وجل علينا الهداية إلىٰ الإيمان به ، والتوفيق للتصديق بنبيه ، والإقرار بصحة نبوته ، والاعتراف بصدقه وأمانته ، والإذعان لاتباعه ، والجد في طاعته ، وعصمنا من الضلالة التي هلك فيها عصاة عباده ، وعتاة خلقه ، فالحمد لله علىٰ نعمته علينا في ديننا ودنيانا ، وله الشكر علىٰ إحسانه إلينا في جميع شئوننا ، ونظره لنا فيما يصلحنا ، ويعود علينا بالفوز في معادنا ، والنجاة يوم حشرنا .

وللبِر طريق لمن أراد أن يسلك إلىٰ البَر قَالَ رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ

---

(1) المصدر السابق ، ج4 ، ص 254 .
(2) البقرة ، 177 .
(3) النحل ، 53 .

الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » [1] . ما أجمل الصدق وأعظمه وهو يقود إلىٰ البر ، وما أجمل البر وأعظمه وهو يقود إلىٰ الجنة ، وعليه فمن أراد الجنة عليه بالبر والإحسان والمعروف في طاعة الرحمـٰن الرحيم .

ولأن الصدق هو اتباع للحق قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [2] ، تقوىٰ ٱلله مخافته لا الخوف منه ، فالفرق كبير بين المخافة التي هي التقوىٰ بذاتها ، وبين الخوف الذي هو في معظمه لا يعبر عن إرادة . فنحن المستخلفين فيها نعلم أن ٱلله لم يكن مخيفاً ، فالمخيف هو لا حسن فيه ، والله جميل وصفاته حسان ، ولـٰكن الخوف من الأعمال المنقوصة التي تؤدي بأصحابها إلىٰ حيث لا يرغبون ، ولأن الكمال لله تعالىٰ فإن المؤمنين يخافون من التقصير إن حدث منهم ، ومع أنهم يعلمون أن ٱلله غفور رحيم إلا أنهم ولحرصهم هم يحسبون الحسابات التي تجعلهم في حالة خوف مما عملوا قبل أن يصبحوا من المؤمنين حقاً ، وحتىٰ بعد الإيمان الحق فهم يخشون ٱلله ويتقونه ويتضرعون إليه وهم طائعون . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3] ، الخوف هنا مما يعمل قومهم ، والرجلان يخشيان ٱلله مما يعمل قومهم من منكرات ومفاسد ، ولهـٰذا هما يتقيان ٱلله فلا يعملان وهما اللذان أنعم ٱلله عليهما بدخول الإسلام ، وهـٰكذا يكون التوكل علىٰ ٱلله بتقواه لا بالخوف منه ، أي بمخافته في كل ما أمر به ونهىٰ عنه ، ولهـٰذا المخافة تقوىً وهداية للحق بالحق .

قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ

---

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 16 .

(2) التوبة ، 119 .

(3) المائدة ، 23 .

وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (1) ، الذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم ، هم الذين ليس لهم شفعاء يشفعون لهم ، وذلك لعدم مخافتهم ٱلله في الحياة الدنيا ، فهم عملوا ما عملوا من مفاسد وشرك وضلال ، فلم يؤمنوا بالمرسلين ، ولهـٰذا ليس لهم شفيع ليتم التكفير عن سيئاتهم .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴾ (2) من الذين يخافون ربهم . بطبيعة الحال الملائكة ، والصالحون والمؤمنون الذين يتوبون إلىٰ ٱلله متاباً ، ولـٰكن في هـٰذه الآية المعنىٰ يعود علىٰ الملائكة الكرام الذين هم يفعلون ما يُؤمرون ، والمخافة هنا اتقاء ٱلله وطاعته بالمطلق فيما يأمر به سبحانه جل جلاله . ولهـٰذا لا خوف من ٱلله بل الخوف من العباد الظالمين ، فالله لا يظلم أحداً ، ولـٰكن العباد منهم الظالمون ومنهم الكفرة والمشركون والضالون ، وهـٰؤلاء جميعهم يخافون ، أما الله العادل الودود الرحيم ، يدخل الطمأنينة في النفس فلا يخيف . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (3) خوفاً وطمعاً : خوفًا من عقابه ، وطمعًا في ثوابه . أي لم يكن الخوف منه في ذاته ، بل الخوف بأسباب تعود للفعل البشري المنقوص ، ولهـٰذا فالعودة إلىٰ ٱلله تحقق الطمأنينة والابتعاد عنه اتباع عما أمر به ونهىٰ عنه ، هو الذي فيه المخاوف ومنه الخوف ، فمن يتق ٱلله يأمن ومن لم يتقه يضل ، ومن يضل يعاقب بالشدة .

وكيف يكون ٱلله هو البر الرحيم ويخيف ؟

البر الرحيم لا يخيف في ذاته أبداً ، بل المخيف هو ارتكاب الأعمال

(1) الأنعام ، 51 .
(2) النحل ، 50 .
(3) الأعراف ، 56 .

المضلة ، وعليه الخوف دائماً يكون ممن يظلم ، والله عادل لا يظلم أحداً ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (2) .

والصدق : عماد الأمر ، وبه تمامه ، وفيه نظامه ، وهو تالي درجة النبوة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (3) ، والصادق الاسم اللازم من الصدق ، والصديق المبالغة منه : وهو الكثير الصدق ، الذي الصدق غالبه ، والصادق : من صدق في أقواله وأفعاله . ومن أراد أن يكون ٱلله تعالىٰ معه فليلزم الصدق ؛ فإن ٱلله تعالىٰ قال : (إن ٱلله مع الصادقين) ولهٰذا فالبر صدق ، والصدق : الوفاء لله سبحانه بالعمل .

والبر الصلاح وهو بذلك أساس ما يقوم به الخليفة لأنه المأمور بإصلاح الأرض وإصلاح حال العباد وكأن بر الخليفة بالأرض التي يحيا عليها وإصلاح شأن الخلق القائمين عليها هو من طاعة ٱلله البر ببر الأرض ومن عليها والإصلاح من هٰذا المنطلق كان هدف ورسالة الأنبياء الذين هم قدوة الخلفاء والصالحين ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ

---

(1) النساء ، 40 .
(2) يونس ، 44 ـ 47 .
(3) النساء ، 69 ـ 70 .

عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [1] فالمصلح هو الذي يحقق الخلافة علىٰ الأرض بقدر طاقته معتمداً علىٰ توفيق ٱلله من خلال الرجوع إليه والاسترشاد بهديه ، ومن يفعل ذلك يكن من خلفائه الذين يتمسكون بالمنهج الصحيح الذي لاعوج فيه ، وهـٰؤلاء المصلحون الذين لا يضيع أجرهم في الدنيا بالخلافة ولا في الآخرة بالفوز بالجنة . وهم الذين قال ٱلله فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [2] . أجر ٱلله ثابت بالنية الصادقة ، والفعل المنفذ لها ، وبالتالي لا يمكن أن يؤجل أجره ، وبهـٰذا يجد الخليفة أجرة في انتظاره يوم القيامة الجنة ، إنه الفوز الكبير .

وبهـٰذا فالبر الخير ، والخير يشمل كل وجوه الأعمال الصالحة ، لذا فقد وعد ٱلله فاعلي الخير برده إليهم ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [3] .

و المراد بالخير كل ما هو مطلق بالحسنات ، والخير في الآخرة سيكون موجوداً أكثر مما قدمت أيدي المستخلفين فيها من حسنات . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ لا تخفىٰ عنه خافية في الأرض ولا في السماء ، فإنه لا يخفىٰ عليه القليل ولا الكثير من الأعمال ، وهو ترغيب في الخير لأنه سبحانه تعالىٰ يجازي علىٰ القليل بالكثير و يجازي علىٰ الكثير بالأكثر منه ، ومن هنا فالخير كل ما هو نافع حسن وكل ما يؤدي إليه من قول وفعل ، والخير فيه الفلاح الذي هو مطمح الجميع فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴾ [4] .

---

(1) هود ، 88 .
(2) الأعراف ، 170 .
(3) البقرة ، 110 .
(4) الحج ، 77 .

ومن البر الإنفاق في سبيل ٱلله مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ (1) ، كلُّ ما تقرّب به إلىٰ ٱلله عز وجل من عمل خير فهو إنفاق ، والإنفاق لا ينفع الكافر نهائياً لذا فالله علم المؤمنين كيفية الإنفاق الذي ينتفعون به في الآخرة فقال : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ والذي يحبه الخليفة هو الرزق الحلال والإنفاق منه وهو الحلال ، فإن من أنفق مما أحب كان من الأبرار ، والأبرار في نعيم مقيم لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (2) ، ومن الثواب الذي وصفه ٱلله للأبرار في دار ثوابه : ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (4) . والله بين ما هو البر وكيف يكون وبأي وسيلة يتوسل الإنسان حتىٰ يتوصل إلىٰ البر الذي يستقىٰ من بر البر سبحانه وتعالىٰ فقال : ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ (5) ، فالله تعالىٰ وضح في الآيات ثواب الأبرار ، وفي هٰذه الآية أشار إلىٰ أن من أنفق مما أحب فقد نال البر ، والبر ليس توجه بالجسم تجاه النواحي المقدسة بل بالقلب والإخلاص في العمل فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ

(1) آل عمران ، 92 .
(2) المطففين ، 22 .
(3) الإنسان ، 5 .
(4) المطففين ، 22 ـ 26 .
(5) البقرة ، 177 .

ٱلَّذِينَ صَدَقُوٓاْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (1) ، ففي الآية أكثر أعمال الخير ، وسماها ٱلله البر ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ (2) ، فكل عمل من تلك الأعمال لا يتم إلا بالنفقة من أعز الأشياء إلىٰ النفوس حتىٰ تنفقوا مما تحبون ، وهٰذا يدل علىٰ أن الإنسان إذا أنفق مما يحبه كان ذلك من أفضل الطاعات التي ينال بها البر .

والبر منه العمل المقبول الذي لا شائبة فيه وقد تقدم به صاحبه خالصاً لوجه ٱلله سبحانه وتعالىٰ وهٰذا ما يقوم به الخليفة فيبر الخلق دون أن يطلب جزاء .

قال تعالىٰ في وصفه للأبرار : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنٗا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسٗا قَمْطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسٗا وَلَا زَمْهَرِيرٗا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلٗا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكْوَابٖ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرٗا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلٗا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴾ (3) . إنَّ حرف توكيد ونصب علىٰ أن الأبرار دون أي ظن سيكونون من الوارثين في الجنة ، ولأنه حكم بالمطلق سيكونون من الشاربين من كل لذيذ رائحة ومذاقاً ، ولأن الشاربين من الكأس الممزوج كافوراً لا يكونون إلا في الجنة ، جاء كأس الحق شاهداً علىٰ دخولهم الجنة .

---

(1) البقرة ، 177 .

(2) آل عمران ، 92 .

(3) الإنسان ، 5 ـ 19 .

إن الذين برّوا بطاعتهم ربهم في القول الحق والفعل الحق وأداء فرائضه هي كما هي ، في الزمان والمكان اللائقين بها ، هم الذين يجتنبون معاصيه وينتهون عما نهىٰ عنه ، وهم الذين يشربون من كأس فيه لذة للشاربين . قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ (1) . فالأبرار هم الذين استثناهم البر الرحيم بأعمالهم الحسان من أولئك المجرمين الذين ضلوا ولم يهتدوا إلىٰ الحق ، ولأنهم الأبرار فلهم رزق معلوم متنوع وفيه لذة المذاق الرفيع . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (2) .

وعليه : فالأبرار هم الذين :

1 ـ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ زيادة للطاعة التامة لله تعالىٰ بالصلاة أو الصوم أو التصدق وكل ما من شأنه يسجل من أفعال الخير الحسان ، فهم كلما تحقق لهم فوز في مرضاة ٱلله ازدادوا التجاء إليه وإخلاصاً وتطوعاً في الأعمال الحسان .

---

(1) الصافات ، 40 ـ 51 .

(2) محمد ، 14 ـ 19 .

2 ـ والأبرار هم الذين يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ، أي يخافون العذاب الذي يكتب بأسباب عدم الطاعة لله تعالىٰ ، وذلك اليوم الآتي هو اليوم الذي تجنبه الأبرار بالأعمال الحسان والعبادات المخلصة بالوحدانية لله تعالىٰ ، وقوله : ﴿ كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ لا يعني الماضي بل يعني أن الحكم قد صدر بالأمر (كن) ولم يعد في الزمن المستقبل فليعلم من يعلم أن الأمر قدر صدر والتنفيذ سيكون يوم الحساب ، وعليه فمن أراد السلامة والنجاة فالفرصة لا زالت سانحة لمن يشاء أن يؤمن حتىٰ يكون من المستخلفين الأبرار الذين لهم الوعد الحق بالجنة ، وهو أيضاً حكم بالأمر (كن) قد صدر لا شك ولا ظن في ذلك والحمد لله رب العالمين .

3 ـ والأبرار هم الذين ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أي أنهم يطعمون الطعام لحبهم لله جل جلاله الذي جعل الحسنات تجنىٰ بالأفعال والأعمال الخيرية التي منابتها في إطعام المساكين واليتامىٰ والأسرىٰ .

4 ـ يطعمون الطعام لمن يستحقه دون رغبة إلا في وجه ٱلله فهم يطعمونه ﴿ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ .

5 ـ وحالهم لمن يطعمونهم ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ بل إنهم يريدون مرضاة ٱلله جل جلاله .

6 ـ ولأن الأبرار يخافون عذاب ربهم فلسان حالهم ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ .

والنتيجة :

1 ـ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ .

2 ـ ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ .

3 ـ ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ .

وقد وصف ٱلله تعالىٰ حالهم في الجنة بأنهم :

1 ـ ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ .

2 ـ ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ .

3 ـ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ .

4 ـ ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ .

5 ـ ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ .

6 ـ ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ .

7 ـ ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ .

وهٰذا ثواب ٱلله في الجنة للأبرار الذين بروا عباده في الدنيا وأصلحوا ولم يفسدوا وحققوا الخلافة التي أوجدهم ٱلله من أجلها فقال ٱلله لهم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ ، وذلك لأنهم لم يطلبوا الجزاء ممن قدموا لهم المعروف ولم ينتظروا منهم شكراً .

والبر في العبادات منه الحج المبرور والمبارك من البر الرحيم ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « الْعُمْرَةُ إِلَىٰ الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ » (1) .

وكذلك البر للوالدين من أهم ما يتخلق به المتخلق ببر البر وفي هٰذا من النصوص الدينية التي تجعل الإنسان يتشبث ببرهما لجزيل الثواب ، فقال ٱلله تعال : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ لطيفاً ، ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ ، من

(1) صحيح مسلم ، ج 7 ، ص 71 .

رحمتك إياهما . ومن بيان حق الوالدين قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ . فقرن شكره بشكرهما . وعن معاذ بن جبل ، قال : أوصاني رسول ٱلله ﷺ ، فقال : « لا تعق والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك » . وعن جابر ، قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم » .

تقديم بر الوالدين علىٰ الجهاد والهجرة :

عن عبد الله بن عمرو ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهاد ، فقال : « أحيٌّ والداك » قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد » .

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : جاء رجل إلىٰ النبي يبايعه ، فقال : جئت أبايعك علىٰ الهجرة وتركت أبوي يبكيان ، قال : « فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : هاجر رجل إلىٰ رسول ٱلله ﷺ من اليمن ، فقال له رسول ٱلله ﷺ : « هل باليمن أبواك » . قال : نعم . قال : « أأذنا لك » . قال : لا . قال : « ارجع إلىٰ أبويك فأستأذنهما فإن أذنا لك وإلا فبرهما » .

وعن ابن عباس ، قال : جاءت امرأة ومعها ابن لها ، وهو يريد الجهاد ، وهي تمنعه ، فقال رسول ٱلله ﷺ : « أقم عندهما ، فإن لك من الأجر مثل الذي يريد » .

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : جاء رجل إلىٰ رسول ٱلله ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فقال : « هل من والديك أحد حي . قال : أمي قال : انطلق فبرها » . فانطلق يحل الركاب . فقال : « إن رضا الرب عز وجل في رضا الوالدين » .

وعن ابن مسعود قال : سألت رسول ٱلله ﷺ : أي العمل أحب إلىٰ ٱلله عز وجل ؟ قال : «الصلاة لوقتها» . قلت : ثم أي . قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أي . قال : « الجهاد في سبيل ٱلله » .

قال تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (1) ، هـٰذه معطيات البر بالوالدين ، ومن يبر بوالديه يبره ٱلله برحمته .

وكان الحسن يقول : (دعاء الوالدين ينبت المال والولد) . وسئل الحسن : ما دعاء الوالد للولد . قال : (نجاة) . وعن مجاهد : (ثلاثة لا تحجب دعوتهم عن ٱلله عز وجل : دعوة المظلوم ، ودعوة الوالد لولده ، وشهادة ألا إلـٰه إلا ٱلله) (2) .

وقال رسول ٱلله ﷺ : « يقول ٱلله تعالىٰ : أنا الرحمـٰن وهـٰذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته » (3) .

بر الوالدين من صفات الأنبياء ويذكر القرآن في ذلك نبيين هما : يحيىٰ عليه الصلاة والسلام ، وعيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فقال ٱلله تعالىٰ عن سيدنا يحيىٰ : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ عن سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (5) .

---

(1) الإسراء ، 32 ـ 24 .
(2) بر الوالدين ، ج 1 ، ص 8 .
(3) إحياء علوم الدين ، ج 2 ، ص 58 .
(4) مريم ، 14 .
(5) مريم ، 32 .

وعليه فالبر هو ٱلله ، والبر كل عمل خيِّر يرضي ٱلله ورسوله ، وفي عموم القرآن البر هو ٱلله علىٰ الوجه المطلق ، وسيدنا يحيىٰ وسيدنا عيسىٰ عليهما الصلاة والسلام وصفهما الله بالبر ولٰكن ليس بعموم الصفة ولٰكن بخصوصيتها في حق الوالدين ليحيىٰ ، وللأم مع سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام .

اللهُمَّ يا البرّ اجعلنا من المستخلفين الأبرار الأخيار ، واجعلنا البارين بوالديهم وبكل ما يرضيك ، وأرضَ عنا وعن البنين ، واجعلنا في الدنيا من المتقين الذين يذكرونك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وهم يقولون : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ! واجعلنا يا البرّ من الحامدين الشاكرين المسبحين باسمك الأعظم واجعلنا في الجنة من الوارثين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون !

اللهُمَّ يا البرّ افتح علينا أبواب الخير في كل بر ، واحفظنا من كل شر ، ويسر لنا الأمر وأنت راض عنا في كل ما يفيد وينفع ، واجعلنا من الطامعين في فضلك وجودك وكرمك ، والفائزين به ، ولا تجعلنا من الطامعين في سواك !

اللهُمَّ إنك أنت البرّ الواسع فلا تجعلنا في ضائقة !

التَّوَّابُ جلّ جلاله

التَّوَّابُ « هُوَ الَّذِي يَتُوبُ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، فَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ كُلَّمَا تَكَرَّرَتِ التَّوْبَةُ تَكَرَّرَ الْقَبُولُ ، وَهُوَ يَكُونُ لازِمًا وَيَكُونُ مُتَعَدِّيًا بِحَرْفٍ يُقَالُ : تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ الْعَبْدِ بِمَعْنَىٰ وَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ ، فَتَابَ الْعَبْدُ كَقَوْلِهِ : ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، وَمَعْنَىٰ التَّوْبَةِ عَوْدُ الْعَبْدِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ »[1] .

التوّاب اسمه الذي شاء له أن يكون علىٰ هـٰذا المبنىٰ اللغوي لنتذكر فتعيه آذان واعية ، فقد جعله علىٰ صيغة فعّال ليُذَكِّرَ عباده بأنه : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[2] ، ومعلوم أنها صيغة تدل علىٰ الكثرة ، أما الاستمرار فقد دلت عليه الشدة المؤكدة الموجودة في اسمه جل وعلا (توّاب) وهو الذي لم يزل يتوب علىٰ التائبين ، ويغفر ذنوب المنيبين . فكل من تاب إلىٰ ٱلله توبة نصوحاً ، تاب ٱلله عليه . فهو التواب للتائبين : بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه ، وهو التائب عليهم بعد توبتهم ، قبولاً لها ، وعفواً عن خطاياهم[3] .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4] أي إنه يتوب علىٰ من تاب إليه وأناب .

---

(1) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 195 .
(2) البروج ، 16 .
(3) شرح أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، 57 .
(4) البقرة ، 37 .

التواب كثير الإثابة ، والتواب صفة تلاحق الخطائين الذين يخطئون ويتوبون ، والذين تتكرر خطاياهم وتتكرر توبتهم إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، ولذا فهو التواب بالمطلق .

التواب هو الذي تستمد التوبة منه ، وهي صفة مرسّخة لصفة الرحمـٰن والرحيم والرءوف والودود ، وبهـٰذا تعد صفة إصلاحية للذات الإنسانية .

والتواب عالم بعباده فهو الخبير البصير علم أنهم يأتون السوء كما يأتون الخير ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (1) ، ثم قال لهم مرغباً ومبشراً وراحماً عباده : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ (2) ، فكتب عليهم أن يعملوا عملاً صالحاً ليتوب عليهم ، فما هي هـٰذه الأعمال التي تحقق التوبة :

1 ـ **أول هـٰذه الأعمال وأصلحها الإيمان بٱلله عز وجل** ، واتباع هداه وكل عمل لا يقترن بذلك فهو عمل محبط : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، والإحباط هو إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات ، وأشار التواب إلىٰ نمط العمل المحبط فقال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (4) ، وعلىٰ العبد أن يسعىٰ للتكفير عن عمله المحبط وذلك بالإكثار من الحسنات بعد السيئات ، لأن التواب يكفر السيئات : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ

---

(1) القصص ، 69 .

(2) الفرقان ، 71 .

(3) الأنعام ، 88 .

(4) هود ، 15 ـ 16 .

مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (1) ، ثم أبدل لهم التواب سيئاتهم حسنات بعد التوبة : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) ، فعلىٰ الخليفة أن يحرص أيما حرص علىٰ أن يسود العمل الصالح في أوساط من استُخلف عليهم ، وأن يقبل من المسيء عودة ، فينظر في عمله اللاحق فإذا كان من المخلصين ترك الأخذ بما سبق من عمله ونظر إلىٰ عمله الجديد وجزاه بالخير عليه .

2 ـ **عمل الطاعات** : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (3) ، وهٰذه وإن كانت من الفرائض التي لا يمكن لعبد أن يتركها إلا أن التواب جعل لهٰذه الفروض ثواباً في الدنيا والآخرة ، فلا شك أن الصلاة هي أعظم فرائض الإسلام العملية فقد مدحها ٱلله عز وجل ، وأثنىٰ علىٰ مقيميها في غير ما آية ، فقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (4) ، فبدأ بها قبل غيرها من صفات المؤمنين المفلحين ، ثم ختم بها فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ في ثوابها : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (6) ، أما الزكاة فلها فوائد دنيوية يتحصل من خلالها العبد علىٰ الثواب ففيها تطيب لنفوس

---

(1) محمد ، 2 .
(2) الفرقان ، 70 .
(3) البقرة ، 110 .
(4) المؤمنون ، 1 ـ 2 .
(5) المؤمنون ، 9 ـ 11 .
(6) المعارج ، 34ـ35 .

الفقراء وسد لحاجاتهم وهي إنفاق في سبيل ٱلله وقد خصه التواب بالفضل فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) ، وفيها تقوية لروابط المحبة بينهم وبين الأغنياء لاسيما ذوي القربىٰ ، لأن التواب يأمر بالإنفاق علىٰ ذوي القربىٰ بل جعلهم أول من ينفق عليهم العبد في كل آيات الإنفاق في قوله : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (2) . ولاشك أن ثوابها في الآخرة عظيم من لدن التواب الكريم ، أما دور الخليفة علىٰ الأرض فهو أن يحرص علىٰ الإحسان للمطيعين من العباد ، وأن ينظر إلىٰ أعمالهم هـٰذه بإجلال وتقدير ، وأن يبتعد عن الاستخفاف بأعمال الناس وإن كانت من المفروضات عليهم لأن مثل هـٰذه النظرة يمكن لها أن تفقد العباد إحساسهم بالجدوىٰ فيتحولوا من الطاعة إلىٰ المعصية .

3 ـ **ومنها العفو** : والعفو تسامح وليس إهمالاً أو تنازلاً بغير حق ، وهو المقرب للتقوىٰ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (3) ، والعفو ترك التشدد المنفر للآخرين وترك الإقصاء ، في كل ما يتعلق بممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات ، ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق

---

(1) البقرة ، 261ـ262 .
(2) البقرة ، 177 .
(3) البقرة ، 237 .

الطيب ، لاسيما فيما يدور من جدل وحوار بكل مسألة تتعلق بالدين أو غيره كما يعلمنا المولىٰ سبحانه في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (1) ، وعليه فالعفو صفة استيعابية ، والاستيعاب قيمة احتوائية لا إقصائية ، تعتمد تقبل الآخر والاعتراف بوجوده وبممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته . واستناداً علىٰ مبدأ التقبل يستوعب الخليفة الناس كما هم لأجل أن ينقلهم إلىٰ ما يجب أن يكونوا عليه . ولذا لا تتم دراسة الحـالات ولا تتـم عمليـات التفـاوض ولا تُحـل المشـاكـل بيـن النـاس إلا بالاستيعاب الذي يُحفّز علىٰ التقارب ويؤدي إلىٰ التفاهم .

الاستيعاب يُمكِّن الباحث والمبحوث من الإلمام بالموضوع ومتغيراته السلبية والإيجابية المؤثرة فيه بشكل مباشر أو غير مباشر ، ويُمكِّن من التشخيص الموضوعي ، ولذا علىٰ الخليفة أن لا يغفل عن الآتي :

أ ـ استيعاب الإيجابيات ، والتأكيد عليها ، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة ، تمكنهم من التعرف عليها ، وتحفِّزهم علىٰ العمل بها .

ب ـ استيعاب السلبيات ، وتحديدها ، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل علىٰ إزالتها ، وتنقية الموضوع منها ، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها .

وبناءً عليه لم يكن التحليل الاستيعابي إبقائياً بالتمام ، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها) بل إنه تحليل تثبيتي إزالي ، به تُثبت المعلومات الموجبة ، وتُزال السالبة ، ولهٰذا يتم استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة ، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف ، حتىٰ تتم عمليات التثبيت للموجب المُفضَّل ، والإزالة للسالب غير المفضل .

---

(1) آل عمران ، 159 .

الاستيعاب قيمة احتوائية ، تقبل بالاختلافات وتعمل علىٰ احتوائها . فمن طبيعة الخلق أنهم لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتىٰ في الرغبات والحاجات ، ولا في درجة الفهم والمعرفة ، ولذا فمن الضروري أن يقع الاختلاف الذي يستوجب التقدير ، حتىٰ تتمم الفروق الفردية بين الناس بعضها البعض . ولهـٰذا كل مفردة هي في حالة نقص ، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب . وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين الناس هي السائدة ، ولأجل ذلك فإن قيم ممارسة الفضائل الحسان وحدها التي تمكن من الاستيعاب . وبدونها لا يمكن أن يتحقق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات .

الاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد علىٰ القيم الآتية :

ـ **الفهم** : فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها ، من حيث تاريخها ، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب ، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها .

ـ **التفهُّم** : تفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالعباد ، ومراعاة آثارها علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي والمجتمعي أو الإنساني .

ـ **الاعتراف** : الاعتراف بالناس من حيث أن لهم حقوقاً ومن حقهم أن يطالبوا بها ويمارسوها . وأنّ عليهم واجباتٍ فليقدموا علىٰ آدائها . وأنّ عليهم مسؤولياتٍ فلا يتأخرون عن حمْلها ، وتحمّل ما يترتب عليها من أعباء .

ـ **التقدير** : تحسيس الأفراد بأن لهم قيمة في ذواتهم ، وأنهم مُقدَّرون في أنفسهم وفي قراراتهم ، ومشاعرهم وخصوصياتهم ، وفيما يرغبون أو يقبلون أو يرفضون .

ولذا فالخليفة يدعو الخلق إلىٰ الدين الحق بالرفق واللطف ، كما قال

تعالىٰ : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [1] ، ويجب أن يكون العفو شعار الخليفة ودثاره لما فيه من روح المسامحة التي تسهم في تهيئة سبل الحياة من خلال إقامة التواصل ونبذ القطيعة ، وكذلك فإن العفو يفتح أفق الحوار ويسمح للعقل بالحرية في التفكير مما يسهل علىٰ الخليفة القيام بأمر الخلافة .

4 ـ **الإقراض** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [2] ، إن حرص التواب علىٰ الإثابة علىٰ الإقراض هو بمثابة درس للخليفة فيجب عليه أن يفهم معنىٰ استخلافه لاسيما في أمر المال فلا يجعله حكراً عليه فيبخل به ، ولا يجعله سائباً فيضيع ، وإنما يكون وسطاً بين ذلك كما علمه التواب : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ [3] .

---

(1) النحل ، 125 .

(2) البقرة ، 282ـ283 .

(3) الإسراء ، 29 .

5 ـ **الإنفاق في غير الفرض** وتنحصر في الصدقات التي قرنها التواب بقبول التوبة فقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) ، وهـٰذه الصدقات محصية إحصاءً دقيقاً من التواب لأجل الجزاء بالأحسن : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (2) ، ومن أبرز مهام الخليفة علىٰ الأرض التي استخلف عليها أن يكون منفقاً علىٰ المحتاج من العباد ، وذلك بتحري المحتاج الحقيقي ، وعليه تجنب الإنفاق في غير محله ، ونقول : يتحرىٰ لأن المحتاج الحقيقي في الغالب الأعم يتعفف ولا يُظهر حاجته ، فيجب علىٰ الخليفة تحري هـٰؤلاء لكي ينطبق عليه وصف التواب بالإضافة : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، فالخليفة يجب أن يكون عالماً وليس جاهلاً ، هنا وجب أن يكون التحري من مهماته الأساسية في هـٰذا المجال ، وبخلاف ذلك سيكون إنفاق الخليفة في غير محله فيذهب المال إلىٰ غير المحتاجين ويصبح كما وصفه التواب متداولاً بين الأغنياء أنفسهم : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (4) .

---

(1) التوبة ، 104 .
(2) التوبة ، 121 .
(3) البقرة ، 273 .
(4) الحشر ، 7 .

6 ـ **العمل لمصالح الناس في الدنيا** : قال تعالىٰ : ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (1) . أي عمل خير يجازي التواب عليه العباد القائمين به ، ولذا فمن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، والشكر عرفان بالفضل الذي هو بالمطلق من عند ٱلله عز وجل ، وهو بين الناس في حالة تبادل ، ولهٰذا فالعمل الصالح صفة رئيسة للاستخلاف في الأرض ، فمن أراد أن يكون من المستخلفين فعليه بالإصلاح في الأرض ثم الاستصلاح والفلاح والإعمار دون إفساد ولا سفك دماء بغير حق . قال تعالىٰ : ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ (2) ، هنا يأتي دور الخليفة الذي يجب عليه العمل الجاد من أجل تحقيق الخير والتسامح والتواد ، وأن يكون له يد في كل ما من شأنه أن يحقق عدلاً وتعاوناً علىٰ أفعال الخير وأعماله .

7 ـ **العدل** : قيمة بينيّة تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر ، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن . تؤسس قيمة العدل علىٰ إعطاء كل ذي حق حقه . لذا فهي قول حق وفعل ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ (3) ، قال : إذا حكمتم بين الناس ولم يقل إذا حكمتم الناس . فالذين يريدون أن يحكموا الشعوب باسم الدين ، فالدين لا ينص علىٰ حكم الناس ، بل ينص علىٰ أن يكون الحُكم بينهم بقوله تعالىٰ : (وأمرهم شورىٰ بينهم) جاء الأمر هنا مطلقاً ، والأمر هو كل ما يتعلق بالناس ومصائرهم ، (السلم والحرب ، والسياسة الداخلية والخارجية ، الزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالإنتاج ووسائله) . قال تعالىٰ : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ

---

(1) سبأ ، 13 .

(2) سبأ ، 11 .

(3) النساء ، 58 .

شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1) ، وليس للخليفة إلا أن يعمل بالعدل وينشره بين من استخلف من بينهم لما له من فضائل فهو وجه من وجوه تقوىٰ ٱلله الذي قال في محكم كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (2) ، وهو المحقق للمساواة من خلال إقرار الأحكام العادلة التي هي من قضاء ٱلله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (3) ، وفي العدل تكون الحياة أكثر سعادة واستقراراً وأمناً وذلك من خلال تطبيق القصاص وعدم التساهل فيه لأنه يحقق كل ذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (4) ، لذا يجب علىٰ الخليفة أن يعي ما في العدل من فوائد ، فيجب عليه أن يكون عادلاً في إقرار القوانين ، وفي تنفيذها ، وفي اختيار العباد المؤهلين لإقامة العدل بين الناس ، فلا يكون الاختيار إلا بعد وثوق تام بصدق السريرة ، وإخلاص العمل ، وصلاح السيرة .

8 ـ **نصرة الذين آمنوا** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (5) ، وهـٰذا دور الخليفة في الأرض أن ينصر عباد ٱلله بالقول والفعل ، فبالقول بأن يكون

---

(1) النساء ، 135 .
(2) المائدة ، 8 .
(3) المائدة ، 45 .
(4) البقرة ، 179 .
(5) الأنفال ، 72 .

مخلص النصيحة صادق اللسان معهم فلا يماريهم علىٰ حساب الحق فيكون لهم ناصحاً أميناً ، وأن يرشدهم إلىٰ التي هي أحسن وأصوب ، قال تعالىٰ : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (1) ، أما بالعمل فيكون بالانتصار بعدم تفشي الظلم لأن التواب الذي استخلفه في الأرض ليس بظلاَّم ، أو بالانتصار لمن ظلم منهم بالحق ودون إسراف ، وأن لا يتأخر عن تأدية الواجبات العظام في كل ما أمر ٱلله به ونهىٰ عنه دون أن يظلم أحداً . قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (2) .

9 ـ **بر الوالدين** : قال تعالىٰ : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (3) .

وكل هٰذه الأعمال وغيرها من الصالحات هي لصالح العبد يحصيها التواب له ليجزيه يوم القيامة بها ، قال تعالىٰ : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ (4) .

لٰكن رحمة التواب أوسع من حصر التوبة بالعمل ، فجعل من كرمه علىٰ عباده الاستغفار يقابل العمل الذي يؤدي إلىٰ التوفيق للتوبة من الذنب : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (5) ، وغير ذلك

(1) الأعراف ، 68 .
(2) الشورىٰ ، 39ـ41 .
(3) العنكبوت ، 8 .
(4) ال عمران ، 195 .
(5) النساء ، 110 .

من الآيات الدالة علىٰ أنه تعالىٰ يغفر الذنوب ويتوب علىٰ من يتوب وهـٰذا من لطفه بخلقه ، فهو اللطيف بعباده الذي يعلم ما في صدور عباده من خير أو شر ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) ، فيوفق من يشاء للتوبة ويمنع من يشاء لا لبغض أو رغبة في إيقاع العذاب ، ولا كيد بالعباد ، وإنما لأنه عالم بالمخلص من غير المخلص : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (2) ، والخليفة يجب أن ينزه نفسه عما تحمل النفوس من أضغان وحقد وكراهية ، ولا يجعل أحدها سبباً في منع قبول التوبة والتراجع عن الخطأ من بعض العباد ، وعليه أن يجعل الإخلاص في العمل هو المقياس الذي يميز به الناس فيقرب المخلص ويقبل منه ويبعد الخائن والغادر والغشاش عنه ولا يقبل منه قولاً أو عملاً إلا أن يتوب توبة حقيقية صادقة لله رب العالمين .

والتواب يتوب علىٰ عباده رحمة منه فهو الرحيم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) ، وواضح أن إتباع اسم الرحيم لاسم التواب فيه دلالة واضحة علىٰ أن التوبة إنما هي رحمة من التواب الرحيم ، وهي رحمة بالعبد الذي تصيبه العلل فتؤدي به إلىٰ الخطأ والزلل ، فهي رحمة خالق خبير يعلم عن العبد ما فيه وهو أنه :

أ ـ **هلوع** : أي لا يَصْبِرُ علىٰ خَيْرٍ ولا شَرٍّ حتىٰ يَفْعَلَ في كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرَ الحَقِّ (4) ، ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ (5) ، وعلىٰ الخليفة أن يفهم هـٰذه

---

(1) الملك ، 14 .
(2) النساء ، 146ـ147 .
(3) التوبة ، 118 .
(4) تاج العروس ، ج 1 ، ص 6531 .
(5) المعارج ، 19 .

الخصلة في نفسه وفي غيره ، فيعامل العباد معاملة العارف بهلعهم من حيث صبره عليهم وإدراكه لما يصيبهم من علل تؤدي بهم إلىٰ الوقوع في الخطأ .

ب ـ **عجول** : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ (1) ، والعجل شكل من أشكال الضعف ، إما أمام رغبة يتعجل في تحقيقها ، أو في قول يسبق إلىٰ النطق به وهـٰذا محاسب عليه كما الفعل لأن المحصي جل وعلا يقول : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (2) ، وعلىٰ الخليفة أن يتأنىٰ في النظر إلىٰ الأمور وأن يتأنىٰ في الحكم علىٰ الأشياء حتىٰ لا يسمح للعجلة بأن توقعه بما لا يريد التواب له أن يكون فيه من فعل أو قول .

ج ـ **جزوع** ، وهو قلة الصبر ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ (3) ، والتواب يدعو إلىٰ الصبر علىٰ العسر والضيق والفاقة والمرض ، ويمني الصابرين بحسن الجزاء : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (4) ، لذا وجب علىٰ الخليفة أن يكون صابراً وأن يُعلِّم من معه الصبر علىٰ ما تجزع النفس منه .

د ـ **يؤوس** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ (5) ، يؤوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظنّ بربه ، ويؤوس من زوال ما به من المكروه قنوط بما يحصل له من ظنّ دوامه ،

---

(1) الإسراء ، 11 .

(2) ق ، 18 .

(3) المعراج ، 20 .

(4) البقرة ، 155 .

(5) الإسراء ، 83 .

وهما صيغتا مبالغة يدلان علىٰ أنه شديد اليأس عظيم القنوط (1) ، واليأس من أمراض الروح الهدامة التي يجب علىٰ الخليفة محاربتها وإلا فشل في مهمة الاستخلاف ، لأن اليأس يمنع من القيام بمهمة إعمار الأرض التي هي المهمة الأساسية للخليفة .

هـ ـ **منوع** : أي مانع للخير : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (2) ، وإذا كثر ماله ، ونال الغنىٰ تراه يبخل علىٰ المحتاج ، فلا ينفق في سبيل الله ، ولا يقرض محتاجاً مع توصية التواب له بذلك ونسبة القرض إليه بقوله : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (3) ، وذلك كله لأنه يحب المال حباً شديداً يجعله يمتنع عن إتيان المستحق لبعض هٰذا المال وإن قل : ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (4) ، وعلىٰ الخليفة أن لا ينظر إلىٰ مابين يديه من المال علىٰ أنه الملك المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد ، بل يجب عليه أن يقوم بمهمة الإشراف علىٰ إنفاق هٰذا المال فيما يريد التواب منه فيجعل للمحتاج نصيباً ويجعل لنفسه نصيباً يساعده علىٰ مهمة الاستخلاف .

و ـ **ضعيف** : قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (5) ، وضعف الإنسان أمر بدأ مع خلق آدم ، فقد ضعف آدم أمام الشيطان فاستجاب لدعوته بمخالفة الخالق : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا

---

(1) فتح القدير ، ج 6 ، ص 363 .
(2) المعارج ، 21 .
(3) الحديد ، 11 .
(4) الفجر ، 18 ـ 20 .
(5) النساء ، 28 .

ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [1] ، ثم ضعف ابن آدم أمام رغبته الدنيوية : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [2] ، والآيات التي توضح صور الضعف الإنساني كثيرة وكلها تشير إلىٰ أن الإنسان غير قادر علىٰ أن يكون قوياً بالمطلق لأنه ليس القوي المطلق ، فالقوي المطلق هو الله فكان لابد أن يظهر الضعف فيمن سواه ، أما الخليفة فيجب أن يحرص علىٰ استلهام القوة من القوي المطلق وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وأن يتحرىٰ الحق فمن الحق تأتي القوة .

والتواب يريد التخفيف عن العباد بهٰذه التوبة التي يهبها لمن يشاء لأنه : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [3] ، فقد رحمنا التواب فخفف علينا قيام الليل : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ

(1) الأعراف ، 19 ـ 22 .
(2) المائدة ، 27 ـ 31 .
(3) البقرة ، 185 .

خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (1) .

كما أباح لنا التمتع بغرائزنا لعلمه بالضعف الحاصل عند الإنسان في مواجهة غرائزه فلم يمنعنا من شهوة النساء ولا من شهوة الطعام بالحلال ، قال تعالىٰ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (2) .

ومن التخفيف ما كان في الفروض فما من فرض إلا وتجد معه تخفيفاً لغير القادر ، فالصلاة تُقصر للمسافر رحمة من التواب : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (3) ، والصيام يؤجل للمسافر أو المريض : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (4) ، والحج للمستطيع فقط ولو كان لزاماً علىٰ القادر وغير القادر لأصيب العباد بعناء شديد مادي وجسدي ومعنوي : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (5) ، والزكاة لمن يملك مالاً مجمداً وخارج حاجته وليس من ماله

(1) المزمل ، 20 .
(2) البقرة ، 187 .
(3) النساء ، 101 .
(4) البقرة ، 183ـ184 .
(5) آل عمران ، 96ـ97 .

الذي ينفقه علىٰ أهله وعياله : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) ، من هـٰذه الآيات يجب أن يعي الخليفة دوره في التخفيف عن العباد فلا يتشدد في المعاملات ، وأن ينهج نهج ربه في التماس العذر للمضطر وغير القادر ، وأن يتحرىٰ أسباب ذلك لكي يُسهِّل علىٰ أصحاب الضرورة حياتهم .

والتوّاب يتوب علىٰ عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه ، بالرجوع والنَّدم علىٰ ما فَرَط فيه (2) ، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) ، ومن فضله أنه يقبل التوبة ويتبعها بالعفو العام المطلق أي أن لا يكون للذنب السابق أثر في اللاحق من الأعمال الصالحة للعبد إن لم يرجع : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (4) .

والتواب إذ يتوب علىٰ العبد إنما ينقذه من المعاصي : ﴿ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (5) يعني : الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلىٰ ما يحب من العفو عنه ، جاء بالرحيم بعد ذلك للإشارة إلىٰ الرحمة المنجية من العذاب ، والتواب هو المنجي من عاقبة السوء التي تلحق بالمصرِّين علىٰ السيئة وذلك بالتوبة علىٰ المؤمنين من العذاب : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (6) ، والنجاة تكون بالرحمة ، وتختص بالقليل من الذين صدقوا الإيمان : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ

---

(1) الأعراف ، 156 .
(2) تهـذيب اللغة ، ج 5 ، ص 26 .
(3) النور ، 10 .
(4) الشورىٰ ، 25 .
(5) البقرة ، 54 .
(6) الأعراف ، 64 .

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (1) ، وفي هـٰذه المنجاة حكمة عظيمة تتمثل في كونها عبرة للعباد لكي يتأمل ويدرك حاجته إلىٰ التوبة المنجية : ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (2) .

والتواب هو الذي يرجع إليه تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرىٰ بما يظهر لهم من آياته ويسوق إليهم من تنبيهاته ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، حتىٰ إذا اطلعوا بتعريفه علىٰ غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إلىٰ التوبة فرجع إليهم (3) . قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (4) ، يقول : وأنا الذي أرجع بقلوب عبيدي المنصرفة عنِّي إليَّ ، والرادُّها بعد إدبارها عَن طاعتي إلىٰ طلب محبتي ، والرحيم بالمقبلين بعد إقبالهم إليَّ ، أتغمدهم مني بعفو ، وأصفح عن عظيم ما كانوا اجترموا فيما بيني وبينهم ، بفضل رحمتي لهم . فييسر لمن يشاء أسباب التوبة ويمنع من يشاء ، ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (5) ، فالتواب هو الذي يهب التوبة لمن يشاء من عباده ويمنع من يشاء ، فهو الوهاب الذي يوفق من أحب من عباده لفعل ما يرضاه من أعمال ويسهل له القيام بها فيجعلها من أسباب قبول توبته . وهو قادر علىٰ ذلك لأنه القدير علىٰ أن يخلق الإنابة والرجوع في قلب المسيء ويزين جوارحه الظاهرة بالطاعات بعد ما لوثها هو بالمعاصي خطيئات (6) ، فالإنابة هي أساس التوبة ومعناها الرجوع إلىٰ ٱلله

---

(1) الأعراف ، 72 .

(2) العنكبوت ، 15 .

(3) أسماء الله الحسنىٰ ، ص 99 .

(4) البقرة ، 160 .

(5) آل عمران ، 128ـ129 .

(6) تفسير حقي ، 1 ، 308 .

الذي يهدي من أناب أمره إلىٰ الحي القيوم : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (1) ، والإنابة ، تأتي بعد ذنب يتوب منه العبد خوفاً من ربه وطاعة له بعد تدبر ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (2) ، أو فتنة ، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (3) ، هناك مجموعة روايات في هـٰذا الأمر ولنأخذ منها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « قَالَ سُلَيْمَانُ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ تِسْعِينَ امْرَأَةً ، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللَّهِ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا ، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ ، وَايْمُ الذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، لَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ » (4) ، فذلك قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، وهناك قول آخر : يقال بسبب مرض شديد ألقاه ٱلله عليه ، ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ ﴾ منه جَسَداً وذلك لشدة المرض ثُمَّ أَنَابَ أي رجع إلىٰ حال الصحة (5) .

والتواب هو المتفرد بقبول توبة التائبين من عباده ، ولا يشركه في ذلك أحد ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (6) . وفي الآية إشارة واضحة إلىٰ تفرده سبحانه بفعل التوبة وذلك واضح في تأكيد الاسم الظاهر (الله) بالضمير الظاهر (هو) مما يدلل ولاشك علىٰ قدرته علىٰ القيام بالتوبة وغيرها . ويذكر الفخر الرازي عدة فوائد لإيراد هو في الآية هي : « قوله : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ ﴾ في فوائد :

---

(1) الرعد ، 27 .

(2) ق ، 33 .

(3) ص ، 34 .

(4) صحيح البخاري ، ج 22 ، ص 68 .

(5) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 193 .

(6) التوبة ، 104 .

ـ **الفائدة الأولىٰ** : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ ﴾ تنبيه علىٰ أن كونه إلـٰهاً يوجب قبول التوبة ، وذلك لأن الإلـٰه هو الذي يمتنع تطرق الزيادة والنقصان إليه ، ويمتنع أن يزداد حاله بطاعة المطيعين وأن ينتقص حاله بمعصية المذنبين ، ويمتنع أيضاً أن يكون له شهوة إلىٰ الطاعة ، ونفرة عن المعصية ، حتىٰ يقال : إن نفرته وغضبه يحمله علىٰ الانتقام ، بل المقصود من النهي عن المعصية والترغيب في الطاعة ، هو أن كل ما دعا القلب إلىٰ عالم الآخرة ومنازل السعداء ، ونهاه عن الاشتغال بالجسمانيات الباطلة ، فهو العبادة والعمل الحق والطريق الصالح ، وكل ما كان بالضد منه فهو المعصية والعمل الباطل ، فالمذنب لا يضر إلا نفسه ، والمطيع لا ينفع إلا نفسه كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (1) ، فإن كان الإلـٰه رحيماً حكيماً كريماً ولم يكن غضبه علىٰ المذنب لأجل أنه تضرر بمعصيته ، فإذا انتقل العبد من المعصية إلىٰ الطاعة كان كرمه كالموجب عليه قبول توبته . فثبت أن الإلـٰهية لما كانت عبارة عن الاستغناء المطلق ، وكان الاستغناء المطلق ممتنع الحصول لغيره تعالىٰ ، كان قبول التوبة من الغير كالممتنع إلا لسبب آخر منفصل ، أو لمعارض أو لمباين .

الفائدة الثانية : في هـٰذا التخصيص هو أن قبول التوبة ليس إلىٰ رسول ٱلله ﷺ إنما إلىٰ ٱلله الذي هو يقبل التوبة تارة ويردها أخرىٰ . فاقصدوا ٱلله بها ووجهوها إليه ، وقيل لهـٰؤلاء التائبين اعملوا فإن عملكم لا يخفىٰ علىٰ ٱلله خيراً كان أو شراً » (2) .

واسم ٱلله التواب يدل باللزوم علىٰ أنه الحي القيوم : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(1) الإسراء ، 7 .
(2) تفسير الرازي ، ج 8 ، ص 143 .

ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [(1)] ، لما في الاسم من معنىٰ الاستمرار فهو توّاب لمن يتوب بدوام طلب التوبة فهو حي قيوم ، وأنه سميع بصير يسمع توبة التائب سرية كانت أم علنية : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [(2)] ، وأنه عالم يعلم التوبة الحق فيقبلها ، ويعلم التوبة المزيفة فيردها علىٰ صاحبها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [(3)] ، ويدل علىٰ القدرة فهو القادر علىٰ قبول التوبة في كل وقت ومن كل العباد في وقت واحد أو في أوقات مختلفة وهـٰذا كله من قدرته سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك قال : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [(4)] ، وعلىٰ الرأفة : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(5)] ، وعلىٰ العفو : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [(6)] ، وعلىٰ الرحمة : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [(7)] ، وعلىٰ الحكمة : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [(8)] ، وغير ذلك من أوصاف الكمال التي يجب علىٰ الخليفة تحري معانيها والسعي جاهداً للعمل بها فيحرص علىٰ أن يكون حياً بمعنىٰ الحضور الدائم لخدمة العباد وأن لا يكون متكاسلاً أو عاجزاً عن القيام بأمرهم ، وأن يمتلك القدرة التي تؤهله لذلك ،

---

(1) آل عمران ، 2 .
(2) المجادلة ، 1 .
(3) فاطر ، 38 .
(4) آل عمران ، 29 .
(5) النور ، 20 .
(6) النساء ، 99 .
(7) النساء ، 16 .
(8) النساء ، 26 .

وأن يتحلىٰ بصفة الرأفة فلا يكون جباراً لأنه لا يحصل من التجبر إلا علىٰ الخيبة : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [1] ، وأن يتحلىٰ بصفة العفو وأن يكون قادراً عليه ، وكل ذلك بحكمة يستمدها من حكمة من استخلفه في الأرض ليصلح فيها ولا يفسد .

والتواب يدل علىٰ كثرة ما يتوب به علىٰ عباده ، وهٰذه المعادلة ، أي كثرة الذنب مقابل كثرة التوبة ، إنما هي من تقدير العالم بخلقه الذي يعلم بكثرة خطأ عباده ، وهو ما ذكره المصطفىٰ ﷺ : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » [2] ، والكثرة تدل ولا شك علىٰ كرم التواب حيث تأتي الشدة في التواب (فعّال) للدلالة علىٰ كثرة من يتوب عليهم ، ولأنه يُكثر في قبول التوبة بحيث ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه [3] ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [4] ، هٰذا من جانب ولأنه يتوب علىٰ كثير الذنوب من جانب آخر ، فالتواب هو الذي يغفر الذنوب جميعاً ليتوب علىٰ عبده من المسرفين الذين أكثروا من الخطايا : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [5] .

التواب متصل التوبة ، أي مثوبته لا تنقطع أبداً ، والتواب استجابة لفعل خيرٍ ، وطلب صادق ، ونية طيبة ، ونفس ودودة محبة للآخرين ومتعاونة معهم فيما يفيد الجميع .

---

(1) إبراهيم ، 15 .

(2) سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 401 .

(3) تفسير حقي ، ج 17 ، ص 460 .

(4) النور ، 31 .

(5) الزمر ، 53 .

والتواب يقبل التوبة ، فما هي التوبة التي يقبلها التواب ؟ وما أنواعها ؟

التَّوْبةُ الرُّجُوعُ من الذَّنْبِ ، قال النبي ﷺ : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » [1] ، وتابَ إِلىٰ اللّهِ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبَةً ومَتاباً أَنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إِلىٰ الطاعةِ ، وأصل التّوبة في اللغة النّدم ، فالله التّائب علىٰ عبده يقبل ندمه والعبد تائب إلىٰ ٱلله يندم علىٰ معصيته ، والتّوبة رجوع عما سلف بالنّدم عليه ، والتّائب صفة مدح لقوله « التّائِبون العابِدون » فلا يُطلق اسم تائب إلاّ علىٰ مُستحق للمدح من المؤمنين ، وقيل حقيقة التّوبة الرّجوع ، والأوّاب الرّاجع عن ذنبه والأوْبَة الرّجوع [2] ، ومن المعاني الدالة علىٰ التوبة الأوبة مما يكرهه ٱلله إلىٰ ما يرضاه قال تعالىٰ : ﴿ وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [3] .

والتوبة من العبد ومن الرب ، فتوبة العبد إلىٰ ربه أوبته مما يكرهه ٱلله منه بالندم عليه ، والإقلاع عنه ، والعزم علىٰ ترك العود فيه ، وتوبة الرب علىٰ عبده : عوده عليه بالعفو له عن ذنبه ، ومحو العقوبة ، مغفرة له من التواب .

والتوبة علىٰ نوعين :

الأول : أن يوقع التواب في قلب عبده التوبة والإنابة إليه ، فيقوم بالتوبة ، ومن شروطها الإقلاع عن المعاصي ، والندم علىٰ فعلها ، والعزم علىٰ أن لا يعود إليها ، واستبدالها بعمل صالح .

الثاني : توبته علىٰ عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها ، فإن التوبة النصوح تجبُّ ما قبلها [4] . قال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً

---

(1) سنن ابن ماجة ، ج 12 ، ص 458 .

(2) المخصص ، ج 8 ، ص 90 .

(3) البقرة ، 128 .

(4) شرح أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 157 .

مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] .

والتوبة النصوح هي أن لا يعُودَ إلىٰ ما تاب عنه [2] ، وهي التوبة التي حضنا التواب عليها فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] .

والتوبة تختلف باختلاف التائبين ، فتوبة سائر المسلمين الندم والعزم علىٰ عدم العود ورد المظالم إذا أمكن ، ونية الرد إذا لم يمكن ، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء ، والفتور في الأعمال ، والإتيان بالعبادة علىٰ غير وجه الكمال ، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات [4] .

ولابد من الإشارة إلىٰ نوع من التوبة أكرم التواب أمة محمد بأن أعفاها منه ، وهي توبة كانت زمن بني إسرائيل وأشار التواب إليها فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [5] ، فاقتلوا أَنفُسَكُمْ الفاء للتعقيب ، والمتبادر من القتل ، القتل المعروف من إزهاق الروح وعليه جمع من المفسرين والفعل معطوف علىٰ سابقه ، فإن كانت توبتهم هي القتل إما في حقهم خاصة ، أو توبة المرتد مطلقاً في شريعة موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فالمراد بقوله تعالىٰ فَتُوبُواْ اعزموا علىٰ التوبة ليصح العطف وإن

---

(1) البقرة ، 128 .
(2) معجم العين ، ج 1 ، ص 193 .
(3) التحريم ، 8 .
(4) تفسير الآلوسي ، ج 2 ، ص 10 .
(5) البقرة ، 54 .

كانت هي الندم والقتل من متمماتها كالخروج عن المظالم في شريعتنا فهو في هٰذا السياق علىٰ معناه ، وظاهر الأمر أنهم مأمورون بأن يباشروا كل قتل نفسه ، وفي بعض الآثار أنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً ، ورُوي أنه أمر من لم يعبد العجل أن يقتل من عبده ، والمعنىٰ عليه استسلموا أنفسكم للقتل ، وسمىٰ الاستسلام للقتل قتلاً علىٰ سبيل المجاز ، والقاتل إما غير مُعيَّنٍ ، أو الذين اعتزلوا مع هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والذين كانوا مع موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وجملة القتلىٰ سبعون ألفاً ، وبتمامها نزلت التوبة وسقطت الشفار من أيديهم ، وأنكر البعض أن يكون ٱلله تعالىٰ أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم وقالوا : لا يجوز ذلك عقلاً إذ الأمر لمصلحة المكلف وليس بعد القتل حال تكليف ليكون فيه مصلحة ، أما علموا بأن لنفوسنا خالقاً بأمره نستبقيها ؛ وبأمره نفنيها وأن لها بعد هٰذه الحياة التي هي لعب ولهو ، حياة سرمدية وبهجة أبدية ، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان ، وأن قتلها بأمره يوصلها إلىٰ حياة خير منها [1] .

وإذا عرفنا حقيقية التوبة فلابد من السؤال ؛ لمن تتحقق التوبة ؟

1 ـ لكل تائب لأن التواب عم العباد برحمته فشملهم أجمعين بقبول التوبة إذا كانت خالصة فقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] . ويلاحظ في الآية الكريمة أنه تعالىٰ بدأ بذكر اسم ٱلله ، ثم قال هُوَ يَقْبَلُ التوبة ، وفي ذلك إشارة إلىٰ « أن كونه إلٰهاً يوجب قبول التوبة ، ويجب علىٰ الخليفة أن يفهم هٰذه المعاني ، فيقبل التوبة من الجميع لا يمنعه بغض ولا حقد ، وأن ينأىٰ بنفسه عن الانتقام الباطل وهو الذي يصدر عن هوىً سرعان ما يقود إلىٰ الندم .

(1) تفسير الآلوسي ، ج 1 ، ص 318 .
(2) التوبة ، 104 .

2 ـ للمتقي الذي يضطر لأي سبب من الأسباب إلىٰ الوقوع في الذنب : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، والاضطرار هو : « كون الشيء بحيث لا يقدر الإنسان علىٰ الامتناع منه بسبب موجب لذلك » (2) ، وهٰذه الحالة تحدث للمتقي أكثر من غير المتقي ، لأن غير المتقي لا يكون مضطراً بل هو مختار بنفسه لهٰذا العمل أو ذاك ، فإذا أكل من محرم فباختياره في الغالب ، أما المتقي فلا يأكل إلا مضطراً : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، هنا يتضح فعل التواب مع المضطر ، الذي خصه التواب بآية في الذكر الحكيم فقال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (4) ، وهي رحمة من عالم خبير بخلقه ، يعلم أنه مخلوق يصاحبه الخطأ والزلل في جل أعماله ، ضعيف أمام حاجاته الغرائزية والفطرية التي فُطر عليها خلقه ، ما يدفعه إلىٰ الاضطرار لفعل ما لا يرضاه التواب ، هنا تأتي الرحمة بقبول توبة المضطر . أمام حاجاته الغرائزية .

3 ـ **النادم** : الندم هو الشعور بالأسف لفعل سابق ورغبة صادقة في عدم العودة إليه لقباحته أو لتعارضه مع صراط التواب الرحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

(1) الحجرات ، 12 .
(2) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 66 .
(3) البقرة ، 173 .
(4) النمل ، 62 .

تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فالوارد في الآية دعوة صريحة إلىٰ ترك العمل السيئ المتمثل بالظن السيّئ ، والتجسس بغير حق ، والغيبة ، فجعلها ٱلله من قبيح العمل حيث جاء التشبيه بما تشمئز منه النفس وذلك باستخدام صورة أكل لحم الميت لما فيها من قبح وذلك ليستشعر العبد قبح هـٰذه الأفعال المخصوصة في الآية ، ثم قال واتقوا ٱلله وتلك التقوىٰ تكون بترك ما أمرتم باجتنابه والندم علىٰ ما وجد منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم تاب ٱلله عليكم بتيسير ترك ذلك وتقبيحه في نفوسكم ، ومثله قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، والخليفة وبموجب ما يملك من علم يدله علىٰ النادم الصادق عليه أن يقبل توبة هـٰذا النادم ويعفو ويتسامح ويغفر ، وأن يجعل ما سلف منه من عمل ندم عليه في حساب أفعاله الحسنة فلا يعيره به ولا يجعله مانعاً لخير قدر لهـٰذا العبد .

4 ـ لمستغفر تائب ، يقول التواب : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (3) ، فقدم الاستغفار ثم ألحقه بالتوبة لأن القائل قد يقول : أستغفر ٱلله وليس بتائب ، فقد يقول : أتوب وليس في قلبه توبة كما تدل علىٰ ذلك الأفعال فهو كاذب ، لأن التوبة اسم للرجوع والندم ، أما الاستغفار فإنه فعل قولي ما أن ذكره حتىٰ أصبح صادقاً ، لذلك قال واستغفره إنه كان تواباً وفيه دلالة واضحة علىٰ ضرورة اقتران الاستغفار بالتوبة ، وهـٰذه التوبة لها نصيب عظيم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا هي من موجبات نعم الخالق علىٰ عباده ، فهي التي

(1) الحجرات ، 12 .
(2) البقرة ، 159ـ160 .
(3) النصر ، 3 .

تهدي العبد للرزق الحلال ويُبارك له فيه : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (1) .

وهي التي تأتي بالغيث الذي غالباً ما يكون بعد الانحباس لأن كلمة غيث تحمل معنىٰ الإغاثة وهي المعونة لمُعدم محروم : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (2) ، وهي التي توجب إجابة الدعاء : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (3) ، وهي التي تنزل بعدها الرحمة التي لا غنىً لعبد مهما كان عنها : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (4) .

5 ـ الجاهل هو فاعل الفعل علىٰ محمل الصواب مع الشك فيه ، وله توبة رحمة من التواب الرحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (5) ، وربما يكون مصدر هـٰذا الفعل هو الاضطراب بين الصواب والخطأ وهو ما يقع فيه الجاهل فيسيء التقدير : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ

(1) هود ، 3 .
(2) هود ، 52 .
(3) هود ، 61 .
(4) هود ، 90 .
(5) النساء ، 17 .

﴿ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (1) ، وهنا يأتي دور الخليفة الذي يجب عليه بعد التميز الدقيق أن يفسر بعض الأخطاء علىٰ أنها جهل من بعض العباد ، فيقبل توبتهم ويقوم بتعليمهم الصواب لكي لا يعودوا إلىٰ مثله فيكونوا من المصرين وهٰؤلاء لا توبة لهم .

6 ـ للكافر توبة ، يقول التواب : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (2) ، والمعنىٰ أن يتوب عليه منهم لحكمة والمراد يوفقه للإسلام والله غَفُورٌ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي ، ورحِيمٌ يتفضل عليهم ويثيبهم بلا وجوب عليه سبحانه (3) .

7 ـ للمشرك والزاني والقاتل وشاهد الزور توبة ، يقول التواب الرحيم : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ (4) .

الخالق خلق الإنسان عاقلاً بعقل ليميز به بين ما يجب وما لا يجب ، وبه يتدبر الأمر ، وبه يتفكر ويتذكر ، والهدف من ذلك التوبة والهداية ، ولهٰذا فالعقل هو الصلة بين العبد وربه ، ليتوب عليه وهو التواب الرحيم . وعليه أتساءل :

---

(1) البقرة ، 273 .
(2) التوبة ، 26ـ27 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 198 .
(4) الفرقان ، 68 ـ 71 .

1 ـ هل يمكن أن يؤمن الإنسان بإرادة لو لم يكن عاقلاً ؟

2 ـ هل يمكن أن يتدبر أمره لو لم يكن عاقلاً ؟

3 ـ هل يمكن أن يتذكر لو لم يكن عاقلاً ؟

4 ـ هل يمكن أن يتفكر لو لم يكن عاقلاً ؟

5 ـ هل يمكن أن يتوب لو لم يكن عاقلاً ومميزاً ؟

6 ـ هل يمكن أن يتضرع وهو ينتظر الإجابة من ربه لو لم يكن عاقلاً ؟

7 ـ هل يمكن أن يُطلب منه قصاص لو لم يكن عاقلاً ؟

8 ـ هل يمكن أن يطلب منه أن يعدل أو يحكم بعدل بين الناس لو لم يكن عاقلاً ؟

كل الإجابات بالطبع لا .

أ ـ لا يمكن أن يؤمن الإنسان لو لم يكن عاقلاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [2] .

ب ـ لا يمكن أن يتدبر الخليفة أمره لو لم يكن عاقلاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

(1) الحديد ، 8 ـ 9 .

(2) البقرة ، 44 .

لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [2] .

ج ـ لا يمكن للخليفة أن يتذكر لو لم يكن عاقلاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ [4] .

د ـ لا يمكن للإنسان أن يتفكر لو لم يكن عاقلاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

---

(1) النساء ، 82 ـ 83 .
(2) محمد ، 20 ـ 24 .
(3) الزمر ، 27 ـ 29 .
(4) الدخان ، 58 ـ 59 .
(5) الرعد ، 3 ـ 4 .

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1] .

هـ ـ لا يمكن أن يتوب الخليفة لو لم يكن عاقلاً ومميزاً ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] .

و ـ لا يمكن أن يتضرع الخليفة وهو ينتظر الإجابة من ربه لو لم يكن عاقلاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا

(1) الروم 20 ـ 24 .
(2) النساء ، 17 ـ 18 .
(3) المائدة ، 39 .

بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (1) .

ز ـ لا يمكن أن يطلب منه قصاص لو لم يكن عاقلاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (2) .

ح ـ لا يمكن أن يطلب منه أن يعدل أو يحكم بعدل بين الناس لو لم يكن عاقلاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (4) .

8 ـ للمتخلفين عن أمر ٱلله ورسوله : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (5) ، والآية تدلل علىٰ شمول التوبة لكل العباد بشرط الإخلاص في النية والعمل ، فحتىٰ الذين تخلفوا عن أعظم فرض (الجهاد) ، ومع أعظم

---

(1) الفرقان ، 68 ـ 77 .
(2) البقرة ، 178 ـ 179 .
(3) النساء ، 58 .
(4) المائدة ، 95 .
(5) التوبة ، 105 ـ 106 .

الخلق محمد ﷺ كانت لهم توبة من لدن تواب رحيم .

9 ـ للظالم : قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، والظلم من عظيم الذنوب لذا أوجب التواب أن يسبقه استغفار لتحصل التوبة علىٰ هـٰذا الفعل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (2) ، والخليفة لم يكن ليظلم ولـٰكن يجب عليه عدم السكوت علىٰ الظلم ، وأن يمنع الظالم من أن ينال من العباد إلىٰ أن يحقق العدل ، وهو بعد ذلك يجب عليه قبول توبة الظالم إذا عاد عن ظلمه بالمطلق .
فإذا كان ٱلله تواباً رحيماً فلماذا لا يكون عباده كذلك وهم يستمدون هـٰذه الصفة منه تواباً عظيماً ؟

10 ـ للمنافق : النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر ، وهـٰذا أمر يصعب علىٰ الإنسان تميزه لدىٰ الآخر لكونه من بواطن الأمور ، لـٰكن العليم الخبير الذي يعلم السر وأخفىٰ ويعلم كل شيء في السمـٰوات والأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (3) ، فهـٰؤلاء تبقىٰ توبتهم موقوفة علىٰ أمر ٱلله لا يعلم تحققها من عدمه إلا هو : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (4) .

11 ـ للمتذبذب بين الخير والشر : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا

(1) المائدة ، 39 .
(2) النساء ، 64 .
(3) التغابن ، 4 .
(4) الأحزاب ، 24 .

وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، ويواجه الخليفة في مهمته الكثير من هٰؤلاء وعليه أن يصبر عليهم ، وأن يدعوهم في كل حين إلىٰ الصواب ، وأن يعلمهم العمل الصالح الذي ينجيهم من السوء المهلك ، فإذا وعوا ما هم فيه وعادوا إلىٰ الحق وجب عليه قبول توبتهم ، وهو بعد ذلك مراقب لما هم فيه فإن عادوا إلىٰ السوء وجب عليه العودة إلىٰ العقاب . قال تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (2) .

هٰذه هي التوبة ، فما هي شروط التوبة ؟

أولاً : **النية** : تتعلق النية بأعمال الضمير التي تخفىٰ عن العباد ولا تخفىٰ عن خالق العباد جل جلاله ، وهي دليل علىٰ عدم المنافقة عندما تكون خالصة لوجه ٱلله تعالىٰ ، وصفاء النية صلة تربط التائب بمن تاب إليه ، فتصبح معلومة لاثنين فقط هما : التائب والمتوب إليه وهو ٱلله عز وجل ، وأما الآخرون ستظل استقراءاتهم استنتاجيه فقط . ولذا تعد النية مكمن الحقيقة تجاه الموضوع الإيماني أو أي موضوع آخر ، والنية دائماً تكمن في الصدور التي علم حقيقتها عند ٱلله جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (3) ، ولذا إن خلصت النية صفت القلوب ووضحت الرؤية واستقام الأمر ، وإن لم يتم ذلك يكون النفاق سيداً في ميادين التعامل بين الناس ، وحينها لا تجد المصادق مكاناً تستقر فيه . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ

(1) التوبة ، 102 .
(2) الإسراء ، 8 .
(3) آل عمران ، 154 .

يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) . ولأن النية هي مكمن الحقيقة جاءت العبادات بكاملها قائمة علىٰ هـٰذه الركيزة ، فالشهادة النية مع الإظهار ، والصلاة النية ثم الإظهار ، وهـٰكذا الحج النية شرطه الأساس ، والزكاة والصوم كذلك . ولهـٰذا قلنا : إن الظاهر هو ما ليس بكامن أو بباطن . فالظاهر هو :

ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعاً للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر . ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها ، وهـٰكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة ، والملاحظة والمحسوسة ، سواء كانت سلوكاً ، أو شكلاً ، أو كمّاً ، أو فعلاً ؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه ، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحاً ، بل معظم الظواهر تحتاج إلىٰ توضيح ، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية . والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن ، وبما ظهر عنه من أفعال ، أو أقوال ، أو إنتاج ، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل ، وهـٰكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن .

الظاهر هو الذي لا يعد مخفياً عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيِّناً للمعاملة والتعامل الموضوعي ، وهو الذي من وراء ظهوره غاية ، ما يجعله قابلاً للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية . الظاهر ما ليس بكامن ، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل ، فالنية ساكنة كامنة إلىٰ حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلىٰ الظهور في الفعل والسلوك . ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة

(1) الحج ، 46 .

وتصبح هي الأخرىٰ محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر .

وعليه ، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خيّر أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة . وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة للكامن ، ووسيلة للتعرف عليه . ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف علىٰ الكامن ، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر . ولهٰذا يتم التعرف علىٰ الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن . فالسلوك كظاهر ، قد يكون أمام المشاهد سوياً ، أو مثالاً أو فيه القدوة ، ولـٰكنه في الواقع ، قد يكون غير ذلك ، فالابن ، أو الابنة كما سبق أن أوضحنا كثيراً ما يكونان أمام أسرتهما ، وخاصة الوالدين ، علىٰ خلق والتزام وأدب ، ولـٰكنهما في حقيقة الأمر قد يكونان غير ذلك من ورائهما ، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية ، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية ، فإنهما قد يفوران رافضين وبغضب هـٰذا الادعاء ، مع أنه الحقيقة ، ولذلك الحكم بالظاهر علىٰ الظاهر قد لا يؤدي إلىٰ الصواب ، والظاهر قد يكون شكلاً وصورةً ، وقد يكون قولاً أو سلوكاً ، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعىٰ في تقصي الحقائق . في العلوم الطبية ، والتحليل النفسي ، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر ، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة ، أو التشخيص ، أو العلاج ، لأن الحكم علىٰ الظاهر بمشاهدته ووصفه ، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته ، قد لا يؤدي إلىٰ نتائج علمية ، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها ، والظاهر قد يكون مشاهداً ، وقد يكون محسوساً (ملموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض ، التي باللمس يتم التعرف عليها ، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة ، ولـٰكن الذي يود أن يعرفه الطبيب ، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها ، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي لمريض مصفر الوجه ، هل يتوجه هـٰؤلاء الأخصائيون إلىٰ معالجة الاصفرار

الظاهر ؟ أم إلىٰ البحث عما يكمن وراءه من علل ، وأسباب ؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشراً إلىٰ البحث عن كامن ، لأن الاصفرار مسبب ، وبما أنه مسبب ، إذاً لابد وأن تكون له أسباب ، ومسببون له ، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرىٰ ظاهرة بعد التعرف عليها ، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر ٱلله في الكبد ، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة ، وقد يكون السبب غير ظاهر ، كأن يكون سبب اصفرار الوجه الخوف من الامتحان ، أو من نتائج مترتبة علىٰ ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدان والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلىٰ الهلاك ، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها ، مثل الجندي في جبهة القتال ، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك ، دون أن يكون له رأي ، أو حتىٰ وجهة نظر في ذلك .

أما الكامن فهو :

الذي لم يبح به بعد برغم وجوده شاغلاً لحيز ، وهو المضمون الذي عليه الظاهر ، ولهٰذا فالمعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يهتم بالظاهر والكامن في التعرف علىٰ الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية .

الكامن ما ليس بظاهر ، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس . ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي : الكمون هو : أن تكمن بعض الأشياء في بعض . وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدوث الاستجابة .

ولذا فإن الكمون هو مكمن كل حقيقة ، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة ، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزاً لا تراه العينان ولٰكن يدركه كل عقل ناضج سليم . وهٰكذا تكمن الأسرار في الصدور حتىٰ يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة [1] .

---

(1) عقيل حسين عقيل ، المفاهيم العلمية (دراسة في فلسفة التحليل) ص 231 .

والكامن في حاجة للاستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جُهدٍ ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان ، ولهٰذا لا ينبغي أن يغفل الخليفة في حال توليه المسؤولية عمّا يرد من فلتات اللسان ، مع الملاحظة والمشاهدة الواعية واتقاء ٱلله في كل كبيرة وصغيرة حتىٰ لا يظلم أحداً .

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف علىٰ جوهره ، علىٰ أسراره وخفاياه ، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته ، وعليه فدراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاتها ، بل الغاية فيما وراءها . ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف علىٰ البصمة ، بل الغاية معرفة صاحبها أولاً ، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانياً ، وثالثاً معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلىٰ ارتكابه ، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث . وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ ، يكون كامناً في الشيء ذاته . وليس معنىٰ ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد ، فكثير من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها ، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها ، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة ، ولم يتم القبض عليه ، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة ، وكأنه لم يكن سارقاً ، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية تم القبض عليه ، فكان هو السارق .

إذاً الإنسان كظاهر يكمن في بصماته ، كما يكمن المطر في السُّحب ، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون ، وهٰكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبلة في البذرة .

وبناء علىٰ ذلك قد يكون الكامن مشاهداً ، وقد لا يكون كذلك . وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها ، والمجتمع في حشوده . ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع ، لا يمكن أن تشاهد ، ولٰكنها تُلحظ ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يرىٰ (يشاهد) الزواج ؟

لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة ، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) علىٰ موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعىٰ الناس إليه . إذاً الذي تتم مشاهدته ، هو الزوجان الذكر والأنثىٰ ، والعقد المكتوب بينهما علىٰ ورق ، والناس الذين حضروا لأجل ذلك ، وهـٰذا كله لم يكن الزواج ، بل هـٰذه مراسم الزواج . الزواج توادد ، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلىٰ التباس بعضهما ، حباً واشتياقاً وفق اتفاق علىٰ مستقبل مشترك ، يجعل الآخرين شاهدين علىٰ ذلك بأنه الحق ، ومحرضين عليه . إذاً الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة ، وذكر وأنثىٰ ، وهـٰذه تُلحظ ، ولا تشاهد بالعينين . والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ ، ولا يشاهد ، وهـٰكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما ، ولا يخضعان للمشاهدة ، لأن الذي يشاهد هم الأفراد ، كباراً وصغاراً ، ذكوراً وإناثاً ، وحشوداً من البشر ، وهـٰؤلاء لم يكونوا هم الأسرة ، ولا المجتمع ، مع أنهم عناصر تكوينهما ، فبدون علاقات مشتركة ذات معنىً لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنىً للأسرة ، أو المجتمع ، ولهـٰذا تتكون معارفنا من ظاهر وكامن وتوحُّد بينهما . فنحن نعرف الأبوة ، والأمومة ، والأخوة ، ونعرف الخال والجد ، ونعرف أيضاً أن هـٰذه المفاهيم جميعها لا تشاهد ، لأنها كامنة ومترتبة علىٰ علاقات يمكن ملاحظتها .

هـٰكذا النية تكمن خلف كل ظاهر من القول أو العمل أو السلوك أو الفعل ، ولا وجود لصدق إلا بالنية التي لا يعلمها إلا صاحبها والله عز وجل ، ولذا يقال إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوىٰ .

الكامن ، غير متيسر للمشاهدة مع أنه يشغل حيّزاً وقابلٌ للظهور : وهـٰكذا النية تشغل حيزاً ولا تقبل المشاهدة ، إنها ذات علاقة بالضمير الذي يَكِنُّ في الصدور ، ولأن النية كامن والكامن غير متيسر للمشاهدة برغم أنه يشغل حيزاً ، إلا أنه السابق علىٰ القول والفعل . فلو لم يكن الكامن ما كان

الظاهر ، الفكرة أولاً وإظهارها والعمل بها ثانياً .

ولهـٰذا فالكمون هو الأصل (النية هي الأصل) ، حيث تكمن الأعمال في النيات ، كما النخلة في النواة .

لذا : الظاهر هو النواة ، والكامن هو النخلة . مثلما الزيت هو الكامن وثمرة الزيتون هي الظاهرة .

وعليه كل كامن قابل للظهور كلما توفرت اشتراطاته . وقابل للاستقراء والاستنباط كلما لوحظت ردود أفعاله ، وقابل للإثبات والمقارنة كلما تلمسنا الأثر وشاهدناه .

ولهـٰذا فالقاعدة هي :

1 ـ الكامن غير متيسر لمشاهدة .

2 ـ الكامن يشغل حيزاً .

3 ـ الكامن قابل للظهور كلما توفرت معطياته .

والاستثناء هو :

1 ـ تيسر الكامن للمشاهدة .

2 ـ أن لا يشغل الكامن حيزاً .

3 ـ انعدام قابلية الكامن للظهور .

وعليه :

1 ـ يسِّر الأمر تُيسَّر لك الأمور .

2 ـ يسِّر يتم تقبلك .

3 ـ يسِّر تُغرس الثقة فيك .

4 ـ يسِّر يتم الاعتراف بك .

ولهـٰذا فالتيسير يُمكِّن من الآتي :

ـ التيسير يُمكِّن من نيل الاعتراف .

ـ التيسير يُمكِّن من غرس الثقة .

ـ التيسير يُمكِّن من إنجاز الأهداف .

ـ التيسير يُمكِّن من المشاركة والتفاعل .

ـ التيسير يُمكِّن من التقبل المتبادل .

ـ التيسير يُمكِّن من بلوغ الأغراض والغايات .

ـ التيسر يُمكِّن من إحداث النقلة .

اعرف الكامن تعرف الحقيقة في النية :

وبما أنه لا يمكن أن تعرف الحقيقة إذا لم تعرف الكامن من أمرها .

وبما أن الفعل والسلوك ظاهران والحقيقة موضوع احتمال (في حالة شك) إذاً قد تُرتكب الأفعال والسلوكيات وهي لا تحمل أو تُجسِّد حقائق (بلا مصادق) ولهـٰذا فلا يغرّك الظاهر .

إذاً الظاهر قد يُغرر بمن يضع الثقة فيه .

وعليه :

ـ تأكد قبل أن تقدِم .

ـ تبّين قبل أن تتخذ قراراً .

ـ خطط قبل أن تعمل .

ـ فكر حتىٰ تعرف .

ـ لا تتسرع فالتسرع مصيدة .

- تأنَّ فكل شيء ممكن .
- تحقق بمقارنة .
- دقق بملاحظة .
- استنبط بفطنة .
- حلل بمنهج .
- ابحث بطريقة ووسيلة وأسلوب .
- شك حتىٰ ترىٰ الحقيقة بين يديك .

ولأجل أن يُسهم الخليفة في غرس الثقة ، ويُسهم في إحداث النقلة ، وفي صناعة المستقبل المفيد والنافع ، عليه بمراعاة الآتي :

- التقصي والتتبع الدقيقين .
- الوقوف عند كل ردة فعل .
- تقييم السالب وتقويمه .
- اعتماد الموجب وعرضه .
- تحديد الأهداف بكل وضوح .
- الإصرار و إن واجهته الصعاب .
- تنفيذ الأهم قبل المهم .

الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة والكامن من ورائه ساكن :

كل خاضع للمشاهدة أو الملاحظة هو ظاهر ، قولاً كان أم فعلاً أم سلوكاً أم أثراً . وكل ما خُفي عن ذلك في حيز الوجود هو كامن كمثل كمون النية في الحقيقة . فعندما تكون الفرحة ظاهرة علىٰ السطح ، يكون الحزن فينا كامناً ، وعندما تتوفر اشتراطاته أو معطياته يفور من حينه ليعلن : أنه قوة قادرة علىٰ

مداهمة واختراق كل الحواجز التي سترته قبل الظهور .

الحواس هي المُمكِّنة من الإدراك العقلي لكل ما هو ظاهر وما هو كامن ، وحيث ما يكون الظاهر في الصدارة متحركاً يكون الكامن من ورائه ساكناً ، وقد يتماثل الظاهر مع الكامن وقد لا يتماثل ، فعندما يكون القول كاذباً بطبيعة الحال يكون مخالفاً للحقيقة . وعندما يكون صادقاً يصبح مماثلاً لها ، وهٰكذا في كل أمر . وعندما تُترجم الأقوال الظاهرة في سلوكيات وأفعال تمر شخصية الإنسان حسب مواقفها من الحقيقة بخمسة مستويات قيمية هي :

1 ـ الاتزان الانفعالي لا سالب ولا موجب (ذاتية حيث التمركز علىٰ قيم المجتمع) .

2 ـ الميل لأخذ المواقف السالبة (الميل إلىٰ ما لا يُرضي الآخرين ، حيث الانسحاب من بعض القيم الاجتماعية) .

3 ـ بلوغ قمة المواقف السالبة (الشخصانية حيث ظهور السلوك الأناني والتفكير في الأنا فقط) .

4 ـ الميل لأخذ المواقف الموجبة (التطلّع لكل مُرْضٍ حيث المنطق والحُجة) .

5 ـ بلوغ قمة المواقف الموجبة (الموضوعية حيث العقل سيد الميدان مع الرقي في حُسن التصرف) .

وبناء علىٰ ما سبق فإن القاعدة هي :

1 ـ الظاهر يُشاهد .

2 ـ الظاهر يُلحظ .

3 ـ الكامن ساكن .

4 ـ وراء كل ظاهر كامن .

والاستثناء هو :

1 ـ انعدام مشاهدة الظاهر .

2 ـ انعدام ملاحظة الظاهر .

3 ـ انعدام سكون الكامن .

4 ـ أن لا يكون وراء الظاهر كامن .

الظاهر مُثبت بالقول والفعل والسلوك والأثر :

بما أن الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة ، ومثبت بالفعل والسلوك ويترك أثراً .

إذاً فهو قابل للنفي والإثبات .

ولذا فالقاعدة هي :

1 ـ الظاهر مُثبت بالقول .

2 ـ الظاهر مُثبت بالفعل .

3 ـ الظاهر مُثبت بالسلوك .

4 ـ الظاهر مُثبت بالأثر .

والاستثناء هو :

1 ـ الظاهر لا يُثبته القول .

2 ـ الظاهر لا يُثبته الفعل .

3 ـ الظاهر لا يُثبته السلوك .

4 ـ الظاهر لا يُثبته الأثر .

ولذا ، فالقواعد تُثبت وجود قضايا ، والاستثناءات تنفي وجودها . ومع

ذلك تخضع أدلة الإثبات إلىٰ التقويم في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) .

ولهـٰذا ليس كل فعل أو سلوك يُحثّ أو يُحرّض عليه فهناك البعض السلوكي يُنهىٰ عن ارتكابه ، وهناك المحرم منه ، حيث لا يُحرِّض عاقل علىٰ فعل مُشين ، ولا يُحرِّض خليفة علىٰ محرم أو منهي عنه ، إنه المتقي لله في كل قول ، وبما أنه لا يتم التحريض من قبل عاقل علىٰ كل فعل أو سلوك لا يليق بالخلق .

إذاً الانتباه إلىٰ القواعد هو الأساس في التمييز بين ما يجب وما لا يجب . فالقاعدة تتمركز علىٰ التبيّن . والاستثناء يتمركز علىٰ الغموض .

وعليه :

- تبيّن قبل أن تقدم .
- تبيّن قبل أن تَنسحب .
- تبيّن قبل أن تَفعل .
- تبيّن قبل أن تَسلُك .
- تبيّن قبل أن تحكُم .
- تبيّن لتقف علىٰ اليقين .

يخرج الظاهر من الكامن :

يتداخل الظاهر مع الكامن في علائق قيمية وترابط متين مثلما يتداخل المتوقع وغير المتوقع في دائرة الممكن . وعليه يكون الإيمان سابقاً علىٰ السلوك والفعل المترتب عليه ، كما تسبق الخيانة أو الردة السلوك أو الفعل الذي يرتكبه الخائن أو المرتد .

ولأن علاقة قوية تربط دائرة الظاهر والكامن ، بدائرة المتوقع وغير

المتوقع ، لذا فبالضرورة أن يكون في دائرتيهما ما هو محتمل بالسالب وما هو محتمل بالموجب .

ولذلك فعلىٰ الخليفة أن يضع في حسبانه واحتمالاته ظهور السالب والموجب المتوقع ، وأن يضع في حسبانه أيضاً ظهور السالب والموجب غير المتوقع . وفي مقابل ذلك يتوقع الكامن السالب والكامن الموجب ، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب .

وعليه إذا لم يضع في حسبانه واحتمالاته كل ذلك سيفاجأ بما هو غير متوقع وبالتالي لن يتمكن من ترسيخ القيم والفضائل التي تجعل من البشر خلائف في الأرض مصلحين غير مفسدين ولا سافكي دماء بغير حق ، ولذا :

ـ في حالة التماثل العلائقي ، يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب .

ـ في حالة عدم التماثل العلائقي ، يختلف الفعل السالب مع الكامن الموجب .

ـ في حالة عدم التماثل العلائقي ، يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب .

الثقة في حالة اهتزاز بين كامن وظاهر :

الثقة قيمة أخلاقية تُغرس في من يستطيع حملها ، وتُنزع ممن لا يستطيع . ومع أنها لا تُغرس بقرار ، إلا أنها قد تنزع به . غرسها يحتاج إلىٰ زمن ومعطيات مرضية وقبول إرادي ، أما نزعها فمترتب علىٰ فعل أو سلوك سالب أو مجموعة أفعال سلبية ، مرتكبة عن وعي وقصد .

ولهٰذا يتضح اهتزاز الثقة وثباتها في الآتي :

قول موجب + فعل سالب . لا يؤدي إلىٰ غرس الثقة .

قول سالب + فعل موجب . لا يؤدي إلىٰ غرس الثقة .

نية صادقة + قول صادق + فعل صادق = حقيقة نافعة . تؤدي إلىٰ غرس الثقة .

نية كاذبة + قول صادق (ظاهرياً) لا يساوي حقيقة .

بلا شك هناك علاقة موجبة أو سالبة تربط الظاهر بالكامن .

في حالة التماثل العلائقي يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي لا يتماثل الفعل السالب مع الكامن الموجب .

في حالة عدم التماثل العلائقي يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب .

وعليه أينما يكمن السالب يكمن الضعف فيه .

وأينما يكمن الموجب أو يظهر تكمن القوة فيه .

يستقرأ الكامن من الفعل الظاهر :

اللسان ينطق يتكلم وقد يقسم لك بما يعتقد أنه مُمَكِّن لك من تصديقه ، ومع ذلك قد لا يكون صادقاً .

المزوّر أو الخائف قد يُظهر لك الوثوق وعدم الخوف في نفسه ، ومع ذلك بالملاحظة ينكشف سره أو أمره .

وعليه لحن القول علامة تستوجب أخذ الحيطة من الذي يَلحَنُ في قوله .

عدم الثبات أثناء الحديث الموضوعي يستوجب وضع علامة الشك علىٰ صاحبه .

جفاف الحلق ، واصفرار الوجه ، وتصبب العرق ، وعدم السيطرة علىٰ

حركة اليدين (ارتعاشهما) أثناء المواجهة التقييمية أو الاختبارية لما هو كائن ، هي علامات دالة علىٰ الخوف والارتباك في اتخاذ المواقف والتردد عنها . ولذا فهي تتأرجح بين المتوقع حيناً وبين غير المتوقع حيناً آخر .

ولذا فالقضايا الصادقة ذات الحقائق الظاهرة تُمكِّن من الآتي :

1 ـ نيل الاعتراف .

2 ـ غرس الثقة .

3 ـ إنجاز الأهداف .

4 ـ المشاركة الفعّالة .

5 ـ التقبل المتبادل .

6 ـ بلوغ الأغراض والغايات .

ثانياً : الإدراك عن وعي : يعد الإدراك شرطاً من شروط التوبة ، وإلا هل يظن بأن يتوب الإنسان وهو لا يدرك الأمر الذي به يؤمن ؟ . الإدراك استيعاب عن وعي ، وهو قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة ، كما يرتبط التاريخ بالعبر . النظر فيها لا يُغض بين الأنا والآخر ، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرِّق بين المرْء وزوجه . ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها لا يُغيِّب أنا آخر ، ولا يسعىٰ لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدىٰ ومسؤوليات يتم تحملها .

الاعتبار مكانة تُعطىٰ لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية أو دينية إيمانية . فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفىٰ أبداً ، ولذا فهي تُقدّر . والقاعدة تقول : اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك .

ثالثاً : **التفهم** : التفهم إلمام بالموضوع والظروف المحيطة به والمعطيات التي أظهرته علىٰ السطح أو أنتجته بين الأيدي ، وهو دراية عن كثب ومعرفة تامة بأسبابه وعلله ومبرراته وخفاياه المؤلمة والمفرحة السالبة والموجبة .

إنه تقدير للظروف التي أثرت في الحالة أو أثرت علىٰ السلوك والفعل ، وهو دراية بما ينبغي أن يتم حيالها ، وكيف ومتىٰ وأين يتم ؟

التفهم قيمة تقديرية يُقدِّر فيها الأنا الآخر . ويفسح له مجالاً واسعاً يسمح له بالحركة والامتداد الحر ، وباعتماد التفهُّم قيمة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تقدّر ظروف كل خصوصية وتحترمها مما يؤدي إلىٰ تفعيل مبدأ التقبل الذي يترتب عليه تأثير وتأثر موجب ، وتخفيف للآلام وعلىٰ ضوئه يتحقق التوافق الاجتماعي . ولذا فالتفهم لا يتم إلا بالتبيُّن الذي هو مأمور به في القرآن الكريم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1] .

ولأن التفهم قيمة ذات فضائل محببة بين المستخلفين فيها لذا لا إكراه في الدين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

رابعاً : **الاعتبار** : الاعتبار فيه الانتباه وأخذ العبر مما سبق وهو مفيد لأن يوضع في الحسبان في الوقت الحاضر والمستقبل فيكون للخليفة نصب

---

(1) النساء ، 94 .

(2) البقرة ، 256 .

العينين ، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، فلا تغرنَّك أيها الخليفة بالله الغرور ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [1] . والخليفة المعتبر هو الذي ينال التقدير والاحترام من الآخرين عندما يكون قدوة لهم في القول الحق والفعل الحق ، ولهـٰذا كان جميع الأنبياء والرسل قدوة حسنة في شعوبهم وبلدانهم وقراهم وأممهم وكان محمد عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة للكافة ، فمن اقتدىٰ بسنَّة محمد كان معتبراً ومن لم يقتدِ بعد هو في حاجة لمن يهديه للحق ، وهـٰذه رسالة الخليفة فلا ينبغي أن يتأخر عنها بالتي هي أحسن . قال تعالىٰ : ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [3] .

خامساً : التوفيق للتوبة : قال تعالىٰ : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [4] . وقد وفق التواب آدم إلىٰ التوبة بأن تلقىٰ آدم من ربه كلمات ، الكلمات : اللهُمَّ لا إلـٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين ، اللهُمَّ لا إلـٰه

---

(1) الحشر ، 2 .
(2) الإسراء ، 53 ـ 54 .
(3) المؤمنون ، 96 ـ 99 .
(4) البقرة ، 36 ـ 37 .

إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربي إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين . اللهُمَّ لا إلـٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربّ إني ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » [1] .

سادساً : **الترك المطلق للفعل** : وهو أبلغ وجوه الاعتذار ، فإن الاعتذار علىٰ ثلاثة أوجه : إما أن يقول المعتذر : لم أفعل ، أو يقول : فعلت لأجل كذا ، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت ، وهـٰذا الأخير هو التوبة ، والتوبة في الشرع : ترك الذنب لقبحه والندم علىٰ ما فرط منه ، والعزيمة علىٰ ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة . قال تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [2] .

والتواب من العباد هو العبد الكثير التوبة ، وذلك بتركه كل الوقت بعض الذنوب علىٰ الترتيب حتىٰ يصير تاركاً لجميعه ، وقوله : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [3] ، أي : التوبة التامة ، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل [4] .

سابعاً : **الإنابة إلىٰ ٱلله** : فالتوبة إلىٰ ٱلله ، تقتضي الإنابة . نحو : ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [5] ، ونحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [6] ، حيث يشعر العبد أن لا أحد يستطيع إنقاذه مما وقع منه من عمل إلا التواب فيعود إليه : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ

(1) تفسير الطبري ، ج 1 ، ص 545 .
(2) الرعد 30 .
(3) الفرقان ، 71 .
(4) مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، ج 1 ، ص 149 .
(5) البقرة ، 54 .
(6) النور ، 31 .

عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

ثامناً : التصدق : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، فليس المراد من الصدقة ، الصدقة المفروضة أعني الزكاة لكونها مأموراً بها وإنما هي علىٰ ما قيل كفارة لذنوبهم حسبما ينبي عنه قوله عز وجل تُطَهِّرُهُمْ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلف . تُطَهِّرُهُمْ بمعنىٰ طهره ، وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا أي وأنت تزكيهم بها فتنمي بتلك الصدقة حسناتهم وأموالهم أو تبالغ في تطهيرهم ، وكون المراد ترفع منازلهم من منازل المنافقين إلىٰ منازل الأبرار المخلصين ظاهر في أن القوم كانوا منافقين ، وبِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ أي ادع لهم واستغفر (3) .

وكما للتوبة شروط فإن لها موانع ، ومن أهم موانعها الإصرار ، وهو أنواع ، كالإصرار علىٰ الكفر ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (4) ، واضح من سياق الآية أن الكلام فيها يخص نوعين من العباد ، نوع لم يصر فكانت له توبة ، والآخر أصر علىٰ الكفر فليس له إلا العذاب الأليم .

(1) التوبة ، 118 .
(2) التوبة ، 102 ـ 104 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 351 .
(4) البقرة ، 160 ـ 163 .

ومن موانعها التأخير ، وهو وجه من وجوه التهاون والإهمال في طاعة التواب الرحيم فقابله بمثله : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (1) .

والإشراك بالله من موانع التوبة : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) .

والنفاق من موانعها أيضاً : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (3) ، ويقترن النفاق بالعقيدة إذ أن هـٰذا التردد بين التوبة وعدمها من خلال العودة إلىٰ الذنوب السالفة مرده فساد الاعتقاد عند العبد ، فتراه يظن بالله ظناً لا يليق بجلاله : ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (4) ، بينما يذهب بعض فُساد العقيدة إلىٰ نفي الوجود ، فلا جنة في اعتقادهم ولا نار وإنما هي الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

---

(1) النساء ، 18 .

(2) المائدة ، 73 ـ 74 .

(3) التوبة ، 125 ـ 126 .

(4) آل عمران ، 154 .

يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [(1)] ، ودور الخليفة يكمن في مراقبة العقائد من حوله والأخذ على الفاسد منها بالحسنىٰ أولاً : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [(2)] ، ومناصرة عقيدة الحق عقيدة التوحيد والإخلاص لله وحده .

من ذلك كله يجب أن يفهم الخليفة أن من مهماته أن يقبل التوبة ، وأن يشيع التسامح ، وأن لا يميز قريب بالقبول ، ويحرم بعيد بالرفض بل يكون عادلاً في النظرة إلىٰ العباد فيساوي بينهم إلا بالعمل الصالح لأن التواب الذي استخلفه يقول : ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [(3)] .

اللهُمَّ إننا نعلم يقيناً أنك أنت التواب الرحيم ، فنستغفرك من كل ذنب وغفلة أنت لا ترضاها لعبادك الصالحين ، ونتوب إليك ، بك آمنا رباً واحداً أحداً لا شريك لك في الملك ولا في أي شيء مما يذكر أو يعد أو يسمىٰ ، عليك توكلنا فلا تجعلنا من الخائبين ، وأولينا أمرنا إليك فتقبله يا تواب رعاية وعناية وحفظاً وسلامة ، والحمد لله عليك توكلنا !

اللهُمَّ يا التواب اقبل توبتنا واجعلنا من التائبين ، وطهر نفوسنا من الرياء وطهر قلوبنا من النفاق ، وألسنتنا من الكذب ، وجوارحنا من المعاصي ، اللهُمَّ وفقنا للتوبة إليك فاجعل لكل ذنب توبة ولكل توبة مغفرة ورحمة ، وتب علينا فأنت التواب الرحيم ، واجعل أعمالنا وصلاتنا وسلامنا علىٰ محمد طمأنة للقلوب ومغفرة للذنوب وسترة عن ارتكاب الخطايا والعيوب ، ويسر لنا عمل

---

(1) الجاثية ، 24 .
(2) النحل ، 125 .
(3) غافر ، 58 .

الخير في الغيب والشهادة ، وارض عنا وتب علينا واقبلنا يا تواب !

اللهُمَّ طهرنا من الذنوب إنك أنت التواب الرحيم ، واجعل لنا مع كل شروق توبة ومع كل غروب توبة وتب علينا بنومٍ سباتٍ وليل لباسٍ ونهارٍ معاشٍ ، واملأ قلوبنا بفرحة مغفرتك لذنوبنا !

اللهُمَّ لا تغلق باب رحمتك ومغفرتك في وجهنا فإنه لا سبيل للنجاة إلا برضاك عنا وقبولك توبتنا ، وبدل يا التواب سيئاتنا حسنات إنك سميع مجيب الدعاء يا ٱلله !

✍ ✍ ✍